2020
1.1.2019

إميل زولا

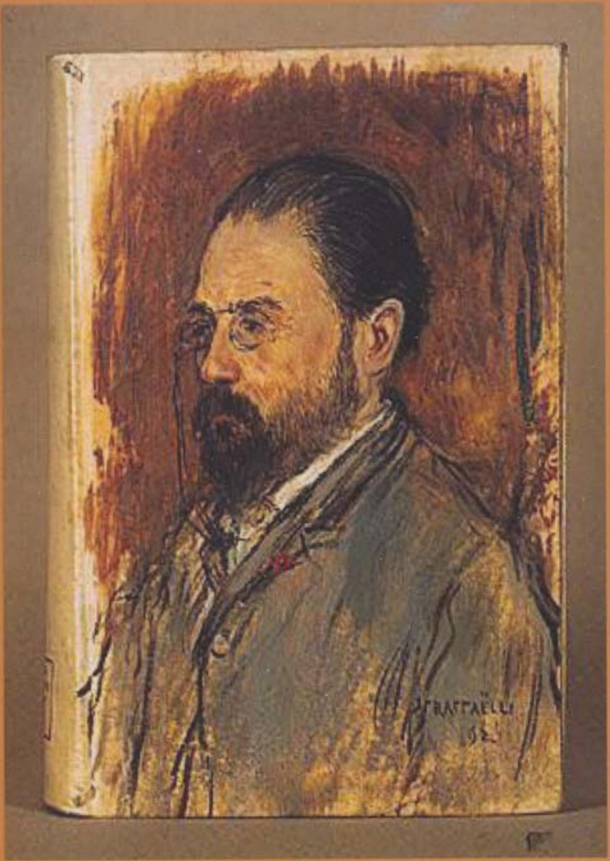

بطن باريس

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

ياسر عبد اللّطيف

كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

إميل زولا

بطن باريس

روايــة

ترجمها عن الفرنسيّة

ياسر عبد اللطيف

مراجعة

كاظم جهاد

© دائرة الثقافة والسياحة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2518 .A1125 1883 no. 3. 2019
Zola, Émile, 1840- 1902
بطن باريس: رواية / تأليف إميل زولا ؛ ترجمة ياسر عبد اللطيف ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2019.
396 ص.؛ 21 سم.
ترجمة كتاب: Le Ventre de Paris
تدمك: 3-182-37-9948-978
1ـ القصص الفرنسية– القرن 19. أ– عبد اللطيف، ياسر. ب– جهاد، كاظم. ج– العنوان.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسيّ:
Émile Zola
Le Ventre de Paris

(صورة الغلاف: إميل زولا بريشة الرسّام جان فرانسوا رفائيلي، 1877)

www.kalima.ae
ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

عام التسامح
YEAR OF TOLERANCE

Abu Dhabi
Culture & Tourism للثقافة والسياحة

إن دائرة الثقافة والسياحة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدائرة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

بطن باريس

رواية

مقدمة المُراجِع

بين روايات رائد المدرسة الطبيعيّة في الأدب الفرنسيّ، إميل زولا Émile Zola (1840-1902)، تشغل الرواية المترجمة ههنا مكانة أساسيّة. فيها تجتمع المساعي الكبرى للكاتب، وفي أوّلها رصد الواقع السياسيّ والاجتماعيّ، وفي الأوان ذاته إخراج الكتابة من مطبّات التناول الواقعيّ المباشر.

في هذا العمل يرصد زولا بتفصيل مفعم بالشاعرية مجريات الحياة اليوميّة وطبيعة العلاقات المهنية والإنسانية بعامّة في أسواق «ليهال»Les Halles لبيع اللّحوم والأسماك والفواكه والخضار التي كانت، منذ نهايات القرن الثامن عشر، تحتلّ قلب العاصمة الفرنسيّة بعدما تنقّلت على مرّ العهود بين عدّة أحياء. وبالرغم من نقلها في بدايات العقد السبعينيّ من القرن العشرين إلى ضاحية رانجيس Rungis الباريسية وإخلائها المكان لمشهد عمرانيّ جديد بقي يحمل الاسم ذاته، معمور بحدائق ومحالّ تجارية ضخمة لبيع الأزياء بخاصّة، ما برحت هذه الأسواق تحتلّ في وجدان مَن عاصروها وفي المخيال الشعبيّ والأدبيّ الفرنسيّ مكانة معتبرة. سمّاها الروائيّ في عنوان عمله هذا

«بطن باريس» بالمعنى الحرفيّ للكلمة، لأنّه كان يرى فيها بطن المدينة، معدتها الهاضمة ومحور وجودها الفيزيائيّ، الذي يتحكّم بمشاعرها وتشوّفاتها ويخطّ صراعات البشر والأهواء في مسرحها العريض المتشعّب. من هنا الوفاء في ترجمة العنوان لهذه الدلالة، تفضيلاً لها على عناوين أخرى قد تكون أقلّ مباشرةً في العربيّة، من قبيل «جوف باريس» أو «أحشاء باريس»، وسواهما.

مسار كتابة

وُلد إميل زولا في إكس أون بروفنس Aix-en-Provence في جنوب فرنسا في الثّاني من أبريل 1840 لأب إيطالي (من البندقيّة) كان مهندساً وتوفّي في 1847 تاركاً أسرته في عوز ماليّ[1]. نعتَ الكاتب سنوات دراسته الابتدائيّة بـ«سنوات الدّموع»، وقد وجد أثناءها في صداقة الرّسّام بول سيزان Paul Cézanne عوناً إخائيّاً وثقافيّاً كبيراً. انتقل إلى باريس في سنّ العشرين، وبدأ بكتابة محاولات شعريّة، ثمّ اشتغل في 1862 في منشورات هاشيت Hachette الفرنسيّة، وسرعان ما أصبح مدير قسم الاتّصالات الصّحافيّة فيها. هذا ما دفعه إلى كتابة مقالات في الجرائد، قبل أن يندفع في مغامرة الكتابة الأدبيّة. عمله النّثريّ الأوّل **حكايا إلى نينون** *Contes à Ninon* (1864) هو أشبه ما يكون بخواطر وتعاليم تدعو إلى الرّأفة والحكمة، ويطغى عليه تأثير الرّومنطيقيّة. في كتابه التّالي **اعترافات كلود** *Les Confessions de Claude* (1865) نجده مشدوداً من جهة إلى بدايات الرومنطيقيّة، حيث الحاجة إلى الحلم، ومن جهة ثانية إلى معرفته بأنّ الحياة تفرض «هذه الحاجة إلى معانقة الواقع». ومنذ ذلك

---

(1) نفيد في هذا العرض الموجز لسيرة الكاتب من الفصل الطويل المخصّص لزولا في الجزء الثامن من تاريخ الأدب الفرنسيّ، كتبه ميشيل ديكودان ودانيال لوويرس:
Histoire de la littérature française, De Zola à Guillaume Apollinaire, 1869-1920, par Michel Décaudin et Daniel Leuwers, GF Flammarion, 1986, nouvelle édition révisée 1996.

الحين أصبح شديد الوفاء إلى الخيار الثّاني. ومنذ 1867، في روايته **تيريز راكان** *Thérèse Raquin*، طرح أسس ما شكّل بعد فترةٍ التيّار الطّبيعيّ في الرّواية الفرنسيّة، متجاوزاً الواقعيّة المحضة التي تكتفي بالرّصد ولا تمضي إلى ما هو أبعد من المظاهر والمعاينات الأولى للأفعال. فالكاتب الشّاب أصبح يرى أنّ «الضّرورات البيولوجيّة هي التي تحرّك الأفراد، والمصير إن هو إلاّ ثمرة طبعنا العميق واندفاعاتنا المتعذّرة على الكبح». وفي الاتّجاه ذاته ذهبت روايته التالية **مادلين فيرا** *Madeleine Férat* (1868).

مع صدور هذه الرواية بدأت تختمر في ذهنه فكرة إنشاء عمل ضخم يضارع في امتداده سلسلة بلزاك الروائيّة **الكوميديا الإنسانيّة** *La Comédie humaine*. يتمثّل هذا المشروع في رسم لوحة واسعة للمجتمع المعاصر تحلّ فيها فكرة الوراثة (وراثة الطّبائع والغرائز وردود الأفعال) محلّ فكرة القدر القديمة. منذ 1868 ارتسم في ذهنه تصميم هذا العمل الذي منحه العنوان الجامع **آل روغون ماكار** *Les Rougon Macquart*. بدأ بكتابته في 1870 وتقدّم في إنجازه بمعدّل رواية كلّ عام. وبانتهاء المجلّد العشرين في 1893، أي بعد 25 سنة من العمل الدّؤوب، شكّلت السلسلة، حسب عنوانها الثّانويّ، «تاريخاً طبيعيّاً واجتماعيّاً لأسرة [فرنسيّة] إبّان العهد الإمبراطوري الثّاني».

عبر خمسة أجيال متتالية تتبّع زولا ما سمّاه «العمل الخفيّ الذي يمنح لذريّة أب واحدٍ أهواء وطبائع مختلفة تبعاً لتقاطعات أنماط عيش مختلفة». بيد أنّ كلّاً من روايات السلسلة تتمتّع باستقلالها وبإمكان قراءتها منفردة، مع وجود وشائج متينة تشدّ أجزاء المجموع، منها ظهور شخصيّات معيّنة بشكلٍ جنينيّ في عملٍ ما ونموّها في عملٍ لاحق، فتكون ثانويّة في العمل الأوّل، ثمّ (قد) تصبح أساسيّة في العمل اللّاحق. كذلك هي مثلاً حال إلزا كونو وابنتها بولين، والرّسّام كلود، الذين نقابلهم في رواية **بطن باريس**

(1873) هذه، والذين يكتسبون في روايات لاحقة حضوراً أقوى. بيد أنّ رواية تالية في السّلسلة نفسها هي الحانة *L'Assommoir* (1877) هي التي فرضت شهرة زولا و«سطوته» الأدبيّة. فيها يصف الانحدار المحتوم لعائلة عمّاليّة في «وسط الضّواحي الموبوء». وفي تقديمه لهذا العمل ذكر أنّها «الرّواية الأولى عن الشّعب» وأنّها كان لها السّبق في «صهر لغة العامَة في قالبٍ مشغول بعناية». هكذا مهّد الطّريق لكتّاب القرن العشرين الشّديدي الانتباه للبُعد المحكيّ للكتابة ولضرورته في لغة الرواية.

بعد الانتهاء من روايات سلسلته العشرين هذه، كتب زولا ثلاثيّة المدن: لورد *Lourdes* (1894) وروما *Roma* (1896) وباريس *Paris* (1898)، ثمّ الأناجيل الأربعة *Les Quatre Évangiles* (عمل لم يكتمل، وكان قد بدأ كتابته في 1899). بيد أنّ سنيّه الأخيرة تميّزت بانخراطه الشّجاع في قضيّة دريفوس الشّهيرة. ففي رسالة مفتوحة إلى رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة حملت عنوان إنّي أتّهم *J'accuse* (1898)، أدان زولا المحكمة العسكريّة الفرنسيّة لاتّهامها الضّابط دريفوس بالخيانة العُظمى ونفيها له إلى غويانا الفرنسيّة بباعثٍ من أصوله اليهوديّة. وتقف هذه الرّسالة – البيان وراء إعادة المحاكمة وتبرئة دريفوس وردّ الاعتبار إليه. ولكنّ الكاتب تعرّض قبل ذلك إلى ملاحقات من القضاء واليمين الفرنسيّين وتلقّى حكماً بالسّجن اضطرّه إلى الهرب والعيش منفيّاً في لندن عاماً كاملاً حتّى أُعفيَ عنه. وبعد عودته بسنوات قليلة توفّي في ليلة 28–29 ديسمبر 1902 في اختناقٍ مشبوه سببه تسرّب الغاز في منزله، وهو ما يُعزى إلى قيام بعض خصومه في قضيّة دريفوس بسدّ مدخنة شقّته الصّغيرة في باريس.

طبيعيّة زولا

في نشوة نجاح رواية الحانة، أعلن زولا عن تصوّره للرواية الطبيعيّة وعرّفها بأنّها «تحبيذ معالجة الطّبيعة (أي الطّبع الإنسانيّ) من خلال بضعة أمزجة». وسرعان ما التفّ حوله رعيلٌ من الكتّاب الطّامحين إلى تجاوز الواقعيّة الصّرفة، وعلى رأسهم موباسان Maupassant الذي أصبح بعد فترة أحد أهمّ كتّاب القصّة القصيرة في العالم، والأخوان جول وإدمون دو غونكور Jules et Edmond de Goncourt اللّذان كتبا بضع روايات طبيعيّة مهمّة وتركا يوميّات مشتركة شديدة الأهميّة تاريخيّاً وأدبيّاً، والرّوائي جوريس كارل ويسمانس Joris-Karl Huysmans الذي انضوى هو الآخَر تحت لواء الطّبيعيّة قبل أن يجنح إلى التّيّار الرّمزي ويُكرَّس رائداً للتيّار «الانحطاطيّ». بيد أنّ التّيّار الطّبيعيّ[1] هذا سرعان ما تفرّق أعضاؤه الأساسيّون بعد فترة من اللّقاءات الأسبوعيّة في بيت زولا في ضاحية مِدان Médan الباريسيّة. وقد أثمرت تلك الفترة عدداً من الأعمال المكتوبة طبقاً لمبادئ الطّبيعيّة مثلما أوضحتها مناقشات المجموعة ومقالات أعضائها ونظّر لها زولا نفسه في كتابه النقديّ الرّواية التّجريبيّة *Le Roman expérimental* (1880)، إذ ركّز على ضرورة تأسيس الرّواية على فكرة الوراثة من خلال تأثّره بالأبحاث البيولوجيّة لكلود برنار Claude Bernard، وعلى فكرة الوسط Le milieu كما نظّر لها الفيلسوف والمؤرّخ الفرنسيّ هيبوليت تَين Hippolyte Taine.

مع مرور الزّمن، بدا زولا مغالياً في صرامته النّظريّة. لكنْ على صعيد الكتابة الروائية مكّنه عناده هذا من أن يصوّر تصويراً رائعاً تطوّر أجيال متلاحقة في محيط عائليّ بذاته، ومن أن يرصد بتمعّن وبشيء من الملحميّة

(1) يجد القارئ في سلسلة «كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ»، التي يصدر فيها هذا الكتاب، عدّة ترجمات سرديّة ونقديّة لأعمدة هذا التيّار.

عدداً من الأوساط الاجتماعيّة، كعالم الشّرب في روايته الحانة، وعالم المناجم في جرمينال *Germinal*، وعالم القطارات في الحيوان البشريّ *La Bête humaine*. وضمن طموحه المُغالي في رفع الرّواية الطّبيعيّة إلى مصاف البحث العلميّ والشّهادة الاجتماعيّة والتّاريخيّة، عمِل زولا باتّباع منهج صارم ودؤوب يقْرب تماماً من عمل الباحث والمؤرّخ. فعندما يقرّر كتابة رواية عن وسط معيّن يروح يرتاده يوميّاً، يدرسه من كلّ زواياه، ويضع لعمله خطّة ولوائح معجميّة وفنيّة درسها النّقّاد والباحثون في ما تركه من دفاتر وأرشيفات. ولقد أذهلهم ما وجدوه فيها من تشعّب وهوس بالتّفاصيل وانتباه لكلّ شاردة وواردة. كما أذهلتهم القدرة التي أعرب عنها زولا في رواياته على لَمّ شمل كلّ هذه التّفاصيل ونسجها في تركيب سرديّ حيّويّ ومتكامل. هذا ما دفع بعض النّقّاد إلى اعتبار زولا الرّوائيّ أنثروبولوجيّ الحياة الحديثة. وهذه التّفاصيل الوافرة والمحبوكة ببراعة وشاعريّة حتّى أنّ موباسان رأى فيها «قصائد غير مقصودة لذاتها» هي التي مكّنت زولا من تجاوز الواقعيّة ومن فرض عمله على انتباه القرّاء حتّى بعد انحسار الطّبيعيّة بصفتها مدرسة أو تيّاراً.

بطن باريس

كالعادة، تقترن لغة زولا في هذه الرواية، الصادرة في 1873، بخصوصيّات الشيء الموصوف وبتنوّع تجلّياته. هكذا يصف ما سمّاه «سمفونيّة ضروب الجبنة»، يرصد في أسواق «ليهال» وفرتها المذهلة، وشتّى صنوف الأسماك معروضةً بمختلف ألوانها وحجومها وأشكالها وروائحها، ومختلف أنواع الخضار، وطقوس وصول العربات المحمّلة بالسّلع الطّازجة كلّ صباح. كما يرصد ويحلّل طبائع البائعات والبائعين وأنانيّتهم وأمزجتهم وصبواتهم

المحبطة في الغالب، وتحالفاتهم المعقودة فالمنهارة فالمعقودة من جديد، وأروقة السّوق وأقبيتها السّفليّة ومزاداتها، إلخ. رصد هذا العالم اليوميّ العجيب الموّار، واعتبره جديراً بالمعالجة، أسوةً بأرقى الأماكن وأكثر جلالاً وأهميّة.

يصف زولا أسواق «ليهال» عبر بنائها المهيب الذي صمّمه المهندس المعماريّ فكتور بالتار Victor Baltard واستمرّ بناؤه من 1852 حتّى 1872. عاين زولا بتمعّنٍ هذا البناء، وأُعجب بمعماره الحديديّ وفضّله على معمار كنيسة القدّيس أوستاش المجاورة له، والتي تشكّل أحد تخوم هذا العالم المكتفي بذاته وشبْه المنغلق على نفسه. ذلك أنّ بيوت الغالبيّة العظمى من البائعات والبائعين إنّما تقع قرب الأسواق، فلا يخرجون منها ولا نخرج معهم إلّا في نزهة وجيزة إلى ضاحية نانتير بصحبة بائعة خضار آثرت الإقامة هناك. هذا كلّه يمنح الرّواية، كما كتب الناقد فيليب هامون Philippe Hamon[1]، طبيعة توثيقيّة مؤكّدة يفيد منها عالم الاجتماع والمؤرّخ والأنثروبولوجيّ والمهندس المعماريّ وسواهم، كلٌّ في مَجال بحثه. سوى أنّ هذه «الوثيقة»، كما يُريناه النّاقد في وفرةٍ من الأمثلة يضيق المجال دون عرضها هنا، إنّما هي مصهورة في عملٍ أدبيّ تخضع فيه إلى نظام دلاليّ وتمتثل إلى حركات بلاغيّة وأسلوبيّة، ويتحكّم بها إلهام إبداعيّ. وهذا كلّه هو بالطّبع ما ضمن للعمل استمرار تأثيره وفتنته.

تبدأ الرّواية بمجيء فلورون هارباً من معتقل المنفيّين في كايين الواقعة في المستعمرة الفرنسية غويانا. كان قد قبضت عليه الشّرطة في تظاهرة وجد نفسه فيها صدفة انطلقت في باريس في الثاني من ديسمبر 1851، يومَ حلّ نابليون

(1) انظر دراسته عن هذه الرواية في المؤلّف الجماعيّ ليهال – صوَر حارة:
Philippe Hamon, « *Le Ventre de Paris* d'Émile Zola », in *Les Halles - Images d'un quartier*, Jean-Louis Robert et Myriam Tsikounas (dir.), Paris, Éditions de la Sorbonne, 2004.

الثّالث البرلمان الفرنسيّ وطالب بتغيير الدستور ليتقدّم للانتخابات الرئاسيّة مرّة ثانية، قبل أن يلغي النظام الجمهوريّ الذي كان هو رئيسه وينصّب نفسه إمبراطوراً لفرنسا في 1852. في ذلك اليوم أطلقت الشرطة النّار على المتظاهرين وألقت القبض على فلورون الذي وجدته محشوراً تحت ثقل امرأة سقطت عليه ميتة، ضحيّة رصاص الشّرطة. طويلاً بقيت ذكرى هذه المرأة تسكنه، ويرى بعض محلّلي الرّواية أنّ ذكراها هي التي وقفت حائلاً دون ارتباط فلورون بأيّة امرأة بعد ذلك الحادث. وبالفعل، يتذكّرها في صلب الرّواية ويعتبر أنّها كان يمكن أن تجسّد عشقه الحقيقيّ أو الأوحد.

فور عودته إلى باريس هارباً، احتمى فلورون ببيت أخيه الصّغير كونو، الذي كان هو نفسه قد ربّاه بعد الوفاة المبكّرة لوالدهما. رفض فلورون حصّته من إرث عمّهما، وكان أخوه وزوجته إلزا قد أصبحا يديران حانوت جزارة في أسواق ليهال تركه العمّ المتوفّى. وعلى مضضٍ قبِلَ فلورون بأن يعمل مفتّشاً في الأسواق، يراقب نشاط الباعة ومدى عنايتهم بالسّلع ومعاملتهم لزبائنهم.

منذ البداية يبرز تنافر بينه وبين مجتمع ليهال هذا. بدأ ذلك بزوجة أخيه إلزا. فعلى طيبتها وسخائها، هي أنموذج للمجتمع «العاقل» الذي يريد أن يحصر تفكيره في منفعته الخاصّة، ولا يهمّه سوى مواصلة عيشه غير مكترثٍ بمآسي الغير وواقع البلاد. نحافة فلورون المفرطة وتقشّفه في العيش والكلام صارا مبعث استغراب ونفور متدرّجَين لدى إلزا وأغلب العاملين في السّوق. إنّه النّحيف في مجتمع السّمان، حيث النّحافة والبدانة ترتفعان في عمل زولا إلى رمزين كاشفين عن فلسفتين في العيش متعارضتين. ومع تطوّر علاقة فلورون بروّاد حانة صغيرة في السّوق تشكّلت حوله نواة صغيرة من المتحمّسين لتغيير الأوضاع، أبدى لها آخرون تأييداً كاذباً. بيد أنّ ارتيابيّة الوسط، بدءاً بزوجة أخيه إلزا، راحت تعمل عملها، وانتهى بها الأمر إلى

الوشاية به لدى الشّرطة التي أوقفته وأعادته إلى منفاه.

حول هذه الحبكة، يرسم زولا شبكة واسعة من العلاقات والنّماذج السّلوكيّة والأهواء، تاركاً المصائر تتلاقى وتتقاطع أو تفترق. مليّاً يتوقّف عند علاقة الحبّ التي تنشأ بين الصّبي مارجولان والفتاة كادين، وكانا لقيطين عُنيت بتربيتهما بائعة خضار، ويستعيد حوارات عن الفنّ مع الرّسّام كلود الذي يرتاد الأسواق بحثاً عن «موديلات» ومَشاهد يطبّق عليها تصوّره الجديد لفنّ الرّسم، ويرصد «ليهال» في مختلف ساعات النّهار واللّيل، ويعاين أنماط سلوك الباعة وطقوس العمل ومختلف تعابير هذا الجمهور الواسع. وعلى سطح هذا الأوقيانوس البشريّ المتلاطم تطفو، وتخطّ النّهايةَ المأساويّة للعمل، روحُ الجشع والشّغف بالوشاية تتعيّش منها ثلاث نساء يخصّهنّ زولا بتحليلات فريدة بها يُبرز الجانب المظلم من تكوين المجتمع بأسره.

ولعلّ العبارة التي يختتم بها زولا الرّواية ويضعها على لسان الرّسّام كلود عندما يسمع بإيقاف فلورون من قبل الشّرطة بعد وشاية الآخَرين به، لعلّها تلخّص نظرة الكاتب لهذا المجتمع العجيب المتناقض. يُرينا النّاقد هنري غيمان Henri Guillemin تطوّر هذه العبارة في المخطوطات المتتابعة للرّواية عبر تغييرات دالّة للفظ واحد. كتب زولا في البداية: «يا لهؤلاء الشّرفاء من أنذال!». ثمّ غيّر العبارة إلى: «يا لأولئك الشّرفاء من أنذال!». ثمّ غيّرها في النّهاية إلى صيغة: «آه يا للشّرفاء من أنذال!»، شاملاً بإدانته كلّ هذه الفئة، فئة مدّعي الشّرف الذين يبعثون بالآخَر إلى التّهلكة لا شيء إلاّ لأنّه يرى الواقع على غير ما يرون.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

الفصل الأوّل

في قلب الصمت العظيم، وفي الجادّة المُقفرة، كانت عربات تجّار الخُضار تصعدُ نحو باريس، على إيقاع ارتجاجات دواليبها التي تضرب أصداؤها واجهاتِ البيوت النائمة على الجانبين خلف صفَّين من أشجار الدردار. لحقت عربة كرنب وعربة بازلّاء على جسر نويي بثماني عربات للّفت والجزَر كانت هابطةً من نانتير. كانت الخيول تسير وحدها، مطأطئة الرؤوس، سيراً مُستمرّاً وبطيئاً، يجعله الارتقاء أكثر بطئاً. وفي الأعلى، على حمولة الخضار، يغفو الحوذيّون منبطحين، بمعاطفهم المنقوشة بخطوط صغيرة رمادية وسوداء، والمَقاود في أيديهم. ولدى الخروج من بقعة معتمة، ينير مصباح غازيّ مساميرَ حذاءٍ، أو الكمّ الأزرق لأحد القمصان، أو حافّةَ قبّعة، هذه الأشياء التي تُلمَح داخل الازدهار الهائل لحِزَم الجزَر الحمراء، وحِزَم اللّفت البيضاء، والاخضرار الزاهي للبازلّاء والكرنب. وعلى الطريق، وفي المسالك المجاورة، وفي الأمام والخلف، يُعلن الغطيط المتباعد للعربات عن قوافل مماثلة، شحنات كاملة تعبر الظلمات والنعاس الكثيف للساعة الثانية صباحاً، مهدهِدةً المدينة المظلمة بضجيج الأغذية التي تمرُّ.

كان بلتازار، حصان مدام فرانسوا السمين، يتقدّم الصفّ. كان يسير غافياً أو يكاد، هازّاً أذنيه، عندما انتفض من الخوف فجأةً وتوقّف متصلّباً على قوائمه الأربع عند قمّة شارع لونشان، فاصطدمت رؤوس الخيول الأخرى بمؤخّرات العربات، وتوقّف الركب مع ارتجاج الصفائح وسطَ شتائم الحوذيّين الذين تنبّهوا من غفوتهم.

كانت مدام فرانسوا مستندةً بظهرها إلى لوح صغير إزاء خضرواتها تتطلّع في الشعاع الرفيع الذي يطلقه مصباح مربّع الشكل صغير في الجهة اليسرى فيضيء بخفوتٍ أحد الجنْبين اللاّمعين للحصان بلتازار.

- يا سيّدة! هلّا تقدّمنا! هتف أحد الرجال جاثياً على ركبتيه على أكوام اللّفت، وأضاف: إنّه مجرَّد ثمل بائس.

مالت حتّى رأت على اليمين تحت حوافر الحصان مباشرةً جسماً أسود يسدّ الطريق.

- لكنّنا لا ندهس الخلْق، قالت وهي تقفز إلى الأرض.

كان هناك رجل ممدّد بكامل جسده، باسطاً ذراعيه، وقد سقط تلقاءَ التراب. كان يبدو شديد طول القامة، نحيفاً كعود جافّ، وقد نجا بمعجزةٍ من تحت حوافر بلتازار. اعتقدت مدام فرانسوا أنّه ميتٌ، فانحنت عليه، وأمسكت يده، فوجدتها لا تزال دافئة.

- يا أنت! قالت هامسةً.

لكنّ الحوذيّين بدأوا يعربون عن نفاد صبر. قال الحوذيّ الجاثي على خضرواته بصوته الأجشّ:

- اطرحيه إذن يا سيّدتي... لقد ملأ هذا الحيوان معدته، فلتدفعي به في مجرى المياه!

في تلك الأثناء، كان الرجل قد فتح عينيه وأخذ ينظر مشدوهاً إلى مدام فرانسوا دون أن يتحرّك. فكرت أنّه لا بدّ أن يكون سكران بالفعل.

- ينبغي ألّا تظلَّ هنا، إنّك تعرّض نفسك للدّهس، قالت له، إلى أين كنت تريد الذّهاب؟

- لا أعرف، أجابها بصوت خفيض للغاية.

ثمّ أردف ببعض المجهود وبنظرة قلقة:

- كنتُ ذاهباً إلى باريس، وسقطتُ، لا أدري...

أصبحتْ تراه بوضوح، كان يبدو مثيراً للشفقة ببنطاله وبذلته الردينغوت الأسودين المهلهلين واللذّين يشفّان عن نحول عظامه، وبقبّعته الجوخ السوداء المسدَلة على حاجبيه بشيء من الخوف، والتي كانت تكشف عن عينين بُنيّتين واسعتين تشيان بلطفٍ فريدٍ، في وجهٍ صارم ومعذَّب. وفكرت مدام فرانسوا في أنّه أنحف من أن يوحي بكونه أفرط في الشرب.

سألته مجدّداً:

- وإلى أين أنت ذاهب في باريس؟

لم يردّ مباشرةً؛ كان يزعجه هذا الاستجواب، وبدا كأنّه يشاور عقله؛ ثمّ قال بتردّد:

- من هنا، ناحية ليهال[1].

كان قد استقام واقفاً بصعوبة لا متناهية وبدا وكأنّه يتأهب لمواصلة طريقه. رأته تاجرة الخضار يتكئ مترنّحاً على حافّة عريش العربة، فسألته:

(1) بخصوص تاريخ أسواق "ليهال" لبيع الخضار والفواكه واللحوم والأسماك وأهميّتها في حياة الباريسيّين وفي هذه الرواية، انظر مقدّمة الكتاب (الحواشي من وضع المُراجِع والمترجم).

- هل أنت متعب؟

- نعم، متعبٌ جدّاً، ردّ هامساً.

فدفعته، وبصوتٍ جافّ وبشيء من الغضب قالت له:

- هيّا سريعاً، اركبْ في عربتي، لقد أضعت لنا وقتنا هنا!... إنّي ذاهبة إلى ليهال. سأشحنك مع خضرواتي.

ولمّا رفض، جرّته وكأنّها ترفعه بذراعيها القويّتين وألقت به على أكوام الجَزَر واللّفت صارخةً وهي في غاية الغضب:

- أتريد في النهاية أن تنغّص علينا؟ أنت تزعجني أيّها الرجل.... لقد قلت لك إنّي ذاهبة إلى ليهال. أخلد إلى النوم وسوف أوقظك.

وركبت واتّكأت بظهرها على اللّوح الصغير ومالت في جلستها ممسكةً بمقود بالتازار، الذي انطلق سائراً، مواصلاً نومه وأذناه تهتزّان، وتبعتهم العربات الأخرى، وعاود الصفّ مسيرته البطيئة في الظلام، ضارباً مرّةً أخرى واجهات البيوت النائمة بقعقعة الدواليب. وعاود الحوذيّون سباتهم تحت المعاطف. وتمدّد ذلك الذي كان يحادث تاجرة الخضروات مدمدماً:

- يا للبؤس، إذا توجّب علينا لمُّ السكارى!... إنّ لديك شهامة أيّتها السيّدة!

كانت العربات تجري، والخيل تسير من تلقاء ذاتها، مطأطئة الرؤوس. والرجل الذي استضافته مدام فرانسوا راقد على بطنه، وساقاه الطويلتان مختبئتان تحت كومة اللّفت التي تزحم مؤخّرة العربة، ووجهه غائص وسط الجَزَر بحزماته اليانعة، وذراعاه تتمدّدان منهكتين، تتشبّثان بحمولة الخضروات الضخمة خشية أن تلقيه الخضخضة أرضاً. كان ينظر أمامه إلى

الصفّين المتناهيَين لمصابيح الغاز، اللّذين كانا يتقاربان ويختلطان في الأعلى بمجموع الأضواء الأخرى. وفي الأفق كان يطفو دخان كثيف أبيض، غامراً باريس بالبخار المضيء لكلّ تلك المصابيح.

- أنا من نانتير، واسمي مدام فرانسوا، قالت تاجرة الخضار بعد برهة. منذ فقدت زوجي المسكين، وأنا أذهب كلّ صباح إلى ليهال. يا للمشقّة، ولكن ما العمل!... وأنت؟

- اسمي فلورون، وأنا آتٍ من بعيد...، أجاب الرجل المجهول بخجل. أستميحكِ عذراً يا سيّدتي، فأنا مُنهكٌ للغاية، حتّى أنّ الكلام يؤلمني.

لم يكن راغباً في الثرثرة. فكفَّت عن الكلام، وتركت المقود على ظهر بلتازار، الذي تابع طريقه بغريزة حيوانٍ يعرف كلّ بِلاطة. كان فلورون، وعينه معلّقة إلى أضواء باريس الباهرة، يفكّر في تلك الحكاية التي كان يخفيها. هروبه من معتقل كايين[1]، حيث كانت قد رمت به نهارات ديسمبر، وتطوافه طيلة عامين في غويانا الهولندية، مترعاً بالرغبة المحمومة في الرجوع، وخوفه من الشرطة الإمبراطورية. وها هو في النهاية في مواجهة المدينة الكبيرة العزيزة، التي طالما اشتاق إليها وتمنّاها. سيختبئ فيها، ويعيش بها حياته الهادئة القديمة، ولن تعرف الشرطة عنه شيئاً، فضلاً عن أنّهم سيعتقدون أنّه مات هناك. وتذكّر وصوله للهافر[2]، حينها لم يجد في طرف منديله سوى خمسة عشر فرَنْكاً. واستطاع أن يستقلَّ عربةً حتّى روان. ومن روان عاود السفر على قدميه، إذ لم يكن قد تبقّى معه سوى ثلاثين مليماً. وفي فيرنون

(1) كايين Cayenne هي المدينة الرئيسة لغويانا (أو غيانا) Guyane، المستعمرة الفرنسية سابقاً والتي صارت تشكّل جزءاً من أقاليم فرنسا لما وراء البحار. تقع في أمريكا الجنوبية، وتحدّها البرازيل في الجنوب والشرق. أنشأ فيها الفرنسيّون معتقلات عديدة لمواطنيها المنفيّين والمُبعدين ولسجناء الحقّ العامّ، منها معتقل كايين الشهير.

(2) أسماء الأعلام التي سترد في هذه الفقرة تشير إلى مدن وبلدات فرنسيّة.

اشترى خبزاً بآخر مليمين كانا معه. ثمّ لم يعد يدري. يعتقد أنّه غفا لعدّة ساعات في حفرة. ولا بد أنّه أطلع دركيّاً على الأوراق الثبوتيّة التي كان قد دبّرها. كلّ هذا كان يتراقص في رأسه. كان قد جاء من فيرنون دون أن يأكل، غاضباً وشاعراً باليأس بشكل مفاجئ دفعه إلى مضغ الأوراق المتدلّية من أسيجة الحدائق التي كان يحاذيها؛ وواصل السير مصاباً بالتشنّجات والآلام، ملويَّ البطن ومشوّش الرؤية، كأنّ قدميه مجذوبتان، بغيرِ شعورٍ منه، بصورة باريس تلك، باريس البعيدة، البعيدة جدّاً خلف الأفق، والتي كانت تناديه وتنتظره. وعندما بلغ كورْبفوا كان اللّيل شديد الظلام. باريس التي تبدو كبقعة من سماء مرصّعة بالنجوم سقطت على ركن مظلم من الأرض، بدت له عابسةً، كأنّها غاضبة لعودته. وعندها شعرَ بالإعياء، وهبط المرتفَعَ بساقين منهكتين. وبينما هو يعبر جسر نويي استند إلى الحاجز، ومال تجاه السين الذي كان يجري بأمواج بلون المِداد بين الكتلتين الكثيفتين لشاطئيه؛ وعلى الماء كان انعكاسُ فانوس أحمر يتابعه بعينٍ دامية. كان عليه أن يصعد ليبلغ باريس، في الأعلى. بدت له الجادّة لا نهاية لها. مئات الفراسخ التي قطعها حتّى تلك اللّحظة لم تكن شيئاً؛ هذا الجزء من الطريق يحبطه، لن يبلغ أبداً تلك الذروة المكلّلة بالأضواء. كانت الجادّة المستوية تمتدّ بصفّي الأشجار والبيوت الواطئة على جانبيها، وبرصيفَيها العريضين الرماديّين المبقّعين بظلال الأشجار، وبالفتحات المعتمة للشوارع المستعرضة، وبكلّ صمتها وظلامها. وحدها مصابيح الغاز المستقيمة، والواقعة على مسافات متساوية، كانت تضفي الحياة على تلك الصحراء القاحلة. كان فلورون قد توقّف عن التقدّم فيما لا تزال الجادّة تتمدّد وتتراجع معها باريس إلى عمق الليل. وبدا له أنّ مصابيح الغاز تجري يميناً وشمالاً آخذةً معها الطريق؛ وتعثّر في ذلك الدوّران؛ وانهار ككومة على البلاطات الحجرية.

هوَ ذا يتقدّم على طبقة من الخضروات وجدها مريحةً كالريش. كان قد رفع رأسه قليلاً ليرى الضباب المُضيء المُتكاثف في الأفق فوق الأسقف السوداء. كان يصل إلى وجهته، محمولاً، ما عليه سوى أن يترك نفسه للاهتزازات البطيئة للعربة؛ وفي هذا الاقتراب الخالي من الإرهاق لن يعاني سوى الجوع. كان الجوع قد استيقظ، جوعٌ قارص وحادّ. كلّ أعضائه كانت نائمةً إلّا معدته، كانت مطويّةً على خوائها، كأنّها تتعرّض للكيّ بقطعةٍ من الحديد ملتهبة. وكانت الرائحة الطازجة للخضروات التي هو غائص فيها، ذلك العبق النفّاذ للجزَر، يصيبه بالاضطراب إلى حدّ فقدان الوعي؛ كان يضغط صدره بكلّ قوته في سرير الخُضار العميق ذاك ليشدّ على معدته ويمنعها من الصراخ. وإلى الوراء، كانت العربات التّسع الأخرى المحمّلة بجبال الكرنب والبازلّاء، وبأكوام الأرضيّ-الشوكيّ والخسّ والبقدونس والكُرّاث تتقدّم وكأنّها تسير على جسده ببطء تُريد أن تدفنه بجوعه المعذّب تحت ركام من الأغذية. ثمّ توقّف الرِّكب، وسُمِعَ لغطٌ لأصوات غليظة، كان ذلك هو الحاجز، وموظّفو الجمارك يفحصون العربات. ثمّ دخل فلورون إلى باريس، مغشيّاً عليه، وصارّاً أسنانه على الجزَر.

- أيّها الرجل، في الأعلى! هتفت مدام فرانسوا فجأةً.

ولّما لم يتحرّك، صعدت وهزّته. استقام فلورون جالساً. كان قد نام. لم يعد يشعر بجوعه. لقد كان ذاهلاً للغاية. أنزلته تاجرة الخضار وهي تقول له:

- ستساعدني في إنزال الحمولة، أليس كذلك؟

ساعدَها. كان هناك رجلٌ سمين بعصاً وقبّعة من اللبد يزعق ضارباً بطرف عصاه على الرصيف:

- هيّا، هيّا، أسرَع من هذا! تقدّموا بهذه العربة... كم متراً لديكِ؟ أربعة،

أليس كذلك؟

وسلّم بطاقةً للسيّدة فرانسوا التي أخرجت قطعاً نقديّة كثيرة من كيس قماش. ثمّ ذهب الرجل ليزعق ويضرب بعصاه بعيداً. سحبت مدام فرانسوا بلتازار من لجامه، ودفعته محرّكةً العربة جاعلةً دواليبها بمحاذاة الرصيف. ثمّ تمّ رفع اللوّحة الخلفية بعد أن تركت علامةً على أمتارها الأربعة على الرصيف بقبضتين من القش، وطلبت من فلورون أن يناولها الخضروات حزمةً حزمةً، وصفّتها بنظامٍ على البلاط، مزيّنةً البضاعة، عارضةً إيّاها بحيث تطوّق الأكوام بشبكاتٍ من الخضار، صانعةً ببراعةٍ فريدةٍ بسطةً تبدو في العتمة كأنّها بساط متناسق الألوان. وحين أعطاها فلورون حزمةً ضخمةً من البقدونس وجدها في عمق العربة، طلبت منه خدمةً أخرى:

- سيكون لطيفاً منك أن تحرس بضاعتي بينما أذهب لأُودع العربة... على بعد خطوات من هنا، في نُزل كومبادور، في شارع مونتورغي.

أكدّ لها أنّ بإمكانها الاطمئنان. كانت الحركة غير ذات فائدة له؛ مذ شرع بالحراك بات يشعر بجوعه وقد استيقظ. جلس على كومة من الكرنب بجوار بضاعة مدام فرانسوا، قائلاً لنفسه إنّه في مكان مناسب، وإنّه لن يتحرّك، وسينتظر. كان يشعر أنّ رأسه خاوٍ، ولم يدرك أين هو بالتحديد. منذ بدايات شهر سبتمبر والنهارات مظلمة تماماً. حوله مصابيح تتوالى ببطء ثمّ تستقرّ في الظلمات. كان على حافّة شارع عريض لم يكن يعرفه، يمتدّ في قلب الظلام لمسافةٍ بعيدة. لم يكن يميّز سوى البضائع التي يحرسها. وهناك، على طول الرصيف، كانت أكداس مائجة تلوح غائمةً. وفي منتصف الرصيف كانت تبدو أشباح رماديّة للعربات التي تسدّ الطريق. ومن زاوية لأخرى تجيء همهمة تكشف عن صفّ من الدوابّ المحمّلة غير المرئية. نداءات، ضجيج سقوط قطعة خشب أو سلسلة حديدية على البلاط، الدويّ المكتوم لحمولة

عربة من الخضروات، الارتجاج الأخير لعربة تصطدم بحافّة الرصيف، تطلق في الجوّ الذي كان لا يزال ناعساً الهمس الخافت ليقظة مدويّة ورائعة، نستشعر اقترابها في عمق تلك الظلال الراجفة. وعندما التفت فلورون، لاحظ على الجهة الأخرى من الكرنب رجلاً يغطّ مُلتفّاً في معطفه مثلَ حزمة، ورأسه مستند على سلال للبرقوق. وفي مكان أقرب، على اليسار، تبيّن له طفل في نحو العاشرة، نائماً بابتسامة ملائكية بين تلّتين من الهندباء، وبمحاذاة الرصيف لم يكن من شيء مستيقظ سوى الفوانيس التي تتراقص بين أذرع غير مرئية متجاوزةً بطفرةٍ واحدةٍ النعاسَ الذي يلفّ المكان، بأناسه وأكوام خضرواته التي تنتظر النهار. لكنّ ما كان يدهشه هو رواقان هائلان على حافّتي الطريق، سقفاهما المتراكبان بدَوا له وكأنّهما يتضخّمان ويتمدّدان ثمّ يضيعان في عمق الأضواء السّابحة كالذّرور. كان يحلم، بذهنٍ واهنٍ، بصفٍّ من القصور، الهائلة والراسخة، تعكس الشمس على واجهاتها آلافاً من أضواء الشبابيك الخشبية المتتالية وغير المتناهية، فتبدو مشتعلةً وترسم سلالم من النور بين ضلوع الأعمدة الرهيفة، صاعدةً حتّى الخطّ القاتم للسقوف الدنيا ومتسلّقةً حتّى العليا، حاويةً بين تربيعاتها هياكل القاعات العملاقة حيث، تحت ضوء المصابيح الشاحب، تتجرجر معمعة من الأشكال الرمادية الممحوّة الهاجعة. أدار رأسه، مستاءً من عدم معرفته للمكان، ومتوّجساً لهذه الرؤية الهائلة والشفيفة؛ وإذ رفع عينيه أبصر الساعة المضيئة لكنيسة سانت أوستاش والجسد المعتم للمبنى. فأدهشه ذلك بشدّة. كان عند ناصية شارع سانت أوستاش إذن.

في تلك الأثناء، كانت مدام فرانسوا قد عادت. كانت تتناقش بحدّةٍ مع رجل يحمل كيساً على كتفه، وكان يريد أن يدفع لها مليماً لقاء حزمة الجزَر.

– انظر، إنّك لست على حقّ يا لاكاي.. ستبيعها للباريسيّين بأربعة

مليمات أو خمسة، لا تُنكر ذلك... خذها بمليمين إذا أردت.

ولّما غادر الرجل:

- الناس يظنّون أنّ الجزَر ينمو من تلقاء نفسه، فليجدْ جزَراً بمليم، ذلك السكّير لاكاي... سترى أنّه سيعود.

كانت تتوجّه بحديثها لفلورون، وقالت بعد أن جلست إلى جواره:

- قلّ لي إذن، إذا كنت متغيّباً عن باريس منذ وقت طويل، فلعلّك لا تعرف سوق ليهال الجديدة؟ لقد تمّ بناؤها منذ خمس سنوات أو أكثر... انظر، ذلك الرواق المجاور لنا، إنّه رواق الفواكه والزهور؛ ثمّ أبعد قليلاً، الأسماك وفاكهة البحر، ثمّ الدواجن، وفي الخلف الخضروات الكبيرة، والزبدة، والجبن... هناك ستّة أروقة في هذا الاتّجاه؛ ثمّ في الجهة الأخرى، في المواجهة، هناك أربعة أخرى: للّحوم والكروش والأمعاء وللدواجن... إنّه كبير جدّاً، ولكنّ البرد هنا قارس في الشتاء، يقولون إنّهم سيبنون رواقين جديدين بعد أن يهدموا المنازل المحيطة برواق القمح... هل كنت تعرف كلّ هذا؟

- لا، أجابها فلورون. لقد كنتُ خارج البلاد. وذلك الشارع الكبير أمامنا، ما اسمه؟

- إنّه شارع جديد، شارع بون نوف. يبدأ عند السين ويصل حتّى هنا، إلى شارع مونمارتر وشارع مونتورغي. لو كان الوقت نهاراً لتعرفّت عليه فوراً.

ثمّ قامت بعد أن رأت امرأةً محنيّةً على اللّفت الخاصّ بها.

- أهذه أنتِ مَدام شانتميس؟ قالت بلهجة وديّة.

كان فلورون ينظر إلى أسفل شارع مونتورغي. من هناك كانت قد اقتادته فرقة من الدركيّين، في ليلة الرابع من ديسمبر. كان في جادّة مونمارتر، نحو الساعة الثانية، يسير ببطء بين الزحام. كان يبتسم لمرأى هؤلاء الجنود الذين يطلقهم قصر الإليزيه[1] في الشوارع كي يحمله المواطنون على محمل الجدّ، عندما اجتاحوا الأرصفة، تماماً، خلال ربع ساعة. فسقط هو على الأرض، مدفوعاً عند زاوية شارع فيفيان. لم يعد يعي، داست الجموع المُهتاجة على جسده، وسط الهلع المخيف تبعثه طلقات النار. وعندما سكت الضجيج، أراد أن ينهض، كانت قد تكوّمت عليه امرأة شابّة بقبعة وردية يكشف شالها المنزلق عن صدريّة ذات طيّات صغيرة، وتحت الرقبة كان هناك طلقتان قد اخترقتا الصدريّة، وعندما دفع المرأة برفقٍ كي يخلّص ساقيه سالت خيوط من الدماء من الثقبين على يديه. فنهض بوثبة، وانطلق، مرتعباً، ناسياً قبّعته وقد تلوّثت يداه بالدم. حتّى المساء كان يجول، فاقداً رشده، وفي خياله مشهد المرأة الشابّة ساقطةً بين ركبتيه بوجهها الشديد الشحوب وعينيها الزرقاوين المفتوحتين، وشفتيها المتألّمتين وانشداهها أمام الموت، هناك، بمثل هذه السرعة. لقد كان خجولاً، في الثلاثين من عمره ولا يجرؤ على النظر في وجوه النساء مباشرةً، وسيمكث ذلك الوجه طوال حياته في ذاكرته وقلبه. كان كأنّه فقد امرأته هو. في المساء، دون أن يعرف كيف، وهو لا يزال في صدمة مشهد الظهيرة، كان في شارع مونتورغي، في حانوت بائع نبيذ، حيث كان بعض الرجال يشربون وهم يتكلّمون عن إقامة متاريس. صاحبَهم، وساعدهم في انتزاع بعض البلاطات، وجلس على المتراس، متعباً من دورانه في الشوارع، قائلاً لنفسه إنّه سيشارك في المعركة عندما يجيء الجنود. لم يكن معه حتّى مُدية؛ وكان لا يزال حاسر الرأس. في نحو الحادية عشرة غفا: فرأى ثقبَي الصدريّة البيضاء ذات الطيّات الصغيرة يتطلّعان إليه كعينين مختنقتين بالدم

(1) القصر الرئاسيّ الفرنسيّ وكان نابليون الأوّل ونابليون الثالث قد استخدماه لفترة.

والدموع. عندما استيقظ، كان مقبوضاً عليه تُكال له اللّكمات من قبل أربعة من الرقباء. كان رجال المتراس قد فرّوا. واستشاط الرقباء غضباً وكادوا يفتكون به عندما رأوا الدماء على يديه، وكانت تلك دماء المرأة الشابّة.

ممتلئاً بهذه الذكريات، رفع فلورون عينيه نحو الساعة المضيئة لكنيسة سانت أوستاش، دون حتّى أن يرى عقربيها. كانت قد قاربت الرابعة صباحاً، وسوق ليهال لا تزال نائمة. مدام فرانسوا تتحادث واقفةً مع مَدام شانتميس، تتناقشان حول ثمن حزمة اللّفت. وتذكّر فلورون أنّهم كادوا يرمونه بالرصاص هنا على حائط الكنيسة، حيث كانت زمرة من الدركّيين قد أردت خمسة من المساكين قُبِضَ عليهم عند متراسٍ بشارع غرينيتا. كانت الجثث الخمس متروكةً على الرصيف في موضع يعتقد أنّه رأى عنده ذلك اليوم أكواماً من الفجل الورديّ. وقد نجا هو من إطلاق الرصاص لأنّ الرقباء لم يكونوا مسلّحين سوى بالسيوف. وقد قادوه إلى مخفر قريب وتركوا لرئيس المخفر ذلك السطر المكتوب بالقلم الرصاص على مزقة من ورق: «قُبِضَ عليه ويداه غارقتان في الدماء. شديد الخطورة». وحتّى الصباح، كانوا يجرّونه من مخفر لآخر، تصحبه مزقة الورق، وقد وضعوا في يديه الأصفاد، وكانوا يحرسونه كمخبول مخيف. وفي مخفر شارع لانْجري أراد جنود سكارى أن يرموه بالرصاص، كانوا بالفعل قد أشعلوا الفانوس، عندما جاء الأمر بترحيل المعتقلين إلى حجز مقرّ الشرطة، وفي اليوم الثالث كان في معتقل حصن بيسيتْر. ومنذ ذلك اليوم وهو جائع؛ لقد أصابه الجوع في المعتقل، ولم يفارقه من يومها. كانوا نحو مائة شخص قابعين في قعر ذلك القبو، دون هواء، يلتهمون لُقَيمات الخبز التي يُلقونها لهم، كحيوانات حبيسة. وعندما عُرِضَ على قاضي التحقيقات، دون شهود من أيّ نوع، ولا محامين، اتُّهِمَ بالانضمام إلى جمعيّة سريّة، وعندما أقسم أنّ ذلك غير صحيح،

سحب القاضي من تحت ملفّه مزقة الورق: «قُبض عليه ويداه غارقتان في الدماء. شديد الخطورة»، وكان ذلك كافياً. حُكِمَ عليه بالنفي من البلاد. وبعد ستّة أسابيع، في يناير، أيقظه أحد السجّانين ذات ليلة، وحبسه في فناء مع نحو أربعمائة مسجون. وبعد ساعة انطلق الفوج الأوّل نحو البحر والمنفى، بالأصفاد في أيديهم، بين صفّين من الجنود كانوا حاملين بنادق معدّة للإطلاق. عبروا جسر أوسترليتز، وتابعوا صفّ الشوارع حتّى وصلوا إلى محطّة الهافر. كانت تلك ليلة سعيدة للكرنفال؛ نوافذ المطاعم مضاءة في الشارع الكبير، وعند مستوى شارع فيفيان، في المكان الذي كان قد رأى فيه القتيلة المجهولة التي يحمل صورتها، أبصر فلورون نساءً مقنّعات عاريات الأكتاف على عربة ذات أربعة دواليب، بأصوات ضاحكة، ساخطات من عدم قدرتهنّ على المرور، يبدين اشمئزازهنّ من «سيل المحكومين ذاك الذي لا ينتهي». ومن باريس للهافر لم يحصل المسجونون على لقمة خبز أو جرعة ماء؛ لقد نسوا أن يوزِّعوا عليهم حصص الطعام قبل المغادرة. لم يأكلوا إلّا بعد ستّ وثلاثين ساعة، عندما تمّ تكويمهم على قنطرة الفرقاطة «كندا».

لا، لم يغادره الجوع قطّ منذ ذلك اليوم. كان ينقّب في ذكرياته، فلا يتذكّر ساعةً واحدةً من الشبَع. كان قد صار ضامراً، معدته متقلّصة، وجلده ملتصق بعظامه. وها قد عاد إلى باريس، الدسمة، الرائعة، الغاصّة بالمأكولات في قلب الظلام، وقد دخلها على فراش من الخضروات؛ وانطلق فيها على سديم من الأطعمة، كان يشعر به يكتظّ حوله ويقلقه. ليلة الكرنفال السعيدة استمرّت إذن مدّة سبع سنوات. لقد رأى مرّةً ثانيةً النوافذ المشعّة بالشوارع الكبيرة، والنساء الضاحكات، المدينة الشرهة التي كان قد غادرها في تلك الليلة البعيدة من يناير؛ وبدا له أنّ كلّ ذلك قد تعاظم، وازدهر في تلك الضخامة لسوق ليهال التي كان قد بدأ يسمع همساتها الهائلة والغليظة

بفعلِ عُسرِ هضم الذي كانت عانته في العشيّة.

كانت مَدام شانتميس قد قرّرت شراء اثنتي عشرة حزمةً من اللّفت، حملتها في صدريّتها على بطنها، وهو ما زاد من استدارة جسدها السمين؛ ومكثت تثرثر بصوتها المتراخي. وعندما غادرت، جاءت مدام فرانسوا لتجلس بجانب فلورون، قائلةً:

- مسكينة هي مَدام شانتميس هذه، عمرها اثنان وسبعون عاماً على الأقلّ. منذ كنتُ طفلةً كانت هي تشتري اللّفت من أبي، وما من أقارب لها فوق ذلك، فقط خادمة صغيرة آوتْها من مكان ما، وهي تذيقها العذاب... حسناً، إنّها تتعيَّش، تبيع بالمفرّق، وتكسب نحو أربعين مليماً في اليوم... أنا لا أستطيع العيش في هذه المدينة الملعونة باريس، طوال اليوم على الرصيف... على الأقلّ لو كان للمرء فيها أقارب!

ولّما لم ينطق فلورون بشيء استأنفت كلامها بسؤاله:

- لك أقارب في باريس، أليس كذلك؟

وبدا كأنّه لم يسمع. لقد عاد له ارتيابه. كان رأسه ممتلئاً بقصص عن الشرطة، ومخبرين يتلصّصون في كلّ زوايا الشوارع، ونساء يبعن الأسرار التي يستخلصنها من المساكين. كانت قريبةً منه للغاية، وبدت له مع ذلك نزيهةً بالفعل، بوجهها الكبير الهادئ المربوط الجبهة بمنديل أسود وأصفر. يمكن أن تكون في الخامسة والثلاثين من عمرها، ممتلئة قليلاً، جميلة بفضل عيشها في الهواء الطلق وبذكورة تخفّفها عيناها السوداوان الرقيقتان بنوع من الطيّبة. كانت بالتأكيد شديدة الفضول، لكنّه نوع من الفضول يُفترض أن يكون محموداً.

وواصلت دون أن يجرحها صمت فلورون:

- أنا، لي ابن أخ هنا في باريس، وقد انتهى نهاية سيّئة، لقد انخرط في الجيش... وفي النهاية، من المستحسن أن تعرف أين ستنزل. ربّما يُفاجأ أبواك لرؤيتك. إنّ للعودة فرْحة، أليس كذلك؟

وطوال حديثها لم ترفع عنه عينيها، متأثّرةً بلا شكّ بنحافته المفرطة، شاعرةً أنّ «سيّداً حقيقياً» يختبئ تحت ملابسه السوداء الرثّة، فلم تجرؤ على إعطائه شيئاً من النقود.

قالت له بخجل:

- لو احتجتَ لشيء في انتظار أن...

لكنّه رفض بإباءٍ يشوبه القلق، وقال لها إنّ لديه كلّ ما يلزمه، وإنّه يعرف إلى أين سيذهب. فبدت راضيةً وأخذت تردّد كما لو كانت تطمئن نفسها عليه:

- حسناً، ليس عليك سوى انتظار أن ينبلج الصبح.

كان ناقوس ضخم يُقرَع فوق رأس فلورون عند ركن رواق الفواكه، وبدا أنّ دقّاته البطيئة المنتظمة آخذة في إيقاظ السبات المخيّم على الحيّ شيئاً فشيئاً. كانت العربات لا تزال تتوافد، فيما تتعالى صيحات الحوذيّين، وضربات السياط، وصوت حديد الدواليب وحوافر الخيول على الأرضية. والعربات لا تتقدّم إلّا في فزّات، منتظمةً في صفّ يمتدّ أبعد من مدى البصر في الأعماق المعتمة التي يتصاعد منها ضجيج مشوّش. الحمولات يجري تفريغها على امتداد شارع بون نوف محشورةً بموازاة المجارير، الخيل ثابتة ومربوطة، مصفوفة كما لو كانت في سوق شعبيّة. لفتت نظر فلورون عربة

زبّال كبيرة، مليئة بالكرنب الرائع، تمّ إرجاعها حتّى الرصيف بصعوبة بالغة. كانت حمولتها تتجاوز في ارتفاعها مصباحاً للغاز تعيساً مزروعاً بجانبها لا يكاد يضيء أكوام الأوراق العريضة التي تتغيّر ألوانها مثل قطَع مخمل سميك وأخضر مقصوصة ومنقوشة. فلاّحة صغيرة في السادسة عشرة بتنّورة قصيرة وقلنسوة من نسيج أزرق، صعدت إلى العربة، ووصل الكرنب حتّى كتفيها، تحمل رؤوسه واحداً فواحداً وتلقيها لشخص ما يخفيه الظلام في الأسفل. أحياناً تختفي الصغيرة، تغطس وتضيع تحت انهيال الخضروات، ثمّ يظهر أنفها الورديّ من بين الخضروات السميكة؛ وتضحك، فيما يتطاير الكرنب بين مصباح الغاز وفلورون، الذي يقوم بإحصاء رؤوسه بشكل آليّ. وعندما فرغت العربة، أصابه الملل.

وعلى الرصيف، كانت أكوام الشحنات تمتدّ حتّى قارعة الطريق. وبين الأكوام، يحرص تجّار الخضروات على ترك ممرّ ضيّق يتيح للناس التنقّل. والرصيف العريض المغطّى من ناحية لأخرى يمتدّ بالأكوام المعتمة للخضروات. لا يُرى بعدُ في الضوء الشحيح والمرتعش للمصابيح سوى التفتّح النضر لربطة من الأرضيّ- الشوكيّ، والأخضر الرقيق للخسّ، والورديّ المُرجانيّ للجزَر، واللّون العاجيّ الخافت للّفت؛ هذه الومضات من الألوان الكثيفة كانت تنساب على امتداد الأكوام مع أضواء المصابيح. كان الرصيف قد ازدحم، جموع استيقظت، والتفّت حول البضائع، واقفةً، تتحدّث، تنادي.

كان صوت قويّ يهتف من بعيد: «الهندباء!». كانوا قد فتحوا حواجز الرواق الحديدية للخضروات الكبيرة. بائعات ذلك الرواق بأغطية رؤوسهنّ البيضاء، وبمناديل مسدَلة على صدريّاتهن السود، وتنّوراتهنّ المرفوعة بمشابك كي لا تتّسخ، يتزوّدن بحصّة اليوم، ويملأن بمشترياتهنّ سلال

الحمّالين الكبيرة الموضوعة على الأرض. ومن الرواق حتّى الطريق، كانت حركة الدخول والخروج للسلال تنشط، بين الرؤوس المتصادمة، والألفاظ الفاحشة، صخب أصوات تُبحّ في مجادلة لمدّة ربع ساعة بخصوص مليم. ويندهش فلورون لصمت البائعات بمناديلهنّ الهندية، وبشراتهنّ المدبوغة، وسط ثرثرة المساومات في ليهال.

خلفه كانوا يبيعون الفواكه على رصيف شارع رامبوتو. صفوف من السلال الكبيرة ومن السلال الأصغر تصطفّ مغطاة بالأقمشة أو بالقشّ، وتخيّم على المكان رائحةٌ برقوق أصفر شديد النضج. التفت لصوت رقيق وبطيء كان يسمعه منذ فترة. فرأى امرأة قصيرة جميلة وسمراء جالسةً على الأرض تُساوم.

- قل لي يا مارسيل، هل تبيعها بمائة مليم؟

لم يكن الرجل المتدثّر بمعطفٍ يردّ عليها، وبعد خمس دقائق طوال عاودت المرأة الشابّة:

- قل لي يا مارسيل، مائة مليم لهذه السلّة، وأربعة فرَنْكات للأخرى، فيكون ما ينبغي أن أدفعه لك تسعة فرنكات، أليس كذلك؟

وساد الصمت من جديد:

- إذن كم ينبغي أن أدفع لك؟

- هي عشرة فرنكات، أنتِ تعرفين ذلك، لقد قلته لك من قبل... وزوجك ماذا فعلتِ به يا ساربيت؟

ضحكت المرأة وهي تخرج حفنةً كبيرةً من النقود.

- حسناً، زوجي نؤوم ضحى... يدّعي أنّ الرجال لم يُخلقوا للعمل.

سدّدت المبلغ، وأخذت السلّتين إلى رواق الفاكهة الذي كانوا قد فتحوه. وظلّت سوق ليهال على ظلامها الخفيف تحت آلاف الإشعاعات لأضواء الشبابيك؛ وتحت الشوارع الكبيرة المسقوفة كان أناس يمرّون، بينما الأروقة البعيدة تظلّ خاويةً وسط الزحام المتنامي على أرصفتها. عند ناصية شارع سانت أوستاش، كان الخبّازون والخمّارون يرفعون أبواب دكاكينهم الحمراء بمصابيحها الغازية المشتعلة التي تخترق الظلام على طول المنازل المعتمة. كان فلورون ينظر، على يسار شارع مونتورغي، إلى مخبز ممتلئ ومذهّب بالدفعة الأخيرة الناضجة من الأرغفة، وظنّ أنّه يشمّ رائحة الخبز الساخن. كانت الساعة الرابعة والنصف.

كانت مدام فرانسوا قد فرغت من بيع بضاعتها، ولم يتبقّ معها سوى القليل من حزمات الجزَر، عندما ظهر لاكاي بكيسه مرّةً أخرى.

- ها، هل يصلح الأمر بمليم واحد؟ سألها.

- كنتُ متأكدةً أنّني سأراك ثانيةً، ردّت السيّدة بهدوء. لنرَ، خذ كلّ ما تبقى، هناك سبع عشرة حزمة.

- يكون الحساب سبعة عشر مليماً.

- لا، أربعة وثلاثون.

واتّفقا في النهاية على خمسة وعشرين مليماً. كانت مدام فرانسوا تتعجّل الذهاب، عندما ابتعد لاكاي آخذاً الجزر في كيسه:

- هل رأيت، إنّه يتربص بي، ذلك الرجل يشاغب السوق كلّها؛ إنّه ينتظر أحياناً حتّى الدقّة الأخيرة للجرس حتّى يشتري بضاعة بأربعة مليّمات... يا لهؤلاء الباريسيّين! يتشاجر واحدهم من أجل فلسين، ثمّ

يذهب إلى الخمّارة ليتجرّع الشراب حتّى آخر ملّيم يملكه.

عندما كانت مدام فرانسوا تتكلّم عن باريس كانت تمتلئ بالسخرية والازدراء. هي تتعامل معها كمدينة متباعدة، سخيفة للغاية ومدعاة للاحتقار، لا تقبل أن تضع قدميها فيها إلّا ليلاً.

- الآن، بإمكاني أن أذهب، قالت بينما هي تجلس بالقرب من فلورون على خضار إحدى الجارات.

خفض فلورون رأسه، كان قد اقترف على التوّ سرقةً. فعندما غادر لاكاي، لمح جزرة على الأرض، فسارع بالتقاطها، وظل ممسكاً بها في كفّه اليمنى، ومن خلفه ربطات من الكرفس وأكوام من البقدونس تطلق روائح نفّاذة تذْهم أنفه.

- سأذهب، كرّرت مدام فرانسوا.

كان ذلك الرجل المجهول يثير اهتمامها، وكانت تشعر به يتعذّب على هذا الرصيف الذي لم يبارحه. عرضت عليه خدماتها من جديد، لكنه رفض مرّةً أخرى بإباء أكثر حدّة. قام واقفاً كي يبرهن على عافيته. وإذ أدارت رأسها وضع الجزَرة في فمه، لكنه اضطرّ للاحتفاظ بها لوهلة، على الرغم من حاجته الملحّة لأن يطبق عليها بأسنانه. نظرت من جديد في وجهه، وواصلت استجوابه بفضول امرأة طيّبة. وهو، كي لا يتكلّم، كان يجيب بإشارات من رأسه، ثمّ بهدوءٍ وبطءٍ إزدرد الجزرة.

كانت تاجرة الخضار تهمّ بالانصراف عندما قال صوت قويّ بجانبها:

- صباح الخير مدام فرانسوا.

كان الصوت لفتىً نحيف عريض العظام وبرأس كبير، ملتحٍ وبأنف

دقيق للغاية وعينين صغيرتين صافيتين. كان يعتمر قبعةً من اللبد الأسود حالَ لونها وتحوّر شكلها، متدثّراً بكامله بمعطف كبير كان لونه فيما مضى بنّياً فاتحاً، وقد ارتسمت عليه بفعل المطر بُقَع كالحة عريضة. كان محنيّاً قليلاً، متوتّراً برجفة عصبيّة تبدو ملازمةً له. وظلّ واقفاً بنعليه الكبيرين المربوطين وبنطاله القصير الذي يكشف عن جوربيه الطويلين الأزرقين.

- صباح الخير أيّها السيّد كلود، ردّت بائعة الخضار مبتهجةً، أتعرف؟، لقد انتظرتك يوم الاثنين، وعندما لم تأتِ احتفظت بلوحتك وعلّقتها على مسمار في غرفتي.

- أنتِ طيّبة للغاية، سوف أُنهي لوحتي في يوم من الأيّام... لم يتسنّ لي ذلك يوم الاثنين... هل شجرة البرقوق الكبيرة لديك لا تزال تحتفظ بأوراقها؟

- بالتأكيد.

- لأنّي، كما سترين، سأضعها في ركن من اللوحة، ستكون جميلة إلى يسار قنّ الدجاج. لقد كنت أفكّر في هذا طوال الأسبوع... - يا للخضروات الطيّبة! هذا الصباح خرجت مبكّراً وأنا أتوقّع شروقاً للشمس خلّاباً على صفوف هذا الكرنب.

وأشار بيده إلى كامل صفّ البسطات، فقالت له التاجرة:

- حسناً، سأذهب، وداعاً... إلى اللقاء أيّها السيّد كلود.

وقبل أن تغادر عرّفت فلورون على الرسّام الشابّ.

- تفضّل، هذا السيّد قد جاء من بعيد، فيما يبدو، وهو لم يعد يعرف باريسكم المتصعلكة هذه، ربّما استطعت أن تقدّم له بعض النصائح.

وغادرت أخيراً، سعيدةً بتركها الرجلين متصاحبين. كان كلود ينظر إلى فلورون باهتمام: ذلك الوجه النحيف الهائم يبدو له متفرّداً. وكان تقديم مدام فرانسوا كافياً، وبألفة متسكّع تعوّد على كلّ أنواع اللّقاءات التي تمليها الصدفة، قال له بهدوء:

- سوف أصطحبك، إلى أين أنت ذاهب؟

وقف فلورون منزعجاً، إذ ليس من طبعه البوح بما يعتمل في ذهنه. ومنذ وصوله وهو يحتفظ بسؤال على طرف لسانه، فخاطر وطرَحه متخوّفاً من إجابة مؤسفة:

- ألا يزال شارع بيرْوَيت موجوداً؟

- نعم بالتأكيد، ردّ الرسام، هو ركن مثير من باريس القديمة ذلك الشارع، إنّه يتلوّى كراقصة، وبيوته لها بطون منتفخة كنساء سمينات. لقد صوّرته في لوحة بطريقة الحفر لا بأس بها، عندما تأتي لبيتي سأريك إيّاها... هل أنت ذاهب إلى هناك؟

أقسم فلورون، بعد أن ارتاح وابتهج لأنّ الشارع كان لا يزال موجوداً، أنّه غير ذاهب إلى هناك، مؤكِّداً أنّه ليس لديه أيّ مكان يذهب إليه. وقد استيقظ ارتيابه كلّه أمام إلحاح كلود.

- لا عليك، قال الأخير، فلنذهب حالاً إلى شارع بيرويت، إنّ له في الليل طابعاً مميّزاً!... تعال فهو على بعد خطوتين.

واضطرّ لمسايرته، وسارا جنباً إلى جنبٍ، كمثْل رفيقين متقافزَين فوق السلال والخضروات. وعلى بسطات شارع رامبوتو كان هناك أكوام ضخمة من القُنّبيط، تصطفّ في تراكم وبانتظام مدهش. وكانِ اللباب الأبيض

الطريّ للقنّبيط يتفتّح كزهرات هائلة، بين أوراق كبيرة خضراء، والأكوام تشبه أكاليل أعراس مصفوفة في زهريّات ضخمة. فتوقّف كلود ليطلق صيحات إعجاب قصيرة.

وفي شارع بيرويت، كان يتوقّف قبالة كلّ بيت ليريه إيّاه ويعرّفه به. كان هناك مصباح غازيّ وحيد مشتعل في أحد الأركان. والبيوت مكدّسة، نائمة، تمدّ أفاريزها «كبطون نساء سمينات» بحسب تعبير كلود، تميل أسقفها الهرميّة إلى الخلف، وتستند بعضها على أكتاف بعض. تبدو ثلاثة بيوت أو أربعة في عمق الظلام وكأنّها ستقع على أنوفها، ويضيء مصباح الغاز أحدها، وكان شديد البياض، حديث الترميم بالجصّ، بقوامه الذي لامرأة عجوز منكسرة ومترهّلة، وجهها أشهب من المساحيق، مبهرجة بالألوان. ثمّ يغور الصفّ المشوّه للبيوت الأخرى، ليختفي في قلب الظلام، متشقّقاً، كالحاً من هطول الأمطار، ولقد جعل تبدّد الألوان والهيئة على هذا النحو كلود ينطلق ضاحكاً. كان فلورون قد توقّف عند زاوية شارع مونديتور أمام البيت قبل الأخير على اليسار. كانت طوابقه الثلاثة تغطّ في السبات بنوافذها التي لا خصاص لها، وستائرها البيضاء محكمة الإغلاق خلف الزجاج؛ وفي الأعلى، كان هناك ضوء يروح ويجيء على ستارة نافذة السقيفة، وكان يبدو أنّ الدكان الواقع أسفل الإفريز يثير فيه مشاعر غير عادية. كان يُفتح. إنّه متجر للأعشاب المطبوخة؛ في العمق هناك أحواض لامعة؛ وعلى طاولة العَرض، معجّنات سبانخ وهندباء في آنية خزفيّة، مستديرة، ومستدقّة تقطعها المغارف الصغيرة التي لا نرى منها سوى أذرعها المعدنية البيضاء. وتوقّف فلورون مشدوهاً أمام ذلك المشهد. لا بدّ أنّه لم يعرف الدكّان، وقرأ اسم صاحبه على يافطة حمراء: «غودبوف»، وبقي واجماً، ذراعاه تتأرجحان، يتملّى معجّنات السبانخ بالوجه البائس لرجل يمرّ بحالة حزن عظيم.

وفي تلك الأثناء فُتحت نافذة السقيفة، وأطلّت منها عجوز ضئيلة تطلّعت إلى السماء ثمّ إلى سوق ليهال البعيدة.

- انظر، إنّ الآنسة ساجيه مبكّرة اليوم، قال كلود بعد أن رفع رأسه نحوها.

ثمّ قال بعد أن التفت لصاحبه:

- لديّ عمّةٌ في هذا المنزل، إنّه مستودع للنميمة... آه، انظر، إنّ بيت آل ميهودان يستيقظ، هنالك ضوء في الطابق الثاني.

أوشك فلورون على سؤاله، لكنّه وجده مريباً في معطفه الحائل، فتبعه دون أن ينطق بكلمة، بينما الآخر يكلّمه عن بنات آل ميهودان؛ لقد كنّ من السمّاكات، الشقيقة الكبرى رائعة. أمّا الصغرى التي تبيع أسماك المياه العذبة فهي تشبه إحدى عذارى موريّو، شقراء تماماً بين أسماك الشبّوط والأنقليس. كان يهمّ بأن يقول غاضباً إنّ موريّو كان يرسم بنزَقٍ مثل صبيّ. ثمّ توقّف بغتةً في منتصف الشارع:

- حسناً، إلى أين أنت ذاهب في النهاية!

- لست ذاهباً إلى أي مكان في الوقت الحالي، قال فلورون مُرهقاً. فلنذهب إلى حيث تريد.

وإذ كان يخرج من شارع بيرويت، هتف صوتٌ منادياً كلود من داخل حانوتِ لخمّار بزاوية الشارع. فدخل كلود، ساحباً فلورون خلفه. كان جانب واحد من الباب قد رُفع، ومصباح الغاز لا يزال مشتعلاً في هواء البهو النائم؛ خرقة مهملة، وأوراق للّعب من سهرة الأمس منسيّة على الطاولات، وتيّار الهواء المتسرّب من فتحة الباب يخترق بحدّته الرائحة الساخنة الحبيسة للنبيذ.

كان السيّد لوبيغر، صاحب المكان، يخدم الزبائن مرتدياً كنزة ذات كمّين، بطوق لحيته الأجعد، ووجهه السمين الشاحب من النُعاس. وأمام منضدة الشرب وقف رجال في مجموعات يحتسون الشراب، ويسعلون، ويبصقون، بعيون غائمة، يكملون سهرتهم مع النبيذ الأبيض والعرَق. عرفَ فلورون بينهم لاكاي، الذي كان ملأ كيسه بالخضار في تلك الساعة. لقد كان في دورته الثالثة، مع زميل له يحكي مُسهِباً عن شرائه سلّة من البطاطا. وعندما أفرغ كأسه، ذهب ليحادث السيّد لوبيغر في مقصورة زجاجية في نهاية البهو، حيث ما من مصباح مضاء.

- ماذا تريد أن تشرب؟ سأل كلود فلورون.

عند دخوله كان قد صافح الرجل الذي دعاه. كان شابّاً قويّاً ووسيماً في الثانية والعشرين من عمره على الأكثر، حليق الوجه إلّا من شارب صغير، بقبّعة عريضة مُلطخة بالطباشير، وصدرية منسوجة بالزخارف تمسك حمّالاتها صدريّته الزرقاء. كان كلود يدعوه ألكساندر، ويربّت على ذراعه، ويسأله متى سيذهب إلى شارونتنو. ويتكلّمان عن رحلة كبيرة كانا قد قاما بها بالقارب على نهر المارن حيث أكلا أرنباً في المساء.

- قل لي، ماذا ستشرب؟ كرّر كلود.

نظر فلورون إلى منضدة الشرب بإحراج شديد. كان عند نهايتها إبريقان نحاسيّان لمزيج الروم والنبيذ الدافئ يسْخنان على لهيب أزرق وورديّ لموقد غازيّ. وأقرَّ في النهاية بأنّه سيشرب شيئاً ساخناً. فقدم لهم السيّد لوبيغر ثلاث كؤوس من مزيج الروم الدافئ. كان هناك بجوار الإبريقين سلّة تحوي قطعاً صغيرة من الخبز مع الزبدة أتوا بها للتوّ طازجةً يتصاعد منها البخار، ولكنّ الآخرين لم يمسّاها، فجرع فلورون كأسَ مزيج الروم، وشعر

به يخترق معدته الخاوية كخيوط من الرصاص المنصهر. وكان ألكساندر هو من دفع ثمن الكؤوس.

- إنّه لفتى طيّب، ألكساندر ذاك، قال كلود إذ خرج مع فلورون إلى رصيف شارع رامبوتو، وأضاف: إنّه لطيف المعشر في الريف، يقوم بحركات رياضية بارعة، وهو رائع، ذلك الوغد؛ لقد رأيته كما ولدته أمّه، كنت سأرسمه في تخطيط للجسد العاري لو كان يوافق على المثول أمامي في الهواء الطلق... والآن، هل يروقك أن نقوم بجولة في ليهال؟

كان فلورون يتبعه، تاركاً له نفسه. كان بصيص من الضوء يبرق في عمق شارع رامبوتو معلناً عن الصباح. كانت صخب ليهال يهدر عالياً؛ أحياناً، كانت دقّات جرسٍ تقطع ذلك الهدوء المتقدّم والمتصاعد أتيةً من أحد الأروقة البعيدة. دخلا في أحد الشوارع المسقوفة، بين رواق الأسماك ورواق الدواجن. كان فلورون يتطلّع إلى عقود السقف حيث يبرز الخشب المشغول بين زخارف الهياكل الحديدية، وعندما خرج للشارع الكبير في المنتصف، فكّر في مدينة غريبة بأحيائها المتمايزة، وضواحيها، وقُراها، ومتنزّهاتها وطرقاتها، بميادينها وتقاطعاتها وقد وضِعَت كلّها، بنزوة هائلة، تحت سقيفة في يوم ماطر. الظلّ الناعس في تجاويف السقف يضاعف غابة الأعمدة، ويكثّر إلى ما لا نهاية له الدعامات الرقيقة، والمقصورات المتقطّعة، والنوافذ الشفافة؛ وفوق المدينة تمتدّ حتّى الظلمات أشكال نباتية، وزهور يانعة في تفتّح شاسع من المعدن، تغطّي سيقانه التي تتمدّد إلى الأعلى في شكل مخروطيّ، وأوراقها التي تتثنّى وتنعقد، عالَماً كاملاً بخفّةِ أوراقِ دوحةٍ معمّرة. أحياء بكاملها لا تزال تغطّ في نومها مسورّة بأسيجتها. رواقا الزبدة والدواجن تصطفّ دكاكينهما بمشابكها الحديديّة وتتمدّد طرقاتها المقفرة تحت صفوف المصابيح

الغازية. وللتوّ كان قد فُتح رواق الأسماك؛ ثمّة نساء يعبرن فوق صفوف الأحجار البيضاء التي تبرقشها ظلال السلال وقطع النسيج المهملة. وتستمرّ الضجة في التصاعد حول الخضروات الكبيرة والفواكه والزهور. وشيئاً فشيئاً كانت اليقظة تطال المدينة، من أحيائها المزدحمة، حيث يتكوّم الكرنب منذ الرابعة صباحاً، حتّى الأحياء الكسلى الثرية التي لا تستيقظ بيوتها قبل الثامنة. ولكن في الشوارع الكبيرة المسقوفة، كانت الحياة تتقاطر. وعلى طول الرصيف، على الجانبين، كان بعض تجّار الخضار لا يزالون هناك، ومزارعون صغار جاءوا من ضواحي باريس يعرضون على سلالٍ حزماتٍ من الخضار وحفنات من الفواكه من قطاف العشية الفائتة. وفي وسط حركة الزحام التي لا تهدأ كانت تدخل تحت السقيفة بعض العربات فيخفت تدريجياً صليل خبب أحصنتها. توقّفت عربتان من بينها مستعرضتين وقد سدّتا الشارع. ولكي يمرّ فلورون، توّجب عليه أن يستند على أحد أكياسها الغبراء التي تشبه جواليق الفحم. كانت العربة تنوء بحمولتها، ولأكياسها المبتلّة رائحة أعشاب البحر الطازجة، وكان أحدها مثقوباً في أحد جوانبه ممّا أدّى إلى انسكاب كومة سوداء من المحّار الكبير. في كلّ خطوة كان عليهما التوقّف. كانت مأكولات البحر تتوافد، وتتوالى عربات النقل محمّلة بالأقفاص الخشبية العالية المليئة بالسلال التي جاءت مشحونةً بالقطارات من ساحل المحيط. ولكي تتوقّف عربات المأكولات البحرية العجلى والنافدة الصبر، لا بدّ أن تحتلّ مكان عربات نقل الزبدة والجبن والبيض، عربات كبيرة صفراء تجرّها أربعة أحصنة وتعلوها فوانيس ملوّنة. رجال أقوياء يحملون صناديق البيض، وسلال الجبن والزبدة ويأخذونها إلى رواق المزادات حيث يعكف موظفون ذوو قبّعات على الكتابة في دفاتر صغيرة على ضوء مصابيح الغاز. كان كلود منتشياً من تلك الضوضاء. وكان ينسى نفسه أمام أحد تأثيرات

الضوء، أمام مجموعة رجال ذوي صدريّات، أو أمام عربة تُفرغ حمولتها. وفي النهاية انصرفا، ولمّا كانا يحاذيان دائماً الشارع الكبير، فقد سارا وسط رائحة نفّاذة كانت تجول حولهما وبدا أنّها تتبعهما. لقد كانا في قلب سوق الزهور وعلى الرصيف، في الجانبين، كان هناك نسوة جالسات أمامهنّ سلال مربّعة، مليئة بحزمات الورد الجوري، والبنفسج، والأضاليا، والأقحوان. كانت الحزمات تكفهرّ مثلَ بُقَع من الدم، وتشحب خفيفاً بلون رمادي كاللُّجَين رقيق للغاية. وبالقرب من إحدى السلال كان هناك شمعة مضيئة تضفي على الظلام المحيطة أغنيةً من الألوان الحادّة، ألوان الأقحوان الصاخبة، والأحمر الدمويّ للأضاليا، وأزرق البنفسج، وما يشبه اللحم الحيّ في الورود، ولم يكن هناك ما هو أرقّ ولا أكثر إنعاشاً من رقّة هذا العبير تصادفه على الرصيف لدى خروجك من الزفرات الحمضية لروائح الأسماك والعبق اللّاذع للزبدة والأجبان.

وواصل فلورون وكلود المسير. متسكّعين، متباطئين بين الزهور. وتوقّفا بفضول أمام بعض النساء يبعن حزمات من السرخس وربطات من أوراق كروم العنب المتناسقة والمربوطة معاً في أعداد صغيرة. ثمّ انحرفا في منطقة مقفرة من الشارع المسقوف، حيث كان لوقع خطواتهما صدىً، كأنّهما يسيران في بهو كنيسة. وقد وجدا فيها حماراً صغيراً ضجِراً بالتأكيد مربوطاً إلى عربة كبيرة، وقد أخذ في النهيق لدى رؤيتهما في غطيط قويّ وطويل ارتجفت له السقيفات العريضة لسوق ليهال. واستجابت له بعض الخيول بالصهيل؛ كان هناك وقع لخطوات، وضجيج يتصاعد على مسافة، يلتفّ، ويضيع. وفي مواجهتهما، في شارع بيرجيه، كانت حوانيت الوسطاء العارية تعرض بين جدرانها الثلاثة الملوّثة بحسابات مكتوبة بأقلام الرصاص، تحت أضواء الغاز، أكداساً من السلال والفواكه. ومن موقعهما هذا، لمحا امرأةً أنيقةً،

ضائعةً تمرق بخفّة في وسط ازدحام الطريق.

- إنّها سندريلا تعود من دونّ خفّها، قال كلود مبتسماً.

كانا يتجاذبان أطراف الحديث بينما يجوبان ليهال. كلود يسير واضعاً في جيبيه يديه، ويصفّر من بين شفتيه بلحنٍ، وهو يحكي عن عشقه الشديد لذلك الفيض من المأكولات الذي يصّاعد من قلب باريس كلّ صباح. كان يجول على الرصيف لليالٍ بطولها، حالماً بلوحات طبيعة صامتة من الحجم الكبير، لوحات رائعة. بل إنّه كان قد شرع في إنجاز واحدة بالفعل، رسمَ فيها صديقه مارجولان وفتاة ضائعة تُدعى كادين، لكنّ الأمر كان شاقّاً، وجميلاً للغاية، تلك الخضروات الملعونة، والفواكه، والأسماك، واللحوم! كان فلورون يستمع لحماسات ذلك الفنّان وهو يتضوّر جوعاً. من الواضح أنّ كلود كان يعتقد أنّ هذه الأشياء الجميلة لا تؤكل. هو يعشقها لألوانها. توقّف بغتةً عن الكلام، وأمسك، في حركة تبدو ملازمةً له، بحزامه الأحمر الذي يتمنطق به تحت معطفه الباهت وقال بصوت خفيض:

- ثمّ إنّي أتناول غذائي هنا، بالنظر على الأقلّ، وذلك أفضل من لا شيء. أحياناً حين أسهو عن تناول عشائي مساءً، أملأ معدتي في الصباح التالي بمشاهدة كلّ هذه الأطايب وهي تصل. هذا الصباح يملؤني الحنان نحو خضرواتي العزيزة... إنّ ما يثير حنقي ولا يبدو لي عادلاً هو أنّ هؤلاء البرجوازيّين الأشرار يلتهمون كلّ هذا!

وحكى عن عشاء كان قد دعاه إليه أحد أصدقائه في مطعم بارات، ذات يوم رائع، حيث تناول المحار والسمك ولحم الطرائد، لكنّ بارات تدهورت حاله، وكلّ كرنفال سوق لينوسان[1] القديمة قد اندثر. كانا في سوق ليهال

(1) سُمّيت السوق بهذا الاسم: Marché des Innocents (ومعناه «سوق الأبرياء») لمجاورتها كنيسة تحمل الاسم نفسه، وفيه إحالة على مذبحة صغار منطقة اليهوديّة في فلسطين الذين =

المركزيّة، في ذلك الصرح الفولاذيّ، في تلك المدينة الحديثة، المبتكرة. عبثاً كان الحمقى يتذمّرون، فحضارة العصر كلّها كانت ماثلة هنا. وفلورون لم يعد يعرف هل يندهش من المَشاهد اللافتة أم من اللّحم الطيّب لمطعم بارات. أخذ كلود يلعن الرومانطيقيّة، وكان يفضّل تلك الأكوام من الكرنب على أسمال العصور الوسطى. وانتهى بأن وصف لوحته المحفورة بالأحماض لشارع بيرويت بأنّها ضعيفة. يجب التخلّص من المباني القديمة بهدمها وإقامة أخرى جديدة. وقال وهو يتوقّف:

- انظر إلى زاوية الرصيف، أليست تلك لوحة كاملة، ألن تكون أكثر إنسانية من تصاويرهم المريضة المرعبة؟

على امتداد الشارع المسقوف، كان هناك نساء يبعن القهوة أو الحساء. وفي ركن الرصيف كان هناك حلقة من الزبائن حول امرأة تبيع حساء الكرنب. كان ثمّة سطل من القصدير مليء بالمرق يتصاعد منه البخار فوق موقد صغير، تطلق فتحاته وميض الجمرات الشاحب. والمرأة المسلّحة بمغرفة كبيرة تأخذ شرائح رفيعة من الخبز من قاع سلّة مغطاة بقطعة قماش وتصبّ الحساء في فناجين صفراء. وكان هناك بائعات نظيفات جدّاً، وتجّار خضار في قمصان، وحمّالون قذرون، بسترات عملٍ مشحّمة من أثقال الأطعمة التي حملوها على أكتافهم، شياطين بائسة في ملابس رثة، بكلّ الجوع الصباحيّ لسوق ليهال، يأكلون، متحرّقين، فاغرين أفواههم كي لا تمسّها المعالق فتلوّثها. والرسّام الذاهل يزرّ عينيه باحثاً عن زاوية لالتقاط رؤية موسعة للّوحة. لكنّ حساء الكرنب الملعون هذا له رائحة رهيبة. أدار فلورون رأسه، مستاءً من تلك الفناجين الممتلئة والتي يُفرغها الزبائن دون التفوّه بكلمة واحدة، بنظرات

= تعرّضوا للإبادة بأمر من ملكها هيرودس الكبير للحيلولة دون ظهور المسيح بعدما تنبأ الكهنة بكونه ولد في بيت لحم. انظر إنجيل متّى، 2/16–18.

جانبية كأنّها لحيوان خائف. وفيما كانت المرأة تقدّم وجبةً لزبون جديد أحسّ كلود بجاذبية الطّعام بفعلِ هبّة من البخار المتصاعد من المغرفة تلقّاها في وجهه.

أمسك بحزامه، مبتسماً بغضب، وواصل السير، ثمّ قال لفلورون بصوت خفيض مشيراً لكأس مزيج الروم التي دعاهم إليها ألكساندر:

- شيء غريب، هل لاحظت هذا؟ نجد دائماً من يدفع عنّا ثمن الشراب، لكننا لا نجد أبداً من يدفع عنّا ثمن الطعام.

كان الصبح قد طلع. عند طرف شارع لا كوسونري، كانت بيوت شارع سيباستوبول مظلمةً تماماً، وفوق الخطّ الواضح لأردواز الأسقف، رسمَ العقد العلويّ للشارع الكبير المسقوف في الزرقة الباهتة هلالاً من الضوء. كان كلود مائلاً بنظره إلى أسفل، يتطلّع إلى أعماق قبو مفغور في عرض الرصيف حيث يومض البريق المُريب لمصابيح غازية، ثمّ رفع بصره في الهواء ناظراً بين الأعمدة العليا يدقّق بين الأسقف المزرقّة، ثمّ استقرّت عيناه على أحد السلالم الحديدية الرفيعة التي تصل مستويَي السقيفة وتسمح باجتيازهما. فسأله فلورون عمّا يراه هناك في الأعلى، فقال كلود دون أن يجيب على السؤال:

- إنّه ذلك الشيطان مارجولان، إنّه بلا شكّ في أحد تلك الميازيب ما لم يكن قد قضى الليلة مع دواجن القبو... إنّني احتاج إليه من أجل لوحة.

وحكى أنّ إحدى البائعات عثرت على صديقه مارجولان ذات صباح في قلب كومة من الكرنب، وأنّه نشأ في الطريق حرّاً. وعندما أرادوا إرساله إلى المدرسة أصابه اعتلالٌ، فتوجّب إرجاعه إلى سوق ليهال، وهو يعرف

كلّ أركانها، ويحبّها بحنان ابن، ويعيش بخفّة سنجاب في قلب هذه الغابة الحديدية. إنّه يشكل ثنائياً رائعاً مع تلك المسكينة كادين التي آوتها مَدام شانتميس بعد أن عثرت عليها ذات مساء في أحد أركان سوق لينوسان القديمة. هو رائعٌ، ذلك المغفّل الضخم بسحنته المذهبة كأنّه أحد شخوص روبنز، مع زغب أصهب يحتقظ بالضوء؛ أمّا الصغيرة فهي ماكرة ونحيلة ولها خلقةٌ طريفة تحت الأجمة السوداء لشعرها الكثّ.

كان كلود يغذّ في السير وهو يتكلّم، فقاد صاحبه إلى ناصية شارع سانت أوستاش، فترك ذاك نفسه يسقط على إحدى الأرائك، بالقرب من مكتب الحافلات، متعب الساقين مرّةً أخرى. كان الطقس قد أصبح بارداً. وفي عمق شارع رامبوتو، كان ثمّة ومضات وردية ترصِّع السماء الحليبية التي تخترقها في الأعالي شقوق رمادية. كان لذلك الفجر رائحةً بلسمية حتّى أنّ فلورون شعر للحظة أنّه يعتلي أحد التلال في قلب الريف. ولكنّ كلود أراه على الجانب الآخر من الدكّة سوق التوابل والبهارات، وعلى طول الرصيف المخصّص لباعة كروش الذبائح وكراعينها، يخيّل للمرء أنّه يرى أمامه حقلاً من الزعتر والخزامى، ومن الثوم والبصل الأخضر. وكان التجّار قد عقدوا، حول أشجار الدلب اليافعة على الرصيف، أكاليل خضراء من أوراق الغار. كانت رائحة الغار القويّة هي التي تسود المكان.

كان ضوء ساعة كنيسة سانت أوستاش يذوي، يحتضر كمصباح خافت الضوء داهمه الصباح. وكانت مصابيح الغاز تُطفأ الواحد تلو الآخر في حوانيت الخمّارين في الشوارع المجاورة كنجوم تتساقط في النور. وفلورون يراقب سوق ليهال وهي تخرج من الظلام والأحلام التي رآها متسربلة بها، وها هي تبسط في وضح النهار قصورها الممتدّة إلى ما لا نهاية له. ها هي تستقيم صلبةً، بلون رماديّ مخضر، أكثر ضخامة أيضاً، حاملةً الأغطية

اللانهائية لأسقفها، تكدّس هياكلها الهندسية؛ وإذ تُطفأ كلّ الأنوار الداخلية، وتسبح في ضوء الصبح المشرق مربّعةً وأحادية الأشكال، تبدو كمثْلِ آلة حديثة، خارج كلّ المقاييس، آلة بخارية، مِرجل عملاق مخصّص لعملية هضم لشعب بكامله، جوفٍ حديديّ عملاق، مثبّت، ملتحم ومصنوع من الخشبً والزجاج والحديد المصبوب، بانتظام وقوّة، أشبه ما يكون بمحرّك آليّ، يدور هنا بحرارة التسخين، وبصوت العجلات المدوّي وحركتها الفوّارة.

وقفز كلود بحماس واقفاً على الدكّة، وأجبر رفيقه على إبداء إعجابه بشروق الصباح فوق الخضروات. كان ذلك كبحر، يمتدّ من ناصية شارع سانت أوستاش إلى شارع ليهال، بين مجموعتي الأروقة. ومن الناحيتين، عند التقاطعين، كان المدّ يكبر أيضاً والخضروات تغمر الطريق. والنهار يطلع ببطء، بلون رماديّ رقيق يضفي على كلّ الأشياء صبغة شفيفة شبيهة بالألوان المائية. وتترى الأكداس كأمواج متسارعة، نهراً من الخضرة يجري بين ضفتي الطريق، كانجراف أمطار الخريف، مكتسياً بظلال رقيقة ومتلألئة، ولون بنفسجيّ هشّ، ووردي بمسحة من بياض الحليب، وأخضر غارق في الصفرة، كلّ الشحوب الذي يجعل من السماء لدى شروق الشمس قطعةً من الحرير متغيّرة الألوان. وبقدرِ ما يصعد حريق النهار في ومضات من لهب في عمق شارع رامبوتو، كانت الخضروات تستيقظ بدورها، تخرج من الزُرقة الشاملة للأرضية، فإذا بالسلَطة، والخسّ، والهندباء، والهندباء البرية، متفتّحة ومليئة بعدُ بطين الأرض، تُبدي قلوبها الزاهية. وحزمات السبانخ، وحزمات الحُمّيض، وباقات الأرضيّ-الشوكيّ، وأكوام الفاصوليا والبازلّاء، وأكداس الخسّ الروماني المربوطة بخيوط رفيعة من القشّ، تُنشد جميعها درجات طيف اللون الأخضر، من لمعة القرون حتّى الأخضر الزاهي

للأوراق، ذلك الطيف الحيّوي الذي يتواصل حتّى يذوب في تدرّج ألوان سيقان الكرفس وحزمات الكُرّاث. ولكن النوطات العالية هي تلك التي تصدح بها بُقَع اللّون الحيّ للجزَر، والبقَع الصافية للّفت، المنتشرة بكمّيات هائلة على امتداد السوق، تضيؤه ببرقشة ألوانها. وعند تقاطع شارع ليهال، كان الكرنب يشكلّ جبالاً، الكرنب الأبيض الضخم، المتماسك والصلب ككرات من المعدن المُطفأ؛ الكرنب المجعّد الذي تشبه أوراقه كؤوساً من البرونز؛ والكرنب الأحمر الذي حوّله الفجر إلى إزهار بديع، ببقَع من القرمزيّ والأرجوانيّ الداكن. وفي الجهة الأخرى، عند مفرق شارع سانت أوستاش، كان مدخل شارع رامبوتو يسدّه متراس من اليقطينات العسليّة البرتقالية، معروضة في صفّين، تمتدّ بطونها. واللّمعة الذهبية لسلّة من البصل، والأحمر الدمويّ لكومة من الطماطم، والمسحة الصفراء لشحنة من الخيار، والبنفسجيّ الداكن لكميّة من الباذنجان، كانت تضيء هنا وهناك، فيما يترك الفجل الأسود الكبير المرصوص في فرْشات تشبه ثياب الحِداد ثقوباً للظلام في قلب الفرحة المتألّقة لليقظة.

صفّق كلود بيديه طرباً لهذا العرض. لقد رأى في تلك الخضروات «اللعينة» جموحاً وجنوناً، وتسامياً. وأكّد أنّها ليست ميتة، وأنّها منذ تمّ جنيها في العشية وهي تنتظر شمس الصباح لتقول لها وداعاً من على أرصفة سوق ليهال. هو يراها حيّةً، تتفتّح أوراقها، كما لو كانت أقدامها لا تزال وادعة ودافئة في الأسمدة. كان يقول إنّه يستمع هنا لضجيج كلّ بساتين الخضار في الضاحية. وفي تلك الأثناء، كان زحام القلنسوات البيض واالسترات السود والصدريّات الزرق يملأ الممرّات الضيقة بين الأكوام. لقد كانت حملة طنّانة. كانت سلال الحمّالين الكبيرة تتهادى ثقيلةً على الرؤوس. وكان بائعو الخضار المتجوّلون، وبائعات المفرّق، وتجّار الفاكهة يشترون، على عجل. كان

هناك بعض العرفاء، ومجموعات من رجال الدين حول جبال الكرنب. بينما يتشمّم طهاة المدارس الأجواء بحثاً عن العروض الجيّدة. كانت الشحنات لا تزال تُفرغ؛ عربات تلقي بحمولاتها على الأرض، كشحنة من حجر التبليط، تضيف موجة جديدة إلى التيّار الذي صار يضرب الرصيف المقابل. ومن عمق شارع بون نوف كانت قوافل العربات لا تتوقّف عن الوصول.

- هذا جميل وشيّق للغاية! غمغم كلود مستثاراً.

كان فلورون يتعذّب. ويعتقد في نوع من الغواية ما فوق البشرية. لم يكن يرغب في رؤية المزيد، وجعل ينظر إلى كنيسة سانت أوستاش المنتصبة مستعرضة كمسحة من لون بنيّ داكن على زرقة السماء، بورداتها الزخرفية ونوافذها الكبيرة المقنطرة، بقبّة الناقوس، وأسقفها الأردوازية. وكان قد توقّف عند الغور المعتم لشارع مونتورغي، حيث تدوّي أطراف لافتات كبيرة مشحونة بحروف مذهّبة، عند الضلع المنكسر لشارع مونمارتر ذي الشرفات المتوهّجة بأحرف مذهّبة. وعندما بلغ التقاطع جذبت انتباهه لافتات أخرى لـ «تجارة عقاقير وأدوية» و«طحين وبقول مجفّف» بأحرف كبيرة حمراء أو سوداء على خلفيات حائلة ألوانها. بيوت الزوايا بنوافذها الضيّقة كانت تستيقظ، وتضع في الفضاء الرحب لشارع بون نوف الجديد بعض الواجهات الجميلة الصفراء العتيقة لباريس القديمة. وفي ركن شارع رامبوتو كان يقف، في وسط نوافذ العرْض الخالية لمعارض الأزياء الراقية، موظّفون أنيقون بسراويل ضيّقة وأكمام عريضة باهرة لقمصانهم ينسّقون المعروضات. وأبعد قليلاً، متجر غيّو الصارم كثكنة عسكرية، يعرض برقّة خلف زجاجه علباً مذهّبة للكعك وصحوناً مليئة بالمخبوزات الصغيرة. كلّ المتاجر كانت قد فتحت أبوابها. عمّال بصدريّات بيض يحملون أدواتهم تحت أذرعهم ويهرولون مجتازين الطريق.

لم يكن كلود قد نزل من الدكّة. وكان يشبّ على قدميه كي يستطيع الرؤية لنهاية الشارع. وفجأةً، لمح في الزحام الذي كان هو يشرف عليه رأساً أشقر بشعر كبير متبوعاً برأس أسمر أجعد أشعث.

- يا مارجولان! يا كادين! هتف.

ولمّا كان صوته قد ضاع في زخم الضجيج، قفز أرضاً، وانطلق. ثمّ تذكر أنّه نسي فلورون؛ فعاد بوثبة؛ وقال سريعاً:

- أتعرف، عند نهاية ممرّ بوردونيه... ستجد اسمي مكتوباً بالطباشير على الباب، كلود لانتييه... تعال لترى لوحة الحفر التي تصوّر شارع بيرويت.

ثمّ اختفى. كان يجهل اسم فلورون؛ وغادره كما اصطحبه، على طرف الرصيف، بعد أن شرح له تفضيلاته الفنيّة.

وعاد فلورون وحيداً. لقد كان في البداية سعيداً بهذه الوحدة. ومنذ قابلته مدام فرانسوا في شارع نويي كان يتحرّك في خمول ومعاناة تنزع منه ملكة إدراك الأشياء. لقد صار حرّاً في النهاية. كان يريد أن يستفيق، يستفيق من ذلك الحلم القاسي بالأطعمة العملاقة الذي يشعر بأنّه يتبعه. لكنّ رأسه ظلّ خاوياً، لم يعثر بداخله إلّا على خوف أصمّ. كان النهار يتقدّم. صار بإمكان الآخرين أن يروه. فنظر إلى بنطاله وحلّته المحلولين. ثمّ زرّ الحلّة، وحاول أن يصلح من هيئته قليلاً معتقداً أنّ أسماله السوداء تُفصح عن المكان الذي جاء منه. كان جالساً في منتصف الدكّة بجوار الصعاليك البؤساء المتساقطين هناك في انتظار الشمس. إنّ ليالي ليهال حنونة على المشرّدين. كان هناك اثنان من رجال الدرك، لا يزالان في دوريّتهما الليلية بمعطفيهما وقبّعتيهما العسكريتين، يسيران جنباً إلى جنب، بأيديهما خلف ظهريهما، يجوبان

الرصيف جيئةً وذهاباً؛ وفي كلّ مرّة يمرّان فيها أمام الدكة كانا يلقيان نظرة على الطريدة التي يتشمّمانها. فتخيّل أنّهما قد تعرفّا عليه، وأنّهما يتشاوران في أمر اعتقاله. فركبه التوجّس، وأخذته رغبة عارمة في أن ينهض، ويجري. لكنه لم يعد يجرؤ، لم يكن يعرف في أيّ وجهة يمضي. وتلك النظرات المتكرّرة من الدركيّين، ذلك التفحّص البطيء والبارد من قبل الشرطة كان يعذّبه. وفي النهاية، غادر الدكّة، مانعاً نفسه من إطلاق العنان لساقية الطويلتين، وابتعد خطوةً خطوة، جامعاً كتفيه، مرتعباً من توقّع القبضات الفظّة للدركيّين على ياقته من الخلف.

لم يعد لديه سوى فكرة وحيدة، وحاجة وحيدة وهي أن يبتعد عن ليهال. حدّث نفسه بأن ينتظر، ويتقصّى حين يخلو الطريق قليلاً. هو يتوجّس من الشوارع الثلاثة التي تشكلّ التقاطع، شارع مونمارتر، وشارع مونتورغي، وشارع توربيغو: كانت تغصّ بعربات من كلّ الأشكال؛ وبخضروات تغطّي الأرصفة. فمضى قدُماً، حتّى شارع بيار ليسكو، حيث بدا له أنّ سوق البقلة وسوق البطاطا لا نهاية لهما. ففضّل أن يتابع السير في شارع رامبوتو. ولكن في شارع سيباستوبول اصطدم بعائق من الشاحنات، والعربات الكبيرة، والعربات ذات المقعد، فانتهج شارع سان دوني. وهناك ولج بين الخضروات. على الجانبين كان تجّار السوق قد فرغوا للتوّ من بسط فرشاتهم، ألواح موضوعة على سلال مرتفعة، مع طوفان من الكرنب والجزر واللّفت. كانت سوق ليهال تفيض. فحاول أن يخرج من هذا التيّار الذي يطارده في فراره. حاول تجريب شارع لا كوسونري، وشارع بيرجيه، وساحة لينوسان، وشارع لا فيرونري، وشارع ليهال. وتوقّف خائر العزيمة، مرتعباً، لا يقوى على الخروج من دائرة الأعشاب الجهنمية التي انتهت بالالتفاف حوله رابطة إيّاه بسيقانها الخضراء الرفيعة. وفي البعيد، حتّى شارع ريفولي، وحتّى ساحة

هوتيل دوفيل، كانت الصفوف اللانهائية من الدواليب والدوابّ تضيع في فوضى البضائع التي كانوا يفرغونها؛ شاحنات عملاقة تحمّل شحنات الفواكه لحيّ بأكمله، عربات تطقطق جوانبها متّجهة إلى الضاحية. تاه كلّيّةً في شارع بون نوف؛ علقَ في وسط موقفٍ لعربات اليد يزيّن فيه الباعة الجوّالون بسْطاتهم المتنقّلة. عرفَ بينهم لاكاي، الذي سلك شارع سانت أونوريه دافعاً أمامه عربة محمّلة بالجزر والقنّبيط، فتبعه أملاً في أن يساعده في الخروج من الزحام. كان البلاط قد أصبح زلقاً على الرغم من جفاف الطقس؛ أكوام من سيقان الأرضيّ-الشوكيّ، وأوراق الخضار كانت تجعل الطريق محفوفاً بالمخاطر. كان يتحسّس كلّ خطوة قبل أن يخطوها. وضاع منه لاكاي في شارع فوفيلييه. ومن ليهال حتّى أروقة القمح، كانت أطراف الشارع تتمترس بحواجز جديدة من العربات. فقرّر الإحجام عن المقاومة، لقد استعادته سوق ليهال، وجرفَه التيّار مرّةً أخرى. وصل ببطء، ووجد نفسه عند ناصية شارع سانت أوستاش.

ثمّ راح يستمع لصوت المسيرة الطويلة التي تنطلق من ليهال. باريس تهيّئ اللُّقَيمات لِمليونَي نسمة هُم سكّانها. كان ذلك كمثْلِ قلبٍ هائلٍ ينبض بشكل مخيف، ويضخّ دم الحياة في كلّ الشرايين. جعجعةَ فكّينِ عملاقين، ضجيج تحدثه جلبة التزوّد بالمؤن، من ضربات سياط البائعين بالجُملة، المنطلقين نحو الأسواق الصغيرة في الأحياء حتّى دبيب خِفاف السيّدات الفقيرات اللائي يمررن من بابٍ إلى بابٍ يعرضن الخضروات في سلال.

دخل في شارع مسقوف، على اليسار بين الأروقة الأربعة التي كان قد رأى ظلّها الصامت العملاق أثناء اللّيل. كان يأمل أن يلجأ إليه ويجد له فيه أيّ مأوى. لكنّ سكّانه في هذه الساعة كانوا قد استيقظوا كما في باقي الأماكن. ذهب حتّى طرف الشارع. كانت شاحنات تتعاقب في الوصول زاحمةً سوق

الدواجن بأقفاص مليئة بالدواجن الحيّة، وبسلال مربّعة صفّت فيها دواجن مذبوحة في طبقات عميقة. على الرصيف المقابل، شاحنات أخرى تفرغ عجولاً كاملة ملفوفةً بقطع من النسيج، راقدة بطولها، كأطفال موضوعين في سلال لا تسمح إلّا بمرور الأطراف المقطوعة المتباعدة والدامية. كانت هناك أيضاً خراف كاملة، وأرباع ثيران، أفخاذ، وأكتاف. وكان القصّابون بصدريّاتهم البيض يختمون اللحوم، وينقلونها على العربات، ويزنونها، ويعلّقونها على عوارض متجر المزادات؛ فيما هو، بوجهه ملتصقاً في الشباك الحديدية، يراقب صفوف أجساد الحيوانات المعلّقة، الثيران، والخراف الحمراء، والعجول لونها أفتح، مبرقشة ببياض الشحم والأطناب، مفتوحة البطون. ثمّ عبر إلى قطاع باعة الكروش والكوارع، حيث بين الرؤوس وحوافر العجول الشاحبة كانت الكروش تُلفّ في ربطات، بنظافة، داخل علب، فيما تصفّ الأمخاخ برفق على سلال مسطّحة، مع الأكباد الدامية، والكلى البنفسجية. وتوقّف أمام عربة طويلة ذات دولابين مغطاة بقماش مشمّع مستدير تحمل أنصاف خنازير موثقة إلى جانبي العربة على فرشة من القشّ. تراءى له داخل مؤخّرات العربات المفتوحة ما يشبه كنائس صغيرة متوهّجة، ومغاور لبيوت القرابين في هذا الاحمرار المتّقد للّحم الراسخ العاري، وعلى فرشة القش، كان هناك صفائح من القصدير تحتوي على دماء الخنازير. فاستولى على فلورون حنق شديد؛ كانت الرائحة الفاترة لحانوت الجزارة والرائحة اللاذعة للكروش والأمعاء ترهقانه. فخرج من الشارع المسقوف، مفضّلاً العودة مرّةً أخرى إلى رصيف شارع بون نوف.

كان ذلك عذاباً. أنهكه صقيع الصباح؛ كانت أسنانه تصطكّ، وكان يخشى أن يسقط في مكانه فيبقى مطروحاً على الأرض. فتّش، فلم يجد ركناً فارغاً على دكّة؛ كان سينام هناك حتّى لو أيقظه في النهاية أحد الدركيّين. ثمّ أعشاه

شيء كالوهج، فاستند على شجرة، مغلقاً عينيه وشاعراً بطنين في أذنيه. كان يشعر بالجزرة التي ازدردها دون مضغ تمزّق أحشاءه، وكأس مزيج الروم الذي تناوله يسكره. هو سكران من البؤس، والإرهاق، والجوع. كان ثمّة نار حارقة تلهب جوف صدره؛ فوضع عليه يديه كأنّها ليسدّ ثقباً أحسّ أنّ وجوده كلّه يتسرّب منه. كان الرصيف يتأرجح بعنف؛ أصبح عذابه لا يحتمل، فقرّر أن يواصل السير ليتغلّب عليه. سار قُدماً، متوغّلاً في الخضروات. وضاع فيها، اتّخذ ممرّاً ضيّقاً، وانحرف في آخر، على أن يعود من حيث أتى، لكنّه أخطأ الطريق؛ فوجد نفسه في وسط الخضروات. بعض أكوام الخضروات كانت عالية حتّى أنّ الناس كانوا كأنّهم يمرّون بين جدارين مشيّدين من الربطات والحزمات. كانت رؤوس الناس تفوقها ارتفاعاً بقليل، كان يراها وهي تمرّ بقلانسها البيضاء أو السوداء، والسلال المحمولة تتأرجح، كأنّها تيّار متدفّق من الأوراق، أو قُفَف من الخيزران تطفو على سطح بحيرة مزبدة. تعثّر فلورون بألف عائق، بحمّالين يتناولون حمولاتهم، بتجّار يساومون بأصواتهم الخشنة. كان ينزلق على طبقة سميكة من القشور ولباب الثمر تغطّي الطريق، ويختنق في الرائحة القويّة للأوراق المدهوسة. حينئذ، توقّف، بحماقة وترك نفسه لدفعات البعض، وشتائم البعض الآخر، لم يعد سوى شيء مضروب يتدحرج، في أعماق البحر الذي يرتفع.

غزته حالة كبيرة من الجُبن. كان يمكن أن يتسوّل لو أتيح له ذلك. غضبَ من عزّته البليدة تلك الليلة. لو كان قد قبل مساعدة مدام فرانسوا، أو لو لم يكن قد توجّس خيفة من كلود كمثلِ أحمق لَما كان هناك يتشكّى في تلك الساعة وسط الكرنب، وكان مستاءً بالَأخصّ لأنّه لم يسأل الرسّام في شارع بيرويت. في تلك الساعة كان وحيداً، ويُمكن أن يهلك على الطريق ككلب ضالّ.

رفع عينيه للمرّة الأخيرة، ونظر إلى سوق ليهال. كانت تبرق في الشمس. كان هناك شعاع كبير يدخل من أقصى الشارع المسقوف، مخترقاً الأروقة بكيان من الضوء. وكان هناك مطر محتدم يتساقط ضارباً الأسقف. كان الهيكل الحديديّ العملاق يغرق، ويصطبغ بالأزرق، لم يعد سوى صورة معتمة فوق ألسنة لهب الشروق. وفي الأعلى، أضيئت نافذة، بقعة ضوء تدحرجت حتّى الميازيب، على طول انحدار صفائح الزنك العريضة. إنّها مدينة صاخبة في غبار متطاير من ذهب. كانت اليقظة قد تعاظمت. من غطيط تجّار الخضار، النائمين تحت معاطفهم حتّى إيقاع السير الأسرع عند الوصول. الآن، المدينة بأسرها ترفع أبوابها، الأرصفة تطنّ، والأروقة تزأر؛ كلّ الأصوات تتعالى، وكان ذلك أشبه ما يكون بالانفجار العملاق للجملة التي كان فلورون ينصت لها منذ الرابعة صباحاً وهي تتلكّأ وتكبر في الظلام. في اليمين وفي اليسار وفي كلّ النواحي، كان زعيق المزايدات يفرض نوطات موسيقية حادّة لنايات صغيرة فوق لحن القرار الصادر عن الزحام. كانت الأسماك، وكانت الزبدة، وكانت الدواجن وكانت اللحوم. دقّات لناقوس تمرّ لتهزّ خلفها همهمات الأسواق التي تُفتح. ومن حوله، كانت الشمس تُلهب الخضروات. لم يعد يجد لمسات الألوان المائية الرقيقة التي هي لشحوب الفجر. كانت القلوب المتفتّحة للخسّ تشتعل، وطيف اللّون الأخضر يلمع ببريق خلّاب، والجزر دامي اللّون، واللّفت أصبح ملتهباً في هذا الوهج المنتصر. على يساره كانت عربات للكرنب لا تزال تنهال. فحوّل عينيه ليرى على البعد الشاحنات لا تزال تخرج من شارع توربيغو. البحر يواصل ارتفاعه. كان قد شعر به عند كاحله، ثمّ إزاء بطنه، إنّه يهدّد في هذه الساعة بغمره حتّى رأسه. كان أعشى وغارقاً، وأذناه تطنّان، ومعدته قد سحقها كلّ ما رآه، متوقّعاً أعماقاً جديدة لا تتوقّف من الأطعمة، فتوسّل

رحمةً، مأخوذاً بألم ممضّ، أن يموت هكذا من الجوع، في باريس المتخمة، في تلك اليقظة الباهرة لليهال. وطفرت من عينيه دمعتان كبيرتان.

كان قد وصل إلى ممرّ أوسع. مرّت من أمامه امرأتان، واحدة قصيرة وعجوز والأخرى طويلة ضامرة، تتحدّثان فيما هما متّجهتان ناحية الأروقة.

- هل جئت للتسوّق يا آنسة ساجيه؟ سألت الطويلة الضامرة.

- يا مدام لوكور، نستطيع أن نقول ذلك... تعرفين أنّني امرأة وحيدة. لا أحتاج الكثير... كنت أرغب في قنّبيطة صغيرة... لكن كلّ شيء غالٍ... والزبدة، بكم هي اليوم؟

- أربعة وثلاثون مليماً.... لديّ منها شيء طيّب، لو أردت فتعالي لزيارتي...

- نعم نعم لا أدري، لا يزال لديّ بعض السّمن.

كان فلورون يتابع السيّدتين وهو يبذل مجهوداً مضاعفاً. لقد تذكّر أنّه سمع كلود يذكر اسم القصيرة العجوز، في شارع بيرويت؛ فقال لنفسه إنّه سيسألها ما إن تغادر الطويلة الضامرة.

- وابنة أخيك؟ سألت الآنسة ساجيه.

- إنّ لاساريت تفعل ما يحلو لها، ردّت مدام لوكور بمرارة. أرادت أن تستقلّ بنفسها، وهو أمر لم يعد يعنيني. عندما يخدعها الرجال، فلن أكون أنا من تقدّم لها كسرة خبز.

- لقد كنتِ طيّبة للغاية معها... هي من المفترض أن تكسب النقود، الفواكه مربحة جدّاً هذا العام... وشقيق زوجك؟

- آه! هذا...

زمّت مدام لوكور شفتيها وبدا أنّها لا تريد أن تضيف المزيد في هذا الشأن.

- لا يزال على نفس الحال، أليس كذلك؟ واصلت الآنسة ساجيه... إنّه رجل طيّب للغاية... أنا لا أكفّ عن التفكير في أنّه يأكل نقوده بشكل ما...

- وهل نعرف ما إذا كان يأكل نقوده؟ قالت مدام لوكور بحدّة. إنه كتوم وبخيل، هو قد يتركني أتضوّر جوعاً بدلاً من أن يقرضني مائة مليم... إنّه يعرف جيّداً أنّ الزبدة والجبن والبيض كلّها في حالة كساد هذا الموسم، فيما هو يبيع دواجنه كما يحلو له... حسناً، ولا مرّة، ولا مرّة عرض أن يساعدني، كرامتي لا تسمح لي بأن أقبل، كما تعلمين، لكنّ ذلك كان ليسعدني.

- انظري ها هو شقيق زوجك، قالت الآنسة ساجيه وهي تخفض صوتها.

والتفتت المرأتان تنظران إلى شخص يعبر الطريق ليدخل في الشارع الكبير المسقوف.

- أنا على عجل، همست مدام لوكور ـ لقد تركت دكّاني بلا أحد، ثمّ إنّي لا أرغب في الحديث معه.

كان فلورون قد التفت أيضاً بشكل تلقائيّ، فرأى رجلاً قصيراً ربعةً، يبدو سعيداً، بشعر رماديّ قصير للغاية، يمسك تحت ذراعيه الاثنتين بإوزّتين سمينتين يتأرجح رأساهما وتضربان فخذيه. فداهمت فلورون فرحة مفاجئة؛ وركض خلف ذلك الرجل، ناسياً تعبه، وعندما لحق به:

- غافار، قال له وهو يلكزه في كتفه.

رفع الآخر رأسه، وفحص باندهاش ذلك الوجه الأسمر الذي لم يتعرف

عليه. ثمّ قال فجأةً:

- أنت! أنت! صاح وهو في قمة الذهول. كيف ذلك؟ إنّه أنت!

كادت أن تسقط منه الإوزّتان السمينتان. لم يكن قد هدأ، لكنّه لمح زوجة أخيه والآنسة ساجيه الواقفتين على مسافة في مقابله، فواصل سيره قائلاً:

- فلنرحل من هنا، تعال... هناك عيون وألسنة كثيرة.

وفي الشارع المسقوف، تحدّثا. حكى له فلورون أنّه ذهب إلى شارع بيرويت. وجد غافار ذلك طريفاً للغاية؛ وضحك كثيراً. وأخبره أنّ أخاه كونو قد بدلّ مكانه، وأعاد افتتاح متجره لجزارة لحم الخنزير على مبعدة خطوتين، في شارع رامبوتو مواجهاً لليهال، وما أضحكه كثيراً أيضاً هو سماعه أنّ فلورون كان قد تجوّل بصحبة كلود لانتييه، الشخص الغريب، الذي لم يكن سوى ابن أخي مدام كونو. كان ينوي اصطحابه إلى حانوت جزارة الخنازير. وعندما عرف أنّه عاد إلى فرنسا بأوراق مزوّرة اتّخذ سيماء الغموض والوقار الصارم، وقرّر أن يمشي متقدّماً إيّاه بخمس خطوات حتّى لا يلفتا الانتباه. وبعد أن مرّ برواق الدواجن ليعلّق إوزّتيه في مكان العرض، عبرَ شارع رامبوتو متبوعاً بفلورون. وهناك، وفي منتصف الطريق، وبطرف عينه أشار إلى متجر كبير وأنيق لجزارة الخنازير.

كانت الشمس تتخلّل شارع رامبوتو بشعاع مائل مضيئةً الواجهات التي بدت في وسطها فتحة شارع بيرويت كثقب معتم. وفي الطرف الآخر كانت كنيسة سانت أوستاش تبدو كسفينة ذهبيّة ضخمة في غبار الشمس، أو كوعاء ضخم للذخائر المقدّسة. وفي قلب الزحام، في عمق التقاطع، كان جيش من الكنّاسين يتقدّم مصطفاً، في انتظام لحركة الكنس، فيما يقوم الزبّالون بجمع القمامة بالشوكة وإلقائها في عربات متوقّفة على مسافة عشرين خطوة

الواحدة عن الأخرى بضجيج صحون تتحطّم. ولكنّ فلورون لم يكن منتبهاً إلّا لحانوت جزارة الخنازير المفتوح، الذي يتوهّج في ضوء الشمس الساطعة.

كان الحانوت يقع عند زاوية شارع بيرويت أو يكاد. كان فرحة للناظرين، يضحك ساطعاً بحروف من ألوان زاهية تغنّي في بياض رخامه. كانت اللافتة التي تحمل اسم «كونو غراديل» تبرق بحروف مذهّبة كبيرة وسط زخارف على شكل أغصان وأوراق على خلفيّة رقيقة، في لوحة مرسومة ومغطّاة بالزجاج. كانت اللوحتان الأماميتان على الجوانب أيضاً مرسومتين ومغلّفتين بالزجاج، وتصوّران ملاكين صغيرين ممتلئي الخدود، يلعبان بين رؤوس الخنازير وضلوعها، وأصابع السجق؛ كان للوحات الطبيعة الصامتة تلك، المزخرفة بالتفافاتٍ وبأشكال أوراد، رقّة الألوان المائيّة، حتّى أنّ شرائح اللّحم النيّء فيها كانت تتّخذ مسحة المربّى الورديّة. وفي داخل هذا الإطار المحبّب تبرز المأكولات المعروضة. كانت موضوعة على قطع بضّة من ورق أزرق، وفي بعض الأماكن، أوراق سرخس مصفوفة بعناية حول بعض الأطباق تحيلها إلى باقات مُحاطة بالخضرة. أنّه عالم من الأشياء الطيّبة، من الأشياء اللذيذة، من الأشياء الدسمة.

في البداية، وفي الأسفل، بجوار الزجاج كان هناك آنية لكفتة لحم الخنزير المفروم بين آنية للخردل، ثمّ تأتي فوقها قطع لحم الفخذ المملّح المنزوعة العظام بشكلها الدائريّ الجميل والتي أبيضّت من فتات الخبز المحمّص، وتنتهي أطرافها بشرّابات خضر. ثمّ تأتي الأطباق الكبيرة: ألسنة خنازير ستراسبورغ، حمراء، تبدو لامعةً داميةً بجوار شحوب النقانق وأكارع الخنازير؛ ولفائف المسوَّد[1] القاتمة الملتفّة كأفاعٍ وديعة؛ والنقانق المصفوفة

(1) المسوَّد: طعام من مصارين تُملأ دماً ثمّ تُشدّ رؤوسها وتُشوى وتؤكل. يُعِدّه البدو من دم الناقة، ويُحضَّر في الغرب من دم حيوانات أخرى.

في أزواج متفجّرة بالحيوية، وأسطوانات سجق السلاميّ التي تبدو كجوقة مرتّلين في غفّاراتهم الفضية. الفطائر المحشوّة باللحم ساخنةً تحمل بطاقاتها كالأعلام الصغيرة؛ وأفخاذ الخنازير المملّحة الضخمة، وقطع لحم البقر والخنزير المجمّدة البادية عليها شفافية السكّر المعقود. كان هناك أيضا برنيّات يرقد في قعورها لحم ولحم مفروم، في بحيرات من الدهن المتجمّد. وبين الأطباق والصحون، وعلى طبقة الورق الأزرق كان هناك مرطبانات للمخلّل والمرق، وللكمأة المحفوظة، وبرنيات لمسحوق كبد الإوزّ، وعلب برّاقة للتونة والسردين، وحاوية للجبن الأبيض، وأخرى للمحار المحشوّ بالزبدة المتبّلة بالبقدونس مهملتين في الركنين. وفي النهاية، كان في الأعلى عقود من النقانق والسجق والسجق المجفّف تتدلّى من عوارض بكلّابات، وهي تشبه الحبال أو شرّابات الزينة لستائر من النوع الثمين، وخلفها شرائح من النقانق المسطّحة تعرض دانتيلها وتخريماتها البيضاء الممتلئة. وهناك، على الدرجة الأخيرة من درجات هيكل المعدة هذا، وفي وسط قطع النقانق المسطحة وبين باقتين من زهر الدلبوث الأرجوانيّ، كان المذبح متوّجاً بحوض مربّع للأسماك مزيّن بالحصى تسبح فيه باستمرارٍ سمكتان حمراوان.

أحسّ فلورون بلذعة برد، ورأى امرأةً في الشمس، على عتبة الحانوت. كانت تضفي سعادةً إضافيةً، واكتمالاً صلباً ومبهجاً على كلّ تلك الأفراح الدسمة. امرأة حسناء. تقف بعرض الباب، على الرغم من أنّها ليست سمينة للغاية، برقبة قويّة وفي نضج الثلاثينات. كانت قد استيقظت لتوّها ولا يزال شعرها المنعّم المبتّل واللامع يهبط في خصلات صغيرة مسطّحة على صدغيها. فيجعلها ذلك تبدو شديدة النظافة. لبشرتها اللحيمة ذلك البياض الشفاف، تلك البشرة الرقيقة والوردية التي تكون عادةً للبشر الذين يعيشون بين الدهون واللحم النّيء. كانت إلى ذلك شديدة الجدّية، هادئة

جدّاً ومتّئدة، بنظرة بهيجة، وشفتين عظيمتين. ياقتها المُنشّاة تطوّق عنقها، وكمّاها الأبيضان مشمّران حتّى كوعيها، وتغطّي صديرتها البيضاء طرفَي حذائيها، ولا يبرز من أطراف فستانها الكشميريّ الأسود سوى كتفيها المستديرتين، وصدرها الممتلئ الذي يمطّ المشدّ كتلته بقوّة. كانت الشمس تلهب كلّ هذا البياض. وعلى الرغم من انغمارها في هذه النصاعة، بشعرها الفاحم وبشرتها الورديّة، وبكمّيها الأبيضين وتنوّرتها الناصعة، لم يكن يرفّ لها جفن، كانت تأخذ بكامل الوداعة الهانئة حمّام شمسها الصباحيّ، بعينيها الحلوتين، تضحك لسوق ليهال الفائضة نشاطاً. كانت تبدو شديدة النزاهة.

- إنّها ليزا زوجة أخيك، قال غافار لفلورون.

كان قد حيّاها بإشارة سريعة من رأسه، ثمّ غاص في الممرّ مستمراً في اتّخاذ تدابير دقيقة للحيطة، فهو لم يكن راغباً في دخول فلورون إلى الحانوت على الرغم من أنّه كان خالياً. لقد كان بالتأكيد سعيداً بالتواطؤ في مثل هذه المغامرة.

- انتظر، قال، سأرى إن كان أخوك موجوداً وحده... عندما أصفّق بيدي تدخل أنت.

ودفع باباً في أقصى الممرّ، ولكن عندما سمع فلورون صوت أخيه خلف هذا الباب، دخل بغتةً. قفز كونو الذي يحبّه كثيراً في أحضانه، وتعانقا كطفلين.

- آه، تبّاً! إنّه أنت، قال كونو متلعثماً، لم أكن لأتوقّع ذلك!... لقد اعتقدت أنّك متّ، بالأمس كنت أقول لليزا: «ذلك المسكين فلورون...»

ثمّ توقّف، وهتف مائلاً برأسه داخل الحانوت:

- يا ليزا!... ليزا!...

ثمّ التفت إلى طفلة صغيرة كانت قابعة في أحد الأركان:

- بولين. اذهبي وأحضري والدتك.

ولكن البنت لم تتحرّك، كانت طفلةً رائعةً في حوالى الخامسة من عمرها، بوجه سمين ومستدير، وتتشابه كثيراً مع بائعة لحم الخنزير الحسناء. كانت تحمل بين ذراعيها هرّةً كبيرةً صفراء تتدلّى أرجلها بحريّة، فتشبّثت بها بيديها الصغيرتين كما لو كانت تخشى أن يسلبها منها ذلك السيّد ذو الملابس الرثّة.

ووصلت ليزا متباطئةً.

- إنّه فلورون، إنّه أخي، كرّر كونو.

سمّته «السيّد»، وكانت طيّبةً للغاية. كانت تتفحّصه بهدوء من رأسه إلى أخمص قدميه، دون أن تُبدي اندهاشاً مُسيئاً، مبديةً ثنية خفيفة فقط في شفتيها. وظلت واقفةً تبتسم لقبلات زوجها، الذي كان قد هدأ احتدامه، فرأى حينئذٍ نحافة فلورون وبؤسه.

- يا صديقي المسكين، لم يتحسّن مظهرك هناك... أمّا أنا فقد سمنت، كما ترى!

كان سميناً بالفعل، أكثر ممّا ينبغي لأعوامه الثلاثين. جسده يفيض من قميصه، من صدريّته، من ملابسه البيضاء التي تقمّطه كرضيع ضخم. كان وجهّه الحليق مستطيلاً، يتشابه من بعيد مع خطوم تلك الخنازير التي يقضي نهاره خائضاً بيديه في لحمها. لم يكد فلورون يعرفه. كان قد جلس، ينقّل نظره بين أخيه وليزا الجميلة والصغيرة بولين، كانوا يفيضون بالصحّة، رائعين، ومشرقين. ينظرون له باندهاش الأشخاص الموفوري العافية عندما

تأخذهم نوبة من القلق أمام شخص شديد النحافة. حتّى القطّة نفسها التي يتفجّر جسدها شحماً، كانت تنظر إليه بعينيها المستديرتين، فاحصةً إيّاه بنظرة ارتياب.

- ستنتظر الغذاء، أليس كذلك؟ سأله كونو، نحن نأكل مُبكّراً، في العاشرة.

كانت رائحة قويّة للطهو تتلكّأ في الجوّ. استعاد فلورون ليلته الرهيبة، وصوله وسط أكوام الخضروات، وعذابه وسط أسواق ليهال، والانهيال المتواصل للطعام الذي فرّ منه، فقال بصوتٍ خفيضٍ وابتسامةٍ عذبة:

- لا، أنا جائعٌ، كما ترى.

الفصل الثاني

لم يكد فلورون يبدأ دراسته للحقوق في باريس حتّى توفّيت أمّه. كانت تعيش في فيغان، في منطقة الغار. اقترنت في زيجة ثانية برجل من النورمانديّ، من آل كونو، من إيفتو، وقد اصطحبه أحد نوّاب المحافظ إلى الجنوب ونسيَه هناك. وقد بقي موّظفاً في الإدارة، واجداً البلدة جذابةً، نبيذها طيّباً، ونساءها لطيفات، وقد راح ضحيةً لعسر هضم بعد ثلاث سنوات من الزواج. ولم يترك ميراثاً لزوجته سوى طفل سمين يشبهه تماماً. كانت السيّدة تسدّد بصعوبةٍ المصروفات المدرسية لابنها البكر فلورون، طفلها من الزواج الأوّل. وقد كان يعود لها بارتياح كبير، فقد كان طيّباً جدّاً، ويعمل بهمّة، ويحوز الجوائز الأولى في مسابقات المدرسة. وقد أسبغت عليه هو تحديداً كلّ حنانها، وعلّقت عليه كلّ آمالها. ربما كانت تفضّل في ذلك الطفل الشاحب والنحيف زوجها الأوّل، الذي كان رجلاً من إقليم بروفانس الجنوبيّ، ذا رقّة حانية، أحبّته حتّى الموت. وربّما بدا كونو، الذي أغواها في البداية بمزاجه المرح، غليظاً ومفرط العُجب والثقة في قدرته على استخراج أفضل الأفراح من ذاته. فقرّرت أنّ ابنها الأخير، الأصغر الذي تضحّي به عادةً

الأُسر الجنوبية، لن يصدر عنه أيّ خير؛ فاكتفت بإرساله للتعلّم، لدى جارةٍ لها، عانس، حيث لم يتعلّم الصغير سوى التسكّع، فنشأ الأخوان متباعدين وغريبين أحدهما عن الآخر.

عندما وصل فلورون إلى فيغان، كانت أمّه قد دُفِنَت. وكانت قد طلبت أن يخفوا عنه خبر مرضها حتّى اللحظة الأخيرة، كي لا تتعطّل دراساته. وجد كونو الصغير، وكان في الثانية عشرة من عمره، جالساً إلى طاولة ينتحب وحيداً في وسط المطبخ. حكى له أحد الجيران، وهو تاجر للأثاث، معاناة أمّه المسكينة؛ كانت تعيش على مواردها الأخيرة، ولقد قتلت نفسها في العمل كي يستطيع ابنها دراسة الحقوق. في تجارة صغيرة للأشرطة تدرّ دخلاً متواضعاً، كان لا بدّ لها أن تلتحق بأعمال أخرى تشغلها حتّى وقت متأخّر. الفكرة التي تسلّطت عليها بأن ترى ابنها فلورون مُحامياً ذا وضع في المدينة، جعلتها قاسيةً، بخيلةً، صارمةً مع نفسها ومع الآخرين. كان كونو الصغير يحوم بسراويل ممزّقة وقمصان مهلهلة الأكمام. وكان لا يتناول الطعام بنفسه أبداً على المائدة، وينتظر دائماً أن تقطّع له أمّه نصيبه من الخبز. وكانت تقطّعه في شرائح رفيعة للغاية. ألزمت نفسها بذلك النظام خشية ألّا تستطيع تحقيق هدفها.

كان لهذه القصّة تأثير رهيب على فلورون الرقيق الطبع. فخنقته العبرات. وأخذ أخاه بين ذراعيه، مقبّلاً إيّاه كأنّه يردّ إليه العاطفة التي حُرِمَ منها. ورأى نعليه البائسين الباليين، وكُمّيه المثقوبين عند الكوع، ويديه المتّسختين، وكلّ بؤس الأطفال المهملين البادي عليه. كرّر على مسامعه أنّه سيصطحبه، وأنّه سيكون سعيداً معه. وفي اليوم التالي، عندما فحص الوضع، انتابه الخوف من ألّا يستطيع التحصُّل على المبلغ اللازم للعودة إلى باريس. كان يرغب في مغادرة فيغان، وبأيّ ثمن. ولحسن الحظ، تخلّص من حانوت الأشرطة

الصغير، وهو ما سمح له بسداد الديون التي كانت قد تراكمت على أمّه بالرغم من سياستها المالية المتقشّفة. ولمّا لم يتبقّ معه شيء، أعطاه تاجر الأثاث خمسمائة فرنك نظير أثاث الفقيدة وفراشها. فشكره الشابّ، وألبس أخاه ملابس جديدة، واصطحبه معه في نفس المساء.

وفي باريس، لم يعد أمر متابعة دراسته في كلية الحقوق مطروحاً. فأرجأ فلورون كلّ طموحاته إلى المستقبل. وأخذ يُعطي بعض الدروس، واستقرّ مع كونو في شارع روايبه كولار، عند زاوية شارع سان جاك، في غرفةٍ كبيرةٍ أثّثها بسريرين حديديّين، وخزانة، وطاولة وأربعة مقاعد. ومن وقتها، صار لديه طفل. وكانت تلك الأبوّة تسحره. وفي البدايات، كان إذ يعود في المساء يحاول أن يعطي دروساً للصغير؛ لكنّ هذا لم يكن يستمع لها أبداً؛ كان عنيداً، رافضاً للتعلّم، يبكي متحسّراً على العهد الذي كانت أمّه تتركه فيه حرّاً يطوف في الشوارع. كفّ فلورون يائساً عن تدريسه، وواساه، ووعده بعُطَلٍ بلا انتهاء. ولكي يتساهل وضعفَه حياله، قال لنفسه إنّه لم يأتِ بالطفل العزيز معه كي ينغّص عليه أيّامه. وكانت تلك هي قاعدته في التعامل معه، أن يراقبه وهو يكبر بفرح. كان يعشقه، مأخوذاً بضحكاته، يذوق مباهج لا نهائية لمجرّد شعوره بأنّه موجود قربه، في صحّة جيّدة، خليّاً من كلّ همّ. ظلّ فلورون نحيفاً في معاطفه السوداء المهترئة، وأخذ وجهه في الشحوب من جرّاء السخافات العنيفة لمهنة التدريس. وأضحى كونو رجلاً شابّاً ممتلئاً، ساذجاً قليلاً، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة، ولكن بروح طيّبة لا تتبدّل، تملأ غرفة شارع روايبه كولار الكبيرة والمعتمة بالفرح.

وفي تلك الأثناء، كانت السنون تمرّ. وكان فلورون الذي ورث التفاني عن أمّه يرعى كونو في منزله كفتاةٍ كبيرةٍ كسول. كان يجنّبه حتّى أعمال المنزل الصغيرة؛ فهو من يذهب لجلب المؤن، وهو من ينظّف ويطبخ. وكان ذلك

-كما زعم- يخرجه من مزاجه العكر. لقد كان سوداوياً بطبيعته، ويظنّ نفسه شرّيراً. وفي المساء، عندما كان يعود موحلاً، مكروباً من كراهية أطفال الآخرين، ترقّ مشاعره لعناقات ذلك الفتى السمين والكبير الذي كان يجده يلهو بالخذروف على بلاطات الغرفة. وكان كونو يضحك من طريقته غير الماهرة في صنع العجّة، ومن الطريقة الجادّة التي يضع بها حساء اللّحم والخضار. وعندما يُطفأ المصباح، كان يرتدّ لفلورون حزنه، أحياناً، في فراشه. كان يفكّر في معاودة دراسته للحقوق. تحايل كي ينظّم وقته بطريقة يستطيع معها متابعة دروسه في الكليّة. وقد توصّل لذلك فصار سعيداً للغاية. ولكن أصابته حمّى بسيطة، فأقعدته ثمانية أيّام في البيت، وأدّت إلى عجز في ميزانيّتهما، وانتابه الخوف من أنّه قد لا يستطيع أن يُنهي دراسته. وكان طفله قد كبر. أمّا هو فقد وُظّف كمدرّس في مدرسة داخلية في شارع لا ستراباد، براتب يبلغ ألفاً وثمانمائة فرنك. كان ذلك بمثابة ثروة، وبقليل من الاقتصاد، يمكن أن يترك جانباً بعض النقود ليعزّز مستقبل كونو. في سنّ الثامنة عشرة كان لا يزال يعامله كآنسة ينبغي توفير صداقها.

أثناء مرض أخيه القصير الأمد، كان كونو أيضاً يفكّر. وذات صباح أعلن أنّه يريد أن يعمل. وأنّه كبير بما يكفي ليكسب قوته. تأثّر فلورون لذلك بعمق. كان في مواجهة غرفتهما، في الناحية الأخرى من الشارع، مُصلّح ساعات يقيم في غرفة يراه الفتى فيها طوال النهار، في ضوء النافذة المكشوفة، عاكفاً على منضدته الصغيرة يعالج أشياء دقيقة، ويفحصها بالعدسة المُكبّرة بصبر. فأغراه ذلك، وادّعى أنّ به ميلاً نحو تصليح الساعات. ولكن بعد مضيّ أسبوعين، انتابه قلق عارم، وأخذ يبكي كطفل في العاشرة، واجداً أنّ الأمر شديد التعقيد، حتّى أنّه لن يعرف أبداً «كّل السخافات الصغيرة التي تدخل في تركيب الساعة». صار يفضّل أن يكون صانع أقفال، لكنّ هذه

المهنة أيضاً أرهقته. وخلال سنتين كان قد جرّب أكثر من عشر مهَن. وكان فلورون يفكر أنّه على حقّ، وأنّه ينبغي ألّا نعيش ضدّ أهوائنا. مجرّد الرغبة الصادقة لكونو في كسب عيشه كانت تكلّف الكثير من دخل الشابّين. فمنذ خرج للمحترفات، أخذت النفقات الجديدة تزداد بلا توقّف، مصروفات للملابس الجديدة، وتناول للطعام في الخارج، واستضافات للزملاء. لم تعد الألف وثمانمائة فرنك التي تشكّل راتب فلورون كافيةً. كان عليه أن يقبل بإعطاء درسين في المساء. خلال ثماني سنوات، كان يرتدي نفس الحُلّة.

صار للأخوين صديق. كان للبيت واجهة على شارع سان جاك، وهناك يقع حانوت كبير للشواء يديره رجل كفء يدعى غافار، كانت زوجته تموت ببطء من داء الصدر وسط الروائح الدسمة للدواجن. عندما كان فلورون يعود متأخّراً، لكي يطهو شيئاً من اللّحم، كان يشتري من أسفل البيت قطعةً من لحم الديك الروميّ أو الإوزّ باثني عشر فرنكاً، كان ذلك في أيّام الرخاء. أثار ذلك الفتى الناحل اهتمام غافار، فعرف قصّته، واجتذب الصغير إليه. وسرعان ما أضحى كونو لا يغادر حانوت الشواء. ما إن يخرج أخوه حتّى يهبط هو، ويستقرّ في قلب الحانوت، مأخوذاً بالأسياخ الأربعة الضخمة التي تدور بضجيج خفيف أمام اللهب العالي المتوهّج.

كانت صفائح المدْخنة النحاسية العريضة تبرق، والطيور المشويّة يتصاعد منها الدخان، والدهن يفرقع صادحاً في الطاسات التي تستقبله أسفل الأسياخ، والأسياخ تتكلّم فيما بينها، وتوجّه كلمات لطيفة إلى كونو الممسك بملعقة كبيرة يسقي بها البطون المذهّبة للإوزّات السمينة والديوك الرومية الضخمة. كان يبقى لساعات، وقد صار وجهه أصهب من وهج اللّهب المتراقص المنعكس عليه، وبشيء من البلاهة يضحك للطيور السمينة التي تُطهى؛ ولا يستفيق إلّا عندما يتمّ نزع الأسياخ منها. فتسقط الطيور

في الأطباق؛ وتخرج الأسياخ من بطونها والدخان يتصاعد منها؛ وتفرغ بطونها من سيول المرق المنهمرة من فتحتي المؤخّرة والرقبة، مالئةً الحانوت برائحة الشواء القوية. فيما الطفل الواقف يتابع العملية بعينيه، ويصفّق بيديه، ويتحدّث للدواجن فيقول لها إنّها لذيذةٌ جدّاً، وإنّها ستؤكل، ولن يُترَك للقطط سوى العظام، كان يتهلّل فرحاً إذ يعطيه غافار شريحةً من الخبز ليدَعها تتخمّر في ماعون الدّهن لمدّة نصف ساعة.

منذ ذلك الوقت صار كونو يعشق الطهو. ولاحقاً، بعد تجريبه كلّ صنوف المهن، عاد مرّةً أخرى للطيور التي تُرفع عن الشواء وكأنّها قدَره، للمرق الذي يدفع المرء إلى لعق أصابعه. كان يخشى في البداية أن يضايق أخاه ذا الشهية الضعيفة والذي يتكلّم عن الأشياء اللذيذة باستخفاف رجلٍ جاهل. ثمّ إذ رأى فلورون يصغي له وهو يشرح أحد الأطباق المعقّدة، باح له بعشقه لتلك المهنة، والتحق بمطعم كبير. ومنذ تلك الساعة انتظمت حياة الشقيقين. استمرّا في الإقامة بغرفة شارع روابيه كولار، حيث كانا يلتقيان كلّ مساء: أحدهما بوجه مبتهج من اشتغاله على أفرانه الصغيرة؛ والآخر بوجه مرهق من بؤسه، بؤس معلّم غارق في الوحل. كان فلورون لا يزال في أسماله السوداء، ناسياً نفسه بالانكباب على الفروض المدرسية لتلاميذه. بينما كونو، كي يستعيد مزاجه الطبيعيّ، يعيد ارتداء صدريّته البيضاء وقلنسوة الطهاة، ويدور حول المَقالي، متسلّياً بطهو بعض الحلوى في الفرن. وأحياناً كان يبتسم لمرأى نفسه هكذا متّشحاً بالبياض، فيما أخوه مُسربل بالسواد. فكانت الغرفة الواسعة تبدو حزينةً في نصفها، ونصفها الآخر فرحاً من ذلك الحِداد وتلك البهجة المتجاورين؛ ما من حياة فيها مثل هذا التفاوت يمكن أن تكون أكثر انسجاماً من ذلك الوضع. وازداد الأخ البكر نحافةً، محترقاً بالتأجّج الذي ورثه عن أبيه، فيما ازداد الصغير سمنةً بما يليق بسليلِ رجلٍ من النورمانديّ:

وكان يجمعهما على المحبّة رباط أمّهما، أمّهما التي لم تكن سوى حنان خالص.

كان لهما خال في باريس، شقيق لأمّهما من آل غراديل، يعمل جزّاراً للحم الخنزير في شارع بيرويت في حيّ ليهال. كان بخيلاً للغاية، وفظّاً، استقبلهما في المرّة الأولى التي زاراه فيها وكأنّهما اثنان من الجياع. فلم يكرّرا الزيارة إلّا نادراً. في يوم عيد قدّيس الخال، كان كونو يحمل له باقة زهور، وينال منه لقاءها قطعة عشرة مليمات. وكان فلورون، باعتزازه المرضيّ بذاته، يعاني إذ يتفحّص غراديل حلّته البالية بالعين القلقة والمتوجّسة لبخيل يتشمّم الحاجة إلى وجبة عشاء أو قطعة نقدية بمائة مليم. وذات مرّة صرّف فلورون عنده، بسلامة نيّة، ورقة نقدية من فئة مائة مليم. فصار الخال أقلّ تخوّفاً عندما يزوره الصغيران، كما كان يسّميهما، لكنّ علاقتهما به توقّفت عند هذا الحدّ.

هذه السنوات كانت بالنسبة لفلورون حُلماً طويلاً عذباً وحزيناً. تذوّق خلالها كلّ الأفراح المُرّة لبذل الذات. في المسكن، لم يكن لديه سوى الحنان. وفي الخارج، وسط إهانات تلاميذه، والتدافعات على الأرصفة، كان يشعر أنّه قد صار شرّيراً. صارت طموحاته المقتولة مُرّةً. لزمته شهور طوال كي يقبل بمعاناته كإنسان قبيح متوسّط القيمة وفقير. وليفرّ من إغواء الشرّ، قذف بنفسه في خضمّ الطيبة المثاليّة. جعلَ من نفسه ملاذاً للعدالة والحقيقة المطلقة. لقد أصبح جمهوريّ الهوى. انتمى للجمهورية كما تدخل الفتيات اليائسات الديرَ، ولمّا لم يجد الدفء والدعة المرجوّين والكافيَين لتسكين آلامه في تلك الجمهورية، خلق واحدةً في دخيلائه. كانت الكتب تثير فيه عدم الرضا، كلّ تلك الأوراق المسوّدة، التي كان يعيش في وسطها كانت تذكّره بحجرات الدرس العطنة وبكريّات الأطفال الورقية المعجونة، وبعذاب الساعات الطوال العقيمة. ثمّ إنّ الكتب لا تكلّمه سوى عن التمرّد، تدفعه إلى الخيلاء، في حين كان هو في حاجة ملحّة إلى السّلوى وإلى السّلام. يهدهد

نفسه، فينام ويحلم بأنّه في سعادة قصوى، وبأنّ العالم سيصير هو أيضاً سعيداً، وتنشأ المدينة الجمهورية التي لطالما رغب في العيش فيها. تلك كانت راحته، العمل الذي يستعيده دائماً طوال ساعات فراغه. لم يعد يقرأ خارج احتياجاته التعليمية؛ كان يصعد شارع سان جاك حتّى الشوارع الكبيرة الخارجية، قاطعاً مسافةً كبيرةً في بعض الأحيان، ويعود من عند حاجز إيطاليا؛ وعيناه معلّقتان طوال الطريق بحيّ موفتار المنبسط تحت قدميه. فيخطّط لإجراءات أخلاقية، ومشروعات لقوانين إنسانية، من شأنها تحويل هذه المدينة المعذّبة إلى مدينة مغتبطة. عندما ضرّجت أيّام فبراير باريس بالدماء اغتمّ، وصار يطوف على المنتديات، يدعو لإبدال حمّامات الدم تلك بـ «القبلة الأخويّة لكلّ جمهوريّي العالم». صار واحداً من هؤلاء الوعّاظ المستنيرين الذين يبشّرون بالثورة كدين جديد، مفعم بالحسنى وبالفداء. وجاءت نهارات ديسمبر[1] لتخرجه من حنانه الكلّيّ. كان بلا حول ولا قوّة، وترك نفسه يؤخذ كحمَل وديع، ويُعامَل كذئب، وعندما أفاق من موعظته عن الإخاء، كان يتضوّر جوعاً على البلاط البارد في أحد معتقلات بيسيتر.

انتاب كونو قلق مميت، هو الذي كان حينئذٍ في الثانية والعشرين من عمره، عندما لم يرجع أخوه. وفي الصباح التالي، ذهب ليبحث عنه في مقبرة مونمارتر بين قتلى الشارع الكبير الذين صفّوهم تحت أكوام من قشّ، تظهر منها رؤوسهم، مرعبةً. لم يحتمل قلبه، وغشت الدموع عينيه، واضطرّ للمرور على صفّ القتلى مرّتين. وبعد ثمانية أيّام طوال، عرف من مخفر الشرطة أنّ

(1) إشارة إلى التظاهرات الاحتجاجيّة التي اندلعت في فرنسا الثاني من ديسمبر 1851 ضدّ شارل لوي نابليون بونابارت، المعروف بنابليون الثالث (1808–1873). هو ابن أخي نابليون بونابارت الشهير (نابليون الأوّل)، وقد انتُخب رئيساً للجمهورية الفرنسية في العاشر من ديسمبر 1848. وكان في الثاني من ديسمبر 1851 قد حلّ البرلمان الفرنسيّ وطالب بتغيير الدستور ليتقدّم للانتخابات الرئاسيّة مرّة ثانية. تمكّن بمساعدة الجيش من البقاء في الحكم، وفي العام التالي ألغى النظام الجمهوريّ ونصّب نفسه إمبراطوراً.

أخاه معتقل، وأنّه لا يستطيع رؤيته. وعندما ألحّ في ذلك، هدّدوه باعتقاله هو نفسه. فهرع حينئذ إلى خاله غراديل، الذي كان هو يعتبره شخصاً مهماً، آملاً في أن يساعده في إنقاذ فلورون. ولكنّ الخال غراديل استشاط غضباً، مدعياً أنّ ذلك أفضل، وأنّ ذلك الأحمق الكبير لم يكن عليه أن يخالط هؤلاء الجمهوريّين الأفّاقين؛ وأضاف أيضاً أنّ فلورون صار بلا شكٍّ شخصاً شرّيراً، وأنّ ذلك كان مكتوباً على سحنته. بكى كونو بكاءً مريراً. وظلّ مختنقاً. شعر الخال بالحرج، وأحسّ بأنّ عليه أن يفعل شيئاً لذلك الفتى البائس. فعرض عليه أن يقيم في بيته. كان يعرف أنّه طاهٍ جيّد، وكان في حاجة إلى مُساعِد. كان كونو متخوّفاً من العودة وحيداً إلى غرفة شارع روابيه كولار الفسيحة فقبلَ بالعرض. وبات في منزل خاله، في الليلة نفسها، في الأعلى، في ركن مظلم استطاع أن يمدّد جسده فيه بصعوبة. وبكى هناك أقلّ ممّا كان سيبكي أمام فراش أخيه الشاغر.

أفلح في النهاية في أن يرى فلورون. ولكن أثناء عودته من بيسيتر أخذته غفوة، فأصابته لمدّة ثلاثة أسابيع حمّى أوقعته في الذهول والنعاس. كان ذلك مرضه الأوّل والوحيد. ارتاح غراديل كثيراً لاختفاء ابن أخيه الجمهوريّ الهوى. وعندما تلقّى خبر ترحيله إلى كايين، أيقظ كونو فجأةً وأعلمه بهذا النبأ بفظاظة، ممّا تسبّب له بأزمة حادّة، حتّى أن الشابّ كان واقفاً في اليوم التالي. ذاب كلّ ألمه، وبدا أنّ جسده المترهّل قد شرب كلّ دموعه. بعدها بشهر، كان يضحك، ويستاء بحزن لأنّه يضحك، ثمّ تغلّبت عليه روحه المرحة، فصار يضحك دون أن يدري.

تعلّم صنعة جزارة لحم الخنزير، ووجد فيها ملذّات تفوق تلك التي كان يجدها في فنّ الطهو. ولكنّ الخال غراديل أوصاه بألّا يهمل طناجره أبداً، فمن النادر العثور على جزّار للّحم الخنزير يجيد الطهو، ومن حسن حظّه أنّه

قد عمل في مطعم قبل أن يجيء عنده، فهو سيستغلّ مواهبه في مكان آخر، سيجعله يُعدّ الوجبات لأهل المدينة، وسيكلّفه تحديداً بشيّ ضلوع الخنزير مع المخلّلات. ولمّا كان الشابّ قد أسدى له خدمات حقيقية، فقد أحبّه على طريقته، يقرصه من ذراعه في الأيّام التي يكون فيها مزاجه طيّباً. كان قد باع الأثاث الفقير لغرفة شارع روابيه كولار، واحتفظ بالنقود، أربعين فرنكاً ونيّفاً، كي لا يلقيها ذلك المهرّج كونو من النافذة، كما كان يقول. ومع ذلك صار يدفع له ستّة فرنكات في الشهر لملذّاته الصغيرة.

وبالرغم من الضيق الماليّ، والمعاملة الوحشية أحياناً، كان كونو سعيداً للغاية. كان يُحبّ أن تُهيّأ له حياته. لقد ربّاه فلورون مثل فتاة كسول. ثمّ صارت له صديقة في منزل خاله غراديل. فعندما فقد الأخير زوجته، اضطرّ لاستخدام فتاة كبائعة. انتقاها بصحّة جيّدة، وقوام جذّاب، عارفاً أنّ ذلك يسعد الزبائن ويضفي على اللحوم المطهوّة ألقاً. كان يعرف أرملةً في شارع كوفييه بالقرب من حديقة النباتات، كان زوجها مديراً للبريد في بلاسان وهي محافظة صغيرة في الجنوب. تلك المرأة التي كانت تعيش على دخل عُمريّ متواضع للغاية، كانت قد أحضرت معها من تلك المدينة طفلةً سمينةً وجميلة، كانت تعاملها كابنة لها. وكانت ليزا تعتني بها في سكينة وبروح وادعة. فتاة جادّة قليلاً، وجميلة للغاية إذ تبتسم. وسحرها الكبير يتأتّى من الطريقة التي ترسم بها بسمتها النادرة. وفيما كانت نظرتها حانية، كانت صرامتها المعهودة تُعطي ثمناً لا يقدّر لذلك الوعي المفاجئ بالغواية. كانت السيّدة العجوز تقول أحياناً إنّ ابتسامةً من ليزا كانت كفيلة بأن تقودها إلى الجحيم. وعندما أودت بحياتها نوبة ربو، تركت لابنتها بالتبنّي كلّ مدخراتها، نحو عشرة آلاف من الفرنكات. وظلّت ليزا وحدها لثمانية أيّام في مسكن شارع كوفييه؛ ومن هناك جاء غراديل ليصطحبها. كان يعرفها لأنّه كان يراها مع سيّدتها

إذ تذهبان لزيارته في شارع بيرويت. ولكن أثناء الدفن، بدا له أنّها صارت جميلةً، ببنيان متماسك، ممّا دفعه للذهاب إلى المقبرة. وبينما كانوا يهبطون بالنعش، كان يفكّر أنّها قد تكون رائعةً في حانوت جزارة الخنزير. راح يتردّد، ويقول لنفسه إنّه قد يعرض عليها حتّى ثلاثين فرنكاً في الشهر مع المسكن والطعام. وعندما عرض الأمر عليها، طلبت منه أن يُمهلها أربعاً وعشرين ساعة لتعطيه ردّها. ثمّ ذات صباح، وصلت بمتاعها القليل، والعشرة آلاف فرنك مخبّأةً في صدارها. بعدها بشهر، كان المنزل كلّه طوع بنانها- غراديل، وكونو، وحتّى أصغر مساعدِ طاهٍ. وبالذات كونو، كان سيفعل من أجلها أيّ شيء. كان إذا ابتسمتْ يقف ضاحكاً فرحاً لمجرّد رؤيتها.

ليزا، التي كانت كبرى بنات آل ماكار، من بلاسان، كان لا يزال أبوها في عداد الأحياء. قالت له إنّه في الخارج، وإنّها لا تكاتبه أبداً. وأحياناً، تسرّب أنّ أمها كانت، في حياتها، شديدة الدأب في عملها، وهو ما أخذته عنها. ولقد ظهر بالفعل أنّها بالغة الصّبر في العمل. ولكنّها أضافت أنّ المرأة الشجاعة كان لديها إصرار قويّ على أن تقتل نفسها لتسيّر الحياة المنزلية. وتكلّمت حينها عن واجبات المرأة وواجبات الزوج، بحكمةٍ شديدة، وبنزاهة أدهشت كونو. وبدوره أكّد لها أنّه يحمل نفس الأفكار. وكانت أفكار ليزا تتلّخص في أنّ الناس لا بدّ أن يعملوا ليأكلوا؛ وأنّ كلّ شخص مسؤول عن سعادته الخاصّة؛ وأنّنا نرتكب خطيئة إذا شجّعنا الكسل؛ باختصارٍ أنّه إن كان هناك بؤساء فذلك راجع إلى كسلهم. كانت تلك إدانة واضحة للإفراط في السُّكر والتسكّع اللذين اشتهر بهما ماكار الأب. كان ماكار يتكلّم عالياً في داخلها، دون علم منها، لم تكن سوى واحدة من آل ماكار، لكنّها منضبطة، ومتعقّلة، ومنطقية في رغبتها في العيش الرغيد، وواعيةً أنّ الطريقة المثلى للنوم في هناءة الدفء هي أن يصنع المرء بنفسه سرير سعادته. وكانت تكرّس كلّ

وقتها وأفكارها لهذا الفراش الوثير. منذ عمر السادسة، كانت تواظب على الجلوس هادئة على كرسيّها الصغير، اليوم بطوله، على أن يكافئوها بقطعة حلوى في المساء.

واصلت ليزا عند جزّار لحم الخنزير غراديل حياتها الهادئة، المنتظمة، التي تضيئها هي بِبسماتها الجميلة. لم تقبل بالمغامرة التي عرضها عليها الرجل، وكانت تعرف أن تجد فيه مرشداً لها، ولعلّها استشعرت في ذلك الحانوت المعتم في شارع بيرويت، بحاسّة إنسان محظوظ، المستقبل المتين الذي كانت تحلم به، حياة من المتعة الصحيّة، وعمل بلا كلل يحمل في كلّ ساعةٍ ثوابه. كانت تعتني بمنضدة البيع بالعناية المتّئدة التي كانت توليها لأرملة مدير البريد، وأصبحت صدريّتها البيضاء بنظافتها مضرباً للمثل في الحيّ كلّه. كان الخال غراديل راضياً كلّ الرضى عن هذه الفتاة الجميلة، حتّى أنّه كان يقول لكونو أحياناً وهو يلفّ سجق السلاميّ بالخيوط:

- لو لم أكن في سنّ الستّين، لكنت، بشرفي، سأرتكب حماقةَ تزوُّجِها. إنّ امرأةً مثلها هي يا بنيّ بمثابة الذهب الخالص في محلّ رزقك.

كان كونو يُعمل فكره، ومع ذلك ضحكَ ذات يوم ملء شدقيه إذ اتّهمه أحد الجيران بأنّه واقع في غرام ليزا. لم يكن ذلك ليؤرّقه أبداً. فقد كانا صديقين حميمين. في المساء، يصعدان للنوم، معاً. وكانت ليزا تشغل، بالقرب من الركن المعتم الذي يتمدّد فيه كونو، غرفةً صغيرة جعلت منها مكاناً مضيئاً، بتزيينها بالكامل بستائر الحرير الموصليّ. كانا يبقيان هناك، على بسطة الدرج، يتحدّثان، بيديهما شمعدانان، ومفتاح كلّ منهما في رتاجه، ثمّ يغلقان عليهما البابين قائلين، بكلّ ودّ:

- عمتِ مساءً يا آنسة ليزا.

- عمتَ مساءً يا سيّد كونو.

كان كونو يستلقي في فراشه وهو ينصت إلى ليزا تؤدّي مهامّها الصغيرة قبل النوم. كان العازل بينهما رقيقاً لدرجة أنّه يستطيع تتبّع كلّ حركاتها. ويفكّر: «ها هي تسحب ستائر الشبّاك. تُرى ما الذي تفعله أمام الصوّانة؟ ها هي تجلس وتنزع جزمتيها. فلتصبح على خير، لقد أطفأت شمعتها، لنخلد إلى النوم». وكان يسمع سريرها يطقطق، فيغمغم ضاحكاً، «يا للهول! ليست الآنسة ليزا خفيفة الوزن!» كانت تلك الفكرة تبهجه؛ وكان في النهاية يغفو وهو يفكّر في أفخاذ الخنزير المملّحة وشرائح اللّحم المقدّد التي سيعدّها في اليوم التالي.

استمرّ ذلك لعام، دون أن يحمرّ وجه ليزا خجلاً ودون أيّ إحراج لكونو. وفي النهار، في ذروة العمل، عندما كانت الفتاة الشابّة تذهب إلى المطبخ، كانت أيديهما تتلامس وسطَ اللحم المفروم. كانت تساعده أحياناً، تمسك له المصارين بأصابعها الريّانة، بينما هو يحشوها باللحم ودهن الخنزير. أو يتذوّقان معاً بطرف لسانيهما حشو السجق ليتأكّدا من أنّه متبّل بشكل كافٍ. كانت لها آراؤها الحصيفة، وتعرف وصفاتِ أطباقٍ جنوبية، وقد جرّبتها بنجاح. كان أحياناً يشعر بها واقفةً خلفه، تتطلّع من وراء كتفه إلى الطنجرة، مقتربة منه بشدة، حتّى أنّه يشعر بصدرها المتين في ظهره. كانت تناوله ملعقةً أو صحناً. وكانت النار تلهب الدماء في عروقهما. وهو ما كان ليكفّ عن تقليب المرق الدسم الذي يثخن على الموقد؛ بينما هي تجادل بحماسٍ في درجة نضج الطعام. وفي العصر، عندما يفرغ الحانوت، كانا يثرثران لساعات. كانت تبقى خلف منضدتها، متراجعة قليلاً، تمارس الحياكة برقّة ودأب. تجلس على قُرمة خشبية، ساقاها تتأرجحان، وكعباها يدقّان على كتلة السنديان. يتفاهمان بشكل رائع؛ يتكلّمان عن كلّ شيء، في الغالب عن الطهو، ثمّ عن

الخال غراديل، وأيضاً عن أهل الحيّ. كانت تحكي له الحكايات كما لو كان طفلاً؛ وكان لديها قصص جميلة، أساطير تروي المعجزات، مليئة بالحملان والملائكة الصغار، تحكيها بصوتٍ ناعمٍ كنغمات الناي، بهيئتها الجادّة بشدّة. وإذا دخل أحد الزبائن، فحتّى لا تبتر مسار حكايتها، تطلب من الشابّ إناء الدهن أو علبة المحار. وفي الحادية عشرة يصعدان للنوم، ببطء، كما في كلّ ليلة، ثمّ يهمسان وهما يغلقان بابيهما:

- عمتِ مساءً يا آنسة ليزا.

- عمتِ مساءً يا سيّد كونو.

وذات صباح صعقتِ الخالَ غراديل سكتةٌ دماغية بينما هو يحضر طبق الغلنتين[1]. سقطَ واصطدم أنفه بطاولة التقطيع. لم تفقد ليزا رباطة جأشها. وقالت إنّه ينبغي عدم ترك الميت في قلب المطبخ؛ وأخذته إلى نهاية الحانوت في قمرة كان الخال ينام فيها. ثمّ رتّبت قصّةً مع الصبيان: «لا بدّ أن يكون الخال قد مات في فراشه، إذا لم نكن نريد أن نثير اشمئزاز أهلّ الحي ونفقد الزبائن». ساعد كونو في حمل المتوفّى، ذاهلاً، مندهشاً من افتقاره لأيّ دموع. ثمّ بكى لاحقاً هو وليزا. وقد كان هو وأخوه فلورون الوريثين الوحيدين. النمّامون في الشوارع المحيطة تخيّلوا أنّه كان للفقيد ثروة ضخمة. أمّا في الحقيقة فلم يُعثَر على كنز من المال. وظلّت ليزا قلقةً. وكان فلورون يراها تفكّر، وتنظر حولها من أوّل النهار حتّى آخر الليل كأنّها فقدت شيئاً. وفي النهاية قرّرت أن تقوم بحملة تنظيف كبيرة، مدّعيةً أنّ الناس تثرثر، وأنّ قصّة موت الخال بدأت تشيع، وعليه فينبغي إظهار نظافة فائقة. وذات ظهيرة، وبعد أن أمضت ساعتين في القبو، تغسل بنفسها أحواض التمليح، ظهرت وهي تحمل في صديرتها شيئاً. كان كونو يفرم أكباد الخنازير،

(1) طبق مكوّن من لحوم مبرّدة ومشحّمة ومتبّلة تُقدَّم في الهلام الجامد (أو الجميد).

فانتظرت حتّى فرغ، وتحدّثت معه بصوت لا مبالٍ. ولكنّ عينيها كانتا تبرقان ببريق عجيب، ابتسمت ابتسامتها الحلوة، وهي تقول له إنّها تريد أن تكلّمه. صعدت الدرج بصعوبة إذ كان ما تحمله في صديريتها المنتفخة يعيق حركة رجليها. وفي الطابق الثالث التقطت أنفاسها، واضطرّت للاتّكاء على الحاجز قليلاً. تبعها كونو المندهش، دون أن ينبس ببنت شفة، حتّى غرفتها. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تدعوه فيها لدخولها. أغلقت الباب، وأفلتت طرف صديريتها الذي لم تعد أصابعها المرهقة قادرةً على الإمساك بها، وتركت سيلاً من القطع الفضّية والذهبية ينهمر ببطء على فراشها. لقد عثرت على ثروة الخال غراديل مخبّأةً في قعر وعاء كبير للملح. تركت كومة النقود تجويفاً كبيراً في فراش الفتاة الجميلة الوثير.

كان فرح كونو وليزا متكتّماً. جلسا على طرف السرير، ليزا عند موضع الرأس وكونو عند موضع القدمين، وأخذا يحصيان النقود على الأغطية كي لا يحدثا صوتاً. كان هناك أربعون ألفاً من الفرنكات الذهبية، وثلاثة آلاف من الفرنكات الفضّية، واثنان وأربعون ألف فرنك من النقود الورقية في علبة صفيح. استغرقا ساعتين كاملتين في إحصاء كلّ ذلك. كانت يدا كونو ترتجفان قليلاً. وليزا هي التي بذلت مجهوداً أكبر، فجمعت القطع الذهبية على الوسادة، تاركةً القطع الفضّية في تجويف الغطاء. وعندما تبيّنا الرقم الضخم بالنسبة إليهما، خمسة وثمانين ألفاً من الفرنكات، أخذا يتكلّمان بشكل طبيعيّ، عن المستقبل، وزواجهما، دون أن تكون مسألة الحبّ قد طُرِحَت بينهما قبل ذلك. وبدا أنّ تلك النقود قد حلّت عقدة لسانيهما. أخذا يستبقان الأحداث، مستندين بظهريهما إلى الحائط الملاصق للسرير، تحت ستائر الحرير الموصليّ البيضاء، أرجلهما ممدّدة قليلاً، يثرثران بينما تداعب أيديهما النقود، فتعانقت الأكفّ، ونسيا نفسيهما بين القطع النقدية من فئة المائة مليم، فداهمهما الغسق،

واحمرّت ليزا خجلاً من وجودها إلى جوار ذلك الصبيّ. كانا قد أشاعا في الفراش فوضى كبيرة، الملاءة تدلّت، والذهب يجعّد الوسادة التي تفصل بينهما، كأنّ رأسين تقلّبا عليها محمومين من الرغبة.

نهضا منزعجين، وعلى وجهيهما اضطراب عاشقين يرتكبان الخطيئة الأولى. ذلك الفراش المائج، بكلّ النقود التي عليه، يتّهمهما باقتراف متعة محرّمة، كانا قد تذوّقاها والباب موصد. ذلك هو سقوطهما. ذهبت ليزا التي كانت تعيد ربط ملابسها كمن اقترف جُرماً لتُحضر العشرة آلاف فرنك العائدة لها. رغب كونو في أن تضيفها للخمسة وثمانين ألفاً التي تركها الخال. جمعا المبلغين وهما يضحكان، قائلين إنّ النقود يجب أن تعقد خطبتها هي أيضاً. وتمّ الاتفاق على أن تحتفظ ليزا بـ «الكنز» في صوانتها، وعندما أغلقتها، وأعادت ترتيب الفراش، نزلا بسلام. كانا زوجاً وزوجة.

وعُقد قرانهما في الشهر التالي. ووجد أهل الحيّ ذلك طبيعيّاً ومناسباً للغاية. كانت قصّة الثروة قد عُرِفَت بشكل غائم، وأفرط الناس في امتداح استقامة ليزا؛ فقد كان بإمكانها ألّا تقول شيئاً لكونو، وتحتفظ بالثروة لنفسها؛ وكونها قد أخبرته دليل على أمانتها التامّة؛ إذ لم يكن قد رآها أيّ شخص. هي تستحقّ تماماً أن يتزوّجها كونو. إنّه لمحظوظ كونو ذاك، ليس وسيماً ووجد امرأةً جميلة كشفت له عن ثروة. وقد بالغ الناس في إعجابهم حتّى أنّهم قالوا إنّ «ليزا حمقاء إذ فعلتْ ما فعلتْه». وكانت ليزا تبتسم إذ يكلّمونها عن تلك الأشياء بكلام موارب. وكانت هي وزوجها يعيشان كما في السابق، في صداقة حميمة وهناءة وادعة. كانت تساعده، وتلتقي أيديهما في اللّحم المفروم، وتميل برأسها من وراء كتفه لتلقي نظرة على قدور الطهو. ودائماً كانت نار المطبخ الكبيرة هي التي تلهب الدماء في عروقهما.

لكنّ ليزا كانت امرأة ذكيّة، ففهمت سريعاً أيّة حماقة تكمن في ترك خمسة

وثمانين ألفاً من الفرنكات راقدةً في أدراج صوانتها. كان كونو سيعيدها طواعية إلى وعاء الملح في انتظار أن يربح ما يعادلها، وآنذاك ينتقلان إلى سورين، في ركنٍ من الضاحية التي كانا يحبّان. ولكنّها كان لديها طموح آخر. كان شارع بيرويت يخدش تصوّراتها عن النظافة، وحاجتها للهواء والضوء والصحّة السليمة. أمّا الحانوت الذي كوّم فيه الخال غراديل ثروته، مليماً فوق مليم، فكان مثل شقّ معتم، أحد متاجر جزارة الخنزير المريبة في الحيّ القديم، يحتفظ بلاطه البالي بروائح اللّحم القويّة بالرغم من الغسيل المستمرّ؛ والمرأة الشابّة تحلم بحانوتٍ حديثٍ منيرٍ، في فخامة صالون، يطلّ بواجهاته الزجاجية البرّاقة على رصيفِ شارع عريض. لم تكن تحرّكها الرغبة البائسة في أن تكون سيّدة خلف منضدة البيع، ولكن كان عندها وعي قويّ بالضرورات الفاخرة للتجارة الحديثة. تخوّف كونو عندما كلّمته أوّل مرّة في أمر تغيير الحانوت وإنفاق بعض مدّخراتها على تزيين الحانوت الجديد، فهزّ كتفيه، وابتسم.

وذات يوم، وإذ هبط الليل وأعتم حانوت لحم الخنزير، سمع الزوجان امرأة من أهل الحيّ تقول لأخرى أمام بابيهما:

- حسناً، لن أتبضّع أبداً من عندهم، لن آخذ منهم قطعة شحم واحدة، ألا ترين يا عزيزتي أنّ رجلاً قد مات في مطبخهم؟

وبكى كونو لذلك، فقد عرفت تلك القصّة عن ميّت في المطبخ طريقها إلى الناس. وصار يشعر بالحرج أمام الزبائن وهو يراهم يتشمّمون بضاعته عن قرب. فكان هو من أعاد فتح موضوع تغيير الحانوت مع زوجته، وكانت مشغولةً فلم تقل شيئاً بخصوص الحانوت الجديد؛ وكانت قد وجدت واحداً على بعد خطوتين بشارع رامبوتو، في موقع ممتاز. إنّ سوق ليهال المركزية التي تمّ افتتاحها قريباً في مواجهته ستساعد على مضاعفة عدد الزبائن ثلاث

مرّات، وستؤدّي إلى اشتهار الحانوت في أركان باريس الأربعة. وترك كونو نفسه ينجرّ إلى نفقات مجنونة، فأنفق في شراء الرخام والزجاج والزخارف نحو ثلاثين ألفاً من الفرنكات. وكانت ليزا تقضي ساعات مع العمّال، تدلي برأيها حتّى في أدقّ التفاصيل. وحينما استقرّت أخيراً خلف منضدة البيع، كان الناس يجيئون للتبضّع في أفواج، فقط للتفرّج على الحانوت. الحوائط كلّها مغلّفةٌ بالرخام الأبيض، وفي السقف مرآة كبيرة مربّعة تؤطّرها كسوة السقف الزخرفية المذّهبة التي تتدلّى من وسطها ثريّا بأربعة أفرع؛ وخلف منضدة البيع، على امتداد اللوح، وعلى اليسار، وفي العمق، ثمّة مرايا أخرى، معشّقةً في قطَع الرخام، تنشر بحيراتٍ من الضوء، وأبواب متخيّلة كأنها تُفتَح على قاعات أخرى، وإلى ما لانهاية، وتغصّ باللحوم المعروضة. وعلى اليمين منضدة البيع، وهي كبيرة للغاية ونتاج صنعة متقنة، ترصّعها معينات وردية من الرخام باستدارات متناغمة، وعلى الأرضية مربّعات من البلاط الأبيض والورديّ، في تناوب، وداخل إطار زخرفيّ أحمر قانٍ. وكان أهل الحيّ فخورين بحانوت جزارة الخنزير الجديد، ولم يعد أحد يجرؤ على ذكر مطبخ شارع بيرويت، حيث حصلت الوفاة. خلال شهر كامل، كان الجيران يتوقّفون على الرصيف للتفرّج على ليزا بين أنواع السجق وأضلع الخنزير المعروضة، مبدين إعجابهم ببشرتها البيضاء الوردية، تماماً كالرخام. كانت هي روح المكان ونصاعته الحيّة وأيقونته التي تنضح بالصحّة والقوّة؛ وصار الجميع يسمّونها ليزا الجميلة.

على يمين الحانوت، هناك قاعة الطعام، غرفة نظيفة جدّاً، بخزانة لأدوات المائدة، وطاولة، وكراسي بقُضُب برّاقة من خشب السنديان. الحصيرة التي تغطي خشب الأرضية، والورق الأصفر الرقيق، والقماش المشمّع الذي يحاكي لون السنديان كلّها تجعل القاعة باردةً قليلاً، ومبهجةً فقط لوجود ثريّا

من نحاس تتدلّى من السقف، تحيطها مظلّة كبيرة من الخزف الشفّاف. وثمّة في قاعة الطعام باب يفضي إلى المطبخ الواسع المربّع، وفي أقصى المطبخ فناء مبلّط يُستخدم كمستودع، غاصّ بالأواني والبراميل والأدوات التي لم تعد تُستعمَل؛ وعلى يسار النافورة أصص الورود الذابلة التي كانت تزيّن مكان العرض تحتضر على طول الميزاب الذي تُصرّف فيه المياه المشبعة بالدهون.

كان العمل ممتازاً. وصار كونو، الذي كانت قد أرعبته التمهيدات، يبدي الاحترام لزوجته التي كان لها على ما يقول «عقل كبير». بعد خمس سنوات كان لديهم ما يقرب من ثمانين ألفاً من الفرنكات مودعة بعائد جيّد. وكانت ليزا تقول إنّهما ليسا طموحيَن، وإنّهما لا يسعيان للربح السريع، وإلّا لكانت جعلت زوجها يربح «الآلاف المؤلّفة» بدفعه إلى طريق تجارة الخنازير بالجملة. كانا ما زالا شابّين، وأمامهما متّسع من الوقت؛ ثمّ إنّهما لا يحبّان العمل المرتجَل، ويريدان العمل على راحتهما، دون أن يعصف بهما القلق، كمثْلِ شخصين طيّبين يعيشان بشكل طيّب.

- اسمع، قالت ليزا في واحدة من ساعات صفوها، لديّ ابن عمّ في باريس... لكنّي لا أراه، فالأسْرتان على خلاف. لقد اتّخذ اسم ساكّار لقباً له، لكي يضع بعض الأشياء طيّ النسيان... ابن العمّ هذا، كما قالوا لي، يربح الملايين. إنّه لا يعيش، دائماً يحرق دمه، هو دائماً في الطريق، وسط معاملات جهنّميّة. مستحيل، والحالة هذه، أليس كذلك؟ أن يتناول عشاءه في هدوءٍ مساءً. نحن على الأقلّ نعرف ماذا نأكل. ليس لدينا هذه المتاعب. لا نحبّ النقود إلّا لأنّها ضرورية للحياة. نعيش بشكل جيّد، وهذا طبيعيّ. أمّا الربح من أجل الربح، فهو يسبّب شروراً تمنعنا من الاستمتاع، وإنّني لأفضلّ في هذه الحالة أن أبقى مكتوفة الذراعين... ثمّ إنني أريد أن أرى هذه الملايين التي

لابن عمّي. إنّي لا أصدّق بوجود الملايين هكذا. لقد لمحته قبل أيّام في عربة؛ كان شديد الشحوب، ويبدو خبيثاً للغاية. إنّ رجلاً يربح النقود لا تكون له سحنة بهذا اللون. في النهاية، هو أمر يخصّه... نحن نفضّل أن نربح مائة مليم فقط بشرط أن ننتفع بهذه المائة مليم.

ونمت العائلة بالفعل. فقد رزقا بالطفلة في أوّل عام من زواجهما. كانت العين تسعد لمرأى ثلاثتهم. كان البيت يمضي بيسر وسعادة، بدون الكثير من المنغّصات، كما أرادت ليزا. كانت قد حرصت على استبعاد كلّ الأسباب الممكنة للمتاعب، لتسير الأيّام في وسط هذا الجوّ الدسم والرغَد المكثّف.

كان ذلك ركناً من السعادة المتعقّلة، مكاناً مريحاً للطعام، حيث يزداد الأب والأمّ والابنة امتلاءً. سوى أنّ كونو كان يصيبه الحزن أحياناً، عندما يفكّر في أخيه فلورون. حتّى عام 1856 كان يتلقّى منه رسائل، في فترات متباعدة. ثمّ توقّفت الرسائل؛ وقد عرف من إحدى الجرائد أنّ ثلاثة من المنفيّين كانوا قد أرادوا الفرار من جزيرة الشيطان[1]، ولقوا حتفهم غرقاً قبل أن يبلغوا الشاطئ. وفي مخفر الشرطة لم يستطيعوا أن يعطوه معلومات دقيقة؛ لا بدّ أن يكون شقيقه قد مات. ومع ذلك فقد احتفظ ببعض الأمل، ولكنّ الشهور كانت تمرّ. فلورون الذي كان يذرع غويانا الهولندية، ظلّ يحترس من المراسلة، متشبّثاً بأمل الرجوع إلى فرنسا. وانتهى كونو إلى البكاء عليه كميّت لم يستطع توديعه. لم تكن ليزا تعرف فلورون. وكانت تجد كلمات طيّبة تشدّ بها أزر زوجها في كلّ مرّة ينتابه اليأس فيها أمامها؛ وتصغي له إذ يحكي لها للمرّة المائة قصصاً من شبابهما، غرفة شارع روايبه كولار الكبيرة، والمهن الكثيرة التي تعلّمها، والحلوى التي كان يقليها في المقلاة، ودأبه في ارتداء

(1) هي إحدى الجزر التابعة لمدينة كايين، كان فيها سجن للأشغال الشاقّة زُجّ فيه المعتقلون السياسيّون الفرنسيّون. وكان الهنود الحمر من جماعة الكالينا هم الذين منحوها قديماً هذا الاسم بعدما اعتبروها مقرّ روح الشرّ الخاصّة بهم.

الملابس البيضاء فيما يرتدي فلورون السواد. وكانت تستمع إليه في هدوء، وبتعاطف لا متناهٍ.

في قلب هذه الأفراح التي زُرعَت ونضجت بحكمة، ظهر فلورون ذات صباح من سبتمبر بينما كانت ليزا تأخذ حمّامها الشمسيّ، وحيث كونو، بعينيه المنتفختين من النعاس، يضع يده بتكاسل في الدهن المتجمّد من العشيّة. وانقلب حال حانوت لحم الخنزير كلّه. واقترح غافار أن يخفوا «المنفيّ» كما أسماه، وهو ينفخ أوداجه قليلاً. أخذته ليزا، وقد كانت شاحبة ومضطربة على غير عادتها، إلى الطابق الخامس، حيث وضعت تحت تصرّفه غرفة فتاة الحانوت. وقطع كونو شرائح من الخبز وفخذ الخنزير المملّح. ولكن فلورون لم يكد يتمكّن من الأكل: أصابه دوار وغثيان؛ فأخلد إلى النوم، وظلّ في السرير خمسة أيّام، يعاني هذياناً كبيراً، بداية حمّى دماغيّة، استطاع لحسن الحظّ مقاومتها بقوّة. وعندما استردّ وعيّه، لمح ليزا بجوار سريره، تُقلّب فنجاناً بملعقة دون أن تحدث صوتاً. وعندما أراد أن يشكرها، قالت له أن يهدأ، وإنّهما سيتكلّمان لاحقاً. وفي غضون ثلاثة أيّام كان المريض واقفاً على قدميه. وذات صباح، جاء كونو ليصحبه، وقال له إنّ ليزا بانتظارهما في غرفتها بالطابق الأوّل.

كانوا يشغلون هناك شقةً صغيرةً من ثلاث غرف وقمرة. كان يتوجّب عبور قاعة عارية إلّا من بعض الكراسي، ثمّ غرفة جلوس صغيرة أثاثها مغطّى بأغطية بيضاء، تتغمّده إضاءة خافتة بفضل النوافذ التي لا تزال موصدة، حتّى لا يلتهم الضوء المبهر زُرقة التنجيد الرقيقة، من أجل الوصول إلى غرفة النوم، الغرفة الوحيدة المأهولة، بأثاثها المريح للغاية من خشب الماهوغوني. الفراش بالذات كان مُدهشاً، بحشياته الأربع ووسائده الأربع، وبسُمك أغطيته، ولحافه، وسكونه الوثير في عمق ذلك المخدع النديّ. كان

سريراً مصنوعاً للنوم. الخزانة الزجاجية، وصوانة الزينة، والطاولة الصغيرة المغطّاة بمفرش مخرّم، والمقاعد المحميّة بمربّعات من التخريم تضفي على المكان فخامةً برجوازية واضحةً وصلبة. وعلى الحائط الأيسر، على جانبي المدفأة، المزيّنة بمزهريّات ذات مناظر طبيعية منقوشة على نحاس، وساعة حائط صغيرة يصوّر رقّاصها غوتنبرغ[1] متأمّلاً، واضعاً إصبعه على كتاب، عُلّقَت صورتان بالألوان الزيتية لكونو وليزا في إطارين أهليلجيّين مزخرفين بشدّة. يُرى كونو مبتسماً، وليزا كما ينبغي أن تكون؛ الاثنان في ملابس سوداء، الوجهان مشرقان، ببشرة ورديّة نضرة وهيئة فاتنة. وتغطّي خشب الأرضية سجّادة ذات وُرَيدات متداخلة مع نجيمات. وأمام السرير يمتدّ أحد تلك الأبسطة الموبّرة المصنوعة من خيوط طويلة من الصوف المجعّد، نتاج عمل دؤوب نسجته جزّارة الخنزير الشابّة خلف منضدتها. ولكن ما كان مدهشاً وسط كلّ هذه الأشياء الجديدة، هو ذلك المكتب الكبير المستند إلى الحائط الأيمن غليظاً ومربّعاً. كانوا قد أحضروه دون أن يستطيعوا إصلاح تصدّعات الرخام ولا الخدوش التي طالت خشب الماهاغوني المسودّ من فرط قِدمه. أرادت ليزا الاحتفاظ بقطعة الأثاث تلك، التي استخدمها الخال غراديل لأكثر من أربعين سنة؛ قالت إنّها ستجلب لهما الحظّ. وفي الحقيقة كان مزّوداً بزخارف حديديّة رهيبة، وقفل أشبه ما يكون بأقفال السجون، وكان ثقيلاً لدرجة يصعب معها تحريكه من مكانه.

عندما دخل فلورون وكونو، كانت ليزا تجلس أمام لوح الكتابة المدلّى، تكتب وتخطّ حروفاً، بخطّ كبير ودائريّ، واضح للقراءة. وأشارت لهما ألّا يقاطعاها. فجلس الرجلان. وبقي فلورون يتفرّج مندهشاً على الغرفة والصورتين وساعة الحائط والسرير.

(1) يوهانس غوتنبرغ Johannes Gutenberg (1400–1468) مطبعيّ ألمانيّ اخترع الحروف المعدنية، وهو حدث قام بتثوير عمل المطابع ويسّر انتقال المعارف والنصوص.

- هكذا، قالت ليزا بعد أن فحصت بعناية صفحةً كاملة من الحسابات... أنصت يا عزيزي فلورون، لدينا حسابات نريد أن نسوّيها معك.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تخاطبه فيها بهذه الشاكلة. ثمّ أمسكت بصفحة الحسابات وواصلت:

- خالك غراديل مات دون أن يترك وصيّةً، وكنت أنت وأخوك الوريثين الوحيدين... واليوم يجب أن نعطيك حصّتك.

- لكنّي لا أطلب شيئاً، هتف فلورون، لا أريد شيئاً!

لا بدّ أنّ كونو كان يجهل نيّة زوجته. فصار شاحباً، وأخذ ينظر لها بغضب. كان يحبّ أخاه حبّاً جمّاً حقّاً، ولكن من غير المفيد أن يُلقى عليه ميراث الخال هكذا، كان يجب أن يسوّى هذا الأمر لاحقاً.

- أعرف جيّداً، عزيزي فلورون، أنك لم تأتِ لتطالبنا بما هو لك. ولكنّ العمل هو العمل؛ ويجب أن نسوّي الأمر في الحال. إنّ مدّخرات خالك كانت قد بلغت خمسة وثمانين ألفاً من الفرنكات، ولذا فقد كان نصيبك اثنين وأربعين ألفاً وخمسمائة فرنك. ها هي.

وأطلعته على الرقم في الورقة.

- للأسف ليس من اليسير تحديد القيمة الفعلية للحانوت وتجهيزاته وبضائعه وزبائنه. لم أستطع سوى وضع أرقام تقريبية؛ ولكن أعتقد أنّي أحصيت كلّ شيء على نطاق واسع جدّاً... وتوصّلتُ لمجموع يقدّر بخمسة عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرة فرنكات، يكون لك منها سبعة آلاف وستمائة وخمسة وخمسون فرنكاً، فيكون المجموع بالنسبة لك خمسين ألفاً ومائة وخمسة وخمسين فرنكاً... ستراجعها، أليس كذلك؟

كانت قد نطقت بالأرقام بصوتٍ واضح، ومدّت له الورقة، فتوجّب عليه أخذها.

- ولكن، هتف كونو، حانوت الخال لم يكن يساوي خمسة عشر ألفاً البتّة، أنا ما كنت لأدفع مقابله عشرة آلاف!

لقد أثارت زوجته حنقه، ففي النهاية ليس من الواجب المضيّ في الأمانة إلى هذا الحدّ. هل سأل فلورون عن الحانوت؟ هو في الأصل لا يريد شيئاً، لقد قالها بنفسه.

- الحانوت كان يساوي خمسة عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرة فرنكات، كرّرت ليزا بهدوء... هل فهمت يا عزيزي فلورون؟ من غير المفيد أن نُقحم كاتب العدل في الأمر. علينا نحن أن نسوّي حصصنا، بما أنّك على قيد الحياة... منذ وصولك، فكّرتُ في ذلك بالضرورة، وحين كنتَ مريضاً بالحمّى، هناك في الأعلى، حاولتُ أن أضبط هذه الإحصائية بأفضل صورة ممكنة... هل ترى، كلّ شيء مفصّل هنا، لقد نقّبت في دفاترنا القديمة، واستنفرتُ ذاكرتي. اقرأها بصوتٍ عالٍ، وسأعطيك المعلومات التي تطلبها.

وابتسم فلورون في النهايةـ لقد هزّته هذه الاستقامة الواثقة والطبيعية. وضع ورقة الحسابات على ركبتَي المرأة الشابة، ثمّ تناول يدها وقال لها:

- عزيزتي ليزا، أنا سعيد لرؤيتكما تقومان بأعمال ناجحة؛ لكنّي لا أريد نقودكما. الميراث لك ولأخي، أنتما من اعتنيتما بالخال حتّى النهاية... أنا لا أحتاج شيئاً، ولن أزعجكما في تجارتكما.

أصرّت، وبغضب أيضاً، بينما كان كونو يعضّ على أصابعه من الرضى دون أن يتكلّم. قال فلورون ضاحكاً:

- آه لو سمعك الخال غراديل، لأتى ليستردّ منكما النقود... لم يكن الخال غراديل يحبّني.

- آه، في هذه معك حقّ، لم يكن يحبّك البتّة، غمغم كونو بخفوت.

لكن ليزا واصلت النقاش، وقالت إنّها لا تريد في مكتبها نقوداً لا تخصّها، وإن ذلك يثير اضطرابها، وإنها لن تعيش مع هذه الأفكار في هدوء. فواصل فلورون مزاحه عارضاً عليها أن تحتفظ له بنقوده معها في حانوت الجزارة. ثمّ إنّه يرفض مساعدتها له، فهو لن يجد بالتأكيد عملاً في الحال؛ ثمّ إنّ مظهره غير ملائم على الإطلاق، يلزمه طقم كامل من الملابس.

- بحقّ الربّ، هتف كونو، ستنام عندنا، وتأكل عندنا، وسنشتري لك كلّ احتياجاتك، هذا أمرٌ مفروغ منه... أنت تعرف جيّداً أنّنا لن نتركك على قارعة الطريق!

لقد غمره الحنان، حتّى أنّه شعر بالعار لتخوّفه من إعطائه مبلغاً كبيراً من المال دفعةً واحدةً؛ وأخذ في المزاح، فقال لأخيه إنّه سيتكفّل بتسمينه. فهزّ هذا رأسه. فيما قامت ليزا بطيّ ورقة الحسابات، ووضعتها في أحد أدراج المكتب.

- أنت مُخطئ، قالت، وكأنّها لتنهي الكلام، لقد فعلتُ ما ينبغي عليَّ فعله. والآن سيكون لك ما ترغب فيه... أنا ما كنت لأعيش في سلام، الأفكار السيّئة تزعجني كثيراً.

وتحدّثوا في أمور أخرى، كان يجب وضع تفسير لحضور فلورون، مع تجنّب إثارة انتباه الشرطة. وأعلمها أنّه عاد إلى فرنسا بفضل وثائق تخصّ شخصاً بائساً مات بين يديه من الحمّى الصفراء في سورينام[1]. وشاءت مصادفة عجيبة أن يدعى ذلك الشخص فلورون أيضاً، ولكن فلورون

(1) جمهورية سورينام حاليّاً، مجاورة لغويانا والبرازيل.

لاكيرير. لم يكن قد ترك خلفه سوى ابنة عمّ واحدة في باريس، كتبوا له أنّها ماتت في أمريكا، ولم يكن هناك ما هو أسهل من أن تمثّل إحداهنّ دورها. وقد عرضت ليزا من تلقاء نفسها أن تكون ابنة العمّ. واتّفقوا على أن تُحكى حكاية عن ابن عمّ عائد من الخارج، بعد محاولات بائسة، واستضيف من قبل آل كونو غراديل، وهو الاسم الذي صار الزوجان يحملانه بين أهالي الحيّ، في انتظار أن يجدوا له عملاً. وعندما تمّ ترتيب جميع الأمور، أراد كونو أن يزور أخوه المسكن، لم يعفه من أيّ موضع. وفي الغرفة العارية إلّا من الكراسي، دفعت ليزا باباً، وأرته قُمرةً، وقالت له إنّ فتاة الحانوت ستنام فيها، وإنّها ستحتفظ له بغرفة الطابق الخامس.

وفي المساء، كان فلورون مرتدياً ملابس جديدة بالكامل. أصرّ على ارتداء سترة وبنطال أسودين، على الرغم من تحذيرات كونو من أنّ هذا اللون محزن. لم يعد مختبئاً، وكانت ليزا تحكي لمن يريد أن يسمع قصّة ابن عمّها. وصار فلورون يعيش في حانوت جزارة الخنازير، ناسياً نفسه على مقعد في المطبخ، أو مستنداً بظهره على الرخام في الحانوت. وعلى المائدة، كان كونو يحشوه بالمأكولات حشواً، ويغضب لأنّه لا يأكل إلاّ النزر اليسير، ولأنّه يترك نصف اللحم الذي يملؤون به صحنه. واستردّت ليزا إهابها المتمهّل الهانئ؛ وكانت تحتمله، حتّى في الصباح عندما يُربك الخدمة. كانت تنساه، وعندما يظهر أمامها فجأةً بملابسه السوداء، كانت تنتفض انتفاضة خفيفة، ثمّ تصطنع، على الرغم من ذلك، واحدةً من ابتساماتها الحلوة، كي لا تخدش مشاعره. إنّ نزعة الزّهد المفرط لدى ذلك الرجل النحيف قد صدمتها؛ فكانت تكنّ له نوعاً من الاحترام مختلطاً بجرعة مبهمة من الخوف. ولم يكن فلورون يشعر سوى أنّه محاط بقدر كبير من الحنان.

في ساعة الإخلاد إلى النوم، كان يصعد منهكاً إلى حدّ ما من نهاره الفارغ،

مع صبيّي الحانوت اللذين يشغلان غُريفتَين مجاورتين لغرفته. لم يكد ليون الصبيّ المُتدرّب يبلغ الخامسة عشرة؛ إنّه طفل نحيل بوجه وسيم، كان يسرق نسائر لحم فخذ الخنزير المملّح وقطع السجق المنسيّة، ويخبّئها تحت وسادته ليأكلها في الليل دون خبز. مراراً خيّل لفلورون أنّ ليون يعدّ عشاءً في نحو الواحدة صباحاً، كان يسمع أصواتاً متواصلة تهمس، ثمّ صوتاً لمضغ الطعام، ثمّ حفيف أوراق. وكان هناك ضحك متلألئ، ضحك طفوليّ أشبه ما يكون بزغاريد ناعمة لمزمار، تصدح في الصمت العميق للبيت النائم. أمّا الصبيّ الآخر، أوغست لاندوا، فقد كان من مدينة ترْوا، وهو سمين بشكل قبيح، وله رأس كبير للغاية، أصلع على الرغم من كونه لا يزال في الثامنة والعشرين. في الليلة الأولى، حكى لفلورون قصّته بشكل مطوّل ومختلط. هو لم يأت في البدء إلى باريس إلّا لكي يجيد المهنة ثمّ يعود ليفتح حانوتاً لجزارة الخنازير في ترْوا، حيث تنتظره ابنة عمّه أوغستين لاندوا. لديهما نفس العرّاب. واسماهما متقاربان. ثمّ كبر طموحه، فأخذ يحلم بالاستقرار في باريس بميراثه عن أمّه الذي أودعه لدى أحد كُتّاب العدل قبل أن يغادر مقاطعة شامبانيا. وهناك، ولمّا بلغا الطابق الخامس، استوقف أوغست فلورون، وأخذ يكيل المديح للسيّدة كونو، فقد وافقت على مجيء أوغستين لاندوا لتحلّ محلّ إحدى فتيات الحانوت الفاشلات. أمّا هو، وقد صار يُحسن مهنته، فسيعمل على تعلّم التجارة. وخلال عام أو عام ونصف عام، سيتزوّجان، وسيكون له حانوت جزارته الخاصّ، في بليزانس بلا شكّ، أو في إحدى بقاع باريس المزدحمة. ليسا متعجّلين على الزواج، فقيمة شحم الخنزير كانت منخفضة في ذلك العام.

وحكى له أيضاً أنّهما جمعتهما صورة فوتوغرافية في أحد أعياد القدّيس وان. فدخل إلى الغُرَيفة، تائقاً لأن يشاهد من جديدٍ تلك الصورة التي حسبتْ هي أنّه ينبغي عدم انتزاعها من مكانها فوق المدفأة لكي تزيّن غرفة

ابن عمّ السيّدة كونو. ووقف ناسياً نفسه للحظة، ممتقعاً في الضوء الأصفر للشمعة، يتفحّص الغُريفة التي كانت لا تزال ممتلئةً بحضور الفتاة، واقترب من السرير، وسأل فلورون إن كان قد رقد بارتياح. كانت أوغستين تنام في الأسفل؛ وذلك أفضل لها، فالعلّية كانت شديدة البرودة في الشتاء، وفي النهاية انصرف تاركاً فلورون وحده مع السرير في مواجهة الصورة الفوتوغرافية. كان أوغست شديد الشبه بكونو، ولكنّه شاحب، وأوغستين بالغة الشبه بليزا، دون أن يكون لها نضجها.

بيد أنّ فلورون الذي صار صديقاً لصبيان الحانوت، ومدلّلاً من لدن أخيه، ومقبولاً لدى ليزا، أصابه الملل بفظاعة. كان قد بحث عن فرصة لإعطاء دروس ولم يفلح في ذلك، ثمّ إنّه كان يتحاشى الذهاب إلى حيّ المدارس خشية أن يعرفه أحدهم. وقالت له ليزا بهدوء إنّ من الأفضل التوجّه إلى المؤسّسات التجارية؛ فبإمكانه أن يتولّى فيها أعمال المراسلات وبقيّة الوظائف الكتابية. وفي النهاية عرضت أن تجد له بنفسها مكاناً. لقد بدأت تنزعج من مصادفته في وجهها دائماً، عاطلاً ولا يعرف ما يفعل بجسده. كانت تلك كراهية لها أسبابها تجاه البشر الذين يأكلون دون أن يبذلوا أدنى مجهود، ولم تكن تفكّر في أن تتشكّى من تناوله الطعام في منزلها. كانت تقول له:

- أنا لا أستطيع أن أظلّ أتثاءب طوال اليوم. بأيّ شهيّة تتناول طعامك في نهاية المساء... يجب أن يتعب المرء ليأكل لقمته، أليس كذلك؟

غافار كان بدَوره يبحث عن مكان لفلورون. ولكنّه كان يبحث بطريقة عجيبة وسريّة للغاية، وكأنّه يريد أن يجد وظيفةً ذات طابع دراميّ أو متّسمة بسخرية لاذعة، وظيفة تُناسب «منفيّاً». كان غافار رجلاً مُعارضاً، تجاوز الخمسين ويتفاخر بأنّه جاهر برأيه إزاء أربع حكومات متعاقبة. وكان شارل العاشر، ورجال الكهنوت، والنبلاء، وكلّ أولئك الرعاع الذين طردَهم

يثيرون استيائه؛ وكان لوي فيليب المحاط ببرجوازيّيه أحمق في نظره، ولقد حكى عن جورب الصوف الذي كان «الملك المواطن» يخفي فيه نقوده. أمّا جمهورية 1848 فقد كانت مسخرةً، لقد غدر بها العمّال، لكنه لم يعد يقرّ بأنّه كان متحمّساً للثاني من ديسمبر، لأنه بات يعتبر نابليون الثالث عدوّاً شخصياً له، مجرّد أفّاق يجبس نفسه مع دومورني والآخرين، ليقيموا «الولائم». كان في هذا الباب لا يكفّ عن الكلام؛ يخفض صوته قليلاً، ويؤكّد أنّ عربات مغلقة تجلب في كلّ مساءٍ نساءً إلى قصر التويليري، وأنّه هو نفسه قد سمع ذات ليلة من ساحة كاروسيل ضجيج حفلات المجون تلك. إنّ فلسفة غافار هي أن يكون مشاكساً مع الحكومة إلى أقصى حدّ. ينسج حولها تهكّمات مريرة، يضحك لها طيلةَ شهور. كان يصوّت للنائب الذي «سيزعج الوزراء» في الهيئة التشريعية، ولو كان في مقدوره أن يتحايل على الضرائب، ويسبّب ارتباكات للشرطة، ويفتعل بعض المشاجرات، لسعى إلى جعل المغامرة عصيانيّة للغاية. ثمّ إنّه كان يكذب، مدعيّاً أنّه رجل شرير، ويتكلّم كما لو كانت «عصبة تويلري» تعرفه وتخشاه، ويقول إنّه، في أقرب شغب قادم، ينبغي إعدام نصف هؤلاء الأوغاد بالمقصلة ونفي النصف الآخر. كلّ ثرثرته السياسية العنيفة كانت تتغذّى على هذا النوع من التهويل والقصص الخرافية وعلى الحاجة التهكّمية للجلبة والطرائف، التي تدفع صاحب حانوت باريسيّ إلى فتح دكّانه، في أحد أيّام المتاريس، لمشاهدة القتلى. ولذا، فما إن عاد فلورون من معتقل كايين حتّى فكّر غافار بمقْلب خبيث، وراح يبحث عن وسيلة مناسبة، بالغة الذكاء، ليهزأ بها من الإمبراطور، والوزراء، ومن رجال السلطة جميعاً، حتّى أصغر عريف في الأمن.

إنّ موقف غافار حيال فلورون كان مليئاً بالفرح المكتوم، يحتضنه بعينين تطرفان، ويكلّمه بصوت خفيض مهما تكن بساطة الأشياء التي يقولها، مولياً

إيّاه ضرباً من الثقة الجديرة بأعضاء الحركات السريّة. ها هو في النهاية قد عثر على مغامرة؛ بات يعرف رفيقاً متوّرطاً حقّاً. يستطيع أن يتكلّم، دون أن يكون كاذباً هذه المرّة، عن المخاطر التي يمرّ بها. هو بالتأكيد يشعر بخوف مستتر في مواجهة ذلك الفتى العائد من المنفى، والذي يشي نحوله بمعاناته الطويلة. لكنّ ذلك الخوف اللذيذ يجعله يتضخّم هو أيضاً، يشعر في دخيلته وكأنّه يقوم بفعل مدهش، باستقباله لرجل شديد الخطورة كصديق. أصبح فلورون مقدّساً، لا يقسم سوى به، ويذكر اسمه عندما تعوزه الحجّة، ويؤكّد أنّه يريد أن يسحق الحكومة مرّة وإلى الأبد.

كان غافار قد فقد زوجته، في شارع سان جاك بعد الانقلاب بعدّة شهور. واحتفظ بحانوت الشواء حتّى عام 1856. في تلك الآونة أثير لغطٌ حول ربحه مبلغاً معتبراً من المال، لمشاركته أحد جيرانه من البقّالين في توريد شحنات البقول للقوّات الفرنسية في الجبهة الشرقيّة. والحقيقة أنّه بعد بيعه لحانوت الشواء، عاش من أمواله لمدّة عام. لكنّه لم يكن يحبّ أن يتكلّم عن مصدر ثروته؛ فذلك يضايقه، ويمنعه من إبداء رأيه الصريح في حرب القرم، التي كان يعتبرها حملةً تتّصف بالمغامرة «الغرض منها تدعيم العرش وملء بعض الجيوب». وخلال عام كان قد أصابه الملل في مسكن عزوبيّته. ولمّا كان يزور آل كونو غراديل بشكل يوميّ تقريباً، فقد اقترب منهما، وجاء ليقيم في شارع لا كوسونري. وهنا أغوته سوق ليهال، بضجيجها ونميمتها الضخمة. فقرّر تأجير مكان في رواق الدواجن، فقط ليتسلّى، ليشغل أيّامه الفارغة بنمائم السوق. هكذا عاش في جعجعةٍ لا تنتهي، على علم بأتفه فضائح الحيّ، ورأسه محشوّ بصرير الأصوات التي تحيط به، يجد في ذلك سعادةً مدغدغةً، هانئاً بعثوره على وسط يناسبه، وغائصاً في ذلك بنشوة أسماك شبوّط تسبح في الشمس. كان فلورون يذهب أحياناً لتحيّته في حانوته. كانت الظهائر

لا تزال حارّةً، والنساء جالسات على امتداد الممرّات الضيّقة ينتفن ريش الدواجن. شعاع الشمس يسقط بين الخيام المنتصبة، والريش يتطاير حول الأصابع أشبه بندف للثلج تتراقص في الجوّ الساخن، في الأشعة المتطايرة كالتّبر. تطارد فلورونَ النداءات في تتابع للعروض المتملّقة: «هل تريد بطّةً شهيةً يا سيّدي؟... تعال عندي، لديّ دجاجات سمان.... يا سيّدي اشتري منّي زوج الحمام هذا...» كان يمضي، متضايقاً ومُنزعجاً من الأصوات. وتستمرّ النساء في نزع الريش، وهنّ يتشاجرن، وشظايا الزغب الرفيع تتساقط، وتخنقه ببخر ساخن وكثيف من رائحة الدواجن القويّة. وأخيراً، وفي منتصف الممرّ، بالقرب من النافورة، يبلغ غافار، يجده ببذلة العمل، كاتفاً ذراعيه على صدريّته الزرقاء، واقفاً كمن يلقي خطبةً أمام حانوته. هنا، يتسيّد غافار بهيئة أمير طيّب، وسط فريق من عشر نساء إلى اثنتي عشرة امرأة. هو الرجل الوحيد في السوق، لسانه طويل للغاية. فبعد أن انتابه الغضب من الستّ فتيات اللائي شغّلهنّ على التوالي في حانوته، قرّر أن يبيع بضائعه بنفسه، قائلاً بسذاجة إنّ أولئك الحمقاوات كنّ يقضين أيّامهن في الثرثرة، وهو ما لم يكن يستطيع أن يضع له حدّاً. ولمّا كان ينبغي له أن يجد شخصاً ليحلّ محلّه عندما يتغيّب عن الحانوت، فقد قبل بمارجولان، الذي كان عاطلاً بعد أن جرّب كلّ أنواع المهن في ليهال. يمكث فلورون أحياناً ساعةً مع غافار، ويبقى معجباً بنمائمه التي لا تنضب، وبمكانته وارتياحه وسط هذا الجمع من النساء، يقاطع واحدةً في كلامها، ويتشاجر مع الأخرى، وينتزع زبوناً من ثالثة من مسافة عشرة حوانيت، محدثاً جلبةً وحده، تفوق ضجيج المائة ثرثارة ونيّف من جاراته، اللائي ترجّ أصداء ضجيجهنّ صفائح الهيكل الحديديّ للرواق بذبذبات صوتيّة.

لم يكن لتاجر الدواجن من أقارب سوى ابنة أخت، وشقيقة لزوجته.

عندما ماتت زوجته بكتها شقيقتها الكبرى السيّدة لوكور والتي كانت ترمّلت منذ عام بشكل مبالغ فيه، وكانت تذهب كلّ مساء تقريباً لتعزية الزوج الحزين. لا بدّ أنّها كانت ترمي لإثارة إعجابه وشغل مكان الزوجة الذي كان لا يزال دافئاً. ولكنّ غافار كان يكره النساء النحيفات، وكان يقول إنّ إحساسه بالعظام تحت الجلد مباشرة يسبب له الكرب. هو لا يمسّد أبداً سوى القطط والكلاب السمينة مستشعراً برضى شخصيّ من استدارة الأجساد الريّانة. وبسبب الجرح الذي استشعرته السيّدة لوكور وحنقها الشديد وهي ترى ثروة الشوّاء تفلت منها، تراكم لديها حقد قاتل. وصار زوج أختها عدوّاً يشغل بالها طوال الوقت. وعندما رأته وقد استقر في ليهال، على مبعدة خطوتين من الرواق الذي تبيع فيه الزبدة والجبن والبيض، اتّهمته بأنّه «افتعل ذلك ليغيظها وليجلب لها النحس». ومنذ ذلك الوقت وهي تنوح وتزداد شحوباً ويشتطّ ذهنها، حتّى فقدت كلّ زبائنها فعلاً وبارت تجارتها. كانت تؤوي معها منذ فترة طويلة ابنةً لإحدى شقيقاتها الفلّاحات، التي كانت قد أرسلت لها الصغيرة وكفّت عن الاهتمام بها. فكبرت الفتاة في وسط ليهال. ولما كان اسم عائلتها ساربيت فقد صار الجميع ينادونها «لاساربيت»[1]. في سنّ السادسة عشرة صارت لاساربيت فتاةً لعوباً حتّى أنّ الرجال كانوا يأتون لشراء الجبن فقط لرؤيتها. وهي لم تكن تريد رجالاً مرموقين، كانت سوقيّةً بسحنتها الشاحبة التي لعذراء سمراء وعينيها البرّاقتين كجمرتين. وكان من وقع عليه اختيارها هو أحد الحمّالين، صبيّاً من مينيمولتان كان يؤدّي الأعمال لخالتها. وعندما استقرّت في سنّ العشرين كبائعة فواكه برأس مال لم يعرف أحدٌ مصدره، بدأ عشيقها الذي يُسمّى السيّد جول في الظهور بهيئة منعّمة. لم يعد يرتدي سوى القمصان النظيفة

---

(1) «لا» la التي تسبق الاسم هي أداة التعريف للمؤنّث، وفي وضعها أمام الاسم الشخصيّ ضرب من السخرية.

وقبّعة من القطيفة، ولا يأتي إلى ليهال قبل العصر، في خفّيه. كانا يقطنان معاً في شارع فوفير، في الطابق الثالث من بيت كبير، يقع أسفله مقهى ذو سمعة سيّئة. ساهم نكران لاساريت للجميل في ازدياد مرارة السيّدة لوكور التي أخذت تعاملها بأعنف الألفاظ الفاحشة. لقد فرّق الغضب بينهما، فصارت السيّدة لوكور حانقةً، وابنة أختها تؤلّف مع السيّد جول قصصاً عنها ليرويها في رواق الزبدة. وكان غافار يجد لاساريت طريفةً؛ ويُبدي لها الكثير من التدليل، يربت على خدّيها عندما يقابلها، ولقد كانت ممتلئة ولحيمة بروعة.

وفي إحدى الظهائر، وإذ كان فلورون جالساً في حانوت جزارة الخنزير، منهكاً من الجولات الخائبة التي قام بها في الصباح للبحث عن عمل، دخل مارجولان. وكانت ليزا تحيط ذلك الصبيّ ذا السمنة واللطف الفلمنديّين برعايتها، وتعتبره طيّباً، وأحمق بعض الشيء، له قوّة حصان، وكان مثيراً للشفقة بما إنّه مجهول الأب والأمّ. وهي من وظّفه لدى غافار.

كانت ليزا خلف منضدة البيع، مغتاظةً من حذائي فلورون القذرين اللذين يلوّثان أرضية البلاط الأبيض والورديّ، وكانت قد قامت مرّتين لترشّ أرضيّة الحانوت بنشارة الخشب. ابتسمت لمارجولان. قال الشابّ:

- السيّد غافار أرسلني لكم.

وتوقف مُتلفّتاً حوله وقال بصوت مُنخفض:

- وقد أوصاني أن أنتظر حتّى يفرغ المكان فأقول لكم ما لقّنني إيّاه حتّى حفظته عن ظهر قلب: «اسألهم إن لم يكن هناك أيّ خطر، وإذا كان باستطاعتي أن أذهب إليكم لنتحدّث عمّا تعرفونه».

- قل للسيّد غافار إنّنا ننتظره، ردّت ليزا وقد اعتادت على السلوك الغامض لتاجر الدواجن.

لكنّ مارجولان لم ينصرف، بل وقف منتشياً أمام الجزّارة الحسناء، وعلى وجهه خضوع مُستعذَب. فقالت وكأنّها تأثرت لذلك الوله الصامت:

- هل يعجبك العمل لدى السيّد غافار؟ إنّه رجل طيّب، ولا بدّ أن تُرضيه.

- نعم يا سيّدة ليزا.

- فقط أنت لست عاقلاً، فقد رأيتك على سقف الرواق بالأمس، ثمّ إنّك تخالط عصبةً من المشرّدين والمشرّدات. صرتَ رجلاً الآن؛ يجدر بك أن تفكّر في المستقبل.

- نعم يا سيّدة ليزا.

وتوجّب عليها الردّ على سيّدة جاءت تطلب رطلاً من الضلوع بالمخلّلات. فغادرت المنضدة وتوجّهت نحو القُرمة في آخر الحانوت، وهناك فصلت بسكّين رفيعة ثلاثة أضلع من رفّ ضلوع خنزير، وبقبضتها العارية والقوية ضربت بساطور ثلاث ضربات، ومع كلّ ضربة كان ثوبها الصوفيّ الأسود يرتفع قليلاً، بينما حمّالات مشدّها تبرز تحت النسيج الرقيق لصدارها. كانت تبدو جادّةً للغاية، شفتاها مزمومتان، وعيناها مفتوحتان وهي تلملم الضلوع وتزنها بيد متّئدة.

وعندما انصرفت السيّدة رأت مارجولان مأخوذاً لرؤيتها تُقطع بالساطور بهذه الضربات الحاسمة الحادّة:

- كيف هذا، ألا زلت هنا؟ هتفت به.

كان يهمّ بالخروج من الحانوت عندما استوقفته:

- اسمع، قالت له، لو رأيتك مرّةً أخرى مع تلك العاهرة كادين...

لا تنفِ، فقد كنتما معاً هذا الصباح في سوق الكروش والأكارع، تشاهدون تكسير رؤوس الخراف... أنا لا أفهم كيف أنّ رجلاً وسيماً مثلك يرضى بصحبة تلك المومس، تلك الجرادة... هيا اذهب وأخبر السيّد غافار أن يأتي حالاً فالحانوت خالٍ.

وانصرف مارجولان دون أن يردّ، وعلى وجهه الاضطراب وخيبة الأمل.

وظلّت ليزا الجميلة واقفةً خلف منضدتها ووجهها ملتفت صوب ليهال؛ وكان فلورون يتأمّلها صامتاً، مندهشاً من جمالها الفائق. لم يكن رآها جيّداً حتّى تلك اللحظة، هو لا يعرف كيف ينظر إلى النساء. كانت تبدو له من أعلى اللحم المعروض على المنضدة. أمامها في أطباق خزفية بيضاء: سجق آرل وليون المقطّع، الألسنة وقطع اللحم المقدّد المسلوقة في الماء، ورأس الخنزير الغارق في الجميد، وإناء مفتوح للّحم المفروم، وعلبة للسردين يُظهر صفيحها المشقوق بحيرةً من الزيت، وعلى اليمين واليسار، على ألواح خشبية، خبز بالجبن الإيطاليّ وبجبن الخنزير، وفخذ خنزير مملّح اعتياديّ، بلون ورديّ شاحب، وفخذ خنزير يورك بلحم دام تحت شريط عريض من الدهن، وكان هناك أيضاً أطباق مستديرة وبيضاوية، صحون الألسنة الخشنة، والغلنتين المحشوّ، ولحم الرأس بالفستق؛ بينما بالقرب منها، تحت يدها مباشرة، قطع لحم العجل المشويّ، ومعجون الأكباد، ولحم الأرانب المفروم في برنيّات صفراء. ولمّا لم يأتِ غافار شرعت في رصّ شحم الصدور على الرفّ الرخاميّ الصغير في آخر المنضدة، وصفّ وعاء السمن ووعاء دهن الشواء، وتنظيف الكفّات المعدنية للميزانين، تتحسّس الموقد الذي تخبو حرارته؛ ثمّ تدير رأسها مرّةً أخرى بهدوء، وتشرع في النظر باتّجاه نهاية ليهال. فاح بَخَرُ اللحم، وهي كانت كالمأخوذة في سلامها الكثيف، من رائحة الكمأة. في ذلك اليوم كانت في نضارة رائعة، بياض صدريّتها وأكمامها يُكمل

بياض الأطباق، وحتّى رقبتها الممتلئة ووجناتها المورّدة، حيث تنبعث أطياف الألوان الرقيقة للحم الفخذ المملح وشحوب الدهون الشفّافة. كان فلورون يتفحّصها خلسةً، متخوّفاً ومتوجّساً من هيئتها المنضبطة، في المرايا التي تحوّط الحانوت، كانت صورتها تنعكس، من ظهرها، ووجهها، وجانبها؛ وحتّى في السقف وجد صورة رأسها منعكسة لأسفل، بعقصة شعرها المشدودة وشرائطها الرفيعة الملتصقة بفوديها. إنّها جمهرة من ليزا، يبدي عرض كتفيها، والإحكام القويّ لذراعيها، واستدارة صدرها المصمت والممتدّ لدرجة لا يثير معها أيّ أفكار شهوانية، فيبدو كمثْلِ بطن. أعجبه بالذات أحد الانعكاسات الجانبية لوجهها في مرآة مجاورة له، بين نصفَي خنزير. على طول المرايا والرخام، تتدلّى من العوارض ذات الكلّابات قطع اللحم الطازج والمقدّد المعلّقة؛ كانت الصورة الجانبية لليزا بعنقها القويّ واستداراتها، وبصدرها المتقدّم، تشخيصاً لملكة ممتلئة، وسط كلّ هذه اللحوم المقدّدة والطازجة. ثمّ مالت الجزّارة الحسناء وابتسمت بودّ للسمكتين الحمراوين اللتين تسبحان في الحوض الزجاجيّ لواجهة العرض.

ودخل غافار. وذهب ليبحث عن كونو في المطبخ، وعلى وجهّه علامات الجدّ. وعندما جلس مستعرضاً على طاولة رخامية صغيرة، تاركاً فلورون على كرسيّه، وليزا خلف منضدتها، وكونو مستنداً بظهره إلى نصف خنزير مذبوح، أعلن أخيراً أنّه وجد مكاناً لفلورون، وأنّه أمر مضحك، فالحكومة قد تمّ خداعها بلطف.

لكنّه قطع كلامه بغتةً، إذ رأى الآنسة ساجيه التي كانت قد دفعت باب الحانوت، بعد أن رأت من الطريق هذا الجمع من البشر يتكلّمون في حانوت آل كونو غراديل. دخلت العجوز الضامرة بثوبها الحائل، وسلّتها السوداء التي تحملها دوماً في يدها، تعتمر قبّعةً من القشّ الأسود من دون شرائط تغمر

وجهها الأبيض بظلال مخاتلة، وألقت تحيّةً سريعةً على الرجال وابتسمت لليزا ابتسامة حادّة. لقد كانت من معارفهم؛ لا تزال تسكن في منزل شارع بيرويت الذي تعيش فيه منذ أربعين عاماً، بالتأكيد من ريع ضئيل لا تتكلّم عنه أبداً. في أحد الأيّام، كانت قد ذكرت شيربورغ، مضيفةً أنّها قد ولدت هناك. ولا أحد يعرف أكثر من ذلك. هي لا تتكلّم إلّا عن الآخرين، تحكي عن حياتهم حتّى أنّها قد تذكر عدد القمصان التي يغسلونها في الشهر، تدفعها رغبتها للتدخّل في وجود الآخرين إلى حدّ استراق السمع على الأبواب وفضّ الرسائل المغلقة. كانت الناس تخشى لسانها، من شارع سان دوني إلى شارع جان جاك روسو، ومن شارع سانت أونوريه حتّى شارع موكونسي. طوال اليوم تحوم بسلّتها الفارغة بزعم أنّها تتسوّق، لكنّها لا تشتري شيئاً، فقط تنشر الأخبار، وتطّلع على أتفه الحوادث، حتّى تتمكّن من حشو رأسها بالحكايات الكاملة للبيوت والطوابق وأهلّ الحيّ. كان كونو يتّهمها دائماً بأنّها أذاعت قصّة موت الخال غراديل على طاولة التقطيع، ومنذ ذلك الوقت وهو يكنّ لها الضغينة. كانت تعرف كلّ شيء عن الخال غراديل وآل كونو، وبالتفصيل، ومن كلّ الجوانب، تعرفهم «عن ظهر قلب». لكن منذ نحو أسبوعين، بلبلها وصول فلورون، وألهبها بحمّى حقيقيّة من الفضول. كانت تمرض عندما تستجدّ ثغرات غير متوقّعة في دفاترها. ومع ذلك، فقد أقسمت أنّها رأت ذلك الطويل الناحل في مكان ما.

وقفت أمام منضدة البيع تنظر إلى الأطباق، الواحد تلو الآخر، وقالت بصوتها الرفيع:

- لم يعد المرء يعرف ماذا يأكل. عندما يدخل العصر أبدأ في التصوّر جوعاً للعشاء... ثمّ أنّي لا أرغب في شيء... هل تبقّى لديك لحم ضلوع متبّل بالخبز المحمّص يا سيّدة كونو؟

وبدون أن تنتظر إجابةً، رفعت أحد أغطية الموقد المعدنيّ، وكان ذلك الجانب الذي به السجق والنقانق والمسوَّد، وكان الوعاء بارداً، لم يكن هناك سوى قطعة سجق مسطّحة منسيّة على صفيحة التسخين.

- انظري في الجهة الأخرى يا آنسة ساجيه، قالت الجزّارة، أعتقد أنّه بقيت قطعة من لحم الضلوع.

- لا، لا يغريني ذلك، همست العجوز القصيرة، التي أدخلت رأسها في الوعاء، تلك كانت نزوة، لكنّ لحم الأضلع المتبل بالخبز المحمص ثقيل ليلاً... أرغب في شيء لا أضطّر حتّى لتسخينه بنفسي.

والتفتت لجهة فلورون، وأخذت تنظر إليه، وتنظر لغافار الذي كان يتسلّى بالنقر بأطراف أصابعه على الطاولة الرخامية؛ ودعتهما بابتسامة إلى استكمال حديثهما.

- لماذا لا تشترين قطعةً من اللحم المملّح؟ سألتها ليزا.

- قطعة من اللحم المملّح، نعم، ذلك ممكن...

وأخذت الشوكة ذات الذراع القصديرية الموضوعة على طرف الطبق، تتذوّق، وتخز كلّ قطعة من اللحم المملّح. وتضرب ضربات خفيفة على العظام تقيس سُمكها، ثمّ تعيدها وتختبر شرائح اللحم الوردية وهي تردّد:

- لا، لا يغريني ذلك.

- إذن، خذي لساناً، أو قطعة من لحم رأس الخنزير، أو شريحة من لحم العجل المشويّ، قالت الجزّارة بصبر.

لكنّ الآنسة ساجيه كانت تهزّ رأسها. ومكثت هناك لحظةً أخرى، تصطنع تعابير مشمئزةً أمام الأطباق، ولمّا رأت أنّهم قد قرّروا التوقّف عن الكلام،

وأنّها لن تعرف شيئاً، فقد انصرفت قائلةً:

- لا، هل ترين، كنت أرغب في قطعة من الضلوع متبلة بالخبز المحمص، لكن تلك المتبقيّة لديكم كثيفة الدهن... فليكن ذلك في مرّة أخرى.

مالت ليزا لتتابعها بنظراتها من بين المعروضات على المنضدة، ورأتها تعبر الطريق ثمّ تدخل في رواق الفواكه.

- يا للعنزة العجوز! غمغم غافار.

وإذ صاروا وحدهم، حكى عن المكان الذي وجده لفلورون. وقد كانت تلك قصّةً كبيرةً. فأحد أصدقائه، وهو السيّد فيرلاك، المفتّش في رواق الأسماك، مريض للغاية حتّى أنّه وجد نفسه مضطرّاً لأخذ عطلة. وفي الصباح نفسه أوصاه الرجل المسكين أن يقترح له شخصاً ليحلّ محلّه في إدارة المنصب، حتّى يشفى.

- هل تفهمون، أضاف غافار، قصّة فيرلاك ليست قصّة ستّة شهور- سيحتفظ فلورون بالمنصب. إنّه وضع ملائم. وسنشرك معنا الشرطة! فالمنصب تابع لإدارة المحافظة. سيكون مضحكاً أن يذهب فلورون لتلقّي راتبه من أولئك المخبرين!

كان يضحك كثيراً، مُلفياً القصّة شديدة الفُكاهة.

- لا أريد هذا المنصب، قال فلورون بلهجةٍ قاطعة. لقد أقسمتُ ألّا أقبل شيئاً من الإمبراطورية. أموت من الجوع ولا أدخل إدارة محافظة، هذا مستحيل، أتسمع يا غافار!

كان غافار يستمع منزعجاً. فيما خفض كونو رأسه. والتفتت ليزا وثبّتت نظرتها على فلورون وعنقها منتفخ، وثدياها يثقلان صدارها. كانت ستتفوّه

بشيء عندما دخلت لاساريت. فساد الصمت من جديد.

- حسناً، قالت لاساريت بضحكتها الرقيقة، لقد نسيت أن أشتري دهن الخنزير، اقطعي لي اثنتي عشرة قطعةً يا سيّدة كونو على أن تكون رفيعة جدّاً، إنّها لطهوِ قُبّرات، جول يريد أن يأكل قبّرات... هل أنتَ على ما يرام يا خالي؟

كانت تملأ المكان بتنّورتها الضخمة. تبتسم للجميع، وجهها بنضارة الحليب، وقد خرّبت رياح ليهال جانباً من تسريحتها. صافحها غافار، فقالت بجرأتها المعهودة:

- أراهن أنّكم كنتم تتحدّثون عنّي، ماذا كنتم تقولون إذن يا خالي؟

ونادتها ليزا.

- أنظري، هل تريدينها رفيعة هكذا؟

وعلى لوحٍ أمامها، كانت تقطع شرائح دهن الخنزير بدقّة، ثمّ قالت وهي تلفّها بالورق:

- هل يلزمك شيء آخر؟

- يا إلهي، بما إنّي هنا، أعطيني رطلاً من السمن... أنا أعشق البطاطا المقليّة، أنا أصنع غداءً بمليمين من البطاطا المقليّة وحزمة فجل... نعم، رطل من السمن يا سيّدة كونو.

وضعت الجزّارة قطعة من الورق المقوّى على كفّة الميزان، وجاءت بالسمن من الوعاء الموضوع تحت الرفّ بملعقة خشبية، وزوّدت مقدار السمن الذي تكوّم بيدها الدقيقة، وعندما هبطت كفّة الميزان، رفعت الورقة، وطوتها على شكل قرطاس بأطراف أصابعها.

- هذا بأربعة وعشرين مليماً، وستّة مليمات للدهن، فيكون المجموع ثلاثين مليماً... هل يلزمك شيء آخر؟

قالت لاساربيت لا، ودفعت وانصرفت، مستمرّةً في الضحك، مظهرةً أسنانها، تنظر للرجلين وجهاً لوجه، بتنّورتها الرمادية الحائلة، ومنديل رقبتها الأحمر غير المُحكَم الذي يظهر شريطاً أبيض من صدارها، وفي المنتصف، قبل أن تخرج هدّدت غافار قائلة:

- إذن فأنت لا تريد أن تقول لي ما الذي كنتم تتحدّثون فيه عندما دخلت. لقد رأيتكم تضحكون من الشارع، إيه يا للخبث، لم أعد أحبّك.

وغادرت الحانوت، وعبرت الشارع راكضةً ـ فقالت ليزا الجميلة بصوت ناشف:

- إنّها الآنسة ساجيه من أرسلتها لنا.

ثمّ عاد الصمت. كان غافار ذاهلاً من استقبال فلورون لعرضه، وكانت الجزّارة هي من قطع الصمت، وقال بصوت ودود:

- أنت مخطئ يا فلورون إذ ترفض منصب المفتّش هذا... أنت تعرف مدى صعوبة العثور على وظائف، وأنت في وضع يجب ألّا تبدي معه عناداً.

- لقد قلت أسبابي، أجاب فلورون.

هزّت كتفيها.

- لا أرى هذا الموقف جادّاً... أتفهّم أنّك لا تحبّ الحكومة، لكنّ ذلك لا يمنع المرء من أن يكسب عيشه، سيكون ذلك من الحماقة بمكان... ثمّ إنّ الإمبراطور ليس رجلاً شرّيراً يا عزيزي. أنا أسمعك عندما تحكي

عن معاناتك، ولكن هل كان هو يعرف أنّك كنت تأكل خبزاً ولحماً متعفّنين؟ لا يمكن أن يكون ذلك الرجل في كلّ مكان... ألا ترى أنّه لا يمنعنا من ممارسة أعمالنا؟... أنت لست عادلاً، لا، لست عادلاً على الإطلاق.

صار غافار منزعجاً أكثر فأكثر. لم يعد يستطيع تحمّل أن تقال أمامه تلك المدائح في الإمبراطور.

- لا، لا يا سيّدة كونو، إنّك تبالغين كثيراً. إنّ هذا لَمن كلام الغوغاء...

- أوه، قاطعته ليزا الجميلة بحماس، أنت لن ترضى إلى أن تُنهَب أموالك وتُقتَل لآرائك هذه. لن نتكلّم في السياسة ـ فالأمر متعلّق بفلورون، أليس كذلك؟ حسناً، أنا أقول إذن إنّه ينبغي بشكل مطلق أن يقبل منصب المفّتش. أليس ذلك هو رأيك يا كونو؟

كونو الذي لم يكن قد نطق بكلمة انزعج من سؤال زوجته المفاجئ.

- إنّه منصب جيّد، قال كونو دون أن يجازف بالمزيد.

وإذ ساد صمت جديد مشوب بالحرَج، قال فلورون:

- أستميحكم عذراً، فلنترك هذا الأمر. لقد اتّخذت قراري. سأنتظر.

- ستنتظر! صرخت ليزا وقد عيل صبرها.

صارت وجنتاها شعلتين من اللهب الورديّ، وباعدت ساقيها وانتصبت واقفةً بصدريّـتها البيضاء، وسكتت حتّى لا تفلت ألفاظاً سيّئة. ودخلت زبونة أخرى، ممّا أمتصّ غضبها. كانت تلك هي السيّدة لوكور.

- هل بإمكانك اعطائي صحناً متنوّعاً زنة نصف رطل، أليس الرطل بخمسين مليماً؟ سألت السيّدة.

تظاهرت في البداية بأنّها لم ترَ زوج شقيقتها، ثمّ حيّته بإشارة من رأسها، دون أن تتكلّم. تفحّصت الرجال الثلاثة من أعلى لأسفل، آملة بلا شكّ أن تسبر سرّهم، لدرجة أنّهم تمنوّا أن ترحل. وشعرت بأنّها تزعجهم؛ وقد جعلها هذا أكثر حدّة وأكثر مرارةً، في تنّورتها الساقطة، وبذراعيها العنكبوتيّين، وكفّيها المعقودتين تحت صدريّتها. وإذ سعلت سعلةً قصيرةً سألها غافار وقد ضايقه الصمت:

- هل تعانين من الزكام؟

فأجابت بجفاف شديد أنْ لا، وفي المواضع التي تبرز منها العظام في وجهها كان لجلدها المترهل لون أحمر قانٍ، ويفصح التهاب جفنيها عن داء ما بالكبد من احتراقها بمرارات الغيرة. استدارت نحو منضدة البيع، تتابع كلّ حركة من حركات ليزا التي كانت بصدد تجهيز مشترياتها، بتلك العين المتشكّكة لزبون يعتقد أنّهم سيغشّونه.

- لا تعطيني شيئاً من المخّ، لا أحبّه.

كانت ليزا قد تناولت سكّيناً رفيعة وقطعت شرائح من سجق السلاميّ، ثمّ ذهبت إلى فخذ الخنزير المدخّن والاعتياديّ تفصل شرائح رقيقة، منحنية قليلاً، وعيناها على السكّين. يداها الريّانتان، بلونهما الورديّ الحيّ، اللتان تمسّان اللحم بخفّة طريّة اكتسبتا منه نوعاً من مرونة دسمة في أصابعها الممتلئة. قدّمت لها برنيّةً وهي تسألها:

- تريدين شيئاً من لحم العجل المشويّ، أليس كذلك؟

بدا أن السيّدة لوكور راحت تفكّر طويلاً؛ ثمّ وافقت. كانت الجزّارة تقطع داخل البرنيّة، أخذت على طرف سكين ذات نصل عريض شرائح من لحم العجل المشويّ ومفروم لحم الأرانب، ووضعت كلّ شريحة على الورقة

التي بسطتها على الميزان.

- ألن تضعي قليلاً من لحم الرأس بالفستق، قالت السيّدة لوكور بصوتها القبيح.

واضطرت لإعطائها لحم الرأس بالفستق، لكنّ تاجرة الزبدة أصبحت متطلّبةً، وأرادت شريحتين من الغلنتين؛ كانت تحبّه. كانت ليزا مغتاظة، تلعب بمقبض السكّين بنفاد صبر، فقالت لها إنّ الغلنتين محشوّ بالكمأة، وهي لا تضعه إلّا في الصحون المتنوّعة التي يبلغ ثمنها ثلاثة فرنكات للرطل الواحد، وواصلت الأخرى فحص الأطباق، بحثاً عمّا ستطلبه أيضاً. وعندما تمّ وزن الصحن المتنوّع، توجّب على الجزّارة إضافة قطعة من الجميد وبعض المخلّلات. كانت كتلة الجميد، التي كان لها شكل كعكة في منتصف صينيّة من الخزف، ترتجّ تحت يدها المتصلّبة من الغضب، والتي أُغرقت بالخلّ فيما تتناول بأطراف أصابعها قطعتين كبيرتين من المخلّل من الوعاء خلف الموقد.

- هي خمسة وعشرون مليماً أليس كذلك؟ قالت السيّدة لوكور بتلكّؤ.

كانت ترى بوضوح غيظ ليزا الصامت. وكانت تتلذّذ وهي تخرج نقودها ببطء، وكأنّها ضائعة في النقود الكثيرة في جيبها. كانت تنظر لغافار من علٍ وتتذوّق الصمت المحرَج الذي جعله حضورها يطول، وتقسم أنّها لن تغادر، بما إنّهم «يخفون عنها الأسرار». لفّت الجزّارة في النهاية بضاعتها بالورق ووضعتها في يدها، فاضطرّت للانسحاب. وانصرفت دون أن تنبس ببنت شفة، بعد أن مسحت المكان بنظرة فاحصة.

وعندما غادرت، انفجرت ليزا:

- لقد أرسلتها ساجيه أيضاً! هل ستجعل كلّ ليهال يتوافد علينا هنا تلك العاهرة العجوز كي تعرف ما الذي نقوله؟... يا لهنّ من خبيثات.

هل رأيتم أحداً يشتري لحم ضلوع متبّلاً بالخبز المحمّص أو صحوناً مشكلّة في الخامسة مساء؟ سيصبن بعسر الهضم، فضلاً عن أنّهن لن يعرفن... إن أرسلت ساجيه واحدةً أخرى فسترون كيف سأستقبلها. حتّى لو كانت شقيقتي سأطردها من الباب.

وسكت الرجال الثلاثة أمام غضب ليزا. كان غافار قد اتّكأ بمرفقه على الدرابزين ذي الحاجز النحاسيّ لواجهة العرض، مستغرقاً في لفّ أحد قوائمه البلّورية المفصولة عن القضيب المعدنيّ، ثمّ رفع رأسه وقال:

- أنا كنت أتفرّج على ذلك كمسخرة.

- ماذا إذن؟ سألت ليزا وهي لاتزال مستثارةً.

- منصب المفتّش في رواق الأسماك.

رفعت يدها، ونظرت إلى فلورون نظرةً أخيرةً وجلست على المقعد المبطّن خلف المنضدة، ولزمت الصمت، وأخذ غافار يشرح مطوّلاً فكرته: الحكومة هي التي ستكون مخدوعة في المحصّلة الأخيرة، فهي التي ستدفع نقودها. وأضاف برضى:

- يا عزيزي، هؤلاء الداعرون تركوك تتضوّر جوعاً، أليس كذلك؟ حسناً فعليهم الآن إطعامك... ذلك رائع، وقد جذب انتباهي على الفور.

كان فلورون يبتسم ويصرّ على الرفض، أمّا كونو، فلكي يرضي زوجته، حاول أن يعطي بعض النصائح المناسبة. لكنّها كان يبدو وأنّها قد كفّت عن الإنصات لهم. وكانت تراقب ليهال منذ برهة بانتباه، وفجأة قامت واقفةً وصاحت:

- النورماندية هي من يرسلنَها الآن. سحقاً! النورماندية هي التي ستدفع الثمن عن الأخريات.

دفعت امرأة طويلة سمراء باب الحانوت. إنّها السمّاكة الحسناء لويز ميهودان، المشهورة بالنورماندية؛ كان جمالها متحدّياً، بشرتها شديدة البياض ورقيقة، لها نفس بنية ليزا القويّة تقريباً، ولكن بنظرة أكثر جرأة وصدر أكثر حيوية. دخلت كمثْلِ فارسة، بسلسالها الذهبيّ الذي يطلق صليله فوق صدريّتها، شعرها العاري مصفّف وفقَ أحدث صرعة، وبعقدة منديل في عنقها، عقدة مخرّمة تجعل منها إحدى ملكات الأناقة في ليهال. كان تفوح منها رائحة خفيفة للأسماك. وفي كفّها، بالقرب من إصبعها الصغيرة كان هناك قشرة رنكة تبدو كبقعة من صدف. كانت المرأتان، إذ تقطنان نفس البيت بشارع بيرويت، صديقتين حميمتين، وترتبطان للغاية في منافسة حادّة تجعل الواحدة منهما مشغولةً بالأخرى، وبشكل مستمرّ. في الحيّ كانوا يقولون النورماندية الجميلة كما يقولون ليزا الجميلة. كان ذلك يضعهما في مواجهة، في مقارنة، ويجبر كلّاً منهما على التمسّك بشهرتها بصفتها حسناء. كانت الجزّارة إذا مالت من موضعها خلف منضدة البيع رأت السمّاكة في الرواق المواجه بين أسماك السلمون والترس. كانت كلّ واحدة تراقب الأخرى. ليزا الجميلة تزيد من شدّ جسمها بالمشدّات، والنورماندية الجميلة تضيف خواتم في أصابعها وربطات على كتفيها، وعندما تتقابلان، تتودّد إحداهما للأخرى وتتخاطبان بالمجاملات. وتختلس الأعين من تحت الجفون نصف المسبلة نظرات سريعة تتفحّص العيوب، وتتظاهران عند التعاملات بينهما بالتحابّ.

- أخبريني، هل ستصنعون سجق المسوَّد غداً مساء؟ سألت النورماندية الجميلة بهيئتها الضاحكة.

ظلّت ليزا على برودها. كان غضبها، وهو نادر الحدوث، عنيداً ولا هوادة فيه، وأجابت بكلمة «نعم» من بين أسنانها.

- كما تعلمين، أنا اعشق المسوَّد وهو خارج من الوعاء على النار... سآتي لآخذ منه.

كانت واعيةً بالاستقبال السيّئ الذي استقبلتها به منافستها، تطلّعت إلى فلورون الذي يبدو أنّه قد أثار انتباهها؛ ثمّ، وكأنّها لا تريد أن تنصرف دون أن تقول شيئاً، أو دون أن تكون لها الكلمة الأخيرة، جازفت وقالت:

- لقد اشتريت منك المسوَّد أمس الأوّل، ولم يكن طازجاً بما يكفي.

- لم يكن طازجاً بما يكفي! كرّرت الجزّارة ممتقعةً وشفتاها ترتعدان.

كانت ستواصل، كي لا تتخيّل النورماندية أنّها استشاطت غضباً بسبب منديلها الأنيق. لكنّهن لا يكتفين بالتجسّس بل جئن ليشتمنها فوق ذلك، وكان ذلك يفوق الحدود. انحنت وقبضتها على المنضدة، وقال بصوت خشن قليلاً:

- اسمعي إذن، هل تعرفين أنّني حين اشتريت منك الأسبوع الماضي زوجاً من سمك موسى كنت سأقول لك إنّها منتنة أمام كلّ العالم!

- منتنة!... أسماكي منتنة!... صرخت السمّاكة وقد تضرّج وجهها بالدم.

ووقفتا للحظة مختنقتين، في صمت رهيب، بين اللحوم. صداقتهما قد تبخّرت؛ كانت كلمة واحدة كافيةً لإظهار الأنياب الحادّة التي تختبئ خلف الابتسامات.

- أنتِ بذيئة، لن أضع قدمي هنا مرّةً ثانيةً، قالت النورماندية الجميلة.

- اذهبي، هيا اذهبي، نعرف جيّداً من نتعامل معه.

خرجت السمّاكة، بعد كلمة نابية تركت الجزّارة في غاية الاضطراب. لقد دار المشهد بسرعة شديدة حتّى أنّ الرجال الثلاثة الذاهلين لم يسعفهم الوقت للتدخّل. استعادت ليزا نفسها سريعاً، وعندما عادت أوغستين فتاة الحانوت منَ التسوّق استأنفت الحوار دون أيّ إشارة لما قد حدث. وقالت لغافار تحديداً ألّا يردّ على السيّد فيرلاك، وإنّها ستتكفّل بحثّ أخي زوجها على اتّخاذ قرار، وطالبته بإمهالها يومين إضافيّين. وعاد كونو إلى المطبخ. وإذ أخذ غافار فلورون لتناول كأسين من النبيذ المحلّي في حانة السيّد لوبيغر، أراه ثلاث نساء في الشارع المسقوف بين رواق الأسماك ورواق الدواجن.

- ها هنّ يلكنَ النميمة، همس بصوت ملؤه الحنق.

كانت سوق ليهال خالية، وهناك فقط الآنسة ساجيه والسيّدة لوكور ولاساربيت، على حافة الرصيف. كانت العانس تثرثر:

- قلت لك مراراً يا سيّدة لوكور، إنّ زوج شقيقتك محشور على الدوام في حانوتهم... لقد رأيتماه، أليس كذلك؟

- رأيته بعيني! لقد كان جالساً على طاولة. كأنّه في بيته.

- أنا، لم أسمع شيئاً شرّيراً، قاطعتهما لاساربيت، لا أعرف لماذا أنتما مغتاظتان.

هزّت الآنسة ساجيه كتفيها وقالت:

- حسناً، أنتِ لا تزالين سليمة الطوية يا حلوتي! ألا تعرفين لماذا يعمل آل كونو على اجتذاب السيّد غافار؟... أراهن على أنّه سيترك كلّ ما يملك للصغيرة بولين.

- هل تعتقدين ذلك؟ صرخت السيّدة لوكور وقد امتقعّت من السخط.

ثمّ واصلت بصوت واهن، وكأنها تلقّت ضربةً قويةً:

- أنا وحدي تماماً، لا أحد يدافع عنّي، يستطيع أن يفعل ما يريد هذا الرجل... هل سمعتُما، حتّى ابنه اختي تقف في صفّه. لقد تناست ما كلفتني إيّاه، ستسلّمني مقيّدة اليدين والقدمين.

- لكن لا يا خالتي، قالت لاسارييت، أنت من تتقوّلين بخصوصي دائماً.

وتصالحتا في الحال. وتبادلتا القبلات... ووعدت لاسارييت بأنّها لن تنكّدها مرّةً أخرى. وأقسمت الخالة بأغلى المقدّسات أنّها دائماً ما كانت تنظر إلى لاسارييت كما لو كانت ابنتها الحقيقية. وحينها شرعت الآنسة ساجيه في نصحها في كيفيّة إجبار غافار على عدم تبديد أملاكه.

وحصل وفاقٌ على أنّ آل كونو غراديل ليسوا بشيء ذي بال، وأنّه ستتمّ مراقبتهم.

- لا أعرف أيّ مكيدة يدبّرونها، قالت العانس، ولكن هناك رائحة كريهة في الجوّ. وفلورون ذاك، ابن عم السيّدة كونو، كيف رأيتماه؟

وتقاربت النسوة الثلاثة يتهامسن.

- ألا تعرفان؟ قالت السيّدة لوكور، لقد رأيناه ذات صباح، بحذاء بالٍ وملابس متربة، وكان يبدو كلصّ قام بفعلة شنعاء... إنّه يخيفني هذا الفتى.

- لا، هو نحيف، لكنّه ليس بالرجل الشرّير، همست لاسارييت.

جعلت الآنسة ساجيه تفكّر بصوت عالٍ:

- إنّي أبحث من أسبوعين، لقد كففت عن التخمين. كان السيّد غافار يعرفه بالتأكيد... لا بدّ أنّني قابلته في مكان ما ـ لم أعد أذكر...

كانت مستمرّةً في التنقيب في ذاكرتها عندما وصلت النورماندية كعاصفة. كان قد خرجت من حانوت جزارة الخنزير.

- يا لها من مهذّبة، تلك الحمقاء كونو! هتفت وقد انفرجت أساريرها بعد أن هدأت. ألم تقل لي للتوّ إنّي أبيع سمكاً منتناً! لقد لقّنتها درساً!... ها هم في متجرهم الحقير بالقاذورات العفنة التي يسمّمون بها الناس!

- ماذا قلتِ لها إذن؟ سألتها العجوز وهي تختلج ابتهاجاً إذ عرفت أنّهما قد تشاجرتا.

- أنا! لا شيء على الإطلاق! لقد دخلت بأدب شديد لأُعلمها أنّي سأشتري منها المسوَّد غداً مساء، وعندها غمرتني بالحماقات... الفاشلة المنافقة، لتذهب بنزاهتها الكاذبة! ستدفع ثمن ذلك بأغلى ممّا تتصور.

كان لدى النساء الثلاث انطباع بأنّها لا تقول الحقيقة. هنّ لا يتخيلنّ شجارها دون سيل من الكلمات البذيئة. انحرفن ناحية شارع رامبوتو وهنّ يشتمنّ، ويختلقن القصص عن قذارة مطبخ آل كونو، يكلن لهم الاتّهامات الرهيبة. ولو كانوا يبيعون اللحم البشريّ لما خفّف ذلك من سورة غضبهنّ. وتوجّب على السمّاكة أن تعيد قصّتها ثلاث مرّات.

- وابن العم ماذا قال؟ سألت الآنسة ساجيه بخبث.

- ابن العم! أجابت السمّاكة بصوتها الحادّ، هل تصدّقين أنّه ابن عمّها حقاً... إنّه عشيقها ذلك الأخرق الكبير!

اعترضت النمّامات الثلاث الأخريات. فنزاهة ليزا كانت مسألةً مفروغاً منها في الحيّ كلّه.

- فلنترك هذا الأمر. وهل نعرف ما الذي يخفيه هذان النهدان المنافقان الممتلئان بالدهن، أريد أن أراها دون قميص الفضيلة!... إنّ لها زوجاً شديد البلاهة فما يمنعها من أن تجعله ديّوثاً؟

هزّت الآنسة ساجيه رأسها كأنّها تقول إنّها ليست بعيدة عن هذا الرأي، وقالت بهدوء:

- ثمّ إنّنا لا ندري من أين وقع ابن العمّ هذا، والقصّة التي يرويها آل كونو مريبةٌ للغاية.

- إنّه عشيق تلك السمينة! أكدت السمّاكة من جديد. هو لا أكثر من شخص تافه، متشرّد التقطته من الشارع، إنّ ذلك واضح جدّاً.

- الرجال النّحاف أجلاف، هتفت لاساربيت وقد بدا عليها الاقتناع.

- وقد ألبسته ملابس جديدة تماماً، قالت السيّدة لوكور. لا بدّ أنّه يكلفها الكثير.

- نعم، نعم. همست العانس، يبدو أنّكما محقّتان. يجب أن نعرف...

ولقد اتّفقن على متابعة ما يدور في حانوت آل كونو غراديل. وادّعت بائعة الزبدة أنّها تريد أن تفتح عيني زوج شقيقتها على حقيقة البيت الذي يتردّد عليه. وفي تلك الأثناء كانت النورماندية قد هدأت قليلاً؛ وانصرفت، مثل فتاة طيّبة، وقد أسأمها كثر الكلام. وعندما توارت عن الأنظار، قالت السيّدة لوكور بمكر:

- أنا متأكّدة أنّ النورماندية كانت بذيئةً معها، هي عادتها... كان أجدر بها ألّا تتكلم عن أبناء العمّ الذين يسقطون من السماء، هي التي وجدت طفلاً في حانوتها للأسماك.

وتبادلت ثلاثتهنّ النظرات ضاحكات، وعندما ابتعدت السيّدة لوكور بدورها:

- إنّ خالتي تُخطئ في اهتمامها بهذه القصص، ذلك يُسقمها، قالت لاساربيت. كانت تضربني عندما ينظر لي الرجال. فلتذهب للبحث، لن تجد خالتي تحت وسادتها طفلاً.

ضحكت الآنسة ساجيه من جديد، وعندما صارت وحدها، إذ عادت إلى شارع بيرويت، فكّرت في أنّ «الحمقاوات الثلاث» قد لا يساوين ثمن الحبل الذي يُشنقن به. ثمّ إنّه كان بإمكان المرء أن يرى ذلك، سيكون من السيّئ إحداث مشاكل مع آل كونو غراديل، فهم قوم أثرياء وذوو مكانة عالية. سلكتْ طريقاً مختصراً لتذهب إلى شارع توربيغو، إلى مخبز تابورو، أجمل مخابز الحيّ. كان للسيّدة تابورو، وهي صديقة حميمة لليزا، سلطةٌ لا ينازعها فيها أحد. فعندما يقال: «السيّدة تابورو قالت هذا، أو السيّدة تابورو قالت ذاك»، فليس هناك سوى الخضوع. ذهبت العانس إلى المخبز بتعلّة الاستفسار عن موعد إحماء الفرن، كي تُحضر طبقاً من الكمّثرى لتطهوه لديهم، وأخذت تكيل المديح للجزّارة وتستفيض في إطراء النظافة وروعة المسوَّد لديها، ثمّ انصرفت راضيةً عن تنصّلها الأخلاقيّ ومغتبطةً لكونها خفّفت قليلاً من أوار المعركة المستعرة التي استشعرت وقوعها، وذلك دون أن تتعكّر علاقتها مع أيّ شخص، وعادت أكثر ثقةً، وارتياحاً، وأخذت تستعيد مئات المرّات صورة ابن عمّ السيّدة كونو.

وفي اليوم نفسه، وبعد العشاء، خرج فلورون ليتريّض قليلاً في أحد شوارع ليهال المسقوفة. كان ثمّة ضباب خفيف يضفي على الأروقة الخاوية كآبةً رمادية تفاقمها الدموع الصفراء لمصابيح الغاز. للمرّة الأولى شعر فلورون أنّه غير مرحّب به؛ كان واعياً بالطريقة الفظّة التي سقط بها، بنحافته

وسذاجته، في قلب هذا العالم السعيد. وهو يقرّ أنّه أزعج الحيّ بأكمله، وأنّه بمثابة إحراج لعائلة أخيه، ابن عمّ مزيّف، وفوق ذلك بهيئة مريبة. جعلته هذه الأفكار في غاية الحزن، لا لأنّه لمح لدى أخيه أو ليزا أيّ غلظة. ولكن لأنّه يتعذّب من طيبتهما نفسها، واتّهم نفسه بأنّه عديم اللياقة إذ يقيم معهما. ومن بين كلّ الأشياء كانت تأتيه ذكرى الحوار الذي دار في الحانوت هذه الظهيرة وتسبّب له نوعاً غامضاً من عدم الارتياح. كان كالمغزوّ بروائح اللحوم التي تعلو منضدة البيع، وشعر بنفسه ينزلق إلى جبن رخو ومشبع. ربّما كان مخطئاً في عدم قبوله لوظيفة المفتّش التي عُرِضَت عليه. ألمَّ به صراع عنيف من جراء هذا التفكير؛ كان لا بدّ له أن ينتفض مرتعداً ليستعيد يقظة وعيه. اجتاحت ريح باردة الشارع المسقوف، فاستعاد بعض هدوئه وثقته إذ توجّب عليه تزرير حلّته. حملت الريح عن ملابسه الرائحة الدهنية لحانوت الجزارة، التي كانت قد أضنته.

كان قد عاد، عندما قابل كلود لانتييه، ملتفّاً بمعطفه الحائل، وكان صوته مصمتاً مليئاً بالغضب. وقد حمل على فنّ الرسم، واصفاً إياه بالمهنة الملعونة، وأقسم أنّه قد لا يمسك بفرشاة مرّةً أخرى. في هذه الظهيرة كان قد أتلف بضربة من قدمه تخطيطاً رسمه لتلك المأفونة كادين. كان عرضة لسورات غضبه كفنّان عاجز في مواجهة الأعمال القويّة والحيّة التي يحلم بها. فلم يعد أيّ شيء موجوداً بالنسبة له، وها هو يذرع الشوارع ويراها مدلهمّةً وينتظر اليوم التالي كمن ينتظر البعث. من المعتاد أن يقول إنّه يكون في مزاج فرح في الصباح، وفي مزاج تعيس ببشاعة في الليل؛ كلّ واحد من صباحاته كان مجهوداً كبيراً بلا طائل. بصعوبةٍ عرف فلورون ذلك المتسكّع الهائم في ليالي ليهال. كانا قد تقابلا قبلذاك في حانوت جزارة الخنزير. صافحه كلود الذي يعرف قصّة المنفى، قائلاً له إنّه رجل شجاع. وقلّما كان يذهب إلى آل كونو.

- أما زلت مقيماً عند خالتي؟ لا أعرف كيف تحتمل البقاء في قلب هذا المطبخ. الرائحة هناك لا تطاق. عندما أُمضي هناك ساعةً أشعر أنّني تناولت طعاماً يكفيني لثلاثة أيّام. لقد أخطأت بدخولي هناك هذا الصباح، فذلك هو ما جعلني أفشل في رسمي.

ومشيا معاً بعض الخطوات في صمت.

- يا لهؤلاء الناس السعداء! واصل كلود، إنّ صحتهم الجيّدة تصيبني بالسأم. كنت قد فكّرت أن أرسم لهم لوحات شخصية، لكنني لا أستطيع أبداً تصوير هذه الوجوه الممتلئة التي لا عظام فيها... إنّ الخالة ليزا لن تركل قدورها. فهل كنتُ على درجة من الحماقة إذ أتلفتُ بورتريت كادين! عندما أعيد التفكير فيه أقول إنّه ربّما لم يكن سيّئاً.

ثمّ أخذا يتحدّثان عن الخالة ليزا، فقال كلود إنّ أمّه لم تعد تراها منذ فترة طويلة. وقد لمّح إلى أنّها تشعر بالعار من شقيقتها لأنّها متزوّجة من عامل؛ فضلاً عن أنّها لا تحبّ الناس البائسين. أمّا في ما يخصّه، فقد حكى أنّ رجلاً طيّباً كان قد قرّر أن يرسله إلى الكليّة مسحوراً بما كان يرسمه منذ كان في الثامنة من حمير ونساء جميلات؛ ثمّ مات الرجل الطيّب تاركاً له ألف فرنك من الريع تقيه من الموت جوعاً.

- لا يهمّ، كنت لأفضّل أن أكون عاملاً... نجّاراً مثلاً. النجّارون لديهم منضدة ليصنعوها، أليس كذلك؟ هم يصنعونها وينامون راضين عن إنجازهم للمنضدة كلّ الرضى... أنا لا أنام الليل أبداً. كلّ تلك اللوحات الملعونة التي أعجز عن إتمامها تتقافز في رأسي. لم أتمّها قطّ. قطّ.

كان صوته يكاد يتمزّق بالنحيب. ثمّ حاول أن يضحك. كان يسبّ، منتقياً ألفاظاً نابية، غائصاً في الطين، بالغضب البارد لروح رقيقة وسامية تتشكّك في نفسها وتحلم بالتدنّس. وانتهى بالجلوس أمام أحد المداخل التي تطلّ على أقبية ليهال، حيث يحترق الغاز إلى ما لا نهاية. وهنا في أحد هذه التجاويف أطلع فلورون على مارجولان وكادين اللذين كانا يتناولان عشاءا متأخّراً في هدوء، جالسين على أحد أحجار مذابح مخازن الدواجن. كان للصغيرين طريقتهما في الاختباء والمكث في الأقبية بعد إغلاق المشابك الحديديّة.

- يا للفظّ، يا للفظّ الفاتن!

كرّر كلود وهو يتكلّم عن مارجولان بإعجاب وحسد. وقال إنّه لسعيدٌ ذلك الحيوان! وعندما ينتهيان من التهام التفّاحات سيضطجعان معاً داخل إحدى السلال الملأى بالريش. هذه شاكلةُ حياة، على الأقلّ!... يا إلهي، إنّكما لَمحقّان إذ تبقيان في حانوت لحم الخنزير، فقد تسْمنان هناك.

وانصرف فجأةً. وصعد فلورون إلى غريفته، مضطرباً من هذه الهواجس العصبية التي أيقظت عدم ثقته بنفسه. وتحاشى في اليوم التالي أن يقضي النهار في الحانوت. وقام بنزهة طويلة على شاطئ النهر. ولكن عند الغذاء أسرتْه طيبة ليزا الغامرة. كلّمته مرّةً ثانيةً عن منصب المفتّش في رواق الأسماك، دون أن تلحّ كثيراً، وكأنّها تكلّمه عن شيء يستحقّ التفكير. وكان يسمعها دون أن يمسّ طعامه، مأخوذاً رغماً عنه بالنظافة الفائقة لقاعة الطعام؛ كان البساط يُشعره بطراوةٍ تحت قدميه؛ واللمعة في الثريّا النحاسية واللون الأصفر الخفيف لورق الحائط وخشب السنديان اللامع للأثاث كانت تغزوه بشعور بالنزاهة يكتنف هذه الرفاهية، ويبلبل أفكاره عمّا هو حقيقيّ ومزيّف. وكان من القوّة، هنا أيضاً، بحيث رفض مرّة أخرى، مكرّراً أسبابه، مع وعيه

التامّ بالأثر السيّئ الذي يتركه استعراض عناده وضغائنه في مكان كهذا. لم تغضب ليزا، بل على العكس ابتسمت ابتسامةً حلوة أحرجت فلورون أكثر من غيظها الشديد في الليلة السابقة. وفي العشاء لم يكن أحد يتكلّم سوى عن عمليّة التمليح الكبيرة للأطعمة استعداداً للشتاء، والتي ستستغرق جهود كلّ عاملي الحانوت.

أصبحت الأمسيات أكثر برودةً. وما إن انتهوا من العشاء حتّى مرقوا إلى المطبخ. كانت الحرارة هناك شديدة. كان المكان متّسعاً لدرجة تسمح لعدد من الأشخاص بالتواجد بحريّة دون أن يزعجوا العاملين، الملتفّين حول طاولة مربّعة موضوعة في المنتصف. كانت جدران الغرفة المضاءة بالغاز مكسوّةً بالقيشانيّ الأزرق والأبيض. وفي ارتفاع قامة الإنسان، وعلى اليسار، يوجد فرن كبير من الفولاذ، به ثلاث فتحات، تغوص فيها ثلاث قدور عريضة للطهو بقعورها المسودّة من سخام الفحم الحجريّ؛ وفي الطرف مدخنة صغيرة مركّبة على فرن ومزوّدة بجهاز لتدخين الأطعمة، وتستخدم للشواء. وفوق الفرن، وأعلى من المصافي، والملاعق، والشوكات ذات الأذرع الطويلة، وفي صفّ من الأدراج المرقّمة، يكمن فتات الخبز المحمّص، الناعم والخشن، والبهارات، والقرنفل، وجوزة الطيب، والفلفل. وعلى اليمين طاولة التقطيع، قرمة ضخمة من خشب السنديان موضوعة بجوار الحائط، ثقيلة، منحوتة، عليها عدد من الآلات، مثبّتة في كتلتها: مضخّة للحقن، وماكنة للضغط، ومفرمة آليّة، ترسم بتروسها وأذرعها الفكرة الغامضة والمخيفة عن مطبخ في الجحيم. ثمّ هناك على أرفف حول الحوائط، تحت الطاولات مباشرةً، تكوّمت أوانٍ وبرنيّات ودلاء وأطباق، وأدوات من الزنك، ومجموعة من الطناجر العميقة، وقموع عريضة، وحوامل للسكاكين والسواطير، وصفوف من أسياخ التشحيم والسفود، عالم كامل غارق في

الدهون، الدهن يفيض في المكان على الرغم من النظافة الفائقة ويرشح بين بلاطات القيشاني، ويشمّع مربّعات الأرضية الحمراء، ويعطي انعكاساً رمادياً على حديد الأفران، ويجعل أطراف طاولة التقطيع تبرق بلمعة خشب السنديان المدهون، وفي قلب هذا الضباب المتجمّع قطرةً قطرةً من التبخّر المستمرّ من ثلاث قدور تذوب فيها الخنازير، لم يكن هناك في السقف لوح أو مسمار لا ينزّ بالدهون.

كان آل كونو غراديل يصنعون كلّ شيء في حانوتهم. لا يحضرون من الخارج سوى برنيّات المتاجر المعروفة، معجون اللحم، وعلب المحفوظات والسردين والأجبان والمحار. ولذا فمنذ سبتمبر، يتواصل ملء الأقبية التي كانت قد فرغت في الصيف، وتمتدّ السهرات حتّى بعد موعد إغلاق الحانوت. يغلّف كونو السجق بمساعدة أوغست وليون، ويعدّ الأفخاذ المملّحة، ويذيب السمن، ويصنع شحم الصدور، والشحم الرفيع، والشحم المشويّ. إنّه ضجيج رائع للقدور والمفارم، وروائح المطبخ التي تغزو البيت كلّه. كانت تلك ألواناً من جزارة لحم الخنزير ومعجون الأكباد ولحم الأرانب والغلنتين والنقانق والمسوَّد.

في ذلك المساء، ونحو الساعة الحادية عشرة، كان على كونو الذي أعدّ قدرين من السمن أن يلتفت إلى المسوَّد. وساعده أوغست. وفي ركن من الطاولة المربعة كانت ليزا وأجستين تُصلحان بعض الملابس، وأمامهما على الناحية الأخرى من الطاولة كان فلورون جالساً ووجهه ناحية الفرن في الجهة الأخرى يبتسم للصغيرة بولين التي كانت تصعد على قدميه، وتريد منه أن يلاعبها لعبة «القفزة»، وخلفهم كان ليون يفرم لحماً للنقانق على قرمة السنديان، في حركة بطيئة ومتواصلة.

ذهب أوغست في الأول إلى الفناء ليحضر وعاءين ممتلئين بدماء الخنازير.

كان هو من ذبحها في المذبح، كان يُحضّر الدماء والأحشاء، تاركاً لصبيان السلخانة مهمّة إحضار اللحم مجهَّزاً بُعيدَ الظهيرة في عرباتهم. كان كونو يدّعي أن أوغست يَذبح ببراعة لا يقدر عليها أيّ صبيٍّ جزّارٍ آخر من باريس. والحقيقة أنّ أوغست يحسن تمييز جودة الدماء، والمسوَّد يكون طيّباً في كلّ مرّة يقول فيها: «سيكون لدينا مسوَّد طيّب».

- هل سيكون لدينا مسوَّد طيّب؟ سألت ليزا.

فوضع الوعائين، وقال ببطء:

- أعتقد يا سيّدة كونو، نعم أعتقد ذلك... إني أرى ذلك في الطريقة التي يسيل بها الدم. عندما أسحب السكّين، إذا انطلق الدم ببطء فتلك ليست علامة جيّدة، هذا يعني أنّه ضعيف...

- لكنّ ذلك، قاطع كونو الحديث، يتوقّف أيضاً على كيفيّة استعمال السكّين.

علت وجهَ أوغست الشاحب ابتسامة.

- كلّا، فأنا أقطع بالسكّين كلّ مرّة على عمق أربع أصابع، فهذا هو المقياس... ولكنّ أفضل علامة تظهر عندما يسيل الدم وأتلقّاه في الدلو وأنا أضرب بيدي داخله. ينبغي أن يكون حارّاً وبثخانة معتدلة دون أن يكون غليظاً.

كانت أوغستين قد تركت إبرتها، ورفعت عينيها لتنظر إلى أوغست، وجهها الأصهب بشعرها الصلب الكستنائيّ اتّخذ سمت الانتباه العميق. فيما كانت ليزا والصغيرة بولين نفسها تنصتان باهتمام شديد. واصل الصبيّ وهو يحرّك يده في الهواء وكأنّه يخفق القشدة:

- أضربُ وأضرب وأضرب، وعندما أسحب يدي أنظر إليها- يجب أن تكون كالمدهونة بالدم، بحيث يكون القفّاز الأحمر له نفس اللون في كلّ المواضع... وهنا نستطيع أن نقول، عن حقّ: «سيكون المسوَّد طيّباً».

وبقي معلّقاً يده في الهواء، مزهوّاً إلى حدّ ما، بهيئته الرخوة. هاتان الكفّان اللتان تعيشان في دلاء الدم كان لهما لون ورديّ وأظافر زاهية تخرج من الأكمام البيضاء. وكان كونو قد وافق بإشارة من رأسه على الكلام. وساد صمت. وكان ليون مستمرّاً في الفرم. وصعدت بولين التي كانت قد ظلّت صامتة مرّةً ثانية على قدمي ابن عمّها، صارخة بصوتها الواضح:

- احكِ لي يا ابن العمّ قصّة الرجل الذي أكلته الوحوش.

لا شكّ أنّ الكلام عن دماء الخنازير قد أيقظ في رأس هذه الطفلة «قصّة الرجل الذي أكلته الوحوش» ولم يفهم فلورون، وسأل أيّ رجل تعني. فضحكت ليزا.

- إنّها تسأل عن قصّة ذلك البائس، أتعرف، تلك القصّة التي كنت تقولها لغافار ذات مساء. لا بد أنّها قد سمعتك.

كان فلورون قد أصبح قلقاً. أخذت الصغيرة القطّ الأصفر السمين بين يديها ووضعته على ركبتي ابن العمّ، قائلةً إنّ موتون بدوره يريد أن يستمع إلى الحكاية. ولكنّ موتون قفز إلى الطاولة، وظلّ قابعاً هناك مقوّساً ظهره، يتأمّل ذلك الفتى الطويل الناحل الذي يشكّل له منذ أسبوعين موضوعاً متواصلاً للتفكير. وفي تلك الأثناء غضبت بولين، وأخذت تضرب الأرض بقدميها تريد الحكاية. ولأنّها كانت شديدة الإزعاج. فقد قالت ليزا لفلورون:

- هيّا، احكِ لها ما تطلبه، كي تتركنا في هدوء.

احتفظ فلورون بصمته للحظة أخرى، كان مصوّباً عينيه نحو الأرض، ثمّ رفع رأسه ببطء ونظر للمرأتين اللتين تسحبان إبرتيهما، ثمّ لكونو وأوغست اللذين يجهّزان القدور للمسوَّد. كان غاز المصابيح يحترق في هدوء، وكانت حرارة الأفران هادئةً ودهون المطبخ تبرق في عملية هضم مريحة وواسعة. فوضع الصغيرة بولين في حجره مبتسماً ابتسامة حزينة، وتوجّه للطفلة بالحديث:

- كان هناك ذات مرّة رجل مسكين. أرسلوه بعيداً جدّاً، بعيداً جدّاً إلى الطرف الآخر من المحيط... قذفوا به وسط أربعمائة رجل من المحكومين بالأشغال الشاقّة. وكان عليه أن يظلّ لخمسة أسابيع مع هؤلاء، مرتدياً مثلهم الثياب الخشنة، وآكلاً في صحونهم المعدنية. تلتهمه البراغيث الكبيرة، ويتفصّد منه عرقٌ غزير يتركه بلا طاقة. كان المطبخ والمخبز ومحرّكات السفينة تجعل الغرف شديدة الحرارة، حتّى أنّ عشرة من المحكومين قد ماتوا من جرّائها. وفي الصباح، كانوا يُخرجونهم، خمسين في المرّة الواحدة، ليستنشقوا هواء البحر؛ ولمّا كانوا يخشونهم، فقد كانوا يصوّبون مدفعَين إلى المساحة الضيّقة التي يتريّضون عليها. كان الرجل المسكين يسعد كثيراً عندما يجيء دوره. ويهدأ عرقه قليلاً. ثمّ لم يعُد يأكل ومرضَ جدّاً. وفي المساء إذ يعيدون تصفيده في الجوّ الرديء بين اثنين من زملائه، كان يشعر بالجبن، ويبكي، سعيداً بأنْ لا أحد يراه إذ يبكي...

كانت بولين تنصت وعيناها متّسعتان، ويداها معقودتان في انكباب تامّ.

- لكنّها، قاطعتْه، ليست حكاية الرجل الذي أكلته الوحوش، هي حكاية أخرى اليس كذلك يا ابن العمّ؟

- انتظري، سترين، ردّ عليها فلورون بهدوء. سأصل لحكاية الرجل... وسأحكي لك القصّة كاملةً.

- حسناً، همست الصغيرة بسعادة بادية.

لكنّها مع ذلك ظلّت حائرةً، وبالها مشغول بلغز صعب لا تستطيع أن تفهمه. وفي النهاية قالت:

- ماذا فعل إذن ذلك المسكين، لكي يُبعدوه ويضعوه في المركب.

ابتسمت ليزا وأوغستين، لقد أدهشهما ذكاء الطفلة. وليزا بدون أن تجيب على السؤال انتهزت الفرصة لتعظ الصغيرة، وضربتها كثيراً وهي تقول لها إنّهم يضعون في المركب أيضاً الأطفال غير العاقلين.

- إذن، علّقت بولين بحكمة، فقد أحسنوا صنعاً إذا كان الرجل المسكين الذي يحكي عنه ابن العمّ يبكي في الليل.

عادت ليزا لمواصلة حياكتها وقد خفضت كتفيها. لم يكن كونو قد سمع شيئاً، كان يُقطّع في القدر شرائح مستديرة من البصل لها صوت واضح على النار مثل طنين حشرات الزيز وقد أسكرها الحرّ. كانت الرائحة طيّبة للغاية. والقدر يرتفع صوته بالغناء إذ يغمر فيه كونو ملعقته الخشبية، ناشراً في جوّ المطبخ عبق البصل المقليّ. وكان أوغست يحضّر شحم الخنزير في طبق. فيما اتّخذ انهماك ليون في عملية الفرم وتيرةً أسرع، ومن آن لآخر كان يكشط الطاولة ليحصل على اللحم المفروم للنقانق التي أخذت تجهز.

- وعندما وصلوا، أكمل فلورون، قادوا الرجل إلى جزيرة تدعى جزيرة الشيطان. معه زملاء آخرون كانوا قد طُرِدوا أيضاً من بلادهم. كانوا جميعاً تُعساء. أجبروهم في البداية على العمل في الأشغال الشاقّة.

وكان الجنود الذين يحرسونهم يقومون بعدّهم ثلاث مرات في اليوم ليتأكّدوا من أنّه لا ينقصهم شخص. ولاحقاً تركوا لهم حرية أن يفعلوا ما يريدون، فقط كانوا يحبسونهم في الليل، في كوخ خشبيّ كبير حيث كانوا ينامون على فُرُش معلّقة بالحبال بين عمودين. وخلال عام كانوا يسيرون حفاة القدمين، بملابس ممزّقة تظهر عُريهم، وكانوا قد بنوا مظلّات بجذوع الشجر لتقيهم وقدة الشمس التي تحرق كلّ شيء في تلك البلاد. لكنّ المظلّات ما كانت لتقيهم البعوض الذي كان يغطّيهم بثآليل من التورّمات. ومات منهم كثيرون؛ وأصبح الباقون شاحبين للغاية، يابسين مُهمَلين بلحاهم الطويلة التي تعطيهم مظهراً مثيراً للشفقة.

- أعطني الدهن يا أوغست، هتف كونو.

وعندما تناول الطبق، أنزل الدهن في القدر برفقٍ فارِكاً إيّاه بطرف الملعقة. وذاب الدهن، فتصاعد بخار كثيف فوق الفرن.

- ماذا كانوا يُطعمونهم؟ سألت الصغيرة بولين وهي تُبدي اهتماماً عميقاً.

- كانوا يعطونهم أرزّاً مليئاً بالديدان ولحماً ذا رائحة كريهة، أجاب فلورون بصوت خفيض. كان يتوجّب إزالة الديدان كي يؤكل الأرزّ. كان اللحم المشويّ الشديد النضج قابلاً للبلع، أما إذا كان مسلوقاً فإنّ رائحته تظلّ كريهة حتّى أنّه كان يصيبهم بالمغص أحياناً.

- أنا كنت سأفضّل أن أبقى على الخبز اليابس، قالت الطفلة بعد تفكّر.

وإذ فرغ ليون من الفرم، وضع لحم النقانق في طبق على الطاولة المربّعة. واضطرّ القطّ موتون الذي كان جالساً يراقب فلورون كمأخوذ بالحكاية، إلى التراجع بحركة غير رشيقة. تكوّر على نفسه. وأخذ يهرّ واضعاً أنفه في

لحم النقانق المفروم. وفي تلك الأثناء كانت ليزا لا تستطيع إخفاء شعورها بالدهشة والاشمئزاز. الأرزّ المليء بالديدان واللحم ذو الرائحة الكريهة بديا لها بالتأكيد كقاذورات لم تكن تتخيّل وجودها، مُخزية لمن يضطرّ لأكلها. وعلى وجهها الهادئ وفي عنقها المنتفخ، بدت موجة من الرعب حيال ذلك الرجل الذي كان يتغذّى من أشياء نجسة.

- لا، لم يكن مكاناً ممتعاً، واصل فلورون الكلام ناسياً الصغيرة بولين، ومسلّطاً عينيه على القدر الذي يتصاعد منه البخار. في كلّ يوم منغّصات جديدة، وسحق متواصل، وانتهاك لكلّ الحقوق، واحتقار للرأفة الإنسانية، وهذا كلّه كان يُنهِك المساجين ويحرقهم ببطء في حمّى من الضغينة السقيمة. كانوا يعيشون كالبهائم، بالسوط المرفوع دائماً على ظهورهم. أولئك التعساء كانوا يريدون قتل الرجل... لا يمكن للمرء أن ينسى، ذلك مستحيل. هذه العذابات ستطالب بالانتقام يوماً ما.

كان صوته خفيضاً، والدهن الذي كان يغلي في القدر طغى عليه بصوت القلي. ولكنّ ليزا كانت تسمعه مرتعبةً من التعبير القاسي الذي ارتسم على وجهه فجأةً. واعتبرته منافقاً في الهيئة الطيّبة التي يصطنعها.

ضاعف صوت فلورون الخفيض استمتاع بولين، فكانت تتقافز على ركبتَي ابن العمّ سعيدةً بالقصّة.

- والرجل؟ والرجل؟ همستْ.

نظر فلورون للصغيرة، وبدا أنه يتذكّر، واستعاد ابتسامته الحزينة، وقال:

- الرجل لم يكن سعيداً بوجوده في الجزيرة، لم يكن يحلم سوى بالرحيل، أن يعبر البحر، ليصل إلى الشاطئ الذي كان يراه في الأفق، حين يكون

الجوّ صحواً. لكنّ ذلك لم يكن سهلاً. كان عليه أن يصنع طوفاً. ولكن لّما كان بعض المساجين قد فرّوا في السابق، فقد قاموا بقطع كلّ أشجار الجزيرة حتّى لا يحصل باقي المساجين على أيّ قطعة خشب. كانت الجزيرة جرداء، عاريةً للغاية، قاحلةً تحت الشمس الحارقة، حتّى أنّ الإقامة بها أصبحت أكثر خطورةً وبشاعة. فخطرت للرجل واثنين من زملائه فكرةٌ، هي أن يستعينوا بالجذوع المستخدمة في بناء المظلّة. وذات مساء انطلقوا على قطع أخشاب سيّئة ربطوها معاً بأغصان جافّة. وأخذتهم الريح نحو الشاطئ. وكان الصبح قد أوشك على البزوغ عندما اصطدم طوفهم بكتلة رملية، وبقوّة جعلت جذوع الأخشاب تتفكّك وتضيع مع الأمواج. الثلاثة البائسون كادوا أن يظلّوا في الرمال. كانوا غاطسين فيها حتّى خواصرهم، لا بل أنّ أحدهم وصلت الرمال إلى ذقنه، واضطر الآخران إلى جرّه. وفي النهاية بلغوا صخرةً. كانت لا تكاد تكفي لجلوسهم عليها. وعندما طلعت الشمس، أبصروا الشاطئ أمامهم، جرفاً رماديّاً يحتلّ جانباً من الأفق. قرّر الاثنان اللذان يجيدان السباحة أن يبلغا ذلك الجرف، مفضّلين المجازفة بالموت غرقاً على أن يموتا ببطء من الجوع على الصخرة. ووعدا زميلهما بأن يأتيا ليأخذاه ما إن يصلا إلى اليابسة ويحصلا على قارب.

- آه، ها أنا أعرف الآن، صاحت الصغيرة بولين وهي تصفّق بيديها من السعادة، إنّها قصّة الرجل الذي أكلته الوحوش.

- واستطاعا أن يبلغا الشاطئ، تابع فلورون؛ لكنّه كان مُقفراً، ولم يعثرا على قارب إلّا بعد مضيّ أربعة أيّام... وعندما عادا إلى الصخرة، شاهدا رفيقهما ممدّداً على ظهره وقد تمّ التهام يديه ورجليه ووجهه، وعلى

بطنه زحام من سرطانات البحر تقرض لحم جنبيه، وكأنّ حشرجة غضب قد اجتاحت هذه الجثّة نصف المُلتهمة والطازجة بَعد.

أطلقت ليزا وأوغستين همسات اشمئزاز. أمّا ليون الذي كان يجهّز مصارين الخنزير لإعداد المسوَّد فقد أجفل، فيما توقّف كونو عن العمل ونظر إلى أوغست الذي كان قد أصيب بالغثيان. ولم يضحك سوى بولين. كانت تلك البطن التي تعلوها سرطانات البحر قد تجلّت فجأة في قلب المطبخ، خالطةً عبق الدهن والبصل المقليّ بروائح شاذّة.

- احضر لي الدماء، قال كونو الذي لم يكن يتابع القصّة.

أحضر أوغست الوعاءين، وسكب الدم ببطء في القدر فسال في خيط أحمر رفيع، بينما كان كونو يقلّب المزيج الذي يشمك على النار. وعندما فرغ وعاءا الدم كان كونو يمدّ يده في الأدراج التي تعلو الفرن واحداً فواحداً ليأخذ رشّات من البهارات، ويتبّل المزيج بقوة.

- لقد تركاه، أليس كذلك؟ سألت ليزا. وهل عادا بسلام؟

- وهما عائدان، أجاب فلورون، هبّت الريح، ودفعتهما إلى عرض البحر، وقد أسقطت موجة أحد المجذافين، وتسرّب الماء مع كلّ هبّة، حتّى أنّهما انشغلا بإفراغ القارب بأيديهما، وكان يبحران في مواجهة الساحل، تتقاذفهما الرياح وتجرفهما التيّارات، وقد فرغت المؤن وظلّا بلا كسرة خبز لمدّة ثلاثة أيّام.

- ثلاثة أيّام! هتفت ليزا ذاهلةً، ثلاثة أيّام دون طعام!

- نعم، ثلاثة أيّام دون طعام. وعندما دفعتهما ريح الشرق تجاه اليابسة، كان أحدهما في إعياء شديد، فظلّ راقداً على الرمال نهاراً بطوله.

ومات في المساء. كان رفيقه قد حاول أن يجعله يمضغ بعض أوراق الشجر، دون جدوى.

وهنا ضحكت أوغستين ضحكةً خفيفة؛ ثمّ انتابها الخجل لأنّها ضحكت، لم تكن تريد أن يظنّوا أنّها بلا قلب:

- لا، أنا لا أضحك على هذا، غمغمت أوغستين، بل أضحك على موتون... انظري إلى القطّ سيّدتي.

ضحكت ليزا بدورها. كان موتون وطبق لحم النقانق لا يزال تحت أنفه، قد وجد نفسه غير مرتاح ومشمئزاً من كلّ ذلك اللحم. كان قد قام وأخذ يحكّ الطاولة بأظفاره، كأنّما ليغطّي الطبق، بانهماك القطّ الذي يريد أن يدفن فضلاته. ثمّ أدار ظهره للطبق، وتمدّد على جانبه يتمطّى وعيناه شبه مغمضتين، ونفض رأسه في تمسيدة مستمتعة. فأطرى الجميع على موتون في تلك اللحظة، وأكّدوا أنّه لم يَسرق يوماً وأنّه يمكن أن يُترَك اللحم قربه. وحكت بولين بصورة مرتبكة أنّه يلعق أصابعها ووجهها بعد العشاء، وأنّه لا يعضّها أبداً.

وعادت ليزا لسؤالها حول البقاء ثلاثة أيّام دون طعام، كان ذلك مستحيلاً. قالت:

- لا، لا أصدّق ذلك، فأوّلاً ليس هناك شخص، كائناً من يكن، بقي ثلاثة أيّام دون طعام. وعندما يقال «فلان مات من الجوع» فتلك صيغة مبالغة. الناس يأكلون بشكل أو بآخر. إلّا إذا كانوا من البؤساء المهملين تماماً، من الضائعين...

كانت ستقول دون شكّ: «أفّاقين بلا أخلاق»، لكنّها أمسكت عن الكلام إذ نظرت إلى فلورون. شفتاها المطوطتان بازدراء، ونظرتها الصافية، هذا

كلّه كان يقرّ بوضوح أنّ الأوغاد فقط هم من يستطيعون الصوم بهذه الطريقة الفوضوية. إنّ رجلاً قادراً على البقاء ثلاثة أيّام دون طعام كان بالنسبة لها كائناً خطيراً للغاية، لأنّ الناس الأمناء لا يتورّطون في مواقف مثل هذه.

بدأ فلورون يختنق. أمامه الفرن الذي ألقى فيه ليون عدداً من مجارف الفحم يغطّ كمنشد كنسيّ نائم في الشمس. ارتفعت الحرارة جدّاً. وأوغست المسؤول عن قدور السمن يراقبها وهو يتصبّب عرقاً. بينما كان كونو ينتظر أن يثخن الدم على النار وهو يمسح عرق جبينه بكمّه. في وخم من الأطعمة، تطفو التخمة في هواء المكان. وواصل فلورون الحكي ببطء:

- بعد أن دفن الرجل رفيقه في الرمال، سار قدُماً بمفرده. كانت غويانا الهولندية، البلد الذي يوجد فيه، بلد غابات، تقطعها الأنهر والأهوار. سار الرجل لما يقرب من ثمانية أيّام دون أن يقابل مخلوقاً. وكان الموت يحدق به في كلّ لحظة. كان لا يجرؤ والجوع يقرص أحشاءه على قضم الثمار المتدلية من الأشجار. كان يخاف من تلك العنبيّات ذات البريق المعدنيّ، التي تنضح انتفاخاتها المتغضّنة بالسموم. لأيّام بطولها كان يمشي تحت سقف من أغصان كثيفة تحجب السماء فوقه كليّةً، وسط ظلال قاتمة مسكونة بالرعب الحيّ. طيور ضخمة كانت تحلّق فوق رأسه، لها نعيق مباغت يشبه غرغرة الموت ولأجنحتها أصوات رهيبة؛ قرود تتقافز، ووحوش تمرق عابرةً الأحراش أمامه تزيح الجذوع مسقطةً أكواماً من أوراق الشجر وكأنّ عاصفة هبّت عليها. كانت الثعابين أكثر ما يجمّده من الرعب، عندما يطأ بقدميه الأرض المغطّاة بالأوراق الجافّة، فيرى رؤوساً رفيعة تنسرب بين تشابك الجذور العملاقة. بعض الأركان الظليلة الرطبة كانت تعجّ بزخم من الزواحف السوداء والصفراء وذات الخطوط، وتلك التي تتماهى مع

الأوراق الميتة، تفرّ إذ تستيقظ بغتةً. فكان يقف، ويبحث عن صخرة كي يخرج من هذه الأرض الزلقة التي غاص فيها. كان يبقى هناك لساعات مع رعبه من أفعى بواء تظهر في فرجة بين الأدغال، ذيلها ملتفّ، ورأسها منتصب، تتأرجح كجذع ضخم، مبرقش برقائق ذهبية. وفي الليل ينام على الأشجار متوجّساً من أقلّ حفيف متوهّماً سماع دوابّ لا تنتهي تزحف في الظلمات. كان يختنق تحت هذه الأحراش اللانهائية، كان للظلّ فيها حرارة خانقة كموقد، مع لزوجة الرطوبة، والعرق المقزّز، المشبع بروائح الأخشاب الخشنة الفوّاحة والزهور العطنة. وعندما خرج الرجل أخيراً، ورأى السماء أخيراً بعد مسيرة ساعات طوال، وجد نفسه أمام أنهر عريضة تقطع عليه الطريق؛ خاضها وهو يراقب ظهور تماسيح الكايمان الغبراء، منقّباً بنظراته في الأعشاب التي يجرفها التيار، ويأخذ في السباحة إذ يجد المياه أكثر أماناً. وفي البعد، كانت الغابات تستأنف امتدادها. وفي أوقات أخرى تمتدّ سهول فسيحة معشوشبة، فراسخ مغطّاة بنباتات كثيفة، تتحوّل في بعض المواضع للأزرق بفعل المرآة الصافية لبحيرة صغيرة. وحينها قام الرجل بالتفاف كبير، لا يتقدّم إلّا بعد أن يتلمّس التربة، التي كان يسمعها تتحطّم تحت خُطواته، بعد أن أوشك على الموت مدفوناً في أحد تلك السهول الساحرة. كانت الأعشاب الضخمة التي تتغذّى على الدُبال المتجمّع تغطي مستنقعات منتنة، أعماق من الطَّفْل السائل؛ ولا يوجد بين مساحات الخضرة التي تمتدّ حتّى نهاية الأفق، سوى ممرّات ضيّقة من اليابسة يجب معرفتها إذا لم يكن المرء يريد أن يختفي إلى الأبد. كان الرجل قد غاص فيها حتّى بطنه ذات مساء. في كلّ حركة حاول أن يخلّص نفسه بها، كان الطين يصعد حتّى فمه.

فبقي ساكناً لمدّة ما يقرب من ساعتين. وعندما ارتفع القمر، استطاع لحسن الحظّ أن يمسك بفرع شجرة متدلّ فوق رأسه. وفي اليوم الذي وصل فيه إلى أحد المساكن كانت يداه وقدماه مغطّاة بالقروح، تنزف وقد تورّمت من اللدغات المؤذية. كان زريّاً للغاية وجائعاً، حتّى أنّهم فد خافوا منه. وألقوا له بالطعام عن بُعد خمسين خطوة من المنزل، فيما كان صاحب البيت يحمي بابه ببندقية.

سكت فلورون، انقطع صوته، ونظر إلى بعيد. يبدو أنّه لم يكن يتكلّم إلّا لنفسه. كانت الصغيرة بولين قد أخذها النعاس واستسلمت له، رأسها مائل تبذل مجهوداً كي تبقي عينيها المنبهرتين مفتوحتين. وكان كونو غاضباً:

- أيّها الحيوان، صرخ في ليون، ألا تستطيع أن تُمسك بالمصران... لا تنظر لي، بل انظر إلى المصران الذي في يدك... هكذا، لا تتحرّك الآن.

كان ليون يمسك في يده اليمنى بقطعة طويلة من المصران وقد غرز في طرفها قمعاً عريضاً، وباليد اليسرى يلفّ المسوَّد في حوض، في طبق معدنيّ مستدير، بحيث يملأ اللحم المتبّل القمع بدفقات كبيرة، فيتدفّق المزيج أسود ساخناً يدخّن، ليحشو شيئاً فشيئاً المصران الذي يسقط آنئذٍ منتفخاً بانحناءات طريّة. ولّما كان كونو قد رفع القدر عن النار فقد بدَوا، هو وليون، الصبيّ بجانبٍ للمحيّا ضامر، وهو بوجه غريض، ووهج اللّهب المتّقد يضفي على وجهيهما الشاحبين وملابسهما البيضاء طيفاً من اللون الورديّ.

كانت ليزا وأوغستين تراقبان العملية، وبالذات ليزا التي نهرت ليون بدورها، لأنّه يقبض بأصابعه بقوّة على المصران، وهو ما يجعل به عُقداً، كما قالت. وعندما تمّ حشو المسوَّد، وضعه كونو برفق في قدر من الماء المغلّى. وبدا عليهم جميعاً الارتياح. لم يتبقّ سوى انتظار نضجه.

- والرجل، الرجل؟ همست بولين من جديد وهي تفتح عينيها، مندهشة أنّها لم تعد تسمع ابن العمّ يحكي.

كان فلورون يهدهدها على ركبتيه، مبطئاً حكايته، منشداً إيّاها كتهويدة. قال:

- وصل الرجل إلى مدينة كبيرة. وقد اعتُبر في البداية محكوماً هارباً، واعتُقل في السجن لعدّة شهور... وعندما أفرجوا عنّه، عمل في كلّ أنواع المهن، يدقّق حسابات، ويعلّم الأطفال القراءة؛ حتّى أنّه انخرط يوماً عاملَ سخرة في تسوية الأراضي... وكان الرجل يحلم دائماً بالعودة لبلاده. وكان قد ادخّر النقود اللازمة لذلك عندما أصيب بالحمّى الصفراء. وقد ظنوا أنّه مات، فتقاسموا حتّى ملابسه، وعندما أفاق لم يجد معه قميصاً واحداً... كان عليه أن يبدأ من جديد. كان مريضاً جدّاً. وكان يخاف من البقاء هناك. وفي النهاية استطاع الرجل أن يرحل. لقد عاد.

كان الصوت قد صار أكثر انخفاضاً، حتّى أنّه مات في آخر رعشة لشفتيه. واستسلمت الصغيرة بولين للنعاس مع نهاية الحكاية، تاركة رأسها على كتف ابن العمّ. احتضنها بذراعه وواصل هدهدتها بركبتيه برقّة وبشكل غير محسوس. ولمّا كانوا غير منتبهين له، فقد ظلّ جالساً، دون أن يتحرّك، مع هذه الطفلة النائمة.

كانت تلك ضربة النار الكبرى، كما كان يقول كونو. قام بسحب المسوَّد من القدر. وتناوله بعصا كي لا يتلفه أو يتسبّب بتشابك القطع. وأخذه إلى الفناء، حيث من المفترض أن يجفّ سريعاً على الحصير. وكان ليون يساعده بسند القطع الطويلة جدّاً. تلك الأكاليل من السجق كانت تعبر المطبخ، تنزّ

عصارتها، وتُطلق آثاراً من البخار القويّ الذي يجعل الهواء أكثر كثافةً. ألقى أوغست نظرةً أخيرةً على طنجرة السمن، ثمّ رفع غطاءَي القدرين اللتين كان يعتمل فيهما المرق المغلّى السميك، مطلقاً من المزيجين المستهلكين زخّات خفيفة من البخار اللاذع. كان فيضان الدهن قد بدأ في الصعود من أوّل السهرة؛ وهو الآن يُغرق الغاز، ويملأ الغرفة، ويسيل في كلّ مكان، مضبّباً البياض الأصهب لكونو وصبيّيه. كانت ليزا وأوغستين قد قامتا. وجعل الجميع يلتقطون أنفاسهم كأنّهم أفرطوا في الطعام.

أخذت أوغستين بولين النائمة على ذراعيها. صرف كونو، الذي يفضّل إغلاق المطبخ بنفسه، أوغست وليون، قائلاً إنّه سيجلب المسوَّد بنفسه. وانسحب الصبيّ المتدرّب بلونه الشديد الحمرة، وقد دسّ داخل قميصه نحو متر من لفائف المسوَّد، لا بدّ أنها كانت تُحرقه. ثمّ بقي آل كونو وفلورون وحدهم صامتين. كانت ليزا تأكل واقفةً قطعةً من المسوَّد الساخن، تقضمها قضمات صغيرة، فارجةً ما بين شفتيها الجميلتين كي لا تحترقا. والقطع السوداء تغوص رويداً رويداً في كلّ هذا اللون الورديّ.

- حسناً، قالت، لقد أخطأت النورماندية بإساءة أدبها... فالمسوَّد طيّب اليوم.

قُرِعَ الباب الخارجيّ، ودخل غافار. كان يبقى حتّى انتصاف اللّيل في حانة السيّد لوبيغر. جاء ليحصل على ردّ نهائيّ بخصوص منصب المفتّش في رواق الأسماك.

- هل تفهمون، قال، إنّ السيّد فيرلاك لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك، فهو بالفعل مريضٌ جدّاً... يجب أن يقرّر فلورون. فقد وعدته بتقديم ردّ غداً في الساعات الأولى.

- لقد وافق فلورون، أجابت ليزا بهدوء وهي تقضم قضمةً جديدة من المسوَّد.

عبثاً حاول فلورون، الذي بقي جالساً في مقعده، مستسلماً لإرهاق غريب، أن ينهض ويعترض.

- كلّا، كلّا، واصلت الجزّارة، إنّه أمر مفهوم... يا عزيزي فلورون، لقد تعذبتَ بما يكفي. إنّ ما حكيته منذ قليل أصابني بالقشعريرة... لقد حان الوقت لكي تنظّم حياتك. أنت تنتمي لعائلة كريمة، ومتعلّم، وليس من الملائم أن تحوم في الشوارع كصعلوك. لم يعد مسموحاً بالأمور الصبيانية لمن هم في مثل عمرك... لقد ارتكبتَ أعمالاً طائشة، حسناً، سوف تُنسى وتُسامَح عليها. وسوف تعود إلى طبقتك، طبقة البشر المخْلصين، وتعيش مثل سائر النّاس في نهاية المطاف.

كان فلورون يسمعها، ولا يجد كلاماً ليقوله. لعلّها كانت على حقّ. كانت منطقيّة جدّاً وهادئة جدّاً حتّى ليصعب تخيّل أنها تضمر أيّ شرّ. لا بل قد يكون هو، بجسمه النحيف، ووجهه القاتم والمريب، الشرّير الذي يحلم بأشياء مخجلة. لم يعد يعرف لمَ ظلّ يقاوم حتّى تلك اللحظة.

لكنّها واصلت تقريعه بغزارة، كطفل ارتكب ذنوباً ويهدّدونه بالشرطة. كانت شديدة الأمومة، وتجد أسباباً مقنعة جدّاً. وقالت كحجّة أخيرة:

- اقبَلْ من أجلنا يا فلورون. نحن لدينا وضعنا في الحيّ، وهو ما يلزمنا بالكثير من التدابير... أخشى أن يثرثروا علينا، هنا، بين ظهرانينا. ذلك المنصب سيضع الأمور في نصابها. ستكون شخصاً ذا مكانة. حتّى أنك ستشرّفنا.

صارت أكثر حنوّاً. وصار فلورون يشعر بالامتلاء؛ كان كأنّه قد تمّ

اجتياحه بروائح المطبخ التي غذّته بكلّ الغذاء الذي كان يفعم الهواء؛ وانزلق في الرخاوة السعيدة لعملية الهضم المتواصلة في ذلك الوسط الدسم الذي بات يعيش فيه منذ أسبوعين. كانت تلك ألف دغدغة من الدهون البازغة تجتاح جِلده، غزواً للكائن بأكمله، طراوة رخوة كطراوة الحوانيت. في تلك الساعة المتقدّمة من الليل، وفي حرارة تلك القاعة ذابت صلابته وإرادته، وشعر بنفسه متراخياً بفعل هذه الأمسية الهادئة، وروائح المسوَّد والسمن، وبولين السمينة النائمة في حجره، وفوجئ برغبته في قضاء أمسيات أخرى مماثلة، أمسيات لا تنتهي، يسمن بها. وكان موتون فوق كلّ شيء هو ما جعله يقرّر. كان موتون يغطّ في سبات عميق، وبطنه للهواء، وبقدم على أنفه، وذيله موضوع على جانبه كأنّه غطاء له؛ كان ينام مثل هرّ في كاملِ سعادته، حتّى أنّ فلورون همس وهو ينظر له:

- كلّا، تلك كانت حماقة... لقد قبلتُ. قلّ له إنّي موافق يا غافار!

فرغت ليزا حينها من السجق، ومسحت أصابعها في طرف صدريّتها. وبدأت تعدّ الشمعدان لأخي زوجها، بينما غافار وكونو يهنّئانه على قراره. كان لا بدّ من وضع حدّ بعد كلّ ذلك؛ المهاترات السياسية لا تطعم المرء خبزه. كانت واقفةً والشمعدان مشتعل، تلقي على فلورون نظرة رضا، بوجهها الجميل الهادئ، وجه بقرة مقدّسة.

الفصل الثالث

بعد ثلاثة أيّام، كانت الإجراءات الرسمية قد استُكمِلت، وقبلت إدارة المحافظة، مغمضة العينين أو تكاد، بفلورون بديلاً عن السيّد فيرلاك ومبعوثاً من طرفه. وكان غافار قد أراد أن يصحبهما. وعندما كان مع فلورون وحدهما على الرصيف لكزه بكوعه في جنبه عدّة لكزات وهو يضحك وبعينيه وميض ساخر دون أن يقول شيئاً. ولا بدّ أنّ رجال الشرطة الذين قابلهم على رصيف لورلوج قد بدوا له شديدي السخف، إذ تقوّس ظهره قليلاً عندما مرّ قربهم، وارتسمت عليه إيماءات رجل يمسك نفسه عن الانفجار ضحكاً في وجه الناس.

ومن اليوم التالي أخذ فيرلاك يُطلع المفتش الجديد على تفاصيل العمل. وتوجّب عليه لبضعة أيّام أن يرشده في قلب ذلك العالم المائج الذي سيكون عليه أن يراقبه. كان فيرلاك المسكين، كما يسمّيه غافار، رجلاً قصيراً شاحباً يسعل كثيراً، يتلفّع بسترة فلانيلة وأوشحة ولثام عندما يجول في الرطوبة الباردة وفي مياه سوق السمك الجارية بساقيه النحيفتين كطفلٍ سقيم.

في صباح اليوم الأوّل، عندما وصل فلورون في السابعة صباحاً، كان ضائعاً بعينين مرتعبتين وصداع في رأسه. كانت بائعات المفرّق قد أخذن في التحلّق حول المنصّات التسع للمزادات، فيما يتوافد الموظفون بسجلاّتهم، والوكلاء المجهِّزون بحقائبهم الجلدية ينتظرون الإيرادات، جالسين على مقاعد مقلوبة بجوار مكاتب البيع. شُحنات من المأكولات البحرية يتمّ إنزالها، وتفريغها، داخل المجال المغلق للمنصّات، وحتّى الرصيف. وعلى امتداده تتكدّس السلال الصغيرة، وثمّة توافد متواصل للصناديق والقفَف وأكياس مكتظّة بالمحار تسيل منها تيّارات رفيعة من الماء. والعدّادون الموكّلون بتقسيم البضائع يتقافزون فوق الأكوام، وينزعون بقبضاتهم قشّ السلال، ويفرغونها، ويلقونها بقوّة، وعلى القفف المستديرة الواسعة يوزّعون الكميّات بضربة يد وحيدة لتعطيها انتفاخات ملائمة. وعندما اصطفّت القفف معروضةً، تخيّل فلورون أنّ جبلاً من السمك قد سقط هناك، على هذا الرصيف الذي كان لا يزال رائلاً بالأصداف الورديّة، والمرجان الدمويّ، واللآلئ الحليبية، وكلّ الألوان اللامعة والكابية للبحر المحيط.

خليط متشاكل، وبضربة شبكة عشوائية، كانت الأعشاب البحرية التي تكمن فيها الحياة الغامضة لأعماق أعالي البحار، قد لفظت خارجَها كلّ شيء: أسماك الغادس الأسمر، الماكرة، وسمك موسى، والهوشع، والليمندة، والأسماك الشائعة بلونها الرمادي المتّسخ وبقَعها البيضاء؛ وثعابين البحر، تلك الأفاعي ذات الزرقة الطينية، بعيونها الرفيعة السوداء، دبقةً كأنّها تزحف حيّةً بَعدُ؛ وأسماك الراي الكبيرة ببطونها الشاحبة يؤطّرها الأحمر الخفيف، والتي تتمدّد ظهورها الرائعة بنتوءاتها الفقرية، وحتّى الحيتان المبسوطة الزعانف، صفائح من اللون القرمزيّ تقطعها خطوط بلون البرونز الزهريّ، ببرقشة داكنة في لون العلجوم والأزهار الفاسدة؛ وكلاب البحر، البشعة برؤوسها

المستديرة، وأفواهها المشقوقة على اتّساعها كما في الأصنام الصينية، وذيولها القصيرة التي لخفافيش سِمانٍ، كمثْلِ وحوش يجدر بها أن تحمي بنباحها كنوز المغارات البحرية. ثمّ تأتي الأسماك الجميلة، المفصولة، كلّ واحدة على لوح من السوحر: السلمون، بلون الفضّة المنقوشة والتي تبدو كلّ قشرة فيها كضربة إزميل في المعدن الصقيل، والسمك البوريّ بقشوره الأكثر صلابة، وبنقوشه الأكبر حجماً؛ وسمك الترس الكبير، وسمك أبي لحية الكبير ببقَعه المتقاربة في لون اللبن الرائب؛ والتونة الناعمة واللامعة التي تشبه أكياساً سوداء من الجلد، والقاروس المستدير، فاغراً شدقيه الكبيرين يذكّرك بروح شديدة الغلظة مستسلمة في ذهول الاحتضار، وفي كلّ مكانٍ أسماك موسى في أزواج، رمادية أو شقراء، تحتشد، بقشورها الرفيعة الحادّة التي تشبه شظايا القصدير، والرنكة المعقوفة قليلاً ـ جميعها تُبدي كدمات خياشيمها النازفة على جلودها المخطّطة؛ يليها سمك المرجان السمين تشوبه لمسة من اللون القرمزيّ، بينما الأسقمريّ الذهبيّ بظهره المخطّط بسمرة حائلة يبرق بنسيج قشور جوانبه المتموّج، والغرنار الورديّ، ببطونه البيضاء، ورؤوسه المصفوفة في منتصف القفف، وأذياله المشعة تزهو بإيناع غريب، مرقّشة ببياض لؤلؤيّ وبحمرة ذات وهج. وكان هناك أيضاً طرستوج الصخور بلحمه الرائع، والحُمرة المضيئة للشبّوط، وصناديق من سمك الغُبَر بلمعة حجر عين الهرّ، وسلال من سمك البنفسج، صغيرة ونظيفة وجميلة كأنّها سلال للفراولة تطلق روائح بنفسج قوية. وفيما الجمبريّ الورديّ والرماديّ تلمع عيونه كنقاط سوداء غير مميّزة بالآلاف في قلب أكوامه ذات الرقّة المحوّة، وجراد البحر بأشواكه والكركند المخطّط بالأسود لا يزال حيّاً، زاحفاً على أرجله المحطّمة يطقطق.

كان فلورون غير منصت لشروح السيّد فيرلاك. وكان شعاع من

الشمس، ساقط من نافذة علوية في سقف الشارع المغطّى، يضيء هذه الألوان الثمينة التي غسلتها ورقّقتها الأمواج ويتقزّح ويذوب في أطياف اللحم والأصداف. لمعة حجر الهرّ في سمك الغُبَر، وصدَف الإسقمريّ وذهب الطرستوج والأردية المقصّبة للرنكة وقطع الفضّيّات الكبيرة للسلمون. كانت كأنّها علب للحلي تخصّ إحدى بنات البحر وقد تمّ تفريغها على الأرض، زينة غير مسبوقة وعجيبة، انسيال وتكوّم لعقود وأساور عملاقة ودبابيس ضخمة وخواتم بربرية لا يُعرَف استخدامها. وثمّة أحجار داكنة على ظهور الراي وكلاب البحر بلون البنفسج وخضرة تنتظم في معدن قاتم. وكان لقضُب سمك الرمل الرفيعة ولأذيال الغُبَر وزعانفه رقّة المصوغات الدقيقة.

كانت قد هبّت في وجه فلورون نفحة من ريح البحر المنعشة التي يعرفها، مُرّةً مالحةً، فتذكّر سواحل غويانا، والجوّ الصحو في وقت الترحيل. وبدا له أنّ خليجاً صغيراً كان هناك، وإذ تنحسر المياه وتحترق الأعشاب تحت الشمس وتقبع الصخور عاريةً تتجفّف، تطلق الحصى نسيماً قويّاً مشبّعاً بروائح مخلوقات البحر. وحوله كان للأسماك الشديدة الطزاجة عطر طيّب، ذلك العطر اللاذع المهيّج الذي يفسد الشهيّة.

سعل السيّد فيرلاك، وقد غزته الرطوبة، فغاص أكثر في لثامه.

- الآن، قال، سنذهب إلى أسماك المياه العذبة.

هناك، من جانب رواق الفواكه، كانت منصّة المزايدات، الأخيرة من جهة شارع رامبوتو، محاطة بحوضين دائريّين ومقسومة إلى مستودعين منفصلين بحاجز من الحديد، وصنابير من نحاس معقوفة تطلق خيطاً من الماء رفيعاً. داخل كلّ مستودع احتشادٌ مختلطٌ للإربيان، ومساحات قاتمة

من ظهور سمك الشبّوط، والتفافات مائجة للأنقليس، تنعقد وتنحلّ بلا توقّف. استسلم السيّد فيرلاك لسعال مُلحّ. كانت الرطوبة أخفّ حدّةً هنا، حيث تسود رائحة رخوة للأنهار، وللمياه العذبة الدافئة الراكدة على الرمال.

شحنات إربيان ألمانيا، في علبها وسلالها، كثيرة جدّاً في ذلك الصباح. سمك هولندا وإنكلترا الأبيض يزحم السوق بدوره. يجري تفريغ شحنات شبوط الراين، مذهبةً، وجميلة بتصهّبها المعدنيّ، تشبه صفائح قشورها قطَع مينا مقسّمة وبرونزية؛ أسماك الزنجور الكبير، قطّاعة طرق الماء تلك، تتمدّد مناقيرها الوحشية قاسية بلون رماديّ كالحديد؛ والكُمهْ القاتمة الرائعة تبدو كمثْلِ نحاسات حمراء مبرقشة بالرماديّ المخضرّ. وفي وسط هذه التذهّبات الحادّة قفَف الغجّوم والفرخ، وشحنات من التروتة وأكوام من الزيناب الشائع، أسماك مسطّحة تمّ صيدها بالشباك، في بياض باهر، وظهور في زرقة القصدير تتماهى شيئاً فشيئاً في الرقّة الشفّافة لبطونها؛ وفراخ البنيّ في بياض الجليد تعزف اللحن الحادّ للضوء في لوحة الطبيعة الصامتة الهائلة تلك. يسكبون داخل الأحواض أكياساً من الشبوط الصغير، وتتقلّب الشبّوطات على نفسها، وتبقى للحظة على جوانبها ثمّ تنسرب لتضيع. وسلال من صغار الأنقليس يتمّ تفريغها متكتّلةً فتسقط في المستودع كثعابين معقودة، بينما تلك الكبيرة التي في حجم ذراع طفل ترفع رؤوسها وتنزلق تحت الماء، كقفزة ناعمة لأفاعٍ قابعة في خميلة. وعلى قشّ السوحر المتّسخ للقفف ترقد أسماك متكوّمة منذ الصباح تحتضر مطوّلاً، وفي قلب ضجيج المزادات، تفتح أفواهها وجنوبها متقلّصةً وكأنّها لتشرب رطوبة الهواء، وتتثاءب بإفراطٍ بتلك الشهقات الصامتة التي تتكرّر كلّ ثلاث ثوانٍ.

في تلك الأثناء كان السيّد فيرلاك قد أخذ فلورون إلى منصّات رواق الأسماك. وأخذ يجول معه ويُعلّمه بتفاصيل شديدة التعقيد. وفي أضلاع

الرواق الثلاثة، وحول المكاتب التسعة، أمواج من الزحام متكوّمةً مشكّلةً كتلة من الرؤوس المتماوجة عند كلّ ضلع، ويغلب فيها الموظّفون، جالسين أو منكبّين على التدوين في سجلّات. سأل فلورون:

- يا ترى هل كلّ هؤلاء الموظّفين هم من الوسطاء[1]؟

فقاده السيّد فيرلاك في دورة على الرصيف، واصطحبه إلى داخل سياج إحدى منصّات المزادات. وأخذ يشرح له طبيعة المهامّ وموظّفي المكتب الكبير ذي الخشب الأصفر، الذي تفوح منه رائحة السمك وقد تبقّع برشقات القفَف. وفي الأعلى، في المقصورات الزجاجية، جابي ضرائب الإدارة البلدية يدوّن أرقام المزادات، وفي الأسفل، على كرسيّين مرتفعين، تجلس المرأتان اللتان تمسكان بلوائح المبيعات لحساب الوسطاء، متّكئتين بقبضتيهما إلى مسندين ضيّقين. كانت المنصّة مزدوجةً، على كلّ جانب من الطاولة الحجرية التي تمتدّ أمام المكتب بائع يضع القفف ويحدّد أسعار الكميّات والقطع الكبيرة، بينما المدوِّنة بلوحها وقلمها تقف أعلى منه منتظرةً المزايدة. وأطلعه على مقصورة من الخشب الأصفر في المواجهة خارج السياج، تقبع بداخلها أمينة الصندوق، وهي امرأة عجوز ضخمة محاطة برصّات من عملات معدنية من فئة المليم وخمسة فرنكات.

- هناك رقابة من جهتين، قال له، من إدارة بلديّة منطقة السَّين ومن إدارة الشرطة. وهذه الأخيرة هي التي تعيّن الوسطاء وتتولّى الإشراف عليهم. إدارة المحافظة بدورها تضطلع بفرض ضريبة على المعاملات.

وواصل الكلام بصوته البارد الخفيض عن الخلافات المعهودة بين الإدارتين. ولم يكن فلورون مُنصتاً إليه، لكنّه كان يراقب المدوِّنة الجالسة في

(1) الوسطاء أو التجّار بالعمولة فئة تأتي في السوق قبل فئة الباعة، وتضمّ تجّاراً أو وسطاء يتكفّلون ببيع سلَع المزارعين وموّردي اللّحوم للباعة الصّغار مقابل عمولة.

مواجهته على أحد المقاعد المرتفعة. كانت فتاة طويلة سمراء، في الثلاثين، بعينين كبيرتين سوداوين لهما سمت هادئ. كانت تدوّن، ممدّدة أصابعها، ككلّ آنسة متعلّمة.

لكنّ انتباهه تشتّت بفعل صياح بائع وضع سمكة ترس رائعة للمزايدة.

- للبيع بثلاثين فرنكاً! بثلاثين فرنكاً! بثلاثين فرنكاً!

كان يردّد هذا الرقم بكلّ النبرات، صاعداً إلى سلّم نغميّ غريب مليء بالرجفات. كان أحدب، وجهه متلفّت، وشعره متطاير، يرتدي صدريّة زرقاء فضفاضة، ذراعاه ممدودتان بعنف، وعيناه تطلقان الشرر:

- واحد وثلاثون! اثنان وثلاثون! ثلاثة وثلاثون!... ثلاثة وثلاثون ونصف!

ثمّ التقط أنفاسه وحرّك القفّة دافعاً إيّاها على الطاولة الحجرية، فيما مالت سمّاكتان على سمكة الترس تتفحّصانها بلمسات خفيفة. ثمّ انطلق هائجاً من جديد، يرمي برقمٍ مع كلّ مزايدة، مُداهماً أدنى نأمة، الأصابع المرفوعة، وارتعاشات الحواجبِ، وحركات الشفاه، وطرفات الأعين، وكلّ ذلك بسرعة وتلجلج حتّى أنّ فلورون الذي لم يكن يستطيع متابعته بقي مرتبكاً عندما غنّى الأحدب بنبرة منشد كنسيّ يلقي تلاوةً:

- اثنان وأربعون! اثنان وأربعون! باثنين وأربعين فرنكاً سمكة الترس!

كانت النورماندية الجميلة هي من رسى عليها المزاد. وقد عرفها فلورون من بين السمّاكات المصطفّات بجانب قضبان الحديد التي تشكل سياج منصّة المزادات. كان الصباح بارداً. وهناك صفّ من ياقات الفراء، وعرض للسترات البيض الكبيرة، التي تلفّ بطوناً وصدوراً وأكتافاً ضخمة. كانت

النورماندية الجميلة ببشرتها البيضاء الرقيقة وتصفيفة الشعر العالية المزيّنة بالحلقات، تبرز بعقدتها ذات التخاريم بين الشعور الكثّة المجّعدة المربوطة بالمناديل، وبين أنوف مدمني الكحول الملتهبة، والأفواه المفغورة بوقاحة، والوجوه التي تشبه الأواني المحطّمة. هي أيضاً عرفت ابن عمّ السيّدة كونو، وفوجئت بوجوده، لدرجة أنّها تهامست حول ذلك مع جاراتها.

كان الضجيج قد بلغ درجةً جعلت السيّد فيرلاك يتوقّف عن شروحه. على الرصيف كان هناك رجال يُعلنون عن الأسماك الكبيرة، بهتافات ممتدّة كأنّها صادرة عن مكبّرات صوت عملاقة. وكان هناك واحد بالذات، يصرخ: «المحار! المحار!» بصوت أجشّ متكسّر ترتجّ له سقائف الرواق. كانت جواليق المحار تُفرَّغ داخل السلال؛ وجواليق أخرى تفرَّغ بغزارة، وتتوالى القفف، أسماك الراي، وأسماك موسى، والإسقمريّ، وثعابين البحر، والسلمون، يُحضرها العدّادون والحمّالون وسط الهمهمات التي تتضاعف، وتدافُع السمّاكات اللائي يصطدمن بالقضب الحديدية. كان البائع الأحدب المتوقّد يضرب الهواء بذراعيه النحيلتين مادّاً فكّيه إلى الأمام. وفي النهاية صعد على مِرقاة، ملفوحاً بسلاسل الأرقام التي كان يلقيها بأقسى ما يستطيع، وبفمه المعوّج وشعره الذي تطيره الريح، لا تخرج من حنجرته الجافّة سوى همسات غير مفهومة. وفي الأعلى، كان موظّف الضرائب البلدية، وهو شيخ قصير متدثّر بطوق من الفرو الصناعيّ، لا يُبدي سوى أنفه تحت قلنسوة القطيفة السوداء التي يعتمرها، والمدوِّنة السمراء الطويلة على مقعدها الخشبيّ المرتفع، منكبّة تكتب بعينيها الهادئتين في وجهها الأصهب من البرد، دون أن يطرف لها جفن لضجيج ناقوس الأحدب الخشبيّ الذي يتسلّق تنّورتها.

- إنّ لوغر ذاك لرجلٌ رائعٌ، همس السيّد فيرلاك. هو أفضل بائع في

السوق... يستطيع أن يبيع زوجاً من الأحذية على أنّهما سمكتا موسى.

وعاد مع فلورون إلى داخل الرواق، ومرّا من جديد أمام مزاد أسماك المياه العذبة، حيث كانت المزايدات أقلّ احتداماً، فقال له إنّ حركة المبيعات هنا قد انخفضت، وإنّ الصيد النهريّ في فرنسا متراجع بشدّة. كان أحد البائعين، بسحنة شقراء وماكرة، يدعو بصوت رتيب وبلا أدنى إيماءة لبيع كميّات من الأنقليس والأربيان. بينما مفرّقو البضائع على امتداد الأحواض يجمعون الأسماك بشباك ذات أذرع قصيرة.

وفي تلك الأثناء، كان الزحام قد اشتدّ حول مكاتب البيع. وكان السيّد فيرلاك يمارس بكلّ وعي دوره كمعلّم، يفسح الطريق بضربات من مرفقه ويكمل الجولة لخليفته في أكثر المزادات كثافةً. بائعات المفرّق كنّ هناك هادئات، ينتظرن البضاعة الجيّدة، ينقلن على أكتاف الحمّالين، التونة والترس والسلمون. وعلى الأرض كانت بائعات الشوارع يتقاسمن قفف الرنكة والليمندة الصغيرة، التي تَشاركن في شرائها. كان هناك أيضاً بعض البرجوازيّين، من الملّاكين ساكني الأحياء البعيدة، وقد جاءوا منذ الرابعة صباحاً ليحصلوا على السمك طازجاً وينتهوا إلى المزايدة على كميّة ضخمة، بنحو أربعين فرنكاً من المأكولات البحرية، ثمّ ليقضوا النهار بطوله في توزيعها على أشخاص من معارفهم. كانت تدافعات تحرّك الحشد من كلّ أركانه. تمرق سمّاكة مغتاظة رافعةً قبضتها وعنقها منتفخ من الغضب، ثمّ تتكوّن جدران سميكة. أعلن فلورون الذي كان قد اختنق أنّه قد رأى ما يكفي، وأنّه قد فهم كلّ شيء.

وإذ كان السيّد فيرلاك يساعده على الخروج وجدا نفسيهما في مواجهة النورماندية الجميلة، التي ظلّت واقفةً أمامهما، وقالت بهيئتها التي لملكة:

- هل قرّرت فعلاً يا سيّد فيرلاك أن تغادرنا؟

- نعم، نعم، أجاب الرجل القصير، سأذهب للاستجمام في الريف، في كلامار. يبدو أنّ رائحة الأسماك تؤذيني... وهاكم السيّد الذي سيخْلفني.

والتفت يشير إلى فلورون. احتبست أنفاس النورماندية الحسناء. وفيما راح فلورون يبتعد خُيّل إليه أنّه سمعها تهمس في آذان جاراتها، بضحكة مكتومة: «حسناً، سنتسلّى إذن».

قامت السمّاكات بعرض بضاعتهنّ. وعلى الطاولات الرخامية، كانت صنابير الزوايا تطلق ماءها غزيراً في نفس الوقت. كان ضجيج عاصف، سيلان من تدّفقات صلبة تطنّ وتنفجّر؛ ومن أطراف الطاولات المائلة تسيل قطرات بهمس رقيق ليتناثر رذاذها في الممرّات، حيث تجري جداول صغيرة، وتملأ بعض الفجوات ببرَك، ثمّ تتفرّع بدورها لألف مجرى، وتصبّ في الانحدار نحو شارع رامبوتو، فتتصاعد أبخرةٌ من رطوبة، ورذاذ من أمطار ينفث في وجه فلورون نسمةً باردةً، تلك ريح البحر التي يعرفها مالحةً ومرّة؛ كما كان قد رأى في الأسماك المعروضة أوّلاً، الصدَف الورديّ والمرجان الدمويّ واللؤلؤ الحليبيّ، وكلّ الألوان المتموّجة والخضرة الشاحبة للبحر المحيط.

ذلك الصباح الأول جعله متحيّراً. وندم على امتثاله لليزا. منذ اليوم التالي، وقد نجا من نعاس المطبخ الدسم، حيث كان قد اتُّهِم بالجبن، وبعنف كاد أن يُسيل الدموع من عينيه. لكنّه لم يجرؤ على التراجع عن كلمته. إن ليزا تخيفه قليلاً، لمرأى ثنية شفتيها والشكوى الصامتة بوجهها. كان يعتبرها امرأةً أكثر جديّةً واكتفاءً من أن يخاصمها. ولحسن الحظّ ألهمه غافار فكرةً طمأنته.

إذ انتحى به جانباً في نفس مساء اليوم الذي اصطحبه فيه فيرلاك في الجولة وسطَ السوق، وشرح له بكثير من الكتمان «أنّ ذلك المسكين لم يكن سعيداً». وبعد بعض الاعتبارات حول «حكومة الأوغاد التي تقتل موظّفيها حتّى دون أن يعرفوا لأيّ سبب ماتوا»، أفهمه أنّه سيكون من قبيل عمل الخير أن يتنازل للمفتّش السابق عن جزء من راتبه. واستقبل فلورون هذه الفكرة بفرح. كان ذلك عادلاً للغاية، سيعتبر نفسه بديلاً مؤقتاً للسيّد فيرلاك؛ وفوق ذلك هو لم يكن يحتاج إلى أيّ شيء، بما إنّه ينام ويأكل في بيت أخيه. وأضاف غافار أنّ من المائة والخمسين فرنكاً الشهرية سيكون من المناسب التخلّي عن خمسين فرنكاً. ثمّ قال وهو يخفض صوته إنّ ذلك لن يدوم طويلاً، لأنّ الرجل البائس كان مصدوراً حتّى النخاع. واتّفقا على أن يقابل فلورون زوجته كي لا يجرح الرجل. وخفّفت عنه تلك اللّفتة الطيّبة، فصار قابلاً بالوظيفة بروح من التفاني، لقد ظلّ وفيّاً للدور الذي مارسه طوال حياته. فقط، جعل تاجر الدواجن يتعهّد بألّا يخبر أحداً عن ذلك الترتيب. ولّما كان ذلك الأخير يخشى ليزا بدوره، فقد احتفظ بالسرّ، كشيء جدير بالتقدير.

وأضحى كلّ من في حانوت جزارة الخنزير سعداء. وأبدت ليزا الجميلة ودّاً كبيراً لأخي زوجها؛ وكانت ترسله للنوم مبكّراً كي يستطيع الاستيقاظ في الصباح؛ وتعدّ له إفطاراً دافئاً، ولم تعد تخجل من التحدّث معه على الرصيف، وقد صار يعتمر قبّعة مزيّنة بشرائط. لم يجلس كونو يوماً للمائدة بين أخيه وزوجته في مثل هذا الانسجام الطيّب. كان العشاء يمتدّ أحياناً حتّى التاسعة، فيما تبقى أوغستين خلف منضدة البيع. كانت تلك شهية طيّبة تتخلّلها حكايات الحيّ، وأحكام وآراء إيجابية من الجزّارة في المسائل السياسية. وكان على فلورون أن يحكي عن أحوال المبيعات في سوق السمك. وترك نفسه شيئاً فشيئاً لتذوق هناءة تلك الحياة المنتظمة. كان لقاعة

الطعام الصفراء إضاءة ودفء برجوازيّان يوهنانه منذ ولوجه عتبتها. كانت عناية ليزا الفائقة تضفي دفئاً إضافياً يغمر الجميع. كانت ساعةً من الحميميّة والتفاهم التامّ.

لكنّ غافار كان يعتبر آل غراديل كونو أناساً غافين. وكان يسامح ليزا على مشاعرها الطيّبة تجاه الإمبراطور لأنّه، كما يقول، ينبغي ألّا نتكلّم في السياسة مع النساء، والجزّارة الحسناء هي في النهاية امرأة شديدة النزاهة تدير تجارتها ببراعة. وذوقه فقط يجعله يفضّل أن يقضي أمسياته في حانة السيّد لوبيغر، حيث يجد مجموعة صغيرة من الأصدقاء تشاركه آراءه. وعندما تمّ تعيين فلورون مفتّشاً في رواق الأسماك، كان يغريه، ويصطحبه ليقضيا الساعات، ويدفعه لحياة المجون، إذ صار موظفاً أخيراً.

كان السيّد لوبيغر يدير مكاناً جميلاً ذا فخامة عصرية على الزاوية اليمنى من شارع بيرويت في تقاطعه مع شارع رامبوتو، محاطاً بأربع شجيرات من صنوبر النرويج في صناديق مطليّة بالأخضر. وكان جديراً بذاتِ مكانة حانوت آل كونو غراديل الكبير. الزجاج النظيف يسمح برؤية القاعة المزّينة بأكاليل من الأوراق والكروم والعناقيد على خلفيّة خضراء فاتحة، وببلاطات مربّعة وكبيرة بيضاء وسوداء. وفي العمق، كانت فتحةٌ فاغرةٌ لقبو النبيذ تنفتح تحت السلّم الدائريّ ذي الجوخ الأحمر الذي يصعد نحو طاولات البلياردو في الطابق الأول. وكانت مائدة الشرب على اليمين شديدة الثراء بالانعكاس اللامع للفضّة المجلوّة، والزنك الساقط من أعلى على القواعد الرخامية الحمراء والبيضاء في زخارف عالية منبعجة، تحيطها بتموّج سطح معدنيّ كمذبح كنسيّ محتشد بالزخارف. على أحد الأطراف أباريق الشاي الخزفيّة التي تُستخدم للنبيذ الساخن ومزيج الروم، والمطوّقة بالنحاس، ترقد على مواقد الغاز، وفي الناحية الأخرى صنبور رخاميّ مرتفع ومنحوت

للغاية يُسقِط بلا انقطاعٍ داخل طست خيطاً من الماء متواصلاً كأنّه لا يتحرّك؛ وفي المنتصف، وفي مركزِ الانحدارات الزنكية الثلاثة، يوجد حوض للتبريد وللشطف حيث تصطفّ زجاجات مفتوحة من سعة اللتر برقابها الخضراء. ثمّ جحافل الكؤوس، مرصوصة في جماعات تحتلّ الجانبين: الأكواب الصغيرة للعرَق، والكؤوس السميكة للنبيذ، وكؤوس الفاكهة، وأكواب الأبسنت، والأكواب الكبيرة للجعة، والكؤوس الكبيرة ذات السيقان، كلّها مقلوبة وقعورها لأعلى تعكس على زجاجها بريق منضدة الشرب. وهناك أيضاً إلى اليسار جرّة نبيذ ضخمة بساقٍ هي بمثابة جذعٍ لها، وإلى اليمين جرّة مماثلة نُشبت عليها مجموعة متنوّعة من الملاعق الصغيرة.

في العادة، يجلس السيّد لوبيغر على عرشه خلف منضدة الشرب، وهي أريكة مبطنّة من دون ظهرٍ من الجلد الأحمر. تحت يده زجاجات الشراب، قوارير من البلّور المقدود، غاطسة حتّى منتصفها في فتحات صوان؛ يستند بظهره على مرآة كبيرة تحتلّ كلّ الحائط خلفه، يقطعها رفّان هما لوحان من زجاج يحملان الدوارق والقناني. على أحدها أوانٍ للفاكهة، الكرز والبرقوق والدرّاق، تضع لمساتها الداكنة؛ وعلى الآخر، بين ربطات المخبوزات المتناسقة الترتيب، قوارير فاتحة، من أخضر رقيق، وأحمر رقيق، وأصفر رقيق، تثير الخيال بأنواع مجهولة من المشروبات، مستخلصات لزهور بشفافية رائعة. تبدو تلك القوارير وكأنّها معلّقة في الهواء تلمع وكأنّها مضاءة في البريق الشديد للمرآة.

ولكي يعطي حانوته طابع المقهى، وضع السيّد لوبيغر في مواجهة منضدة الشرب وبجوار الحائط، طاولتين صغيرتين من الحديد المجلوّ وأربعة مقاعد. ثمّة ثريا بخمسة مصابيح وكرة بلورية معلّقة في السقف. وكوّة، وساعة حائط مذهبة على اليسار فوق باب دوّار مغلق في الحائط. ثمّ في

العمق، كانت هناك المقصورة الخاصّة، ركن من الحانوت يعزله فاصل من زجاج مرسوم ذي مربّعات صغيرة. أثناء النهار ينيرها الضوء الداخل من نافذة صغيرة تطلّ على شارع بيرويت بإضاءة مريبة؛ وفي المساء يشتعل فيها مصباح غازيّ على طاولتين من الرخام الاصطناعيّ المطليّ. هنا كان يجتمع غافار مع أصدقائه السياسيّين كلّ مساء بعد العشاء. يعتبرون المكان بمثابة بيتهم، وقد اعتاد صاحب الحانوت على حجز ذلك المكان لهم. عندما يدخل آخر الحاضرين منهم، يكون من المعروف أنّهم سيتحدّثون بكلّ صراحة «عن المؤامرة الكبرى»، فلا يجرؤ أيّ من الزبائن على الدخول عليهم.

في اليوم الأوّل أخبر غافار فلورون ببعض التفاصيل حول السيّد لوبيغر. لقد كان رجلاً شجاعاً، يأتي أحياناً ليشرب قهوته معهم. وهم لا يتحرّجون أمامه، لأنّه ذكر يوماً أنّه شارك في معارك 1848[1]، وهو قليل الكلام، يبدو ساذجاً. عند مرورهم، وقبل دخولهم إلى المقصورة، يصافحه هؤلاء الرجال في صمتٍ من فوق الكؤوس والقناني. وفي أغلب الأحيان، تكون بجانبه على الأريكة الجلدية الحمراء امرأة قصيرة شقراء، فتاة اتّخذها للخدمة على منضدة الشرب، إضافة إلى الصبيّ ذي الصدريّة البيضاء، المسؤول عن طاولات البلياردو. كان اسمها روز، وهي شديدة الرقّة والامتثال. وحكى غافار، بينما هو يغمز بعينه، أنّها تمضي في امتثالها للسيّد لوبيغر إلى مدى بعيد. كانت روز هي من تخدم هؤلاء السادة، فتدخل عليهم وتخرج، بمظهرها المتواضع والسعيد في وسط النقاشات السياسية العاصفة.

في اليوم الذي قدّم فيه تاجر الدواجن فلورون إلى أصدقائه، لم يجدا لحظة دخولها المقصورة الزجاجية سوى رجل في نحو الخمسين، يبدو متفكّراً

(1) هي الثورة الفرنسية الثالثة، تلت ثورتَي 1789 و1830، وقد قامت في عهد لوي فيليب، آخر ملوك فرنسا، وقادت إلى عودة النظام الجمهوريّ.

ورقيقاً بقبعة قذرة ومعطف بنّي، يستند ذقنه إلى كرة عاجية لعكّاز غليظ، أمامه كوب كبير ملآن، وفمه مختفٍ تماماً خلف لحيته الكثّة، حتّى أن وجهه يبدو أخرس وبلا شفتين.

- كيف حال روبين؟ سأل غافار.

مدّ روبين يده صامتاً دون أن يجيب، وقد ترقّقت عيناه بابتسامة تحيّة خفيفة، ثمّ أراح ذقنه ثانية على كرة العكّاز وأخذ ينظر لفلورون من أعلى كوبه الكبير. كان فلورون قد جعل غافار يقسم أنّه لن يحكي حكايته تجنّباً للتطفّل الخطير؛ ولم يغضبه أن يرى بعض الارتياب في الموقف المتحفّظ لذلك الرجل ذي اللحية الكثّة، لكنه كان مخطئاً. روبين لا يبدأ أبداً بالكلام، هو أوّل من يصل، في تمام الثامنة، يجلس في نفس الركن، دون أن يترك عصاه، أو يخلع قبّعته ومعطفه؛ لم يرَ أحد روبين أبداً دون قبعة على رأسه. ويبقى هناك، يستمع إلى الآخرين، وحتّى منتصف الليل، مُستغرقاً أربع ساعات في إفراغ كوبه، والنظر لمن يتكلّمون على التوالي كأنّه يسمعهم بعينيه. وعندما سأل فلورون غافار في وقت لاحق عن روبين، عظّم الأخير من أمره، وقدّمه باعتباره رجلاً شديد القوّة، دون أن يستطيع إعلامه أين أثبت الرجل قوّته، وعلى أنّه رجل المعارضة الصلب، الأكثر إخافةً للحكومة. وهو يقطن في شارع سان دوني في مسكن لم يدخله أحد. وحكى تاجر الدواجن أنّه مع ذلك قد ذهب مرّةً إلى هناك. كان خشب الأرضية محمياً بمسارات من القماش الأخضر؛ وكان هناك أغطية للأثاث وساعة حائط رخامية ذات أعمدة. السيّدة روبين، التي يعتقد أنّه رآها من ظهرها بين بابين، قد تكون امرأة عجوز على أفضل ما يكون، شعرها مصفّف على بكرات، دون أن يستطيع تأكيد ذلك. ولا أحد يعلم لماذا استقرّت الأسْرة في ضجيج ذلك الحيّ التجاريّ؛ الزوج لا يفعل شيئاً على الإطلاق، ولا نعرف تحديداً أين يقضي نهاراته، ولا على أيّ شيء

يعيش، وكان يظهر كلّ مساء وعليه سمات الإرهاق والذهول كأنّه عائد من رحلة سياسيّة رفيعة.

- حسناً، هل قرأت خطاب العرش ذلك؟ يسأل غافار وهو يأخذ جريدةً من الطاولة.

هزّ روبين كتفيه. لكنّ باب الحاجز الزجاجيّ للمقصورة كان يُقرع بعنف، وظهر رجل أحدب. عرف فلورون فيه أحدب المزاد، وكان مغسول اليدين، وفي أحسن ثياب، وقد وضع حول وجهه عصابة حمراء يتأرجح أحد أطرافها على حدبته كرفلٍ معطف من صنع مدينة البندقيّة.

- ها هو لوغر! يقول تاجر الدواجن، هو من سيقول لنا رأيه في خطاب العرش.

لكنّ لوغر كان غاضباً وكاد أن ينزع المشجب وهو يعلّق قبّعته وعصابة أنفه. وجلس بعصبيّة ودقّ بقبضته على الطاولة رامياً الجريدة وهو يقول:

- وهل أقرأ أنا أكاذيبهم الملعونة تلك!

ثمّ انفجر غاضباً:

- لم أرَ قطُّ أصحاب عمل يستهينون بالناس مثل هؤلاء! منذ ساعتين وأنا أنتظر راتبي. كنّا نحو عشرة في المكتب. لقد ظللت واقفاً، يا أعزّائي... وفي النهاية وصل السيّد مانوري في عربته، قادماً من إحدى بائعات الهوى بالتأكيد. هؤلاء الموظّفون، إنّهم يسرقون، ويعربدون... وفوق ذلك أعطاني راتبي كلّه على هيئة أوراق مالية كبيرة، ذلك الخنزير.

تفاعل روبين مع غضبة لوغر برعشة في جفونه. وفجأةً وجد الأحدب له ضحيةً أخرى:

- روز! روز! أخذ ينادي وهو يميل خارج المقصورة.

وعندما مثلت الشابة أمامه مرتعدةً:

- ماذا إذن، لقد رأيتِني أدخل دون أن تحضري لي كأس القهوة الخاصّ بي.

طلب غافار كأسين آخرين من القهوة. وأسرعت روز لتلبّي الطلبات الثلاثة تحت النظرات القاسية للوغر الذي بدا وكأنّه يتفحّص الكؤوس وأطباق السكّر الصغيرة. ارتشف جرعةً فهدأ قليلاً.

- ها هو شارفيه، قال بعد برهة وكأنّه قد عيل صبره... إنّه ينتظر كليمنص على الرصيف.

ودخل شارفيه متبوعاً بكليمنص. كان فتىً طويلاً نحيفاً، حليقاً بعناية، ذا أنف رفيع وشفتين رقيقتين، يقطن في شارف فافان خلف حديقة اللوكسمبورغ. يعرّف نفسه بأنه معلم حرّ. وفي السياسة كان من أتباع هيبير[1]. شعره طويل وملتفّ، طيّات حلّته البالية شديدة التثنّي، وهو يلعب دائماً دور مناصر المؤتمر الوطنيّ[2]، بسيل من الكلام اللاذع وسعة اطلاع بهما يتغلّب عادةً على مناقشيه. كان غافار يخشاه، دون أن يقرّ بذلك؛ هو فقط يصرّح في غياب شارفيه أنّه يبالغ كثيراً، أمّا روبين فيؤيّد كلّ شيء بحركة من جفونه. وحده لوغر يواجه شارفيه في مسألة الأجور. ولكنّ شارفيه يظلّ هو طاغية المجموعة، لكونه الأكثر سلطوية وتعليماً. منذ أكثر من عشر سنوات

(1) هو جاك رينيه هيبير Jacques-René Hébert (1757-1794)، صحافيّ وسياسيّ فرنسيّ، كان عبر صحيفته الأب دوشين Le Père Duchesne، أحد أكبر محرّضي الثورة الفرنسية الأولى (1789)، ووصفَ أحداثها في مقالات ملتهبة وبلغة شعبيّة تقرب من البذاءة أحياناً.

(2) إشارة إلى حكومة المؤتمر الوطني La Convention nationale، التي اضطعلت بمهامّ الحكم في فرنسا أثناء الثورة الفرنسية الأولى، من 21 سبتمبر 1792 إلى 26 أكتوبر 1795.

يعيش مع كليمنص حياةً زوجية على أسس تمّ الاتفاق عليها ووفقاً لعقد مراعى بصرامة من كلا الطرفين. كان فلورون ينظر للمرأة باندهاش، وتذكّر في النهاية أين رآها، لم تكن سوى المدوِّنة الطويلة السمراء التي كانت تكتب بأصابعها الطويلة وهيئة الفتاة المتعلّمة.

وظهرت روز في أعقاب دخول القادمَين الأخيرَين، ووضعت دون أن تنبس ببنت شفه كوباً كبيراً أمام شارفيه، وصينيّة أمام كليمنص التي انخرطت في إعداد مشروبها، بسكب الماء الساخن على الليمون بعد أن عصرته بالملعقة ووضعت السكّر مازجةً إيّاه بالروم وهي تحرّك الدورق بحذر كي لا تتجاوز حجم الكوب الصغير القياسيّ. آنئذ، قام غافار بتقديم فلورون لهؤلاء السادة، وبشكل خاصّ لشارفيه، وقد عرّف بهما باعتبارهما من المعلّمين، رجلين من ذوي الكفاءات وقد يتفاهمان. لكنّه تصور أنّه قد تلفّظ ببعض الأسرار، لأنّ الجميع قد تبادلوا المصافحات، وهم يضغطون على الأكفّ بقوّة وبطريقة الجمعيّات السريّة. شارفيه نفسه كان لطيفاً إلى حدّ ما. فتمّ تلافي الإشارة إلى أيّة تلميحات.

- هل دفع لك مانوري نقداً، سأل لوغر كليمنص.

فأجابت أنْ نعم، وأخرجت لفافات من النقود من فئة الفرنك والفرنكين وفضّتها. كان شارفيه ينظر لها، ويتابع اللفافات وهي تضعها تباعاً في جيبها، بعد أن تتأكّد من محتواها.

- لا بدّ أن نسوّي حساباتنا، قال بصوت خفيض.

- بالتأكيد، هذه الليلة، همست كليمنص. يجب أن تتمّ التسوية، لقد تناولت الغذاء معك أربع مرّات، أليس كذلك؟ ولكنني أقرضتك مائة مليم الأسبوع الماضي.

اندهش فلورون، وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى كي لا يبدو متطفّلاً. ولما انتهت كليمنص من إخفاء آخر لفافة للنقود، تناولت رشفةً من مشروبها، واتّكأت بظهرها على الحاجز الزجاجيّ وأخذت تنصت صامتةً إلى الرجال وهم يتحدّثون في السياسة. كان غافار قد تناول الصحيفة من جديد، وأخذ يقرأ بصوت أراد له أن يكون ساخراً، مقتطفات من خطاب العرش الذي كان قد أذيع في الصباح، في افتتاح مجلسَي النوّاب والشيوخ. وجد شارفيه تسليته في هذه البلاغة الرسمية، فلم يترك جملةً منها مستقيمة. جملة بالذات أثارت سخريتهم بقوّة: «نحن واثقون، أيّها السادة، أنّه بالاستناد إلى استنارتكم، وإلى الروح المحافظة للبلاد، سنتوصّل يوماً بعد يوم إلى رفع مستوى الرفاه العامّ». تلى لوغر تلك العبارة بطريقة درامية وهو واقف مقلّداً بأنفه وبإتقانٍ الصوت الرخو للإمبراطور. فقال شارفيه:

- إنه رائع ذلك الرفاه، والجميع يتضوّرون من الجوع.

- التجارة حالتها سيئة جدّاً، أكد غافار.

- ثمّ ما هذا، رجل يتّكئ على استنارة؟ قالت كليمنص التي تزهو بمعرفتها بالأدب.

روبين نفسه أفلت ضحكةً صغيرة من أعماق لحيته. واحتدم الحوار، وتناولوا الهيئة التشريعية التي ينظرون إليها نظرة شديدة السوء. لم يهدأ غضب لوغر، الذي استعاد فيه فلورون رجل مزاد السمك البارع، بفكّه المدفوع إلى الأمام ويديه اللتين تطلقان الكلمات في الفراغ، وبهيئته الربعة الغاضبة؛ كان يتكلّم عادةً في السياسة بتلك السحنة الغضوب التي يرفع بها قفّة من أسماك موسى إلى المزاد. أمّا شارفيه، فقد صار أكثر برودةً في ضباب الغلايين والغاز الذي يملأ المقصورة الضيّقة؛ وأصبح صوته جافّاً كساطور، فيما يهزّ روبين

رأسه دون أن يغادر ذقنه الرأسّ العاجيّ لعكّازه. ثمّ بناءً على كلمة من غافار انتقلوا إلى الحديث عن النساء.

- المرأة، قال شارفيه بوضوح، مساوية للرجل، ولذا يجب ألّا تضايقه في الحياة. فالزواج شراكة... النصف بالنصف، أليس كذلك يا كليمنص؟

- بالطبع، أجابت المرأة الشابة، ورأسها مستند إلى الحاجز وعيناها تحدّقان على الفراغ.

رأى فلورون البائع الجوّال لاكاي يدخل بصحبة ألكساندر القويّ، صديق كلود لانتييه. كان هذان الرجلان يمكثان لفترة طويلة على الطاولة الأخرى في المقصورة، فهما لا ينتميان إلى العالم نفسه الذي ينتمي إليه هؤلاء السادة. ثمّ، بفضل السياسة، قرّبا مقعديهما، وانضمّا إلى المجموعة. جنّدهما شارفيه، معتبراً أنّهما يمثّلان الشعب، بينما كان غافار يؤدّي دور صاحب الحانوت المتواضع المتخلّي عن الأحكام المسبقة وهو يتبادل معهما الأنخاب. كان لألكساندر مرح رجلٍ ضخم بهيئة طفل كبير وسعيد. أمّا لاكاي، وقد شاب شعره بالفعل، فيبدو وقد صار مريراً، ومنهكاً كلّ ليلة من جولاته التي لا تنتهي في شوارع باريس، ينظر بعين متشكّكة إلى تلك الوداعة البرجوازية، والأحذية النظيفة ومعاطف روبين الكبيرة. تناول الاثنان مشروبين صغيرين، واستُأنف الحوار بحرارة وصخب متزايدين وقد اكتملت الرفقة.

لمح فلورون ذلك المساء، عبر الباب الموارب للحاجز الآنسة ساجيه واقفةً أمام منضدة الشرب. كانت قد سحبت قنينة من تحت صدريّتها وأخذت تنظر إلى روز التي كانت تعبّئها لها بمعيار كبير من عصير الكشمش ثمّ بمعيار أصغر من العرق. ثمّ اختفت القنينة مرّةً أخرى تحت صدريّتها؛ بيديها

المخبئتين كانت الآنسة ساجيه تثرثر في الانعكاسات البيضاء لمنضدة الشرب أمام المرآة حيث تبدو الدوارق وقناني المشروبات وكأنّها معلّقة بخيوط قناديل فينيسيّة[1]. في المساء يبرق الحانوت الدافئ بكلّ معادنه وبلّوراته. والفتاة العانس بتنّورتها السوداء تبدو كحشرة غريبة في قلب هذه النصاعة. ظنّ فلورون، إذ رآها تحاول أن تدفع روز إلى الكلام، أنّها قد لمحته عبر الباب الموارب. فمنذ أن وطئ ليهال وهو يقابلها في كلّ خطوة يخطوها، واقفةً في الشوارع المسقوفة، غالباً بصحبة السيّدة لوكور ولاسارييت، يتفحّصنه ثلاثتهنّ خلسةً، وقد بدا عليهنّ الاندهاش من منصبه الجديد، منصب المفتّش. الأرجح أنّ روز ظلّت متحفّظة في الكلام، لأنّ الآنسة ساجيه التفتت لبرهة فبدا كأنّها تريد الاقتراب من السيّد لوبيغر الذي كان يلعب الورق مع أحد الزبائن على إحدى طاولات الحديد المجلوّ، وبهدوءٍ ارتكنت في خاتمة المطاف إلى الحاجز. وعندها عرفَها غافار. وقد كان يكرهها.

- هلّا أغلقت الباب يا فلورون، قال بعنف. لا يمكننا أن نبقى بيننا.

بعد دقيقة، تبادل لاكاي، لدى خروجه، بعض الكلمات بصوت خفيض مع السيّد لوبيغر، الذي وضع في يده أربع ورقات من فئة خمسة فرنكات دون أن يلحظ أحد ذلك، وهو يهمس في أذنه:

- أنت تعرف، في الغد ستكون اثنين وعشرين فرنكاً. الشخص الذي يُقرض لا يريد أقلّ من هذا، ولا تنسَ أنّك مدين بأجرة العربة لثلاثة أيّام، لا بدّ أن تسدّدها كلّها.

تمنّى السيّد لوبيغر أمسيّة سعيدة للسادة، سيذهب للنوم، قال، وتثاءب بخفة مبرزاً أسنانه القويّة. وفيما كانت روز تتأمّله بهيئة الخادمة المطيعة، حثّها على الإسراع، وأمرها بأن تذهب لتطفئ مصابيح الغاز في المقصورة.

(1) نسبة إلى فينيسيا، مدينة البندقية في إيطاليا.

وعلى الرصيف، تعثّر غافار وكاد أن يسقط، ولمّا كان منتعش القريحة فقد قال:

- سحقاً، لم أستند على الأنوار أنا!

بدا ذلك شديد الطرافة، وتفرّقوا. وعاد فلورون وتعلّق بتلك المقصورة الزجاجية حيث يسود صمت روبين الدائم، وغضب لوغر الجموح وكراهية شارفيه الباردة. وفي الليل إذ يعود، لا ينام مباشرةً. كان يحب عليّته، تلك الغُرَيفة التي كانت للمرأة الشابة، حيث تركت أوغستين بعض قطع الأقمشة، وأشياء نسائية رقيقة وساذجة مهملةً. على المدفأة كانت هناك دبابيس للشعر، وعُلب صغيرة من الورق المقوّى المذهّب مليئة بالأزرار والأقراص، وصور مقصوصة، وأوانٍ للمراهم فارغة لا تزال تضوع بعبق الياسمين. وفي درج الطاولة، طاولة قبيحة من الخشب الأبيض، وثمّة خيط، وإبر، وكتاب للصلوات بجانب نسخة من «مفتاح الأحلام»، وثوب صيفيّ أبيض بنقاط صفراء، منسيّ ومعلّق على أحد المسامير. وعلى اللوح الذي كان يُستخدم كمائدة للتزيين، وخلف إناء الماء، قارورة مقلوبة لدهان الشعر قد تركت بقعة كبيرة. كان فلورون يعاني في ذلك المخدع النسائيّ، وبالذات من السرير الحديديّ الضيّق وكرسيّي القشّ، وحتّى ورق الحائط بلونه الرماديّ الحائل كانت لا تزال تفوح منه سوى رائحة لسخفٍ ساذج، رائحة فتاة سمينة وطفولية. وكان سعيداً بتلك الطهرانية في الستائر، وتلك الطفولية في عُلب الورق المقوّى المذهّب و«مفتاح الأحلام» وبذلك التغنّج الأخرق الذي يبرقش الحوائط. كان ذلك ينعشه، ويعيده لأحلام الشباب. كان يودّ لو لم يعرف أوغستين، بشعرها الأجعد الكستنائيّ، لكي يعتقد أنّه كان في ضيافة شقيقة له، فتاة طيّبة تفعم كلّ شيء بأناقتها، أناقة امرأة شابّة.

كان عزاؤه في الليل هو أن يستند بكوعه إلى نافذة غُرَيفة العلّية. تلك

النافذة التي كانت تُفتح في سقف البيت كشرفة صغيرة بحاجزٍ عالٍ من الحديد، حيث كانت أوغستين تربّي شجيرة رمّان في صندوق. ومنذ صارت الليالي باردة أخذ فلورون يدخل الشجيرة إلى الغرفة لترقد بجوار سريره. يبقى هناك لدقائق يتنسّم عميقاً الرياح الباردة التي تهبّ من ناحية السين عابرةً من فوق بيوت شارع ريفولي. وفي الأسفل، في تشوّش، كانت أسقف سوق ليهال تعرض ألواحها الغبراءأشبه ما تكون ببحيرات نائمة تلتمع في وسطها الانعكاسات الشاردة لبعض النوافذ الزجاجية كبريق فضيّ لموجة. وفي البعيد، كانت أسقف أروقة الجزارة ورواق الدواجن تزداد إعتاماً، بتراكم للظلمات يجعل الأفق يوغل في الابتعاد. كان فلورون ينتشي من قطعة السماءً الكبيرة التي تبدو أمامه، من ذلك التمدّد الضخم لليهال الذي يمنحه تلك الرؤية الغامضة لشاطئ بحر في قلب شوارع باريس المختنقة بالمياه الميتة والرمادية لخليج يرتعش بوهنٍ من ارتجاعات الأمواج البعيدة. كان ينسى نفسه، ويحلم كلّ مساء بشاطئ جديد. وكان ذلك يجعله في قمّة الحزن والسعادة في الآن نفسه، بالعودة إلى تلك السنوات الثماني من اليأس التي قضّاها خارج فرنسا. وعندما تغلبه رعشة البرد، كان يغلق النافذة. وأحياناً، وبينما يخلع ياقته أمام المدفأة كانت صورتا أوغست وأوغستين تثيران فيه الهواجس؛ كانا يطالعانه بينما هو يخلع ملابسه، بأيديهما المتشابكة وابتسامتيهما الباهتتين.

كانت الأسابيع الأولى التي قضاها فلورون في رواق الأسماك مؤلمة للغاية. لقد واجه من آل ميهودان عدائيّة صريحة جعلته في حالة صراع مع السوق كلّها. كانت النورماندية الجميلة تنتقم من ليزا الجميلة، ووجدت في ابن عمّها ضحيةً سائغة.

كان آل ميهودان يتحدّرون من روان. وقد حكت أمّ لويز كيف أنّها

وصلت إلى باريس ومعها سلّة من الأنقليس. ولم تترك بعدها مهنة السماكة، واقترنت فيها بموظف في الجمارك مات عنها وقد ترك لها ابنتين صغيرتين. وكانت هي من استحقّت في السابق لقب النورماندية الجميلة لمؤخّرتها العريضة ونضارتها، وهو اللّقب الذي ورثته عنها فيما بعد ابنتها البكر. وهي الآن تقبع مترهّلة بأعوامها الخمسة والستّين، عجوز مهيبة وقد اخشوشن صوتها وازرّقت بشرتها من رطوبة سوق السمك. لقد كانت بدينة بباعثٍ من حياتها المستقرّة، بقامة فيّاضة، ورأس متراجع بسبب ضخامة صدرها والمدّ المتصاعد من الدهون. ولم تكن قطّ مستسلمة لصرعات العصر؛ واحتفظت بثوبها المشجّر والشال الأصفر، ومنديل رأس السمّاكات التقليديّ، وصوتها المرتفع وحركاتها العنيفة، وقبضتيها في جانبها، وكلّ شتائم قاموس السوقيّين تتدفّق من بين شفتيها. كانت تتحسّر على سوق لينوسان القديمة، وتتكلّم عن الحقوق المعقودة سابقاً لنساء ليهال، مختلطةً بقصص عن لكمات متبادلة مع مفتّشي الشرطة وحكايات عن زيارات إلى البلاط في عهد شارل العاشر ولوي فيليب، بثياب من الحرير وباقات كبيرة في اليد. لفترة طويلة كانت الأمّ ميهودان، كما كانوا يسمّونها، حاملةً للراية في أخويّة العذراء بسان لو. وأثناء المراسم، في الكنيسة، كانت ترتدي ثوباً وقلنسوة من الشفّ بشريط من الساتان، تمسك بأصابعها السمينة وترفع عالياً عصا الراية الحريرية ذات الأهداب الكثيفة والتي نُقشت عليها صورةٌ لأمّ يسوع.

ووفقاً لأقاويل أهل الحيّ، لا بدّ أن تكون مَدام ميهودان قد جمعت ثروةً طائلةً، لا تُظهرها إلّا في حليّ الذهب الضخمة التي ترصّع عنقها وذراعيها وجسدها في أيّام المناسبات. لاحقاً صارت ابنتاها على غير وفاق. كانت الصغيرة، كلير، وهي شقراء كسلى، تتشكّى من فظاظة لويز، وتقول بصوتها المتراخي إنّها لن تكون أبداً خادمةً لشقيقتها. ولمّا كادتا تتضاربان، فرّقت

بينهما الأمّ، وتخلّت للويز عن منصّة بيعها في سوق السمك. أمّا كلير، التي تُصيبها روائح سمك الراي والرنكة بالسعال، فقد استقرّت أمام منصّة لبيع أسماك المياه العذبة. وعلى الرغم من أن الأمّ أقسمت أنّها ستتقاعد، كانت تروح من منصّة بيع إلى أخرى، تقحم نفسها في المبيعات، مسبّبةً بوقاحتها الغليظة مضايقات مستمرّة لابنتيها.

كانت كلير كائناً غريب الأطوار شديد الرقّة وفي حالة شجار مستمرّ. لا تتصرّف إلّا وفقاً لهواها، كما يقال. كان لها، مع وجهها الحالم الذي لبتولٍ، عناد صلب، وشخصيّة مستقلّة تدفعها إلى العيش على انفراد، ولا تقبل بأيّ شيء كالأخريات، وتكون باستقامة مطلقة في يوم، وفي ظلم أهوج في اليوم التالي. ومن منصّة بيعها، كانت تقلب أحوال السوق برفعها أو تخفيضها للأسعار، دون مسوّغ معلوم. في ثلاثيناتها ستصيب حتماً الغلظة طبعها الرفيع، وبشرتَها الرقيقة التي ترطّبها مياه الأحواض باستمرار، ووجهَها الصغير مثل رسم باهت، وأطرافَها الغضّة، فتسقط في ترهّل قديسةٍ مرسومةٍ في الزجاج المعشّق وقد تمّ ابتذالها في السوق. ولكن في سنّ الثانية والعشرين، كانت لا تزال كإحدى لوحات موريّو وسط أسماك الشبوط والأنقليس حسب كلمات كلود لانتييه، لوحة لموريّو بشعر مشعّث أحياناً وحذاءين كبيرين، وبأثواب خاطتها بلا عناية ترتديها بإهمال. لم تكن أنيقةً؛ وكانت تُبدي احتقاراً كبيراً عندما تسخر لويز من منديلها المعقود مائلاً، فيما تستعرض هي عُقَد شرائطها. ويحكى أنّ ابن أحد أصحاب الحوانيت الأثرياء في الحيّ قد رحل غاضباً بعد أن فشل في الحصول على كلمة طيّبة منها.

أعربت لويز، النورماندية الجميلة، عن قدر من الرقّة أكبر. ولقد تعطّل زواجها من أحد موظّفي رواق القمح بعد أن تحطّم حقوا الفتى المسكين من جرّاء سقوط جوالق للطحين عليه. ومع ذلك وضعت بعد أقلّ من سبعة

شهور طفلاً سميناً. وفي محيط آل ميهودان يُنظر إلى النورماندية الجميلة كأرملة. واعتادت السمّاكة العجوز أن تقول: «عندما كان صهري حيّاً...»

كان لآل ميهودان سطوة في السوق، فعندما شرع السيّد فيرلاك في إطلاع فلورون على مهامّ عمله الجديد، أوصاه بأن يراعي جانب بعض التاجرات إذا كان لا يريد يعكر صفو حياته؛ وقد مضى في تعاطفه حتّى أطلعه على الأسرار الصغيرة للمهنة، مدى التسامح، والقسوة المصطنعة، والهدايا التي تُقبل. المفتّش هو في الآن نفسه رجل شرطة وقاضي صلْح، يسهر على حفظ الوضع في السوق، ويحلّ النزاعات بين البائعين والمشترين. وكان فلورون ذو الشخصية الضعيفة يتصلّب ويتجاوز الهدف في كلّ مرّة يستخدم فيها سلطاته. كان لديه فوق ذلك كلّ مرارات عذاباته الطويلة، ووجهه المعتم الذي لشخص منبوذ.

كانت خطّة النورماندية الجميلة هي توريطه في بعض الشجارات. فقد أقسمت أنّها لن تبقيه في منصبه أسبوعين كاملين.

- حسناً، قالت للسيّدة لوكور التي قابلتها ذات صباح، هل تظنّ ليزا السمينة أنّنا سنقبل بفضلاتها؟ نحن، خلافاً لها، لدينا ذوق حسن. إنّه بشعٌ، رجلها ذاك!

بعد المزادات، وإذ يبدأ فلورون جولته التفتيشية بخطوات بطيئة في الممرّات التي تتدفّق فيها المياه، كان يرى بوضوح النورماندية الجميلة وهي تتابعه بضحكةٍ وقحة. كانت منصّتها في الصفّ الثاني إلى اليسار بالقرب من منصّات بيع أسماك المياه العذبة، في مواجهة شارع رامبوتو. تلتفت ولا تفارق عيناها ضحيّتها، منهمكةً في السخرية مع جاراتها. ثمّ، وعندما يمرّ أمامها، مختبراً الأرض ببطء. تمرّ بحالة ابتهاج قصوى، تلطم الأسماك، وتفتح

صنبورها على آخره مغرقةً الممرّ. فيظلّ فلورون محافظاً على رباطة جأشه.

ولكنْ ذات صباح، اندلعت الحرب ضاريةً ضروساً. في ذلك اليوم، عندما وصل فلورون أمام منصّة النورماندية الجميلة، شمّ رائحة نتن لا تحتمل. كان هناك على الرخام سمكة سلمون رائعة مقطوعة تُبدي لحمها الأصهب الورديّ؛ وأسماك ترس في بياض القشدة؛ وثعابين بحر مطعونة بدبّوس أسود يُستخدم عادةً لتمييز الشرائح؛ وأزواج من سمك موسى؛ وطرستوج، وقاروس، كلّها معروضة طازجةً. وفي وسط هذه الأسماك كانت تُعرض سمكة راي كبيرة ذات لون أصهب مبرقش ببُقَع سمراء رائعة بدرجات غريبة لا تزال خياشيمها تنزف. كانت سمكة الراي الكبيرة فاسدة، ذيلها ساقط وزعانفها تخترق جلدها القاسي.

- يجب التخلّص من سمكةٌ الراي هذه، قال فلورون وهو يقترب.

ضحكت النورماندية الجميلة ضحكة قصيرة، ورفعت عينيها، فرأته يقف مستنداً إلى عمود البرونز الذي يحمل مصباحي الغاز اللذين ينيران الجوانب الأربع لكلّ منصة. بدت له طويلةً جدّاً إذ كانت تقف على صندوق يحمي قدميها من رطوبة الأرضية. كانت تعضّ على شفتها فتبدو أكثر جمالاً من المعتاد، بشعرها المصفّف بالبكرات، ووجهها الماكر المنخفض قليلاً، ويديها الورديّتين على بياض صدريّتها الناصع. لم يرَ عليها يوماً كلّ هذا العدد من الحليّ: كانت ترتدي قرطين طويلين في أذنيها، وسلسالاً في رقبتها، ودبّوساً، وصفوفاً من الخواتم في إصبعين من يدها اليسرى وإصبع واحدة من يدها اليمنى.

وإذْ واصلت النظر إليه من عليائها، استأنف كلامه:

- هل تسمعين؟ تخلّصي من سمكة الراي تلك.

لكنّه لم يكن قد لاحظ مَدام ميهودان الأمّ، جالسة على كرسيّ، متكوّمة في أحد الأركان. لقد قامت، ومنديلها يشكلّ قرنين على رأسها، واتّكأت بقبضتيها على رخام المنصة وقالت بوقاحة:

- عجباً! ولِمَ تتخلّص من سمكة الراي!... لعلّك أنت من سيدفع ثمنها!

فهم فلورون الأمر، كانت البائعات الأخريات يضحكن هازئات. فاستشعر حوله ثورةً تنتظر كلمة كي تندلع. فتمالك أعصابه، وسحب بنفسه دلو الفضلات من تحت الطاولة وألقى بسمكة الراي فيه. كان مَدام ميهودان الأمّ تضع يديها في وسطها، فيما أطلقت النورماندية الجميلة، التي لم تكن نبست ببنت شفة، من جديدٍ ضحكةً خبيثةً، ومضى فلورون وسط عاصفة من الاستهزاء بهيئته الصارمة، متظاهراً بعدم الإنصات لما يتفوّهن به.

في كلّ يوم، كان هناك اختراع جديد. لم يعد فلورون يجتاز الممرّات إلّا بعينين ملؤهما الاحتراس، كما لو كان في أرضٍ أعداء. كان يمسك بشظايا الإسفنج، ويكاد يتعثّر في فضلات تعترض خطواته، ويتلقّى ققف الحمالين في قفاه. وفي أحد الأيّام كانت بائعتان تتشاجران فهرع ليحول دون نشوب معركة فكان عليه أن ينحني ليتحاشى أن يلطمه على خدّيه سيل من أسماك الليمندة الصغيرة التي تطايرت فوق رأسه. ضحكت السمّاكات كثيراً، ولم يشكّ في أنّ البائعتين كانتا من المتواطئات مع آل ميهودان. كان شقاؤه في مهنته القديمة كمعلّم قد أكسبه صبراً ملائكيّاً، فهو يستطيع الاحتفاظ ببرود تامّ حتّى عندما يتصاعد غضبه وينزف كلّ وجوده من الإهانة، ولكنّ تلامذة شارع الإستراباد لم يكونوا أبداً بوحشية نساء ليهال، تلك الضراوة التي تسِم أولئك النساء السمينات، اللائي تتقافز كروشهنّ وأثدائهنّ من الفرح الصاخب، عندمه يوقعنه في إحدى فخاخهنّ. الوجوه الصهباء تحدّق فيه. في التلوّن الغوغائيّ للأصوات، وفي المؤخّرات المرتفعة، والرقاب المنتفخة،

وتراقصات الأرداف وتطايرات الأيدي كان يتوقع أنّه يواجه طوفاناً من القمامة. لو كان غافار وسط أولئك النسوة الصفيقات ذوات الروائح القوية، لأغشي عليه من السعادة، وقد يضربهنّ على أردافهنّ ذات اليمين وذات اليسار لو تحلّقن حوله عن قرب. أمّا فلورون، وقد كان يَرهب النساء دوماً، فكان يشعر تدريجياً بأنّه ضائع في قلب كابوس من الفتيات ذوات الفتنة الخلابة، اللائي يحطن به في حلقة مخيفة بزئيرهنّ وأذرعهنّ السمينة العارية كأذرع المصارِعات.

ومن بين أولئك النساء الوضيعات، كانت له مع ذلك صديقة. فقد أعلنت كلير بوضوح أنّ المفتش الجديد رجل طيّب. وكانت تبتسم له إذ يمرّ وسط الكلمات البذيئة لجاراتها. كانت هناك بخصلات شعرها الأشقر على فوديها ورقبتها وبثوبها المشبوك من جانب، مسترخية خلف منصّتها. في أغلب الأحيان يراها واقفة ويديها مغمورتان في الأحواض تبدل الأسماك وتتلهّى بالصنبورين النحاسيّين اللذين لهما هيئة درفيلين يطلقان من فمهما خيطين من الماء. كان ذلك التدفّق يعطيها بهاءً مرتعشاً لمستحمّة على حافة نبع لا تزال ملابسها غير محكمة الشدّ على جسدها.

وذات صباح، كانت لطيفةً للغاية، ودعت المفتّش كي تريه سمكة أنقليس كبيرة أثارت دهشة السوق أثناء المزاد. ورفعت الشبكة المعدنية التي كانت قد غطّت بها بحذرٍ الحوض الذي يرقد فيه الأنقليس. وقالت له:

- انتظر. سترى.

وأدخلت ذراعها في الماء، ذراعاً عارية ونحيفة بعض الشيء تُبرز بشرتها الحريرية زرقة عُروقها الرقيقة. وعندما أحسّ الأنقليس بلمستها التفّ حول نفسه وانعقد سريعاً مالئاً الحوض الضيق بحلقاته ذات اللون الأخضر

المتموّج. وما إن هدأ حتّى استلذّت كلير بإهاجته من جديد بأطراف أصابعها.

- إنّه شديد الضخامة، فكّر فلورون أنّ عليه أن يقول ذلك، نادراً ما رأيت في مثل جماله.

اعترفت له أنّها كانت تخشى أسماك الأنقليس في البداية، لكنّها الآن تعرف كيف تقبض عليه بيديها كي لا ينزلق منها. وفوق ذلك أمسكت بواحدة منها، أصغر قليلاً، فالتوى الأنقليس حول طرفي قبضتها، فجعلها ذلك تضحك. ألقت به، وأمسكت بآخر، وأخذت تقلّب تلك الكومة من ثعابين الماء في الحوض بأصابعها الرقيقة.

ثمّ مكثت للحظة تثرثر حول حركة المبيعات المتعثّرة، فالباعة في الخارج على أرصفة الشوارع المسقوفة يسببون لها ضرراً كبيراً. كانت ذراعها العارية التي لم تنشّفها تقْطر الماء بارداً في قطرات كبيرة تتساقط من كلّ إصبع من أصابعها.

- آه، قالت بغتة، يجب أن أُريك أسماك الشبّوط أيضاً.

ورفعت شبكة ثالثة، وبيديها الاثنتين أمسكت سمكة شبّوط كانت تضرب بذيلها احتجاجاً، فبحثت عن أخرى أصغر حجماً، أمسكتها بيد واحدة، كانت خياشيمها تنفتح مع كلّ ارتعاشة منها. فكّرت أن تدخل إصبعها في فم السمكة إذ تتثاءب محتضرةً.

- إنّها لا تعضّ، همست بضحكتها الرقيقة، ليست شرّيرة. إنّها كالأربيان، أنا لا أخشاها.

ثمّ غمرت ذراعها مرّةً أخرى، وأحضرت من صندوق مزدحم سلطعوناً التقط إصبعها الصغيرة بين ملاقطه. هزّته قليلاً؛ لكنّ السلطعون فيما يبدو

قرَصَها بقوّة أكبر إذ أنّها قد احمرّت سحنتها، وكسرت أحد أطرافه بحركة غاضبة، دون أن تفقد ابتسامتها.

- أنا لا أثق أبداً في سمك الزنجور مثلاً، قالت كي تخفي انفعالها، فهو قد يقطع إصبعي كسكّين.

ثمّ أرته عدداً من أسماك الزنجور الكبيرة معروضةً وفقاً لأحجامها المختلفة على لوح مبتلّ ذي نظافة فائقة، بجوار أسماك الكُمْه البرونزية وأكوام صغيرة من سمك الغجوم. كانت يداها قد التاثتا تماماً بدبق الأسماك، فوقفت مباعدةً بينهما في رطوبة الأحواض، وفوق الأسماك المعروضة. كانت تلفّها رائحة وكأنها رائحة بيض السمك، أو إحدى تلك الروائح السميكة التي تتصاعد من نبات الأسل والنيلوفر الزلق، عندما ينفجر البيض من بطون الأسماك الثملة بالحُبّ في الشمس. مسحت يديها بصدريتها، محتفظة دائماً بابتسامتها وسمتها الهادئ الذي لفتاة عانس ذات طبيعة باردة في تلك الرعدات الشهوانية الباهتة وسطَ أسماك الأنهار.

ذلك التعاطف من قبل كلير كان بمثابة عزاء رقيق لفلورون. كانت ينسى تلك الدعابات القذرة عندما يتوقّف ليتبادل الحديث مع الفتاة الشابّة. كانت كلير تهزّ كتفيها، وتقول له إنّ أمّها ليست سوى ماجنة عجوز، وإنّ شقيقتها لا تسوي شيئاً. كان الظلم الذي تواجهه به السوق يفعمها غضباً. واستمرّت الحرب في تلك الأثناء، لا بل كانت تزداد استعاراً يوماً بعد يوم. وفكّر فلورون في مغادرة المنصب. ما كان ليبقى فيه أربعاً وعشرين ساعة لو لم يخشَ أن يبدو جباناً في نظر ليزا. كان يتوجّس ممّا قد تقوله أو تفكّر فيه. كانت بلا شكّ على علم بالحرب التي تخوضها السمّاكات ضدّ مفتشهنّ والتي يصم عجيجها الأسماع في السوق كلّها، ويطلق أهل الحيّ أحكامهم على كلّ معركة جديدة فيها بتعليقات لا تنتهي.

- حسناً، كانت تقول ليزا أحياناً في المساء بعد العشاء، أنا من ستتولّى ردّهنّ إلى صوابهنّ! هنّ نسوة لا يرغب المرء حتّى في الاقتراب منهنّ، سوقيّات، عواهر! تلك النورماندية من أسافل الناس... اسمع، أنا من سيوقفها عند حدّها! ليس هناك سوى السّلطة. اسمعني يا فلورون، أنت مخطئ في أفكارك، استعمل سلطتك مرّةً، وسترى كيف سيعود الجميع إلى جادّة الصواب.

كانت الأزمة الأخيرة رهيبةً. ذات صباح، كانت خادمة السيّدة تابورو صاحبة المخبز تبحث في السوق عن سمكة من صنف أبي لحية. وإذ رأتها النورماندية الجميلة تدور حولها منذ دقائق توجّهت إليها بالكلام ملاطفةً:

- تعالي إليّ، سأساعدك، هل تريدين زوجاً من سمك موسى، أو سمكة ترس جميلة؟

ولمّا اقتربت الأخرى في النهاية، وهي تتشمّم سمكة أبي لحية بسمتِ التذمّر الرخو الذي يتّخذه الزبائن كي يساوموا في الأسعار:

- زني هذه، قالت النورماندية الجميلة، ووضعت في يد الفتاة المفتوحة السمكة ملفوفةً في ورقة صفراء كبيرة.

كانت الخادمة فتاة صغيرة من مقاطعة أوفرنيا تبدو عليلةً للغاية. وزنت السمكة بيدها، وفحصت خيشومها بنفس التقطيبة، ودون أن تقول شيئاً. ثمّ، وكأنّها على مضض، قالت:

- بكم؟

- خمسة عشر فرنكاً، قالت السمّاكة.

أعادت الفتاة السمكة بسرعة إلى طاولة الرخام. وبدا أنهّا تتملص. ولكنّ

النورماندية الجميلة استوقفتها:

- حسناً، اقترحي الثمن أنت.

- لا، لا إنها غالية جدّاً.

- هيّا، اقترحي.

- ليكن ثمانية فرنكات إذا أردتِ.

بدا وكأنّ مَدام ميوهدان الأمّ قد استفاقت، فضحكت ضحكةً مثيرة للهواجس. هل يعتقد الآخرون أنّها وابنتها تسرقان البضاعة؟

- ثمانية فرنكات لسمكة أبي لحية بهذا الحجم! سنعطيك إيّاها يا صغيرتي كي تظلّ بشرتك نضرة في الليل.

وأشاحت النورماندية الجميلة بوجهها مغتاظةً، ولكنّ الخادمة عادت مرّتين، وعرضت تسعة فرنكات ثمّ رفعتها إلى عشرة، وإذ همّت بالمغادرة نهائياً:

- هيّا، أعطيني النقود، صاحت بها السمّاكة.

ووقفت الخادمة أمام طاولة البيع، تتحادث بودّ مع مَدام ميهودان الأمّ. السيّدة تابورو شديدة التطلّب! ولديها مدعوّون للعشاء تلك الليلة، أقارب من بلوا، كاتب عدل وزوجه. إنّ عائلة السيّدة تابورو هي كأفضل ما يكون. وهي نفسها، على الرغم من كونها خبّازة، تلقّت تعليماً جيّداً للغاية.

- نظفيها لي جيّداً، قالت وهي تقطع كلامها.

نظّفت النورماندية الجميلة السمكة بضربة من أصابعها، وألقت بالأحشاء في الدلو، وادخلت طرف صدريّتها تحت الخيشوم، تمسح بعض

حبّات الرمل العالقة، ثمّ وضعت بنفسها السمكة في سلّة فتاة أوفرنيا.

- ها هي، يا حلوتي، ستشكرونني عليها.

لكن في غضون ربع ساعة، عادت الخادمة مسرعةً، متضرّجاً وجهها بالدماء؛ تبدو عليها آثار البكاء، وكيانها الغضّ يرتجف من الغضب. وألقت بسمكة أبي لحية على رخام الطاولة وقد بدا في بطنها شقّ يبرز لحمها حتّى الحسك. وخرج دفق من الكلمات المتقطّعة من حلقها المختنق بَعدُ بالبكاء.

السيّدة تابورو لا تريدها. قالت إنّها لا تستطيع أن تقدّمها على المائدة. وقالت أيضاً إنّي حمقاء لأنّني أترك الجميع يسرقونني... تريان بوضوح أنّها تالفة. أنا لم أعِدها لأنّني كنت أثق بكما... أعيدا لي الفرنكات العشرة.

- البضاعة تُفحَص قبل شرائها، أجابت النورماندية الجميلة بهدوء.

ولما هزّت الأخرى كتفيها، قامت مَدام ميهودان.

- ستدَعيننا أخيراً بسلام، أليس كذلك؟ نحن لا نستردّ سمكة ظلّت عند الناس زمناً. وهل نعرف أين سقطت منك لتصبح في هذه الحالة؟

- أنا! أنا!

واختنق صوتها، ثمّ انفجرت في النحيب.

- أنتما لصّتان، نعمْ لصّتان، وقد قالت لي السيّدة تابورو ذلك.

وكان ذلك مشهداً عجيباً. فقد نفّست الأمّ وابنتها عن غضبهما، بقبضتيهما مشرعتين، فيما وقفت الخادمة الصغيرة مشدوهةً بين الصوت الأجشّ والصوت الحادّ اللذين يتقاذفانها مثل كرة فيزداد انتحابها.

- هيّا، اذهبي، إنّ سيّدتك تابورو أقلّ طزاجة من هذه السمكة، التي

صار ينبغي رتْقها قبل تقديمها.

- سمكة كاملة بعشرة فرنكات! حسناً... هي صفقة خاسرة.

- والقرطان في أذنيك... كم تسويان؟... أراك تكسبين جيّداً.

- طبعاَ! إنّها تعْرض نفسها بعض الوقت في زاوية شارع مونديتور.

وصل فلورون، بعد أن استدعاه حارس السوق، في ذروة المشاجرة. كان الرواق كلّه في حالة من الهرج والمرج. البائعات اللائي يتصارعن فيما بينهن حول بيعة رنكة بمليمين، يتكاتفن بقوّة في وجوه الزبائن. «الخبّازة تحوز ثروة لا تستحقّها». كنّ يخبطن بأقدامهن، ويهيّجن السيّدة وابنتها، كوحوش تُدفَع للهجوم دفعاً، وقد خرج بعضهنّ من خلف طاولاتهنّ في الطرف الآخر من الصفّ كما لو ليقفزن على الخادمة الصغيرة التي كانت قد ضاعت تماماً غارقةً وسط هذا الموج العاتي من البذاءة.

- أعيدي الفرنكات العشرة للآنسة، قال فلورون بعد أن اطلّع على المسألة.

فانبرت مَدام ميهودان الأمّ:

- أنتَ يا صغيري... سترى كيف سأعيد لها الفرنكات العشرة!

وقذفت سمكة أبي لحية بكلّ قوّتها في اتّجاه الخادمة فلطمت وجهها بعنف، ونزف الدم من أنفها وسقطت السمكة على الأرض بضجيج خرقة مبلّلة. تلك العدوانية أخرجت فلورون عن طوره. فخافت النورماندية الجميلة وتراجعت، بينما هو يصرخ:

- سأوقفكما عن العمل لثمانية أيّام، سأسحب ترخيصكما، هل تسمعان!

ولما أطلقت السمّاكات في أعقابه صيحات الاستهجان، عاد بهيئة غاضبة،

فارتدعت السمّاكتان، وتظاهرتا بالبراءة. ولما أعادتا الفرنكات العشرة، أجبرهما على التوقّف عن البيع فوراً. كظمت العجوز غضبها، وظلّت ابنتها صامتةً. أتُطرَد النورماندية الجميلة من منصّتها! قالت كلير بصوتها الهادئ إنّه أحسن صنعاً، فكادت الشقيقتان أن تتشاجرا من شعورهما في المساء في بيتهما في شارع بيرويت. وبعد ثمانية أيّام، عندما عادت السيّدة ميهودان الأمّ وابنتها النورمانديّة الجميلة بقيتا متعقّلتين، مزْورّتين ومقتصدتين في الكلام ومشحونتين بغضب مكتوم. وقد وجدتا الرواق وقد عاد إليه هدوؤه وانتظامه. ومنذ ذلك اليوم راحت النورماندية الحسناء تُغذّي شعوراً عنيفاً بالرغبة في الانتقام. كانت تشعر بأنّ الضربة جاءتها من ليزا الجميلة. وكانت قد قابلتها في الصبيحة التالية للمعركة، ورأتها ترفع رأسها بفخار، فأقسمت أن تجعلها تدفع غالياً ثمن نظرة الانتصار تلك. وعقدت في أرجاء ليهال مشاورات جانبية مع الآنسة ساجيه والسيّدة لوكور ولاسارييت. ولكنّها تعبت من القصص الملفّقة عن فجور ليزا مع ابن عمّها، وعن الشعرات التي يجدها المشترون في سجق آل كونو، فتلك الحكايات كانت قد بلغت حدّاً لا يمكن تجاوزه وما كانت تشفي غليلها. كانت تبحث عن شيء أكثر شرّاً، شيء يصيب غريمتها في صميم القلب.

كان ابنها يكبر في سوق السمك طليقاً. من عمر ثلاث سنوات وهو يبقى جالساً على قطعة قماش في قلب رواق الأسماك. ينام بتآخٍ بجوار التونة الضخمة، ويستيقظ وسط أسماك الغُبَر والترس. كان لهذا العفريت الصغير رائحة تدفعك للتفكير أنّه قد خرج من بطن سمكة ضخمة. كانت لعبته المفضّلة، إذ تسهو عنه أمّه، هي أن يبني من سمك الرنكة بيوتاً وجدراناً؛ كان يلعب أيضاً لعبة الحرب على الطاولة الرخامية، فيصفّ صفّين من أسماك الطرّيخ ذات الأشواك، واحدة في مواجهة الأخرى، ويدفعها، ويصدم

رؤوسها بعضها ببعض فيما هو يحاكي أصوات جوقة موسيقية بشفتيه، وفي النهاية يضعها في أكوام ويدّعي أنّها قُتلت. في وقت لاحق صار يذهب ليحوم حول خالته كلير ليأخذ مثانات الشبوط والزنجور التي تفرغها مع الأحشاء؛ ويضعها على الأرض، ويفرقعها؛ وكان ذلك يثير حماسه. في عمر السابعة كان يجري في الممرّات، وينزلق تحت المنصّات الرخامية، بين الصناديق الخشبية المزينة بالزنك، وصار طفل السمّاكات المدلل. وعندما كنّ يرينه شيئاً جديداً يدهشه، كان يضمّ يديه ويغمغم من الإثارة: «أوه! يا لهذا الشيء، موش!»[1] فالتصقت به تسمية «موش». موش هنا، وموش هناك. أخذ الجميع يدعونه كذلك. كان حاضراً في كلّ مكان، في داخل مكاتب المزاد، وفي أكوام السلال، وبين دلاء الفضلات. كان كسمكة فرخ بنّي شابة، ببياضه الورديّ، مختلجاً، يقطر، متروكاً في قلب البلل. كان له احتمال سمكة صغيرة للماء الدافق. يتسكّع في مجاري الممرّات، يتلقّى القطرات من الطاولات، يفتح بغتةً أحد الصنابير فرحاً بالرشاش والدفق. وفي الغالب، كانت أمّه تجده في المساء عند النافورة بجوار سلالم الأقبية، غارقاً في الماء، ويداه مزرقّتان من البلل والماء يملأ حذائيه وحتّى جيوبه.

في سنّ السابعة كان موش رجلاً صغيراً، جميلاً كملاك وبذيئاً مثلَ طُرُقيّ. كان شعره كستنائياً أجعد، وعيناه جميلتين حنونين، بفم رقيق يُخرج ألفاظاً نابية تأنف من لفظها حتّى حنجرة شرطيّ. ولأنّه نشأ بين فضلات السوق، فقد تهجّى قاموس البذاءة من ألفه إلى يائه، يضع قبضتيه على وسطه مقلّداً جدّته مَدام ميهودان عندما تغضب، وتسيل من حنجرته التي لطفلٍ في جوقة الإنشاد ألفاظ كـ «القحبة» و«القوّادة» و«اذهبي وامسحي مخاطَ رجُلك» و«كم يدفعون لك؟». كان يهوى النطق بصوت حلقيّ، يتكلّم كالأوباش

---

(1) تمنح قواميس الفرنسيّة العاميّة للمفردة muche معنى «ممتاز!».

على الرغم من مظهر الطفل الباسم الذي قد يقعي في حجر عذراء. كانت السمّاكات يضحكن حتّى تطفر الدموع من أعينهنّ. وهو، متشجّعاً، لا ينطق كلمتين دون أن يتلوهما بعبارة: «بحقّ الرب!». لكنّه ظلّ مُحبّباً، غافلاً عن هذه القاذورات، محتفظاً بصحّته بفضل النسيم العليل والروائح القوية لرواق الأسماك، يتلو كتاب شتائمه الغليظة بهيئة مسحورة، وكأنّه يتلو صلواته.

كان الشتاء قد جاء؛ وقد تأثّر موش سريعاً بالبرد هذا العام. ومنذ بشائر الصقيع، قاده فضول غريب نحو مكتب المفتّش. كان مكتب فلورون يقع في الركن الأيسر من الرواق، من جهة شارع رامبوتو. وكان مؤثّثاً بطاولة وخزانة ومقعد كبير وكرسيّين ومدفأة. كانت المدفأة هي ما يحلم به موش. وكان فلورون يعشق الأطفال. وعندما رأى ذلك الصغير وساقيه ترتعشان يتطلّع إليه عبر زجاج النافذة، أدخله على الفور. وأدهشته كلمات موش الأولى بعمق. كان جالساً أمام المدفأة، يقول بصوته الهادئ:

- سأشوي لي إحدى قطع لعبة الأوتاد، هل تفهم ذلك؟... إنّه برد ملعون صاعق.

ثمّ يضحك ضحكات تُظهر أسنانه اللؤلؤية ويضيف:

- إنّ خالتي كلير تبدو كحصان متهالك هذا الصباح... قل لي يا سيّدي، هل صحيح أنّك تذهب لتدفّئ لها قدميها في المساء؟

فلورون، مصعوقاً، أخذه اهتمام كبير بهذا الطفل. وظلّت النورماندية الجميلة ممتثلة، تترك ابنها يذهب عنده دون أن تقول أيّ شيء. فاعتقد أنّ من المسموح له استقباله. وكان يجتذبه في العصر، مدفوعاً بفكرة أن يجعل منه ولداً صالحاً عاقلاً، وكان يبدو له وكأنّه أخوه كونو وقد صغرَ، وأنّهما هو وشقيقه لا يزالان معاً في غرفة شارع روايبه كولار الكبيرة. كانت فرحته

وحلمه الدفين بالتفاني هو أن يعيش في صحبة شخص أصغر منه، لا يكبر أبداً، وهو يتولّى تربيته دون توقّف، بالبراءة ذاتها التي يحبّ بها الناس. ومن اليوم الثالث جاء له بلوح عليه حروف الهجاء. وأدهشه موش بذكائه. وتعلّم تلك الأحرف بالنبرة الحماسية الباريسية لطفل شوارع. وكانت صور حروف الهجاء تمتّعه كثيراً. كان يقضي وقتاً طيّباً في المكتب الضيّق، وظلّت المدفأة هي صديقه الأقرب، وموضوعاً لبهجة لا تنفد. وقد شوى عليها، في البداية، حبّات من البطاطا والكستناء؛ ولكنّ ذلك بدا له مملّاً. فسرق بعض أسماك الغجوم من خالته كلير، وصار يشويها واحدةً فواحدة وفمه يتلمّظ من الجوع، ثمّ يأكلها بلذّة دون خبز. حتّى أنه أحضر ذات يوم سمكة شبّوط، لم ترد أن تنضج أبداً، وقد عبّأت المكتب كلّه برائحتها، حتّى توجّب فتح النوافذ والأبواب كلّها. وعندما كانت رائحة الطهو تصير قويّةً للغاية، كان فلورون يلقي بالسمكات في الشارع. وفي أغلب الأحيان يضحك. وفي خلال شهرين، أخذ موش يقرأ بطلاقة، وكانت دفاتر درسه نظيفة جدّاً.

وفي تلك الأثناء، كان الصبيُّ يصدّع رأس أمّه في الأماسي بقصصه عن صديقه الطيّب فلورون. الصديق الطيّب فلورون رسم أشجاراً ورجالاً داخل أكواخ. للصديق الطيّب فلورون إيماءة كهذه عندما يقول إنّ الناس يصيرون أفضل عندما يستطيعون القراءة. كانت النورماندية الجميلة تعيش رغماً عنها في حميميّة الرجل الذي تحلم بأن تخنقه. وقد حبست موش، ذات يوم، في المنزل كي لا يذهب إلى المفتّش؛ لكنّه أخذ يبكي بغزارة، حتّى أنّها أطلقت سراحه في الصباح التالي. كانت رهيفة جدّاً على الرغم من بنيتها القويّة وهيئتها المقدامة. وبما أنّ الطفل كان يقول لها إنّه ينعم هناك بالدفء، ويعود لها بملابسه جافّة، فقد شعرت بامتنان طفيف، ورضا من كونه في مكان دافئ آمن. وفي وقت لاحق رقّ قلبها إذ سمعت الطفل يقرأ أمامها

قُصاصة جريدة ملطّخة كانت تغلّف شريحةً من ثعبان البحر. وشيئاً فشيئاً توصلّت إلى التفكير في أنّ فلورون ربّما لم يكن شخصاً شرّيراً، وذلك دون تصريح من جانبها؛ وحاز تعليمه احترامها، مختلطاً برغبة متنامية في أن تعرفه عن قرب، وأن تنفذ إلى حياته. ثمّ فجأة، وجدت حجّةً. كانت مقتنعة أنّها لاتزال متمسّكة بالانتقام، ولذا ينبغي أن تكون لطيفةً مع ابن العمّ، والإيقاع بينه وبين ليزا السمينة؛ سيكون ذلك أكثر طرافةً.

- هل كلّمكَ صديقك الطيّب عنّي، سألت موش ذات صباح بينما هي تُلبسه ملابسه.

- لا، أجاب الطفل، نحن نقضي وقتاً طيّباً.

- قلّ له إني لم أعد غاضبةً منه، وإنّي أشكره لأنه علّمك القراءة.

ومنذ ذلك الحين صار للصبيّ مهمّة يومية، وهي أن يحمل رسائل أمّه للمفتّش، ورسائل المفتّش إلى أمّه، مشحونةً بكلمات التودّد، وطلبات وأجوبة يحملها دون أن يفهمها؛ كان يمكن جعله يكرّر أفظع الأشياء. ولكنّ النورماندية الحسناء خافت أن تبدو خجلى، فجاءت ذات يوم بنفسها، وجلست على الكرسيّ الثاني، بينما يتلقّى موش درس القراءة. كانت لطيفة للغاية ومجامِلةً. وكان فلورون أكثر تحرّجاً منها. لم يتكلّما سوى عن الطفل. ولّما كان يخشى ألا يستطيع إكمال تعليم الصبيّ في مكتبه، فقد عرضت عليه أن يذهب إلى بيتها، مساءً. ثمّ تكلّمت عن نقود. فاحمرّ خجلاً، وقال إنّه لن يذهب إلى بيتها لو كان الأمر كذلك. فوعدته بأن تهديه لمكافأته أسماكاً طيّبة.

وعمّ السلام. حتّى أنّ النورماندية الجميلة قد أخذت فلورون تحت حمايتها. وأصبح المفتّش الجديد مقبولاً؛ ووجدت السمّاكات فيه رجلاً أفضل من السيّد فيرلاك على الرغم من نظراته المخيفة. وحدها مَدام ميهودان الأمّ

كانت تهزّ كتفيها، واحتفظت بضغينتها تجاه «النحيف الطويل» كما كانت تسمّيه باحتقار. وذات صباح، توقّف فلورون بابتسامة أمام أحواض كلير، فتركت الفتاة الشابّة سمكة أنقليس كانت تحملها في يدها وأدارت ظهرها للرجل، منتفخة أوداجها ومصطبغاً وجهها بالأرجوانيّ غضباً. وفوجئ هو بذلك، حتّى أنّه أخبر النورماندية.

- دعك منها! قالت النورماندية الجميلة، إنّها خرقاء... لا توافق أبداً الآخرين رأيهم. لقد فعلتُ ذلك لتغضبني.

كانت تشعر بزهو الانتصار، تتربّع على عرشها خلف منصّة البيع متأنقةً أكثر من ذي قبل بتصفيفات شعر معقّدة للغاية، وإذا قابلت ليزا الجميلة بادلتها نظرات الازدراء، لا بل حتّى تطلق ضحكةً ملء شدقيها. ثقتها من أنّها ستُحبط الجزّارة باجتذابها لابن العمّ أكسبتها ضحكة رنّانة جميلة، ضحكة من الحلق يختلج لها عنقها الأبيض الممتلئ. وفي ذلك الوقت خطر لها أن تُلبس موش ملابس أنيقة، مع سترة إسكتلندية جميلة وقلنسوة من المخمل، وكان موش قبلها يحوم بقميص مهترئ. ووقتها، حدث أن أصاب الصبيَّ ولع كبير بالنوافير. كان الثلج قد ذاب، والطقس صار دافئاً. فحمّم موش سترته الإسكتلندية، تاركاً ماء الصنبور المفتوح لآخره يسيل من كوعها حتّى كمّها، وهو ما كان يسمّيه لعبة الميزاب. وداهمته أمّه بصحبة صبيّين آخرين، يشاهدون سمكتين بيضاوين سرقهما من خالته كلير، تسبحان داخل قبّعته المخملية وقد ملأها بالماء.

عاش فلورون ما يقرب من ثمانية أشهر في ليهال مأخوذاً برغبة متواصلة في النعاس. بعد سنواته السبع من العذاب دخل في هدوء جمّ، وفي حياة شديدة الانتظام، لدرجة أنّه صار لا يكاد يشعر بوجوده. كان يترك نفسه، برأس خاوٍ قليلاً، ومفاجأ باستمرار لوجوده كلّ يوم على نفس المقعد في

المكتب الضيّق. كانت تلك الغرفة تروقه، بعُريها، وصغر حجمها. كان يلجأ إليها، بعيداً عن العالم الصاخب لليهال الذي يذكّره ببحر كبير يحيطه من كلّ الجوانب. ولكن شيئاً فشيئاً تسرّب إليه قلق ممض؛ كان غير راضٍ، ويلوم نفسه على خطأ لا يستطيع تحديده، وينتفض ضدّ هذا الخواء الذي يشعر به يحفر تدريجياً في رأسه وصدره. وكانت تمرّ به ريح منتنة وزفرات هواء مشبع برائحة أسماك فاسدة تصيبه بالغثيان. كان ذلك اضطراباً بطيئاً، وملل خافت قد تحوّل إلى هياج عصبيّ عنيف.

كانت كلّ النهارات تتشابه. يسير مخترقاً نفس الضوضاء، ونفس الروائح. في الصباح كان عجيج المزادات يصمّ أذنيه برنين نواقيس بعيدة، وأحياناً، بسبب بطء وصول الشحنات، كان المزاد لا ينتهي إلّا متأخّراً جدّاً. حينها، كان يبقى في الرواق حتّى الظهيرة، معرَّضاً في كلّ لحظة لإزعاج النزاعات والمشاجرات التي كان مضطراً إلى أن يبدو في وسطها مُنضبطاً للغاية. وكانت تلزمه ساعات كي يخرج من تلك القصص البائسة التي تثير القلاقل في السوق. كان يتمشّى في قلب ضجيج حركة البيع قاطعاً الممرّات بخطى بطيئة متوقّفاً أحياناً أمام السمّاكات اللاتي تحاذي منصّاتهن شارع رامبوتو. لديهنّ أكوام وردية من الأربيان، وسلال حمراء من الكركندات المطهوّة، مصفوفة، تشكّل ذيولها دائرةً، بينما الكركند الحيّ يحتضر مفروشاً على الرخام. وهو يشاهد سادة يتسوّقون بقبّعاتهم وقفازاتهم السوداء، يشترون الكركند المطهوّ ملفوفاً بورقة جريدة ويضعونه في جيب إحدى سترات الريدنغوت. وأبعد قليلاً، أمام الطاولات المتنقّلة حيث يباع السمك الشائع، يتعرّف على نساء الحيّ يجئن دائماً في نفس الساعة برؤوسهنّ العارية. في بعض المرّات، كانت تثير انتباهه سيّدة متأنقة، تجرجر ذيل فستانها ذي التخاريم على طول البلاطات المبللة، متبوعة بخادمة في صدريّة بيضاء. كان يتبعهن من مسافة ويرى

الأكتاف وهي تهتز خلف الهيئات المشمئزّة. هذ الهرج والمرج من الأكياس الجلدية، والسلال، وكلّ هذه التنانير التي تمرّ في انسيال الماء عبر الممرّات كانت تشغله، حتّى موعد الغذاء، سعيداً بالماء الذي يسيل، وبنسيم البرودة الساري، مارّاً من اللذوعة البحرية للقواقع إلى مرارة بخر الملّاحات. كان دائماً ما ينهي جولته التفتيشية في الملّاحة؛ صناديق الرنكة المدخّة، وسردين نائْت على أسرّة من الورق، وأسماك الغادس الملتفّ، معروضةً أمام بائعات سمينات شاحبات كانت تدفعه إلى التفكير في الانطلاق، في رحلة، وسط براميل التمليح ثمّ، في أعقاب الظهيرة، تسكن الأروقة، وتنعس، فيغلق على نفسه مكتبه، ويُخرِج كتاباته، ويقضي أمتع ساعات يومه. وإذا خرج، عابراً سوق السمك، وجدها مقفرةً تقريباً. بعيداً عن التدافعات والمزاحمات وضجيج العاشرة صباحاً. السمّاكات جالسات خلف مناضدهنّ الخالية، يمارسن الحياكة بظهورهن المحنيّة، وزبونات نادرات جئن متأخرات يجُلن، وينظرن من جانبٍ بنظراتهن البطيئة ويعضضن على شفاههنّ وهن يحسبن بالمليم ثمن العشاء. كان الغسق يهبط وكان هناك لغطٌ لصناديق يتمّ نقلها. ويوضع السمك لينام ليلاً تحت فرُش من الثلج. وبعد أن يحضر فلورون إغلاق البوّابات، يحمل معه سوق السمك في ملابسه وفي لحيته وشعره.

في الأشهر الأولى، لم يكن يعاني كثيراً من تلك الرائحة النفّاذة. كان الشتاء قاسياً، والجليد يحيل أرضيّات الممرّات إلى مرايا، وقطع الثلج تضفي زخارف مخرّمة على الطاولات الرخامية والنوافير. في الصباح، كان يتوجّب إشعال مواقد صغيرة تحت الصنابير كي يتدفّق منها خيطٌ من الماء. والأسماك كانت مجمّدةً بذيولها المعقوفة، باهتةً، وصلبة كأنّها معادن فاقدة البريق، بصليل متكسّر وكأنّها من الحديد المصبوب. حتّى فبراير، ظلّ الرواق في حالة يرثى لها ينتصب مقفراً في كفنه الجليديّ. ولكن جاء ذوبان الجليد والطقس

الرطب، بضباب مارس وأمطاره، فعادت للأسماك ليونتها وغاصت في المياه؛ واختلطت روائح اللحم المتخمّر بالنسائم المشبعة بريح الطين القادمة من الشوارع المجاورة. النتانة الخفيفة لا تزال، وعذوبة مقزّزة للرطوبة تسيل جارية على الأرضية. ثمّ، في أعقاب ظهائر يونيو المتّقدة، تتصاعد النتانة مُثقلةً الهواء ببخر خبيث. تُفتح النوافذ العلويّة، وتتدلّى ستائر من نسيج رماديّ تحت السماء الملتهبة، وتتساقط على أروقة ليهال أمطار من نار، تجعلها في سخونة فرن من الفولاذ؛ وما من نسمة هواء تطيّر رائحة الأسماك الفاسدة تلك، ويتصاعد الدخان من منصّات البيع.

عانى فلورون إذن من تكدّسات الأغذية التي كان يعيش في قلبها. لقد عاد له نفوره الذي كان ينتابه من لحوم الخنزير، ولكن أكثر حدّة. كان قد احتمل روائح كريهة رهيبة، لكنّها لم تكن متعلّقة بالبطن. إنّ معدته الضيّقة، معدة رجل نحيف، قد ثارت لدى مروره أمام تلك الأسماك المعروضة مرطّبةً بالمياه، والمعرّضة للتلف بسبب أدنى تيّار للحرارة. كانت تغذّيه برائحتها القوية، تجعله يختنق كما لو كان لديه عسر هضم من الروائح. وعندما كان يغلق مكتبه عليه، كان الاشمئزاز يتبعه نافذاً من الأُطر الخشبية السيئة الصنع للنوافذ والأبواب. في الأيّام التي تكون السماء فيها رماديةً، كانت الغرفة الضيقة تظلّ مظلمةً؛ فيكون ذلك كغروب طويل في قلب مدّ مثير للغثيان. أحياناً كان يدفعه اهتياج أعصابه إلى الحاجة إلى المشي، فكان يهبط إلى الأقبية عبر السلالم العريضة التي تنفتح في منتصف الرواق. هناك، في الهواء الفاسد، وفي عتمة مصابيح الغاز، كان يستعيد غضارة الماء النقيّ. كان يتوقّف أمام الحوض الكبير، الذي تُحفظ فيه الأسماك حيّةً، يستمع إلى أغنية الخرير المتواصلة، لتدفّقات الماء التي تسيل من الزوايا الأربع للحوض المركزيّ تحت المشابك المعدنية المغلقة بالمفتاح، بالضجيج الخفيف لتيار متواصل.

هذا النبع تحت الأرض، الذي يهمس في الظلّ كان يعود له بالسكينة. كان يستمتع أيضاً في المساء بالغروب الجميل الذي يظلّل الزخارف الحديدية الدقيقة للأروقة معتّماً إيّاها ومن خلفها الإشعاعات الحمراء للسماء؛ وكان ضوء الساعة الخامسة مساءاً والغبار المتطاير للشعاع الأخير المتسرّب عبر خصاص النوافذ يبدو شفّافاً ومضيئاً حيث ترتسم القواعد الرفيعة للأعمدة، والانحناءات الأنيقة للحديد المشغول، والأشكال الهندسية للسقوف. كان يملأ عينيه بهذا الرسم المجرّد الباهت المرسوم بالحبر الصينيّ على رقّ مشعّ، مُستعيداً حلمه بآلة عملاقة بتروسها ورافعاتها كما يتصوّرها على خلفية من الأرجوانيّ القاتم للفحم المشتعل تحت المرجل. في كلّ ساعة، تغيّر ألعاب الضوء صورة ليهال، منذ زرقة الصباح المبكّر، ومروراً بالظلال المعتمة للظهيرة، وحتّى حرائق الغروب التي تنطفئ في الرماد الأغبر للغسق. وإذ يحلّ المساء المشتعل، وتتصاعد روائح النتانة، متجاوزةً برعدةٍ الإشعاعاتِ الصفراء الكبيرة كدخّان ساخن، يهزّه الغثيان من جديد، ويهوّم في حلمه، بأفران عملاقة، ومراجل مسالخ ذات روائح كريهة، حيث يذوب الشحم الرديء لشعب بأكمله.

كان يؤرّقه أيضاً هذا الوسط البذيء، الذي تبدو الأقوال والأفعال فيه وكأنّها مستمدّة من الروائح. مع ذلك كان ولداً شجاعاً فوق كلّ شيء، لا يجبن أبداً. النساء فقط كنّ يضايقنه. لم يكن يشعر أنّه على طبيعته إلّا مع السيّدة فرانسوا التي رآها من جديد. وقد فرحت كثيراً لمرآه سعيداً وقد وجد لنفسه مكاناً، ومتخلّصاً من آلامه كما قالت، وقد تأثّر لذلك كثيراً. كانت ليزا والنورماندية والأخريات يثرن هواجسه بضحكاتهنّ. أمّا هذه السيّدة فيقدر أن يحكي لها كلّ شيء، ولم تكن لتضحك ساخرةً، كانت لها ضحكة امرأة سعيدة لفرح الآخرين. ثمّ إنّها امرأة مكافحة، تقوم بمهنة شاقّة؛ وكان الشتاء

وأيّام الجليد والمطر أكثر مشقّة. كان فلورون يراها أحياناً تحت الشآبيب، والأمطار الطويلة التي تتساقط منذ المساء بطيئةً وباردة. وكانت دواليب عربتها، من نانتير إلى باريس، تخوض في الأوحال حتّى محاورها. والحصان العجوز بلتازار غارق في الروث حتّى بطنه، وهي تشفق وتحنّ عليه، فتنظّفه بالخرق القديمة.

- تلك الحيوانات، تقول، يا لها من كائنات حسّاسة؛ إنّه يصاب بالإسهال من لا شيء... يا عزيزي بالتازار العجوز! عندما اجتزنا جسر نويي، ظننت أنّنا قد سقطنا في السين من فرط الأمطار.

كان بلتازار يذهب إلى المأوى، وتبقى هي تحت الشآبيب لتبيع خضارها. ويتحوّل الرصيف إلى بركة من الوحل السائل. ويغرق الكرنب والجزر واللّفت في الماء الرماديّ لهذه السيول الموحلة المنهمرة على قارعة الطريق. لم تكن تسود وقتها تلك الخضرة الرائعة للصباح المبكر. وتجّار الخضار تحت معاطفهم المنتفخة، يسبّون الإدارة التي امتنعت عن بناء مظّلات بحجّة أنّ الأمطار لا تضرّ الخضروات.

كانت الصباحات المطيرة تُحبط فلورون. يفكّر في السيّدة فرانسوا. فيهرع، ويذهب للحديث معها لبعض الوقت. ولم يكن يجدها حزينة أبداً. كانت تنتفض ككلب صغير، وتقول إنّها رأت الكثير، وإنّها ليست قطعة سكّر لتذوب من قطرة ماء. كان يجبرها على أن يدخلا لدقائق في أحد الشوارع المسقوفة؛ وعدّة مرات اصطحبها إلى حانة السيّد لوبيغر حيث تناولا النبيذ الدافئ. وبينما هي تنظر إليه بودّ بوجهها الهادئ، كان يشعر بالسعادة من الروائح الصحيّة للحقول التي تحملها معها، في البخر الرديء لليهال. كان يشمّ رائحة الأرض والكلأ والهواء النقيّ والسماء المفتوحة.

- يجب أن تأتي إلى نانتير يا ولدي، تقول له. سترى حقل خضاري وقد أحطتُه بالصعتر من كلّ جانب. إنّ رائحة باريسكم الفاسقة هذه لَمنتنة!

ثمّ تمضي متهلّلةً، ويكون فلورون قد انتعش تماماً عندما تغادره. كان يجرّب العمل أيضاً كي يحارب الهواجس العصبية التي يعانيها. يندفع بروح منهجيّة لتدقيق جدول أعماله إلى حدّ الهوس. ويحبس نفسه لليلتين في الأسبوع ليتفرّغ لكتابة عمل كبير عن معتقل كايين للأشغال الشاقّة. كان يعتقد أنّ غرفته التي تشبه غرف الطلبة مناسبة جدّاً لتمنحه السكينة، وتجعله مكرَّساً للعمل. يُشعل المدفأة، ويفحص شجيرة الرمّان التي بجوار فراشه، ثمّ يقرّب الطاولة الصغيرة، وينهمك في العمل حتّى منتصف الليل. كان قد أخفى كتاب الصلوات و«مفتاح الأحلام» في أعماق الدرج الذي أخذ يمتلئ شيئا فشيئاً بالملحوظات، وقصاصات الورق، ومخطوطات من كلّ نوع. ولم يكن عمله حول كايين يتقدّم أبداً، تُقاطعه مشاريع أخرى، خُطَط لأعمال ضخمة يرسم ملامحها في بضعة أسطر. فقد تصوّر إصلاحاً شاملاً للنظام الإداريّ لليهال، وتحويلاً لنظام الجمارك إلى ضرائب على المعاملات، وإعادة توزيع جديدة للتموين في الأحياء الفقيرة، وفي النهاية خطّط لقانون مساعدات إنسانيّة غير واضح الملامح لتخزين البضائع بشكل عموميّ وتوفير حدّ أدنى من المؤن لكلّ الأسر في باريس. بظهره المعقوف، كان يعكف على أشياء عظيمة، وكان ظلّه القاتم يطغى على الرقّة الباهتة للغرفة. وفي بعض الأحيان، في الصمت الذي لا يقطعه سوى وقع يراعه على الورق، كان طائر شرشور، آواه هو من ليهال في أحد أيّام الجليد، يطلق صيحته إذ يختلط عليه الأمر بسبب الضوء.

وعاد فلورون إلى السياسة بشكل محتوم. لقد عانى الكثير بسببها، ممّا يحتّم عليه ألاّ يجعلها الشغل الشاغل لحياته. كان سيصبح، لولا الوسط والظروف، مدّرساً طيّباً في الأقاليم، سعيداً وآمناً في مدينته الصغيرة. لكنّهم

عاملوه كذئب، وهو يبدو الآن وقد وسمه المنفى بدمغته بسبب بعضِ نشاط نضاليّ. لم تكن آلامه العصبية سوى استيقاظ لرؤى طويلة من كايين، لمراراته في مواجهة العذابات التي لم يكن يستحقّها، لطقوس الانتقام تلك لإنسانيةٍ تُعامَل بضربات السياط، وعدالة دهستها الأقدام. وقد عجّلت سوق ليهال الضخمة وفيوض الأطعمة من انفجار الأزمة. إذ كانت تمثّل له الوحش الباشم لباريس المتخمة تختمر دهونها تأييداً صامتاً للإمبراطورية. تحيطه بأثداء ضخمة ومؤخّرات عملاقة، ووجوه سمينة كأنّها حجج دامغة ضدّ نحوله الذي لشهيدٍ، ووجهه الشاحب، وجه إنسانٍ ساخط. كانت بطناً لأصحاب الحوانيت، بطناً للأمانة المتوسّطة، يترجرج سعيداً ويبرق في الشمس، وكأنّ كلّ شيء يسير نحو الأفضل، وكأنّ الناس من ذوي الطباع المسالمة لم يسمنوا أبداً على هذا النحو السافر. حينها كان يطبق قبضتيه كمن يستعدّ للصراع، مغتاظاً للتفكير في منفاه أكثر ممّا كان عليه يومَ عاد إلى فرنسا. تستولي عليه الكراهية. أحياناً كان يترك ريشته ويحلم. فيما تصبغ النار الخابية وجهه بلهب متوهّج، ويدخّن المصباح المتفحّم، ويغفو طائر الشرشور تحت جناحيه على ساق واحدة.

في بعض المرّات، نحو الحادية عشرة مساء، كان أوغست يطرق بابه قبل أن يذهب إلى النوم عندما يجد ضوء غرفته متسرّباً من تحت الباب. وكان فلورون يفتح له بنفاد صبر. فيجلس صبيّ الجزّار أمام النار يتحدّث قليلاً، ولم يفسّر أبداً لمَ يجيء. يحدّق طوال الوقت في الصورة الفوتوغرافية التي تجمعه مع أوغستين، يداً في يد، متأنّقين ليوم الأحد. وانتهى فلورون إلى الاعتقاد بأنّ الفتى يستمتع بشكل خاصّ في هذه الغرفة التي كانت تسكنها الفتاة الشابة. وقد سأله ذات مساء إن كان قد أحسن التخمين.

– ربّما بالفعل، أجاب أوغست مندهشاً من الاكتشاف الذي عثر عليه

هو نفسه. لم أفكّر أبداً في هذا. إنّي آتي لرؤيتك دون أن أعي ذلك... حسناً، لو حكيت ذلك لأوغستين، فستضحك... عندما نكون بصدد الزواج، لا نفكّر أبداً في تلك الطرائف.

وكان إذ يثرثر، يعود دائماً إلى موضوع حانوت جزارة الخنزير الذي سيفتتحه مع أوغستين في بليزانس. كان يبدو شديد الثقة في مقدرته على إدارة حياته وفق ما يهوى، ممّا جعل فلورون ينظر إليه بنوع من الاحترام الممزوج بشيء من الامتعاض. وفي المجمل، فإنّ هذا الفتى كان قويّاً جدّاً، وإن بدا شديد الغباء؛ كان يذهب مباشرةً إلى هدفه، ويبلغه دون تردّد في غبطة تامة. في تلك المساءات، كان فلورون يعجز عن الرجوع إلى العمل؛ وينام غير راضٍ، ولا يستعيد توازنه إلّا عندما يقول في نفسه: «إنّ أوغست هذا لبهيمة!»

في كلّ شهر، كان يذهب إلى كلامار ليرى السيّد فيرلاك. وكان ذلك بمثابة فرحة له. كان الرجل المسكين يقاوم المرض، ممّا أثار اندهاش غافار الذي لم يتوقّع له البقاء أكثر من ستّة أشهر. في كلّ زيارة من زيارات فلورون، كان المريض يقول له إنّه يتحسّن، وإنّ لديه الرغبة في العودة إلى العمل. ولكنّ الأيّام كانت تمرّ، وتصيبه معها الانتكاسات. يجلس فلورون إلى جواره ويحدّثه عن سوق السمك، محاولاً أن يبهجه قليلاً. كان يضع له الخمسين فرنكاً التي خصّصها للمفتّش السابق على الطاولة بجوار سريره؛ فيغضب هذا في كلّ مرّة رافضاً النقود على الرغم من أنّ الأمر كان مُتّفقاً عليه. ثمّ يتحادثان في أمور أخرى، وتظلّ النقود على الطاولة. وعندما كان فلورون يغادر، كانت السيّدة فيرلاك تصطحبه حتّى الباب الخارجيّ. كانت قصيرة القامة وهشة وبكّاءة. لا تتكلّم إلّا عن النفقات التي سببها مرض زوجها، عن حساء الدجاج، واللحم، ونبيذ بوردو، وعن الصيدليّ والطبيب. كانت

تلك الحوارات الكئيبة تضايق فلورون كثيراً. في المرّات الأولى لم يكن يفهم. وفي النهاية، وإذ كانت المرأة المسكينة تبكي باستمرار قائلةً إنّهما في الماضي كانا سعيدَين بالألف وثمانمائة فرنك التي هي راتب المفتّش، عرض عليها فلورون، بخفرٍ، أن يترك لها المزيد من النقود دون أن يعرف زوجها. فاعترضت، ودون أن تبدل الموضوع، قالت إنّ الخمسين فرنكاً كافية جدّاً. ولكن ما إن تمرّ أسابيع من الشهر حتّى تكتب أحياناً لمن تسمّيه منقذهم. كان لها خط-مائل في الكتابة، صغير ورفيع، وبجمل سهلة ومتواضعة، تملأ ثلاث صفحات كي تطلب عشرة فرنكات، هكذا بحيث كانت المائة وخمسون فرنكاً التي هي راتب الموظف تذهب كلّها إلى آل فيرلاك. كان الزوج يجهل أمرها بلا شكّ، والمرأة تقبّل يديه. كان ذلك الفعل الخيّر متعة كبرى له، يحرص على إخفائها كمتعة محرّمة يتحصّل عليها بأنانية.

- ذلك الشيطان فيرلاك يهزأ بك، يقول له غافار أحياناً، إنّه يدلّل نفسه إذ يتحصّل منك على ريع.

وانتهى به الأمر إلى أن يردّ عليه ذات يوم:

- لقد تمّت تسوية الأمر، لن أترك له سوى خمسة وعشرين فرنكاً.

لم تكن لفلورون أيّة احتياجات. كان آل كونو لا زالوا يوفّرون له المأوى والمأكل. وكانت الفرنكات التي تبقى معه تكفي لطلباته في المساء في مشرب السيّد لوبيغر. وشيئاً فشيئاً صارت حياته منتظمة كالساعة: يعمل في غرفته؛ ويواصل إعطاء دروسه للصغير موش يومين في الأسبوع، من الثامنة حتّى التاسعة؛ وقد خصّص أمسية لليزا الجميلة لئلّا تغضب منه؛ وبقيّة وقته كان يقضّيها في المقصورة الزجاجية في صحبة غافار ورفاقه.

كان يذهب إلى آل ميهودان بسحنة المدرّس الطيّب الصارم قليلاً. وأعجبه

مسكنهم القديم. كان يمرّ تحته بسلسلة من الروائح الناجمة عن حانوت تاجر الأعشاب المطهوّة؛ أوعية للسبانخ وبرنيّات للحميّض متروكة لتبرد في فناء صغير. ثمّ يصعد السلّم الملتفّ، الدبق من الرطوبة الذي تتتابع درجاته منحوتة ومائلة بشكل مثير للقلق. يحتلّ آل ميهودان الطابق الثاني بأكمله، ولم ترغب السيّدة أبداً في الانتقال منه، حتّى عندما تيسرّت بهم الحال، على الرغم من توسّلات البنتين وقد كانتا تحلمان بالعيش في بيت حديث في شارع متّسع. ولكنّ العجوز عاندت، وقالت إنّها عاشت ههناك وستموت ههناك. وكانت تكتفي بمقصورة مظلمة تاركةً الحجرات لكلير وللنورماندية. استأثرت الأخيرة، بسلطة الابنة الكبرى، بالغرفة التي تطلّ على الشارع؛ وكانت تلك هي الحجرة الكبرى والأجمل. وغضبت كلير لذلك ورفضت أن تأخذ الغرفة المجاورة التي تطلّ على الفناء؛ وأرادت ان تتّخذ مخدعاً لها في الطرف الآخر من الطابق، غُرَيفة حقيرة لم تُدهَن جدرانها بالجصّ. كانت تحتفظ بمفتاحها، وهي حرّة، وعند أقلّ خلاف، كانت تذهب وتحبس نفسها فيها.

عندما يقْدم فلورون، كان ميهودان الأمّ وابنتاها ينتهين من تناول العشاء. فيقفز موش في حضنه. ويبقى لبعض الوقت يثرثر مع الطفل الجالس بين ساقيه. وعندما يتمّ تنظيف الغطاء المشمّع للمنضدة يبدأ الدرس على أحد أركانها. تستقبله النورماندية الجميلة استقبالاً طيّباً. كانت تحوك صوفاً أو تصلح ملابس، فتقرّب مقعدها كي تعمل تحت ضوء نفس المصباح؛ أحياناً كانت تترك الإبرة لتستمع إلى الدرس، الذي كان يدهشها. وسرعان ما زاد تقديرها لذلك الفتى العاقل الذي يبدو رقيقاً كامرأة وهو يتحدّث إلى الصغير، والذي يردّد له نفس النصائح دائماً بصبر ملائكيّ. لم تعد تجده قبيحاً. لا بل أصبحت تغار من ليزا. فبدأت تقرّب مقعدها أكثر وأخذت تنظر إلى فلورون بنظرة فيها حرج.

- ولكن يا أمّي أنت تدفعين ذراعي، تعيقينني عن الكتابة، يقول لها موش غاضباً. ها هي بقعة حبر! تراجعي إذن!

شيئاً فشيئاً، أخذت تقول كلاماً سيئاً بحقّ ليزا الجميلة. تدّعي أنها تُخفي عُمرها الحقيقيّ، وأنّها تخنق جسدها بالمشدّات. وإذا كانت تخرج من الصباح، مشدودة بالسّيور، ملمعةً، دون أن تكون إحدى شعراتها قد تجاوزت الأخرى، فذلك لأنها تكون بشعةً حين تخلع ملابسها. وعندها، رفعت ذراعها قليلاً لتوضّح أنّها لا ترتدي المشدّات تحت ملابسها؛ واحتفظت بابتسامتها مادّة جذعها البديع الذي تشعر به حيّاً يتموّج تحت قميصها البيتيّ الخفيف. توقّف الدرس. وموش يشاهد بانتباهٍ أمّه ترفع ذراعها. وكان فلورون يستمع، ويضحك في نفس الوقت من غرابة النساء. ويستمتع بمراقبة المنافسة بين النورماندية الجميلة وليزا.

كان موش في تلك الأثناء قد أنهى صفحة التدريب على الكتابة وفلورون بيديه الجميلتين يحضّر له نماذج، وقصاصات من الورق، يكتب عليها بخطّ كبير أو متوسّط كلمات طويلة جدّاً، قد تستغرق سطراً بأكمله. كان يعشق كلمات مثل: «باستبداد»، و«قمعيّ»، و«لا دستوريّ»، و«ثوريّ»؛ أو هو يجعل الصبيّ ينسخ جملاً من قبيل «سيبزغ فجر العدالة... إنّ معاناة العادل هي إدانة للأشرار... عندما تحين الساعة، سيسقط المذنب»، فيطيعه الصبيّ ببراءة، ناسخاً تلك العبارات ذات الأفكار التي تهجس في ذهنه؛ فيسهو عن موش، وعن النورماندية الجميلة، وكلّ ما يحيط به. وقد ينسخ موش كتاب «العقد الاجتماعيّ» كاملاً إذا طلب منه فلورون ذلك. كان يخطّ في صفحات كاملة «باستبداد» و«لا دستوريّ» وهو يرسم كلّ حرف.

طوال فترة وجود المعلّم، كانت مَدام ميهودان الأمّ تلفّ وتدور حول الطاولة وهي تتذمّر. كانت لا تزال تُغذّي ضغينة رهيبة تجاه فلورون...

ووفقاً لها فإنّه من غير المجدي جعل الطفل يعمل مساءً في الوقت الذي يجب أن ينام فيه الأطفال، وكانت بالتأكيد ستلقي «النحيف الطويل» خارجاً لو لم تهدّدها النورماندية، بعد نقاش طويل، بأنّها ستذهب لتعيش في مكان آخر ما لم تكن حرّةً في استقبال من يروقها في البيت. وكان الشجار يتواصل كلّ ليلة.

- عبثاً تقولين هذا كلّ مرّة، تكرّر العجوز. إنّ عينيه كاذبتان... ثمّ هؤلاء النّحاف، أنا لا أثق بهم. الرجل النحيف يستطيع ارتكاب أيّ شيء. لم أقابل واحداً منهم طيّباً. إنّ بطنه ساقط في مؤخّرته، ذلك الرجل، هو مسطّح تماماً مثل لوح... وهو ليس وسيماً مع كلّ ذلك... أنا من عشت خمسة وستّين عاماً لا أريد مثله بجواري في السرير.

كانت تقول هذا، لأنّها ترى بوضوح كيف انقلبت الأحوال. كانت تتكلّم بإعجاب عن السيّد لوبيغر الذي يبدي تقرّباً نحو النورماندية الجميلة؛ وإلى كونها تخمّن مهراً كبيراً، كانت تتخيّل أنّ ابنتها ستكون رائعةً خلف منضدة الشرب. وما انفكّت العجوز تطري عليه: فهو على الأقلّ ليس ضامراً. لا بدّ أنّه قويّ كمحارب. وكانت تتحمّس بشدّة لربلتي ساقيه وكانتا ممتلئتين للغاية. ولكنّ النورماندية كانت تهزّ كتفيها وتجيب بمرارة:

- إنّ ربلتَي ساقيه تثيران ضحكي، لا أحتاج لربلتَي ساقَي أيّ شخص. أنا أفعل ما يروقني.

وإذا أرادت السيّدة مواصلة الكلام، وصارت أكثر وضوحاً:

- حسناً، تصرخ الابنة، هذا أمر لا يخصّك... ثمّ إنّ هذا ليس صحيحاً، ولو كان صحيحاً فلن أطلب منك الإذن، أليس كذلك. اتركيني في سلام.

وتعود إلى غرفتها، وتصفع الباب خلفها. كانت قد اتّخذت في البيت

سلطة وهي تستغلّها. وكانت العجوز إذا سمعت أصواتاً غريبة في الليل، تقوم حافية القدمين لتتنصّت على باب غرفة ابنتها لترى إذا كان فلورون قد عاد ليقابلها. وكان لا يزال بالنسبة لآل ميهودان عدوّاً عنيداً. ما إن يصل، حتّى تقوم كلير دون أن تفوه بكلمة، تأخذ شمعداناً، وتذهب إلى غرفتها في الطرف الآخر من الطابق. ويُسمع صوت رتاج بابها يُغلق بغضبٍ بارد. وفي إحدى الأمسيات، دعت شقيقتها فلورون على العشاء، فأعدّت هي طعامها على جانب، وذهبت لتأكل في غرفتها. أحياناً كانت تحبس نفسها بصرامة، فلا يرونها لمدّة أسبوع. ظلت رخوة دائماً، بنزوات بالغة العناد، ونظرات حيوان متشكّك تحت أجمة شعرها الأصهب الشاحب. وكانت مَدام ميهودان الأمّ، التي ظنّت أنّها بصدد المصالحة وإيّاها، قد أغضبتها بحديثها عن فلورون. وعليه، كانت العجوز تصرخ في كلّ مكان، مغتاظة، أنّها قد تغادرهما لو لا خوفها من أن تنهش إحداهما الأخرى.

وفيما كان فلورون يغادر بيتهنّ في إحدى الأمسيات، مرّ أمام باب كلير وكان مفتوحاً على اتّساعه. ورآها وقد احمرّ وجهها بشدّة لدى رؤيته. أصابه موقف الفتاة بالأسى؛ وبسبب خجله من النساء أحجم عن طلب الاستفسار. في ذلك المساء، كان بالتأكيد سيدخل في غرفتها، لو لم يرَ في الطابق الأعلى الوجه الصغير الأبيض للآنسة ساجيه، وقد انحنت على الحاجز. فغادر، ولم يكد يتجاوز عشر درجات حتّى صُفِع باب كلير بعنفٍ خلف ظهره وقد ارتجّ لدويّه كلّ بئر السلّم. بعد هذه الواقعة اقتنعت الآنسة ساجيه أنّ ابن عمّ السيّدة كونو يضاجع الشقيقتين ميهودان.

لم يكن فلورون يفكّر البتّة في هاتين الفتاتين الجميلتين. كان دائماً ما يتعامل مع النساء كرجل فاشل، ثمّ يُنفق ذكورته في الأحلام. كان يشعر بصداقة حقيقية حيال النورماندية؛ كان لها قلب طيّب حين لا يركبها العناد. لكنّه

لم يذهب أبداً إلى ما هو أبعد من ذلك. وفي المساء، تحت المصباح، ولمّا كانت تقرّب مقعدها وكأنّها لتنحني على صفحة درس موش، كان يشعر بجسدها القويّ والدافئ بجواره فيخامره شيء من الألم. كان يبدو له جسداً هائلاً، ثقيلاً، مقلقاً بثدييها الهائلين؛ فيتراجع بمرفقيه الحادّين وكتفيه اليابستين خوفاً من أن يغوص في هذا اللحم. كانت عظامه النحيفة تخشى ملامسة الصدور الممتلئة. كان يخفض رأسه وينكمش أكثر، مضطرباً من أنفاسها القويّة. وعندما كان قميصها البيتيّ ينحسر قليلاً، كان يعتقد أنّ أريجاً للحياة ينبعث من بين بياضين، نفحة من الصحّة تهبّ على وجهه، ساخنةً بَعدُ كأنّها مطعّمة بهبّة من روائح سوق ليهال العفنة في أمسيات يوليو الملتهبة. كان ذلك عطراً مستمرّاً ملازماً لبشرتها التي هي بنعومة الحرير، عفونة سمكيّة تسيل من ثديين رائعتين وذراعين ملكيّتين ومن قدّها الناعم، ناشرةً في عطر أنوثتها عبيراً حرّيفاً. كانت تجرّب كلّ الزيوت العطرية؛ وتستحمّ بالماء الغزير؛ ولكن ما إن تذهب نضارة الحمّام حتّى يحمل دمها لأطراف أعضائها مساخة السلمون وضَوعَ سمكِ الهفّ الأشبه بضَوع البنفسج، ولذوعة الرنكة والراي. كانت تأرجحات تنانيرها تبدّد أبخرة؛ كأنّها تمشي في قلب أنفاس الطحالب الموحلة؛ بجسدها الذي لإلهة، ونقائها وشحوبها المحبّب، كانت شبيهة بقطعة من المرمر نحَتَها البحر ثمّ جُلِبت إلى الشاطئ في شبكة أحد صيّادي السردين. كان فلورون يتعذّب، فهو، بحواسّه المستفزَّة من ظهائر سوق السمك، لم يكن يرغب فيها إطلاقاً. كان يلفيها مثيرة للأعصاب، مالحةً جدّاً، ومرّة للغاية، بجمال فضفاض ورائحة لا تطاق.

أمّا الآنسة ساجيه، فكانت تقسم بأغلظ الأيمان أنّه عشيقها. فقد كانت غضبت من النورماندية الجميلة بسبب سمكة ليمندة بعشرة مليمات. ومنذ تلك المشاجرة حرصت على مصادقة ليزا الجميلة، أملاً في أن تعرف سريعاً ما

كانت تسمّيه «لغز آل كونو». ظلّ فلورون مستعصيّاً عليها، وكانت جسداً بلا روح كما كانت تقول هي عن نفسها. إنّ فتاةً صغيرة تلهث وراء شابّ لن تكون أكثر أسفاً من هذه العجوز البشعة وهي تشعر بسرّ ابن العمّ ينزلق من بين أصابعها. كانت تراقبه، وتتابعه، وتتفحّصه وهي تتخيّله عارياً، وتترصّده في كلّ مكان، بغضبٍ من عدم استطاعة فضولها المهتاج التمكّن منه. منذ صار يجيء عند آل ميهودان، وهي لا تفارق حاجز الدرج. ثمّ فهمت أنّ ليزا الجميلة مغتاظة جدّاً لمعرفتها أنّ فلورون يتردّد على «أولئك النسوة». فأخذت تنقل لها أخبار شارع بيرويت كلّ صباح. تدخل حانوت الجزارة في أيّام البرد منكمشةً متضائلةً من الصقيع، فتضع يديها المزرقّتين فوق الموقد تدفئ أصابعها وهي واقفة أمام منضدة البيع لا تشتري شيئاً، وتردّد بصوتها الرفيع:

- لقد جاء ثانيةً إليهنّ، لم يعد يخرج من هناك... وقد دعته النورماندية بـ «حبيبي» على الدرج.

كانت تختلق الحكايات لتبقى وتدفئ يديها لفترة أطول. وفي اليوم التالي لاعتقادها أنّها رأت فلورون يخرج من حجرة كلير، هرعت إلى ليزا، وأطالت القصّة لنصف ساعة تقريباً؛ مختلقةً فضيحة مفادها أنّ ابن العمّ يتنقّل الآن من فراش لآخر.

- لقد رأيته، قالت. عندما يشبع من النورماندية يذهب إلى الشقراء الصغيرة على أطراف أصابعه. وبالأمس كان يغادر الشقراء عائداً من دون شكّ لجوار السمراء الكبيرة، وعندما لمحني اضطُرّ للتراجع عن طريقه. طوال الليل وأنا أسمع اصطفاق البابين، ذلك لا ينتهي... ويا لتلك العجوز ميهودان التي تنام في مقصورتها بين غرفتَي ابنتيها!

كانت ليزا تفتعل تقطيبة احتقار، تتكلّم قليلاً، ولا تشجّع ثرثرات الآنسة ساجيه إلّا بصمتها. كانت تنصت باهتمام. وعندما تنحو العجوز نحو التفاصيل الماجنة:

- لا، لا، تهمس ليزا، هذا ليس مسموحاً به... هل هناك بالفعل نساء مثل هؤلاء؟

فتردّ عليها الآنسة ساجيه بالقول: «يا سيّدتي! ليست كلّ النساء مخلصات مثلك». ثمّ كانت بعدها تُبدي تسامحاً تجاه ابن العمّ. الرجال، يركضون خلف كلّ تنّورة تعبر؛ ثمّ إنه غير متزوّج، ربّما. وتقوم باستفسارت دون أن يبدو عليها ذلك. لكنّ ليزا لم تكن تطلق أحكامها أبداً على ابن العمّ، فقط تهزّ كتفيها وتعضّ شفتيها. وعندما تكون الآنسة ساجيه قد غادرت، تنظر باشمئزاز إلى سطح الموقد، حيث تكون العجوز قد تركت على معدنه المجلوّ الوسخَ الكابي ليديها الصغيرتين.

- أوغستين، تهتف ليزا، أحضري قطعة قماش كي ننظّف الموقد، إنّه مقرف.

كانت المنافسة بين ليزا الجميلة والنورماندية قد احتدمت. اقتنعت النورماندية الجميلة أنّها انتزعت من غريمتها عشيقاً. وكانت ليزا تشعر بالغضب من تلك «النكِرة» التي تهدّد بالنجاح في توريطهم، باجتذابها ذلك المخادع فلورون لديها. كانت طريقة كلّ منهما في العداوة مطبوعةً بمزاجها؛ فواحدة هادئة وتبدي احتقارها، بهيئة امرأة ترفع تنوّرتها كي لا تتلوّث؛ والأخرى أكثر صفاقة، تتفجّر ببهجة وقحة، تقطع عرض الرصيف باختيالِ مبارزٍ يبحث عن معركة. كان أحد لقاءاتهنّ قد شغل سوق السمك كلّها ليوم كامل. فعندما لمحت النورماندية الجميلة ليزا الجميلة واقفةً على

عتبة حانوت الجزارة، انحرفت عن طريقها كي تمرَّ أمامها وتحتكّ بطرف صدريّتها، فتقاطعت نظرتاهما السوداوان كسيفين، بلمعة النصل المعدنيّ. وليزا الجميلة، من جانبها، عندما ذهبت إلى سوق السمك، أبدت تعبيراً من الامتعاض وهي تقترب من منصّة النورماندية الجميلة؛ وأخذت قطعاً كبيرة من سمك الترس، وسمكة سلمون من سمّاكة مجاورة، واضعةً نقودها على الرخام، وهي تلاحظ أنّ ذلك يطعن تلك «النكِرة» في صميم قلبها، إذ كانت قد توقّفت عن الضحك. فوق ذلك كانت المتنافستان، عندما تسمع ما تقوله الواحدة عن الثانية، لا تبيعان سوى أسماك فاسدة، أو لحوم خنزير تالفة. وكانت تخوضان المعركة، النورماندية الجميلة من خلف منصّة بيعها، وليزا الجميلة من خلف منضدتها، من هناك تتبادلان الضربات الصاعقة عبر شارع رامبوتو. تقبعان هناك منذ الصباح، كلّ منهما بصدريّتها البيضاء، وبكامل زينتها لتبدأ المعركة.

- ها هي البقرة السمينة قد استيقظت! تصيح النورماندية الجميلة. إنّها تتلوّى كالسجق الذي تبيعه، تلك المرأة... إنّها لا تزال ترتدي الياقة التي كانت ترتديها يوم السبت، ونفس الثوب من البوبلين!

وفي نفس اللحظة، وعلى الناحية الأخرى من الشارع تقول ليزا الجميلة لفتاة حانوتها:

- انظري يا أوغستين إلى تلك المخلوقة التي تحدّق بنا هناك. إنها شديدة التشوّه بتلك الحياة التي تعيشها... هل تلاحظين قرطَي أذنيها؟ أعتقد أنّ لها بُلَهاءها الكُثر، أليس كذلك؟ إنّه شيء مثير للشفقة. أناس مرموقون لفتيات مثل هؤلاء.

- إنّ ذلك ليكلّفها الكثير، ترد أوغستين بتواطؤ.

عندما تأتي إحداهنّ بقطعة مجوهرات جديدة، فإنّها تعدّ ذلك نصراً لها، فيما تعاني الأخرى من الغيظ طوال اليوم. وكانت كلّ واحدة تغار من زبائن الأخرى، وتبدو في منتهى التجهّم إذا تخيّلت أنّ المبيعات تسير على ما يرام عند «القبيحة التي في المواجهة». ثمّ يأتي التلصّص على الغذاء، فكلّ واحدة تعرف ما تأكل الأخرى، تتابعها حتّى الهضم. وفي العصر، تجلس إحداهما بين اللحوم المطهّوة، والأخرى بين أسماكها، وتتّخذان أوضاع استعراضٍ لجمالهما، وتبذلان لذلك ما لا نهاية له من العناء. إنّها الساعة التي يتقرّر فيها نجاح اليوم. النورماندية الجميلة تنهمك في التطريز، في أعمال دقيقة بالإبرة، وهو ما يغيظ ليزا الجميلة.

- من الأفضل لها، تقول ليزا، أن تُصلح جوارب صبيّها الذي يحوم بقدمين حافيتين... هل ترين هذه الفتاة ذات اليدين الحمراوين والتي تفوح منها رائحة السمك!

أمّا هي فكانت عادةً تحوك الصوف.

- هي لا تزال تحوك نفس الجورب، تعلّق الأخرى؛ إنّها تستهلك وقتاً طويلاً في العمل عليه، وتأكل كثيراً... كما لو أنّ ديوثها ينتظره ليدفئ قدميه!

وحتّى المساء تظلّان متحفّزتين، تعلّقان على كلّ زيارة، بعينين متيقظّتين، تقبضان على كلّ التفاصيل لشخصيّتيهما، وتعجز النساء الأخريات عن الرؤية من هذا البعد. وهو ما دفع الآنسة ساجيه إلى ابداء إعجابها بحدّة بصر السيّدة كونو، إذ لاحظت في أحد الأيّام جُرحاً خفيفاً على وجنة السمّاكة اليسرى.

- بعينين مثل هاتين، قالت العانس، بإمكاننا أن نرى عبر الأبواب!

كان المساء يهبط أحياناً دون أن يُحسَم الانتصار؛ وأحيانا تُمسي إحداهن مهزومةً، لكنّها تسعى إلى الانتقام في اليوم التالي. وأهل الحيّ يعقدون الرهانات حول أيّهما ستنتصر، ليزا الجميلة أم النورماندية الجميلة.

وقد وصلا إلى حدّ منع طفليهما من الكلام معاً. كان الصغيران بولين وموش صديقين مقرّبين قبل ذلك، بولين بتنانيرها المنشّاة كفتاة في أفضل حال، وموش مختلّ الهندام، يصخب ويطلق السّباب، ويؤدّي دور الحوذيّ بمهارة. وعندما كانا يلهوان معاً، على الرصيف العريض أمام رواق الأسماك، كانت بولين تقوم بدور العربة. ولكن في يوم، وإذ ذهب موش ببراءة ليبحث عنها، طردته ليزا الجميلة وقد عاملته كطفل من الحثالة.

وهل يعرف المرء ما الذي يمكن أن يفعله هؤلاء الأطفال العديمو التربية!... إنّ لهذا الولد أنموذجاً شديد السوء أمام عينيه، ولهذا لا أطمئنّ عندما يكون مع ابنتي.

كان الصبيّ في السابعة، وأضافت الآنسة ساجيه التي كانت هناك:

- أنت حقّة، إنّه دائم العبث مع صغيرات الحيّ هذا الصبيّ المشاغب... لقد عُثِرَ عليه في أحد الأقبية مع ابنة الفحّام.

غضبت النورماندية الجميلة غضباً عارماً إذ عاد موش باكياً وحكى لها ما دار. وأرادت أن تذهب لتحطّم كلّ شيء في حانوت آل كونو غراديل. ولكنّها اكتفت بصبّ جام غضبها على موش نفسه.

- إذا ذهبت إلى هناك مرّة ثانية، صرخت فيه بغضب، فسيكون لي شأن معك!

ولكنّ الضحية الحقيقيّة للمرأتين كانت تتمثّل في فلورون. فهو السبب

الحقيقيّ وراء اندلاع الحرب بينهما، وهما لا يتعاركان إلّا من أجله. فمنذ وصوله وكلّ شيء يسير من سيّئ لأسوأ. لقد عرَّض ذلك العالَم للخطر وأغضبه وأصابه بالاضطراب، وكان ذلك العالم يعيش حتّى وقتها في سلام غامر. كانت النورماندية الجميلة تودّ لو تخدشه عندما تراه يطيل البقاء عند آل كونو؛ كان استعار المعركة هو دافعها للرغبة في ذلك الرجل. أمّا ليزا الجميلة فقد احتفظت بموقفٍ قاضٍ أمام سلوك أخي زوجها الذي صارت علاقته بابنتَي آل ميهودان فضيحةً في الحارة. كانت مجروحةً بشكل رهيب؛ تبذل مجهوداً كي لا تظهر غيرتها، غيرة استثنائية على الرغم من احتقارها لفلورون، وعلى الرغم من برود المرأة المخلصة الذي تتحلّى به. كانت تشتعل فيها في كلّ مرّة يغادر فيها حانوت الجزارة ليتوجّه إلى شارع بيرويت، إذ تتخيّل اللذّات المحرّمة التي ذهب ليتذوّقها هناك.

وأصبح العشاء مساءً في منزل آل كونو أقلّ دفئاً. واتّخذت نظافة قاعة الطعام طابعاً حادّاً وهشّاً. أصبح فلورون يشعر بنوع من الشكوى، من الإدانة في خشب السنديان اللمّاع، والمصباح الشديد النظافة، والمفارش الجديدة. وصار لا يكاد يجرؤ على تناول طعامه، خوفاً من أن تتساقط منه فتات الخبز أو أن يتّسخ صحنه. لكنّه كان يتمتّع ببساطة رائعة تمنعه من أن يَرى. ففي كلّ مكان كان يتباهى بطيبة ليزا. فقد ظلّت طيّبة بالفعل. وكانت تقول له بابتسامه وكأنّها تمزح:

- هذا أمر عجيب، أنت تأكل بشكل لا بأس به، ومع ذلك لا تسمن... إنّك لا تستفيد من الطعام.

وكان كونو يضحك بصوتٍ عالٍ، ويربّت على بطن أخيه، مدّعياً أنّ كلّ حانوت الجزارة يمكن أن يمرّ ببطنه دون أن يترك أثراً من الشحم. ولكن في قرارة نفس ليزا كانت تعتمل تلك الكراهية، وعدم الثقة في الأشخاص

النّحاف الذي تبين عنه أيضاً مَدام ميهودان الأمّ بشكل أكثر حدّة. وكان هناك أيضاً تلميحات مواربة إلى نمط العيش الغريب الذي كان ينتهجه فلورون. ولكنّها مع ذلك لم تتطرّق أمامه أبداً إلى ذكر النورماندية الجميلة. وإذْ تناولها كونو في مزحة، ذات مساء، أبدت ليزا الجميلة فتوراً حيال ذلك، فلم يعاود الرجل المحترم مزاحه. بعد التحلية، كان يبقى هناك لبرهة. ولأنّ فلورون لاحظ تغيّر مزاج زوجة أخيه إذ يغادر سريعاً، فقد أخذ يبحث عن سبب للمحادثة. كانت قريبة منه جدّاً؛ وهو لا يجدها دافئة وحيّة كالسّماكة، وهي لا تملك أيضاً رائحة الأسماك الحرّيفة والقويّة؛ كان لها رائحة الدهون واللحوم الطيّبة. ما من اختلاجة تُظهر أثرها على ثنايا مشدّها المعقود بقوّة. كان الاقتراب البالغ الرصانة لجسد ليزا يقلق عظامه النحيفة أكثر من اقتراب النورماندية الجميلة، الرقيق. وقد أسرّ له غافار ذات مرّة إنّ السيّدة كونو امرأةٌ جميلة بلا شكّ، لكنّه يفضّل النساء «أقلّ صلابة من هذا».

وكانت ليزا تتحاشى أن تكلّم كونو عن فلورون، وتبدي عادةً صبراً كبيراً، وتعتقد بإخلاص أنّها يجب ألّا تتدخّل بين الأخوين دون أن تكون لها دوافع جادّة. وكما كانت تقول، فهي طيّبة جدّاً، لكن ينبغي عدم الضغط عليها. كانت يومذاك في عهد التسامح، عهد الوجه الصامت، والأدب الصارم، وافتعال اللامبالاة، وكانت تتحاشى بعناية كلّ ما قد يُشعر الموظّف بأنّه يأكل وينام في بيتهما، دون أن يطلبا منه أيّ نقود، ليس لأنّها قد تقبل منه نقوداً عينيّة فقد كانت هي فوق ذلك، بل فقط كان بإمكانه أن يتناول غداءه في الخارج، وقد أبدت في مرّة ملاحظة لزوجها:

- لم نعد وحدنا، فإذا أردنا أن نتحدّث فعلينا الانتظار حتّى موعد النوم، في المساء.

وفي أحد الليالي، قالت له وهما مضطجعان:

- أخوك يربح مائة وخمسين فرنكاً، أليس كذلك؟ من الغريب أنّه لا يستطيع أن يدخّر شيئاً فيشتري لنفسه بعض الملابس، لقد اضطررتُ ثانيةً لإعطائه ثلاثة من قمصانك القديمة.

- لا عليك، أجاب كونو، أخي ليس عبئاً، وعلينا أن نترك له نقوده.

- بالطبع، همست ليزا، دون أن تلحّ. أنا لا أقول هذا من أجل ذلك... فلينفق نقوده كيف يشاء، هذا ليس من شأننا.

كانت مقتنعةً أنّه يبدّد راتبه في منزل آل ميهودان. ولم تخرج سوى مرّة واحدة عن موقفها الهادئ وطبعها المتحفّظ ذي الحسابات. كانت النورماندية الجميلة قد أهدت فلورون سمكة سلمون رائعة. فلم يجرؤ على الرفض، وأخذ السمكة إلى ليزا الجميلة.

- هلّا صنعتِ لنا منها فطيرة محشوّة؟ قال لها ببراءة.

نظرت له طويلاً، وقد ابيضّت شفتاها؛ ثمّ قالت له بصوت حاولت السيطرة عليه:

- هل تظنّ أنّه ينقصنا طعام مثلاً! حمداً للربّ! لدينا ما يكفي من الطعام هنا!... خذها ثانيةً!

- ولكن اطهيها لي على الأقلّ، عاود فلورا مندهشاً من غضبها؛ سآكلها أنا.

فانفجرت في وجهه:

- هذا البيت ليس نُزلاً! قلْ لمن أعطتك إيّاها أن تطهيها هي إن أرادت. أنا لن ألوّث قدوري... خذها! هل تسمع!

كانت ستقذف بها في الشارع. فأخذها إلى السيّد لوبيغر حيث تلقّت

روز الأمر بأن تصنع منها فطائر. وفي المساء تمّ أكل الفطائر في المقصورة الزجاجية، ودفعَ غافار ثمن بعض المحار. وازداد فلورون تعلّقاً بالمقصورة، وقد وجد فيها ملاذاً ساخناً تستعر فيه حمّاه السياسية كما يطيب لها. وكان يحدث أحياناً، في تلك الآونة، عندما يكون رهين غرفته الصغيرة ليعمل، أن تفقده دِعَتها صبره، ولا يعود البحث النظريّ عن الحريّة كافياً، فيتوجّب عليه النزول ليذهب وينغمس في بديهيّات شارفيه القاطعة وحماسة لوغر. في الليالي الأولى، كان يضايقه ذلك الصخب وفيض الكلام، كان يشعر فيه بالفراغ، ولكنّه يشعر بالحاجة لأن يُصعَق، لأن يُحَفَّز، ولأن يُدفَع إلى حلول متطرّفة تهدّئ قلق روحه. كانت رائحة المقصورة، تلك الرائحة الخمرية الساخنة بفعل دخان التبغ تثمله، تكسبه نشوة استثنائية، وغياباً عن ذاته، وتجعله هدهداتها يتقبّل الأشياء الأكثر غلظة دونما صعوبة. وقد صار يحبّ وجوه الحضور، ويجيء ليراهم، ويتأخّر معهم بمتعة الاعتياد. كان الوجه الملتحي البشوش لروبين، والملامح الجادّة لكليمنص، ونحافة شارفيه الشاحبة، واحدوداب لوغر، وحضور غافار وألكساندر ولاكاي، هذا كلّه كان قد دخل حياته، واحتلّ فيها مساحة تتزايد يوماً بعد يوم. بالنسبة له كان ذلك نوعاً من النشوة الحسيّة، أن يمسك بالمقبض النحاسيّ لباب المقصورة، فيبدو له ذلك المقبض حيّاً، يدفئ أصابعه، ويدور من تلقاء ذاته، وما كان ليشعر بإحساس بمثل هذه القوّة لو أمسك بيد ناعمة لامرأة.

وفي الحقيقة، كانت تحدث أشياء فادحة في المقصورة. ففي إحدى الأمسيات، ثار لوغر أكثر من المعتاد وضرب بقبضته على الطاولة، قائلاً إنّهم لو كانوا رجالاً بحقّ لأطاحوا بالحكومة، وأضاف أنّهم يجب أن يتكاتفوا ليكونوا متأهّبين في لحظة انهيارها. ثمّ تقاربت الرؤوس وبصوت خفيض تمّ الاتفاق على تكوين مجموعة مستعدة لكلّ الاحتمالات. وصار غافار من

يومها مقتنعاً بأنّه عضو في جمعية سرّية وأنّه يتآمر. لم تتوسّع الحلقة، ولكنّ لوغر تعهّد بأن يجمعها بحلقات أخرى يعرفها. «وفي اللحظة التي تكون فيها باريس بأكملها في أيدينا، سنجعل قصر تويلري يتمايل على أركانه». كانت تلك مناقشات بلا نهاية استمرّت لشهور: مسألة التنظيم، ومسألة الأهداف، ومسألة الوسائل والاستراتيجيات والحكومة القادمة. وما إن تأتي روز بالمشروبات الخاصّة بكليمنص وشارفيه وروبين ولوغر وغافار وفلورون ولاكاي وألكساندر حتّى تُحصَّن المقصورة بعناية، وتبدأ الجلسة.

ويظلّ صوتا شارفيه وفلورون عادةً هما المسموعان أكثر من غيرهما. ولم يكن غافار يستطيع أن يمسك لسانه، فيسرد شيئاً فشيئاً حكاية الاعتقال في كايين، وهو ما أضفى على فلورون مجد الشهداء. وصار كلامه بمثابة إعلانات عن المبادئ. وذات مساء، صاح تاجر الدواجن مستاءً من الهجوم على صديقه الذي كان غائباً:

- لا تمسّوا فلورون، فقد كان منفيّاً في كايين!

وكان شارفيه مغتاظاً جدّاً من تلك الميزة.

- كايين، كايين، يهمس من بين أسنانه، في المحصّلة الأخيرة لم يكن الوضع هناك بهذا السوء!

وحاول أن يثبت أنّ المنفى ليس بالشيء العظيم، وأنّ المعاناة الحقيقية هي أن تظلّ مقموعاً في بلدك، بفم مكمّم في مواجهة طغيان غاشم. ثمّ إنّه إن لم يتمّ إيقافه، هو، في الثاني من ديسمبر فلم يكن ذاك خطأه. لا بل ذهب إلى حدّ التلميح إلى أنَ من يقعون في أيدي الشرطة هم الحمقى. تلك الغيرة جعلت منه غريماً دائماً لفلورون. كانت النقاشات تنتهي دائماً في الاقتصار عليهما. وكانا يواصلان الكلام ساعاتٍ وسط صمت الآخرين، دون أن يعترف أيّ

منهما بأنه قد هُزم.

من أكثر المسائل التي أُولِيَت عناية بالغة كانت مسألة إعادة تنظيم البلاد في صبيحة الانتصار.

- نحن منتصرون، أليس كذلك؟... يستأنف غافار.

وما إن يحصل الوفاق على الانتصار، حتّى يأخذ كلّ منهم في الإدلاء برأيه. وكان هناك معسكران، فمن جهةٍ، شارفيه الذي يبشّر بتعاليم هيبير، ومعه لوغر وروبين، ومن جهة ثانية فلورون الضائع في حلمه الإنسانيّ والذي يدّعي أنّه اشتراكيّ ويؤيّده ألكساندر ولاكاي. أمّا غافار فهو لا يكره الأفكار العنيفة، ولكن لّما كانوا يقرّعونه بسبب ثروته الضخمة بدعابات مرّة تثير انفعاله، فقد صار شيوعيّاً.

- يجب أن نبدأ صفحةً جديدة، كان يقول شارفيه بصوته المقتضِب، كما لو كان يضرب ببلطة، الجذع فاسد ويجب قطعه.

- نعم، نعم، يعقّب لوغر بعد أن يقف ليبدو أكثر طولاً، وترتجّ الحوائط الخشبيّة للمقصورة بسبب ارتطامات حدبته. كلّ هذا ستتمّ تسويته بالأرض، أؤكّد لكم... ولنرَ بعد ذلك.

ويوافق روبين على الكلام بهزّة من ذقنه. إنّه يبدو مستمتعاً في صمته عندما يأخذ الكلام منحى ثوريّاً. تلتمع عيناه ببريقٍ حانٍ لدى سماعه كلمة «مقصلة»، يغمضهما بعض الشيء كمن يرى الشيء عياناً فيرقّ له، ويحكّ ذقنه في مقبض عكّازه بغمغمات مبهمة تعبّر عن الرضى.

- مع ذلك، يقول فلورون بدوره، وبصوت تشوبه نبرة بعيدة من الحزن، مع ذلك لو قطعنا الشجرة فسيكون من الضروريّ الاحتفاظ ببعض

البذور... لكنّني بالعكس، أعتقد أنّه يجب الاحتفاظ بالشجرة لكي تنمو عليها الحياة الجديدة... لقد قامت الثورة السياسية، ألا ترون؛ يجب الآن التفكير في الشغيلة، في العمال؛ يجب أن تكون حركتنا اجتماعية تماماً. وأرجوكم التوقّف عن مطالبة الشعب، فالشعب قد أُرهق، وهو يريد حصّته.

هذه الكلمات تؤجّج حماس ألكساندر، فيؤكّد بوجهه المبتهج أنّ ذلك صحيح تماماً، فالشعب قد أُرهِق.

- ونحن نريد حصّتنا، يضيف لاكاي بصوت ملؤه الوعيد. كلّ الثورات قامت من أجل البرجوازيّين. وكفانا من هذا. للمرّة الأولى ستكون لنا.

ثمّ لا يعود هناك من تفاهم. يقترح غافار أن يتمّ الاقتسام. ويرفض لوغر مُقْسماً أنّ الموضوع لا يتعلّق بالمال. ثمّ شيئاً فشيئاً يسيطر شارفيه على الجلبة، ويواصل بمفرده:

- إنّ أنانية الطبقات هي أهمّ دعائم الطغيان. من القبيح أن يكون الشعب أنانيّاً. لو ساعدَنا، لحصل على حصّته... لماذا تريد منّي أن أناضل من أجل العمّال إذا كان العمّال يرفضون النضال من أجلي؟... ثمّ إنّ المسألة ليست كذلك. ينبغي لنا عشر سنوات من الديكتاتورية الثورية إذا ما أردنا لبلد مثل فرنسا أن يعتاد على الحريّة.

- وفوق ذلك، تقول كليمنص، فإنّ العمّال ليسوا ناضجين ويجب قيادتهم.

هذه الفتاة الطويلة القويّة، الضائعة وسط كلّ هؤلاء الرجال، قلّما كانت تتكلّم. كان لها طريقة المعلّمين في الاستماع إلى الآراء السياسية. كانت تتّكئ

على الجدار الخشبيّ، وتحتسي مشروبها في جرعات صغيرة، وهي تراقب المتحاورين بتقلّصات في جفونها وانتفاخ في منخريها، في موافقة أو رفض صامت يثبت أنّها تفهم وأنّ لها أفكاراً حاسمةً حول أشدّ الموضوعات تعقيداً. كانت أحياناً تقوم بلفّ سيكارةً، وتطلق من زاوية شفتيها زفرات رفيعة من الدخان، وتصبح أكثر انتباهاً. كان يبدو أنّها تراقب النقاش، وهي من سيوزّع الجوائز في النهاية. كانت تعتقد أنّها تحافظ على مكانتها كامرأة، باحتفاظها برأيها لنفسها، وبعدم الانفعال كالرجال. فقط عند احتدام النقاش، كانت تُلقي بجملة، تقول الخلاصة في كلمة، و«تُفحم» حتّى شارفيه، بحسب تعبير غافار. وفي النهاية كانت تعتبر نفسها أقوى من هؤلاء السادة. لا تكنّ احتراماً إلّا لروبين الذي كانت تحتضن صمته بعينيها السوداوين الكبيرتين.

ولم يكن لا فلورون ولا الآخرون ليكترثوا لكليمنص. كانت بالنسبة لهم رجلاً. يصافحونها باليد حتّى تكاد تتخلخل ذراعها. وذات مساء، حضر فلورون إحدى تلك المحاسبات الشهيرة. إذ كانت الفتاة الشابّة قد قبضت نقودها، فأراد شارفيه أن يقترض منها عشرة فرنكات. لكنّها رفضت، وقالت إنّ من المفترض أن يعرفا أين توقّفا قبل ذلك. كانا يعيشان على قاعدة الزواج الحرّ؛ كلّ واحد منهما يدفع نفقاته الخاصّة، بصرامة؛ هكذا لا يكون أحدهما مديناً للآخر، فهما ليسا من العبيد. إيجار السكن، والطعام، وغسيل الملابس، وطلبات الترفيه، كلّها مدوّنة، موثّقة ومحسوبة. في ذلك المساء، أثبتت كليمنص لشارفيه، بعد المراجعة، أنّه مدين لها بخمسة فرنكات. أعطته بعدها مباشرةً الفرنكات العشرة قائلةً:

- دوّنْ ذلك، أنت مدين لي بخمسة عشر فرنكاً، ستردّها لي في اليوم الخامس من الشهر، ضمن نفقات دروس ليويديه الصغير.

وعندما يتمّ استدعاء روز لدفع الحساب، يخرج كلّ منهما من جيبه

المليمات لحساب طلباته. ويعامل شارفيه كليمنص مازحاً كامرأة ارستقراطية إذ تطلب مشروبها الساخن ذا الكحول؛ ويقول إنّها تريد أن تحطّ من شأنه فتشعره أنّه يكسب نقوداً أقلّ منها، وهو ما كان حقيقةً، وكان هناك في عمق ضحكه احتجاج ضدّ هذا المكسب الأعلى، الذي يقلّل منه على الرغم من نظريّته في المساواة بين الجنسين.

وعلى الرغم من أنّ تلك النقاشات لم تكن تصل إلى غاية ما، فإنّها كانت تستهوي هؤلاء السادة بشدّة، ويصدر عن المقصورة ضجيج عظيم، فيهتزّ زجاجها كجلد الطبل. وأحياناً كانت الضوضاء تزيد، حتّى أنّ روز تلتفت إليها بقلق من موقعها على منضدة الشرب بينما تصبّ كأساً لأحد العاملين في السوق.

- حسناً، أشكركِ، إنّهم يتشاجرون في الداخل، يقول الزبون بينما يضع كأسه على المنضدة، ويمسح فمه بظهر كفّه.

- ما من خطر هناك، يردّ السيّد لوبيغر بهدوء؛ إنّهم فقط يتناقشون.

كان السيّد لوبيغر، وهو عادةً فظّ مع الزبائن الآخرين، يتركهم يتصايحون كما يروقهم، دون أن يوجّه لهم أدنى ملحوظة. يجلس لساعاتٍ على مقعده خلف منضدة الشرب في صدريّة ذات كمّين، رأسه الكبير يغالب النعاس متّكئاً على المرآة يتابع روز بنظراته وهي تفتح القناني أو تمسح المنضدة. في الأيّام التي يكون فيها رائق المزاج، وتكون هي أمامه، تغمر الكؤوس في حوض الغسيل بيديها العاريتين، كان يقرصها بقوّة في فخذها دون أن يراه أحد، وهو ما كانت تتقبّله بابتسامة رضى؛ وعندما كان يقرصها لدرجة الإدماء تقول له إنّها ليست سريعة التأثّر بالدغدغة. بينما السيّد لوبيغر، في قلب روائح الخمر وسيل الأضواء الدافئة التي تخدّره، كان يصيخ سمعه

لضجيج المقصورة. وإذ تتصاعد الجلبة، يقوم ليذهب فيستند بظهره إلى الحاجز، وقد يدفع الباب، ويدخل عليهم فيجلس برهةً، وهو يربّت على فخذ غافار. وساعتها، يوافق على كلّ ما يقال بإيماءة من رأسه. ويقول تاجر الدواجن إنّ ذلك الشيطان لوبيغر لو لم يكن له سمت الوعّاظ لأمكن الاعتماد عليه في «يوم الواقعة».

وذات صباحٍ في سوق ليهال، أثناء مشاجرة عنيفة بين روز وإحدى السمّاكات، بسببٍ سلّة من الرنكة أسقطتها روز بضربة من كوعها دون أن تقصد، سمع فلورون شتائم توجّه إليها من قبيل «يا حثالة الوشاة» و «يا خرقة مخفر الشرطة». وعندما استعيد السلام بتدخّل منه، قيل له الكثير عن السيّد لوبيغر: كان يعمل مع الشرطة، وكلّ الحيّ يعرف ذلك جيّداً. وقد قالت الآنسة ساجيه إنّها شاهدته قبل أن تذهب لتشتري من حانوته وهو ذاهب ليدلي بتقريره؛ ثمّ إنّه رجل يعشق النقود، فهو مرابٍ، يُقرض الباعة المتجوّلين النقود باليوم، ويؤجرّ لهم العربات ويطالبهم بفوائد فادحة. تأثّر فلورون لذلك كثيراً. وفي المساء نفسه، همس بتلك الأقاويل لرفاقه. فهزّوا أكتافهم وضحكوا كثيراً من هواجسه.

- يا لفلورون المسكين! قال شارفيه بخبث، لأنّه نُفِيَ إلى كايين فهو يظنّ أنّ كلّ الشرطة في عقبيه.

وأقسم غافار بشرفه أنّ لوبيغر «رجل طيّب ونقيّ». ولكنّ لوغر هو من غضب حتّى ثار، وتقلقل مقعده، وأعلن أنّ من المستحيل المواصلة على هذا النحو، وأنّه إن استمرّ اتّهام الجميع بأنّهم يتعاونون والشرطة، فسوف يبقى في بيته ولن يهتمّ بالسياسة ثانيةً. أوَ لم يجرؤوا على اتّهامه شخصياً، هو، لوغر الذي تعرّض للضرب في 1848 وفي 1851 والذي كاد أن يُنفى مرّتين! وفيما يهتف بهذا، كان ينظر إلى الآخرين، مادّاً فكّه إلى الأمام كأنّه يريد أن يرسّخ

في أذهانهم بعنفٍ أنّه لم يكن من المتعاونين. وتحت نظراته الغاضبة، أيّده الآخرون بإيماءاتهم. ومع ذلك، فعندما سمع لاكاي وصف السيّد لوبيغر بالمُرابي خفض رأسه.

ودفنت النقاشات تلك الحادثة. وكان السيّد لوبيغر منذ أعلن لوغر فكرة المؤامرة أخذ يصافح روّاد المقصورة بجفاء أكبر. وفي الحقيقة فإنّهم بصفتهم زبائن كانوا يعودون عليه بربح ضئيل. فهم لا يجدّدون أبداً مشروباتهم. وعند ساعة الانصراف يجرعون القطرات الأخيرة من كؤوسهم التي كانوا يحتسونها على مهل في خضمّ النظريات السياسية والاجتماعية. وكانت المغادرة في برد الليل ورطوبته مُرعِدة. يبقون لوهلة على الرصيف بعيون ملتهبة وآذان صمّاء وكأنّما داهمهم صمت الشارع وظلامه. ومن خلفهم روز تغلق مصاريع الأبواب. ثمّ يتصافحون، منهكين، وقد استنفدوا كلّ الكلام، فيتفرّقون وهم يمضغون الحجج، مع ندمهم المتبادل لأنّهم لم يستطيعوا إقحام قناعاتهم كلّ في حلق الآخر. كان ظهر روبين المقوّس يتموّج ويختفي ناحية شارع رامبوتو؛ فيما يذهب شارفيه وكليمنص عبر ليهال حتّى حديقة اللوكسمبورغ جنباً إلى جنب ويُسمَع وقع خطواتهما بإيقاع عسكريّ، وهما مستمرّان في النقاش في أمور سياسية أو فلسفية دون أن يتأبّط أحدهما ذراع الآخر أبداً.

كانت المؤامرة تنضج ببطء. وعند بدايات الصيف، لم تكن المسألة سوى «انتهاز الفرصة». وانتهى الأمر بفلورون الذي كان متشكّكاً في بداية الأمر، إلى الاعتقاد في إمكانية حراك ثوريّ. وانشغل بذلك في منتهى الجديّة، وأخذ يدوّن ملاحظاته، راسماً خططاً مكتوبة. وكان الآخرون يتكلّمون دائماً. أمّا هو فكانت حياته تتركّز شيئاً فشيئاً حول الفكرة التي تضرب رأسه كلّ ليلة. حتّى أنّه اصطحب أخاه كونو إلى حانة السيّد لوبيغر، بشكل طبيعيّ، دون أن

يخطر على باله أيّ سوء. كان لا يزال يعامله وكأنّه تلميذه، ويفكّر أنّه لا بدّ أن يقوده نحو جادّة الصواب. وكان كونو مُستجدّاً في السياسة، لكنّه بعد خمس ليالٍ أو ستٍّ توصّل إلى التوافق معهم. وأخذ يُبدي انقياداً واحتراماً لنصائح أخيه في غياب ليزا الجميلة. بدايةً، كان ما أغواه بالانضمام إليهم هو المتعة البرجوازية في أن يغادر حانوته، وأن يذهب للجلوس في تلك المقصورة التي يتصايحون فيها بقوّة، والتي يضفي حضور كليمنص عليها نكهةً مريبةً ولذيذة. لذا كان يسرع في صنع النقانق كي يلتحق بهم فلا تفوته كلمة واحدة من تلك النقاشات التي تبدو له عالية جدّاً دون أن يستطيع أحياناً مجاراتها حتّى النهاية. وكانت ليزا تلاحظ جيّداً تعجّله في المغادرة. ولم تكن تقول شيئاً بعد. وعندما يصطحبه فلورون، كانت تخرج إلى عتبة الحانوت شاحبة وبعينين قاسيتين تراقبهما وهما يدخلان حانة السيّد لوبيغر.

ميّزت الآنسة ساجيه من كوّتها، مرّةً، خيال كونو على الزجاج الفاقد البريق للنافذة الكبيرة للمقصورة، تلك التي تطلّ على شارع بيرويت. لقد عثرت على موقع ممتاز للمراقبة في مواجهة الشفافية الغائمة للنافذة التي ترتسم عليها خيالات هؤلاء السادة، بأنوفهم المفاجئة وفكوكهم التي تتمدّد وتنبجس، وأذرع ضخمة تستطيل بغتةً دون أن تُرى أجسادها. ذلك التخلخل المدهش للأطراف، وهذه الخيالات الصامتة التي لا تُفصح عن الحوارات المحتدمة داخل المقصورة، كانت تبقيها خلف ستائر الحرير الموصليّ حتّى تستحيل شفافية نافذة المقصورة إلى ظلام. كانت تشتمّ رائحة تدبير سرّيّ. وصارت تعرف خيالاتهم، من الأيدي، والشعور، والملابس. في هذا الخليط من القبضات المتوعّدة، والرؤوس الغاضبة، والأكتاف المنتفخة، تتباعد وتلتفّ الواحدة على الأخرى، كانت تقول بثقة: هذا الطويل هو ابن العمّ الساذج، وهذا هو الشيخ البخيل غافار، وهذا هو الأحدب، وهذه هي

كليمنص النحيفة». ثمّ عندما تنشط الخيالات، وتصبح في حال من الفوضى، تأخذها رغبة عارمة في النزول لتذهب وترى. كانت تشتري نبيذ الكشمش في أوّل الليل، بحجّة أنّها لا تكون على ما يرام في الصباح وأنّه يلزمها ما إن تقوم من نومها. وفي اليوم الذي شاهدت فيه رأس كونو الثقيل ويد شارفيه النحيلة تهتزّ في إيماءات عصبيّة، هرعت لاهثةً إلى حانة السيّد لوبيغر، وجعلت روز تغسل لها قارورتها الصغيرة كي تكسب بعض الوقت. وإذ كانت بصدد العودة إلى بيتها سمعت صوت جزّار الخنزير يقول بصراحة طفولية:

- لا، إنّ الأمر غاية في البساطة، سنوجّه ضربةً مهينةً لثلّة المهرّجين من النوّاب والوزراء، لكلّ هذه المهزلة، في النهاية!

وفي الصباح التالي، منذ الثامنة، كانت الآنسة ساجيه في حانوت لحم الخنزير. وقد وجدت هناك السيّدة لوكور ولاسارييت تشتريان سجقاً ساخناً لغدائهما، وتستدفئان بالموقد. كانت العانس العجوز قد أقحمتهما في معركتها مع النورماندية الجميلة بخصوص سمكة الليمندة ذات العشرة مليمات، فصارت الاثنتان في صفّ ليزا الجميلة. ولم تعد السمّاكة تسوى شيئاً. هاجمن آل ميهودان، فهنّ فتيات بلا قيمة لا يطمعن سوى في نقود الرجال. والحقيقة أنّ الآنسة ساجيه كانت قد أفهمت السيّدة لوكور أنّ فلورون يمرّر إحدى الشقيقتين إلى غافار، وأنّهم أربعتهم يقيمون حفلات ماجنة في مطعم بارات، وبالطبع من نقود تاجر الدواجن. فاغتمّت السيّدة لوكور حتّى اصفرّت عيناها من المرارة.

ذلك الصباح كانت العانس العجوز تريد توجيه ضربتها إلى السيّدة كونو. دارت حول المنضدة وبنبرة غاية في الرقّة قالت:

- لقد رأيت السيّد كونو مساء أمس، حسناً، إنّهم يستمتعون في تلك المقصورة التي يتصايحون فيها.

حادت ليزا بوجهها عن الشارع، وأصاخت سمعها مع أنّها لا تريد بالطبع أن تبدو مهتّمةً. توقّفت الآنسة ساجيه عن الحكي أملاً في أن تسألها، ثمّ أضافت بصوت أكثر انخفاضاً:

- هناك امرأة معهم... آه! ليس السيّد كونو، أنا لا أقول ذلك، لا أدري...

- إنّها كليمنص، قاطعت لاساربيت، فتاة يابسة تماماً تتباهى كالطاووس لأنّها كانت في المدرسة. وهي تعيش مع معلّم بائس... لقد رأيتهما معاً. يبدوان دائماً وكأنّهما متوجّهان إلى مخفر الشرطة.

- أعرف، أعرف، قالت العجوز التي تعرف جيّداً من هو شارفيه ومن هي كليمنص، لكنّها كانت تحكي فقط لتثير هواجس الجزّارة.

ولم يبدر عن ليزا أيّ ردّ فعل، كانت مشغولةً بمراقبة شيء مثير يدور في ليهال. فاستخدمت الأخرى حيلتها الكبرى، إذ قالت متوجّهةً بالكلام إلى السيّدة لوكور:

- أريد أن أقول لك، يجدر بك أن تنصحي زوج أختك بأن يتحلّى بالحذر. إنّهم يتصايحون في تلك المقصورة بأشياء مخيفة. إنّهم غير متعقّلين هؤلاء الرجال بمثْل هذه الآراء السياسيّة. لو سمعهم أحد، فلن تكون العواقب طيّبة بالنسبة لهم. أليس كذلك؟

- غافار يفعل ما يحلو له، قالت السيّدة لوكور متنهّدةً. لا ينقصني إلّا هذا. سيستبدّ بي القلق إذا ما زُجّ به في السجن يوماً.

وبدا في عينيها الغائمتين بريق. وضحكت لاساربيت، وهي تهزّ وجهها

الصغير النضر من هواء الصباح، وقالت:

- إنّ جول هو من يمكنه أن يصلح أمر هؤلاء الذين يقولون عن الإمبراطورية أشياء شرّيرة... يجب إغراقهم جميعاً في نهر السّين، لأنّه، حسب ما قال لي، لا يوجد بينهم رجلٌ بمعنى الكلمة.

- آه، واصلت الآنسة ساجيه، إنّه ليس أمراً خطيراً طالما أنّ ذلك الطيش قد تناهى إلى سمع شخص مثلي. أفضّل أن أقطع يدي على الوشاية، كما تعرفين... وهكذا، قال السيّد كونو بالأمس...

وسكتت ثانية، فتململت ليزا قليلاً.

- قال السيّد كونو إنّه يجب إطلاق النار على الوزراء، والنواب، وكلّ الحثالة.

والتفتت الجزّارة هذه المرّة وقد شحب وجهها، ويداها معقودتان على صدريّتها.

- هل قال كونو ذلك؟ سألت بلهجة مقتضبة.

- وقال أيضاً أشياء أخرى لا أذكرها. هل تفهمين. أنا من سمعتهم... لا تخافي هكذا يا سيّدة كونو، تعرفين أنّني لا أُذيع الكلام أبداً؛ إنّني كبيرة بما يكفي كي أعرف ما الذي يمكن أن يذهب بأحد الرجال بعيداً... هذا الكلام يبقى بيننا.

استعادت ليزا أنفاسها. كانت شديدة الاعتزاز بالسلام الهانئ لأسرتها، وما شكتْ يوماً من أيّ شيء يعكّر صفوّ العلاقة بينها وبين زوجها. فما كان منها إلّا أن هزّت كتفيها وهمست:

- إنّها حماقات تُضحك الأطفال.

وعندما غادرت النسوة الثلاث وصرن على الرصيف، اتّفقنَ على أنّ ليزا كان لها هيئة غريبة. كلّ هذا، ابن العمّ، وآل ميهودان، وغافار، وآل كونو بقصصهم التي لا يفهمها أحد، هذا كلّه ستكون عاقبته سيّئة. وتساءلت السيّدة لوكور عمّا يفعلونه بالموقوفين «بسبب السياسة». وكانت الآنسة ساجيه تعرف فقط أنّهم لا يظهرون ثانيةً، لا يظهرون أبداً؛ وهو ما دفع لاساربيت إلى القول إنّهم ربّما يلقونهم في نهر السين، كما كان يطالب به جول.

وتحاشت الجزّارة أثناء الغداء والعشاء أيّ إشارة إلى ذلك. وفي المساء، عندما ذهب فلورون وكونو إلى حانة السيّد لوبيغر، لم تُظهر أيّ ملامة قاسية في عينيها. ولكن في ذلك المساء تحديداً طُرحت للنقاش مسألة الدستور القادم، وقد بقيا في المقصورة، وحين قرّرا المغادرة كان ذلك في الواحدة صباحاً. كان خصاص النوافذ قد أُغلق، واضطرّا للخروج من الباب الصغير واحداً بعد الآخر، وهما ينحنيان. وعاد كونو بوعي قلق، وفتح الأبواب الثلاثة أو الأربعة للمسكن بأقلّ صخب ممكن، سائراً على أطراف أصابعه، وتجاوز الصالون مادّاً ذراعيه كي لا يصطدم بالأثاث. كلّ شيء نائم. وفي الغرفة تضايق كثيراً لأنّه وجد أنّ ليزا قد تركت الشمعة مشتعلةً؛ كانت تلك الشمعة تحترق في قلب الصمت الكبير، بلهيبٍ عالٍ وحزين. وإذ خلع نعليه ووضعهما على إحدى زوايا البساط، دقّت ساعة الحائط الواحدة والنصف بجرس واضح، فالتفت مذعوراً، متخوّفاً من أن يقوم بأيّ حركة. جعلَ ينظر بلومٍ غاضبٍ إلى التمثال الصغير اللّامع لغوتنبرغ واضعاً إصبعه على أحد الكتبِ. لم يكن يرى سوى ظهر ليزا ورأسها الغاطس في الوسادة؛ لكنّه استشعر أنّها ليست نائمةً، وأنّ عينيها ولا بدّ مفتوحتان على اتّساعهما بمواجهة الحائط. ذلك الظهر الضخم اللّحيم الكتفين، كان يغطّ ويحتفظ بثباته وبثقلِ اتّهام صامت. وكان كونو مشوّشاً بسبب صرامة هذا الظهر

الذي بدا وكأنّه يتفحّصه بالوجه الغليظ لقاضٍ، فغاصَ تحت الأغطية، وأطفأ الشمعة، وبقي صامتاً. ولاذ بحافّة السرير كيّ لا يلمس زوجته. لم تكن نائمةً بعد، يمكن أن يقسم على ذلك. ثمّ استسلم للنعاس يائساً من عدم كلامها، ولم يجرؤ على إلقاء تحيّة المساء عليها، كان بلا حول ولا قوّة في مواجهة تلك الكتلة العنيدة التي تسدّ الفراش على كلّ محاولاته المذعنة.

ظلّ نائماً حتّى ساعة متأخّرة في الصباح التالي، واستيقظ والغطاء يعلوه حتّى ذقنه، ممدّداً في منتصف السرير، ورأى ليزا جالسةً أمام المكتب منهمكةً في تنظيم بعض الأوراق. كانت قد نهضت دون أن يشعر بها في نومه العميق بعد عربدة سهرة الأمس. فتمالك شجاعته وقال من عمق المخدع:

- لماذا لم توقظيني؟... وماذا تفعلين هناك؟

- إنّني أرتّب هذه الأدراج، ردّت عليه بهدوءٍ وبصوتها الاعتياديّ.

شعر بالاطمئنان، لكنّها أضافت:

- لا نعرف ما الذي يمكن أن يحدث، إذا جاءت الشرطة...

- ماذا؟ الشرطة؟

- بالتأكيد، ما دُمتَ منهمكاً في السياسة الآن.

جلس على مقعده، ذاهلاً ومصدوماً من هذه الضربة العنيفة وغير المتوقّعة.

- أنا مشغول بالسياسة، أنا مشغول بالسياسة، كرّر، الشرطة لا دخل لها بالأمر. أنا لم أتورّط بشيء.

- لا، قالت ليزا مع هزّة من كتفيها، أنت تتكلّم فقط عن إطلاق النار على كلّ الناس.

- أنا! أنا!

- وتصرخ بهذا في حانوت خمّار... وقد سمعتك الآنسة ساجيه. كلّ الحيّ يعرف الآن أنّك من الحُمر[1].

وفجأةً عاد إلى الرقاد. لم يكن قد استيقظ بالكامل بعد. كانت كلمات ليزا تدوّي، وكأنّه يسمع الوقع القويّ لجزمات رجال الشرطة خلف باب الغرفة. أخذ ينظر إليها وهي تصفّف شعرها، وتربط مشدّاتها، في استعدادات تبرُّجها العاديّة، واندهش أكثر لرؤيتها بمنتهى رباطة الجأش في ذلك الظرف المأساويّ.

- أنت تعرف، أنا أتركك طليقاً، قالت بعد فترة صمت وهي تواصل ترتيب الأوراق؛ لن أتولّى أنا قيادة البيت. فأنت السيّد، وأنت تعرّض منزلتك للمخاطرة، وتهدّد سمعتنا، وتدمّر البيت... أنا، لن يكون عليّ لاحقاً سوى السهر على مصالح ابنتنا بولين.

اعترض، لكنّها أسكتته بإيماءة، وهي تضيف:

- لا، لا تقل شيئاً، إنّها ليست مشاجرةً، وأنا لا أطلب تفسيراً. آه لو كنتَ طلبتَ مشورتي، لو كنّا تحادثنا في ذلك معاً! الناس يخطئون في اعتقادهم أنّ النساء لا يفقهن شيئاً في السياسة... هل تريدني أن أقول لك آرائي السياسيّة؟

وقامت، متوّجهةً من السرير إلى النافذة، ماسحةً بأصابعها حبّات الغبار التي لاحظتها عالقةً على خشب الخزانة اللامع، وعلى مرآة منضدة التزيين، وأضافت:

- إنّها سياسة الناس المخلصين... أنا أشعر بالامتنان تجاه الحكومة عندما

(1) أي من المتمرّدين والثوريّين.

تسير تجارتي على ما يرام، وأتناول حسائي في أمان، وأنام دون أن يوقظني صوت طلقات الرصاص... لقد كان خيراً ما حدث في عام 1848، أليس كذلك؟ الخال غراديل، وهو رجل محترم، أطلعنا على دفاتره عن تلك الفترة، لقد خسر وقتها أكثر من ستّة آلاف فرنك... والآن، ولدينا الإمبراطورية، الأمور كلّها تسير على ما يرام، كلّ شيء يُباع. أنت لا تستطيع أن تقول عكس ذلك... إذن، ماذا تريدون. علام ستحصلون فوق ذلك، لو أنّكم أطلقتم الرصاص على الجميع؟

ووقفت عند الطاولة المجاورة للسرير بيديها معقودتين في مواجهة كونو، الذي اختفى تحت الأغطية. وحاول أن يشرح ما الذي يرغب فيه هؤلاء السادة، لكن اختلطت عليه النُظم السياسية والاجتماعية التي يؤمن بها شارفيه وتلك التي يؤمن بها فلورون، وتكلّم عن نظريات لا يكاد يعرفها، وعن قدوم الديموقراطية، وتجدّد المجتمعات، خالطاً كلّ شيء بطريقة شديدة الغرابة، حتّى هزّت ليزا كتفيها تعبيراً عن عدم فهمها. وفي النهاية أنقذ نفسه بالهجوم على الإمبراطورية: إنّه حكم الرذيلة، حكم الصفقات القذرة، والسرقة المسلّحة.

- هل ترين، قال وهو يتذكّر جملةً للُوغر، نحن فريسة لعصبة من المغامرين تنهب وتنتهك وتغتال فرنسا... هل يلزم المزيد!

وهزّت ليزا كتفيها مرّةً أخرى.

- هل هذا هو كلّ ما لديك لتقوله؟ سألت ليزا ببرودها المعهود. ما همّني من هذه الأشياء؟ حتّى إذا كان ذلك حقيقة، في نهاية الأمر؟... هل أنصحك أنا بأن تكون رجلاً غشّاشاً؟ هل أدفعك لعدم سداد مستحقّاتك أو إلى خداع الزبائن ومراكمة النقود الحرام؟... أنت

تغضبني، نحن أناس طيّبون لا ننهب شيئاً ولا نقتل أحداً. هذا يكفي. الآخرون لا يعنونني في شيء! فليكونوا أوغاداً إذا شاءوا.

كانت رائعةً ومفحِمة. واصلت سيرها منتصبةً بفخارٍ وأكملت:

- كي نرضي من لا يملكون شيئاً، يجب أن نكفّ عن كسب عيشنا... بالتأكيد إنّني أنتفع من اللحظة المناسبة وأدعم الحكومة التي تدعم التجارة. إذا كانت ترتكب أفعالاً شرّيرة فأنا لا أريد أن أعرفها. أنا أعرف أنّني لا أقوم بشيء من هذا القبيل، أنا أسير في الحيّ مرفوعة الرأس. سيكون من الحماقة مصارعة طواحين الهواء... أنت تذكر أنّ غافار قد قال في الانتخابات إنّ مرشّح الإمبراطور رجل مُفلس، ومتورّط في قصص قذرة. وهو ما يمكن أن يكون صحيحاً، لا أنكر. وأنت بحكمة لم تهتمّ بذلك وصوّتَّ له. لأنّ المسألة لم تكن كذلك، لم تكن مسألة إقراض أموال أو الدخول في أعمال مع ذلك الرجل، ولكن كانت المسألة هي إطلاع الحكومة على رضاك عن ازدهار حانوتنا.

عندها تذكّر كونو جملةً لشارفيه تقول: «هؤلاء البرجوازيّون الممتلئون، وأصحاب الحوانيت السّمان الذين يولون دعمهم لحكومة التخمة العامّة يجب أن يكونوا أوّل من يُلقى بهم في المجارير. فبفضلهم وبفضل أنانيّتهم يفرض الاستبداد نفسه ويلتهم الأمّة». وكاد أن يكمل الجملة حتّى نهايتها لولا أن أسكتته ليزا ساخطةً:

- دعْكَ عن هذا! إنّ ضميري لا يشتكي من شيء. لست مدينة بمليم واحد، وأنا غير متورّطة في أيّ تلاعب، أشتري وأبيع بضائع جيّدة، ولا أفرض أسعاراً أغلى من أسعار جيراني... إنّ ما تقوله ينطبق على أبناء عمّي آل ساكّار؛ هم يتظاهرون بأنّهم لا يعرفون حتّى أنّني في

باريس، لكنّني أكثر فخراً منهم، وأنا أهزأ بملايينهم تلك. يقولون إنّ ساكّار يتاجر بالبيوت الخربة، وإنّه يسرق كلّ الناس. وهذا لا يدهشني، فقد سافر من أجل ذلك، إنّه يحبّ النقود ليتمرّغ فيها، ثمّ يلقيها بعد ذلك من النافذة، مثل أحمق... أن يُرتاب من الأشخاص من شاكلته ممّن يحقّقون ثروات طائلة، أستطيع أن أفهم ذلك. أنا، لو تريد أن تعرف، لا أحترم ساكّار... ولكنْ نحن، نحن من نعيش في سلام ومن نكدح خمس عشرة سنة لنحقّق بعض اليُسر، نحن غير المشغولين بالسياسة، ومَن كّل همّنا هو أن نُربّي ابنتنا، وأن نصل بالمركب إلى برّ الأمان، فلتضحك إذن، نحن أناس مخلصون!

وجاءت وجلست على حافّة السرير. كان كونو مزعزعاً.

- اسمع، واصلت القول بصوت أعمق، أنت لا تريد، حسب ما أعتقد، أن يُنهب حانوتك، وأن يُفرغوا القبو، ويسرقوا نقودك؟ لو انتصر هؤلاء الرجال المجتمعون في حانة السيّد لوبيغر، فهل تظنّ أنّك في الصبيحة التالية ستكون نائماً في الدفء كما أنت الآن؟ وعندما تهبط إلى المطبخ، هل تحسب أنّك ستعمل على الغلتين بسلام كما ستفعل بعد قليل؟ لا، أليس كذلك؟ إذن لماذا تتكلّم عن إسقاط الحكومة، التي تحميك وتجعلك تُراكم المدّخرات؟ إنّ لك امرأة ولك ابنة وأنت مسؤول عنهما قبل أيّ شيء. ستكون مذنباً لو عرَّضت سعادتهما للخطر. وحدهم الضائعون والمشرّدون، ممّن ليس لديهم ما يفقدونه، من يريدون إطلاق النيران. أعتقد أنّك لا تريد أن تكون المهرّج في هذه الملهاة! ابقَ إذن في بيتك، أيّها الأحمق، نمْ جيّداً، وكلْ جيداً، واكسب نقوداً، ولترِح ضميرك، وقل لنفسك إنّ فرنسا ستتعافى من تلقاء نفسها إذا ما أرهقتها الإمبراطورية، إنّ فرنسا لا تحتاجك!

وضحكت ضحكتها الجميلة، واقتنع كونو تماماً. كانت في النهاية محقّةً! وهي امرأة جميلة، جالسة على طرف السرير، وشعرها مصفّف منذ ساعة مبكّرة، شديدة النظافة والنضارة بملابسها الناصعة. وهو ينصت إلى ليزا، كان ينظر إلى صورتيهما المعلّقتين على جانبَي المدفأة؛ بالتأكيد، كانا من الناس المخلصين، ومظهرهما كما ينبغي أن يكون، مرتديين السواد في الإطارين المذهّبين. وبدت له الغرفة نفسها غرفة لزوجين مميّزين، تُضفي التخاريم نوعاً من النزاهة على المقاعد، وتفصح الستائر والبساط والمزهريات الخزفية ذات المناظر الطبيعية عن عملهما وذوقهما في الرفاهية. فغاص ثانيةً تحت الأغطية حيث كان ينصهر تحت حرارة كحرارة الحمّامات. وبدا له أنّه كاد يفقد كلّ هذا في حانة السيّد لوبيغر، سريره الضخم، وغرفته المغلقة، وحانوته الذي يفكّر فيه الآن بندم خافت، ويفكّر في ليزا، والأثاث، وهذه الأشياء الجميلة التي تحيط به وتطوّقه بهناءة لذيذة.

- أنت ساذج، قالت له زوجته إذ رأته قد تراجع، لقد مضيتَ بعيداً في نهجك الجديد. لكن من أجل ذلك سينبغي عليك أن تخطو على جثّتينا، أنا وبولين. ستتوقّف عن انتقاد الحكومة، أليس كذلك؟ كلّ الحكومات هي نفس الشيء، نساند هذه، ثمّ نساند الأخرى، ذلك ضروريّ. المهمّ هو أنّنا عندما نتقدّم في السنّ، نستطيع أن نكسب دخْلنا في سلام، مع اليقين من أنّنا نكسبه عن جدارة.

وافق كونو بإيماءة من رأسه. وأراد أن يقدّم تبريراً:

- إنّه غافار... قال هامساً.

فاتّخذت سمتاً جادّاً وقاطعته بغتةً:

- لا ليس غافار، أنا أعرف من هو، ومن الأفضل له أن يفكّر في سلامته

الشخصيّة، قبل أن يورّط الآخرين.

- هل تتكلّمين عن فلورون؟ سأل كونو بخفرٍ بعد برهة من الصمت.

لم تجب مباشرةً. وقامت، واتّجهت إلى المكتب كما لو كانت تبذل مجهوداً لتتمالك نفسها، ثمّ قالت بصوت واضح:

- نعم، هو فلورون... أنت تعلم كم أنا صبور. ولا شيء في العالم يجعلني أتدخّل بينك وبين أخيك. إنّ الأواصر العائلية لشأن مقدّس، ولكن طفح بي الكيل، فمنذ جاء أخوك والأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ... ولكنّي أفضّل ألّا أقول شيئاً.

وساد الصمت من جديد، ولمّا كان زوجها ينظر إلى السقف مُحرجاً، واصلت بحدّة أكبر:

- في النهاية، لا شيء يقال، إنّه حتّى لم يقدّر ما فعلناه من أجله. لقد ضغطنا على أنفسنا، وأعطيناه غرفة أوغستين، والفتاة المسكينة صارت تنام في مقصورة سيّئة التهوية ولا تشكو. ونحن نطعمه في الصباح وفي المساء، ونعتني به في أصغر الأشياء. وهو يقبل بذلك طبعاً. هو يربح النقود، لكنّنا لا نعرف أين تذهب، أو بالأحرى إنّنا نعرف جيّداً أين تذهب.

- لكنّ هناك الميراث، جازف كونو بالقول بعد أن انزعج من الهجوم على أخيه.

بقيت ليزا متصلّبةً، كأنّها ذاهلةً، وهبط غضبها.

- معك حقّ، هناك الميراث... ها هي الحسابات في ذلك الدُرج، لكنّه لم يرغب فيه، وأنت كنت حاضراً، هل تذكر؟ وذلك يثبت أنّه صبيّ

بلا عقل ولا منطق. لو كان لديه ذرّة تفكير، لكان فعل شيئاً بهذه النقود... أنا لم أعد أريد الاحتفاظ بها، وسيريحنا لو أخذها... وقد كلّمته عن ذلك مرّتين، لكنّه لم يكن حتّى يريد الاستماع إليّ. يجب أن تتولّى أنت الأمر... ستحاول أن تتكلّم معه، أليس كذلك؟

ردّ كونو بغمغمة، وتحاشت ليزا أن تصرّ، معتقدة أنّ الأمانة كلّها كانت في جانبها.

- لا، ليس فتى كالآخرين، استأنفت ليزا الكلام، هو ليس باعثاً على الطمأنينة، ما قولك؟ إني أقول لك ذلك إذ نحن بصدد الحديث... أنا لا أهتمّ بسلوكه الذي جرّ علينا الأقاويل في الحيّ. أن يأكل وينام في بيتنا ويضايقنا، بإمكاننا احتمال ذلك. فقط لن أسمح له أن يزجَّ بنا في أموره السياسيّة. لو تسلّط على تفكيرك مرّةً أخرى، لو عرضّنا لأدنى خطر، فسوف أتخلّص منه... إنّي أحذّرك، هل تفهم!

ثبتتْ إدانة فلورون، وهي تبذل جهداً مضاعفاً كي لا تهدأ، تاركةً الضغينة المتراكمة في قلبها تفيض بكاملها. كان يصدم كلّ غرائزها، يجرحها، يُرعبها، ويحيلها إلى امرأة تعيسة بحقّ. فهمست ثانيةً:

رجلٌ مرَّ بأفظع المغامرات، ولم يستطع أن يصنع لنفسه مجرّد مأوى... أتفهّم أنّه يحلم بطلقات نار. فليتلقّها هو إن كان يريدها؛ ولكن ليترك الناس الطيّبين لعوائلهم... ثمّ إنّه لا يعجبني، في النهاية! تفوح منه رائحة السمك في المساء وهو على طاولة الطعام، وذلك يفسد شهيّتي. أمّا هو فلا يضيّع لقمة واحدة، وليته يفيد منها! إنه حتّى لا يسمن، البائس، من فرط ما يتأكّله الحقد.

كانت قد اقتربت من النافذة، ورأت فلورون وهو يعبر شارع رامبوتو

متوجّهاً إلى سوق السمك. كانت شحنات الأسماك وثمار البحر غزيرةً ذلك الصباح؛ القفّف تزخر بلون الفضة المتموّج، والمزادات تهدر. تابعت ليزا كتفَي أخي زوجها النحيلتين وهو يلج في روائح سوق ليهال النفّاذة، وظهره محنيّ من ذلك الغثيان الذي يصيب معدته ويصعد حتّى حلقه. كانت نظرتها التي تلاحقه نظرة امرأة محاربة، نظرة امرأة مصمّمة على الانتصار.

وعندما استدارت، كان كونو قد قام، في قميص نومه، وقدماه الحافيتان تغوصان في نعومة البساط الوثير، لا يزال ساخناً من دفء الأغطية. كان واجماً، ومبتئساً لانعدام الوفاق بين أخيه وزوجته. ولكنّ ليزا اصطنعت إحدى ابتساماتها الجميلة. وقد أثّرت فيه بقوّة وهي تعطيه جوربيه.

الفصل الرابع

عثروا على مارجولان في سوق لينوسان، وسط كومة من الكرنب، تحت رأسِ كرنبة بيضاء تغطّي إحدى أوراقها العريضة المتدلّية وجهه الورديّ، وجه طفل نائم. ولا أحد يعرف حتّى الآن أيّ يدٍ بائسة وضعته هناك. كان لا يزال في سنته الثانية أو الثالثة، سميناً جدّاً ومفعماً بالحياة، لكنّه محتبس اللسان نوعاً ما، متلعثم لا يكاد يتلفّظ سوى ببعض الكلمات، ولا يُحسن سوى الابتسام. عندما وجدته إحدى بائعات الخضار تحت كرنبة بيضاء أطلقت صرخةً من جرّاء المفاجأة، فهرعت إليها الجارات متعجبّات؛ وهو كان يمدّ يديه في ثوبِ بناتٍ، وملفوفاً في قطعة من غطاء. لم يستطع أن يقول لهنّ من هي أمّه. كان له عينان مندهشتان، وهو يتشبّث بكتف بائعة كروش وكراعين بدينة أخذته بين ذراعيها. وقد شغل السوقَ كلّها حتّى المساء. كان قد اطمأنّ وشرع يأكل شرائح الخبز ويضحك لكلّ النساء. احتفظت به البائعة البدينة؛ ثمّ انتقل إلى جارة أخرى؛ وبعد مضيّ شهر كان ينام في بيت امرأة ثالثة. وكان إذ يسألونه: «أين أمّك؟» يقوم بحركة لطيفة فيلفّ بيده مشيراً إلى السوق بأكملها. كان ابن سوق ليهال، يتبع تنّورة إحداهنّ أو الأخرى، ويجد دائماً

ركناً ينام فيه، ويتناول الحساء في أيّ مكان كان، ويجد ملابس يرتديها بفضل نعمة الربّ. ولا يعدم فوق ذلك بعض المليمات في جيوبه المثقوبة. وقد أسمته فتاة حُمَيراء صهباء جميلة تبيع النباتات الطبّية مارجولان دون أن يُعرَف لذلك سبب.

كان مارجولان سيتمّ عامه الرابع عندما وجدت مَدام شانتميس بدورها طفلةً صغيرةً على الرصيف في شارع سان دوني، في ركن السوق. ربّما كانت في عامها الثاني، لكنّها كانت تثرثر كالعقعق، تطلق الكلمات بلحنها الطفوليّ. وقد فهمتْ منها مَدام شانتميس أنّ اسمها كادين، وأنّ أمّها قد تركتها عشيّة تلك الليلة جالسةً بجوار أحد الأبواب، وقالت لها أن تنتظرها. وقد نامت الطفلة هناك، ولم تبكِ، وحكت أنّ بعضهم قد ضربوها، ثمّ تبعت مَدام شانتميس، فرحةً ومذهولةً بذلك المكان الواسع الغاصّ بالبشر والخضروات. كانت مَدام شانتميس، وهي بائعة كميّات صغيرة من الخضار، امرأةً طيّبة، فظّة جدّاً وتقارب الستّين؛ وكانت تعشق الأطفال إذ فقدت ثلاثة أبناء وهم بعد في المهد. ففكّرت أنّ «تلك العفريتة هي أكثر لؤماً من أن تموت»، وتبنّت كادين.

ولكن ذات مساء، وبينما تسير مَدام شانتميس ممسكةً كادين بيدها اليمنى، تعلّق مارجولان تلقائياً بيدها اليسرى.

- ماذا يا صبيّ، قالت العجوز بينما هي تتوقّف، المكان محجوز... أنت لم تعد إذن مع تيريز الطويلة، يا لك من زير نساء صغير!

نظر إليها ضاحكاً دون أن يتركها، ورقّ قلبها حيال جماله وشعره المجدول. همست:

- هيا إذن، يا طفليَّ، سيكون مأواكما معاً عندي.

وبلغت شارع لار، حيث تقيم، بطفلٍ في كلٍّ من يديها. وظلّ مارجولان في رعاية مَدام شانتميس. وكانت إذا أحدثا جلبة كبيرة تلطمهما برفق، سعيدةً بأنّها تستطيع أن تنهر أحداً، وأن تغضب، وأن تحمّمهما وتحشرهما تحت نفس الأغطية. وأعدّت لهما سريراً صغيراً، هو في الأصل عربة قديمة من عربات الباعة المتجوّلين منزوعة العريَشين والدواليب. كان مثل مهدٍ واسعٍ صلب قليلاً ولا تزال له رائحة الخضروات التي لطالما أودعتها هي فيه طازجّةً تحت أقمشة مبتلّة. في عمر الرابعة، كان مارجولان وكادين ينامان فيه متحاضنين.

هكذا كبرا معاً، يراهما الناس دائماً متخاصرَين. وفي الليل، تسمعهما مَدام شانتميس يثرثران همساً. كان صوت كادين الرفيع يحكي بلا نهاية أشياء يُنصت لها مارجولان مُندهشاً صامتاً. كانت خبيثة، تخترع حكايات لتخيفه، تقول له إنّها رأت في ليلة سابقة رجلاً شديد البياض بجوار سريرهما ينظر إليهما وهو يمدّ لسانه الأحمر الطويل. وكان مارجولان يتعرّق من الرهبة، ويطلب منها المزيد من التفاصيل، وهي تدعوه «البهيمة الكبيرة» ساخرةً منه. في أوقات أخرى كانا يتشيطنان، ويتراكلان تحت الأغطية؛ كانت كادين تثني ساقيها وتكتم ضحكتها عندما كان مارجولان يُخطئها ويضرب الحائط. حينها كان يتوجّب أن تستيقظ مَدام شانتميس كي تردّ عليهما الأغطية، فتنيمهما بضربة على الوسادة. كان الفراش لفترة طويلة مكاناً للّهو؛ يُحضران فيه ألعابهما الصغيرة، ويأكلان ما يسرقان من الجزر واللّفت. وفي كلّ صباح تندهش أمّهما بالتبنّي من وجود أشياء غريبة فيه، حصىً وأوراق وبقايا تفّاح، ودمى مصنوعة من بقايا أقمشة. وفي أيّام البرد الشديد، كانت تتركهما نائمَين، أجمة شعر كادين الأسود تختلط بجدائل مارجولان الشقراء، وفماهما متقاربان وكأنّهما يتدفّآن أحدهما بأنفاس الآخر.

تلك الغرفة في شارع لار كانت مكاناً فقيراً متداعياً تُضيئه نافذة وحيدة

ذات زجاج مغشّى بمياه الأمطار. كان الطفلان يلعبان فيها لعبة الاستغماض في الخزانة الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز، أو تحت سرير مَدام شانتميس الضخم. وكان هناك أيضاً طاولتان أو ثلاث يزحفان تحتها على أربع. كان ذلك ساحراً، إذ أنّ المكان معتم قليلاً وثمّة خضروات مهملة في الأركان المظلمة. شارع لار نفسه كان مكاناً مسلّياً، ضيّقاً ولا يتردّد عليه الكثيرون، بقنطرته العريضة المفضية إلى شارع لالانجري. كان باب البيت يوجد إلى جانب القنطرة، باب واطئ لا تُفتح درفته إلّا لمنتصفها، مفضية إلى درجات دبقة من سلم دائريّ. ذلك البيت ذو السقف المائل، الذي يغطّ غارقاً في الظلام والرطوبة، مع أنابيب الرصاص في كلّ طابق، كان قد تحوّل بدوره إلى لعبة أطفال كبيرة. كان كادين ومارجولان يقضيان نهاراتهما في قذف قطع من الحجارة إلى الأسفل بحيث تدخل في الأنابيب النازلة محدثةً جلبة تُمتِعهما. لكنّهما حطّما لوحَي زجاج، وامتلأت الأنابيب بقطع الحجارة، حتّى كادت مَدام شانتميس التي تقطن في البيت منذ ثلاثة وأربعين عاماً تتلقّى إنذاراً بالطرد.

وأخذ مارجولان وكادين يهاجمان العربات المتوقّفة في الشارع المقفر بأنواعها المختلفة. يصعدان على الدواليب، ويتأرجحان على أطراف السلاسل، ويتسلّقان الصناديق والسلال المتكوّمة. وكانت المخازن الخلفيّة لتجّار شارع لابوتري تنفتح هناك قاعات واسعة ومعتمة، تمتلئ وتفرغ في نفس اليوم، موفّرةً في كلّ دورة ثغرات مؤنسة ومخابئ يختفي فيها الطفلان وسط روائح الفاكهة المجفّفة والبرتقال والتفّاح الطازجين. وعندما يتعبان، يذهبان لرؤية مَدام شانتميس على رصيف سوق لينوسان، حيث يصلان شابكَين ذراعيهما، عابرَين الشوارع ضاحكَين وسط العربات، دون أن يخافا من أن يُدهسا. كانا يعرفان كلّ أحجار الرصيف، يغوصان بسيقانهم

الصغيرة حتّى ركبهما في أوراق الخضروات، دون أن ينزلقا، ويضحكان عندما ينقلب أحد المارّة بحذاءيه الثقيلتين على ظهره لأنّه قد وطئ حبّة أرضيّ-شوكيّ؛ كانا شيطانين نضرين لتلك الشوارع الدبقة. لا يُرى غيرهما. وفي أيّام المطر يتجوّلان على نحو خطير تحت مظلّة ضخمة بالية، كانت بائعة الخضار تحمي بها بسطتها منذ عشرين عاماً. ينصبانها اعتباطاً في أحد أركان السوق، ويسميّانها «البيت». وفي الأيّام المشمسة كانا يتشيطنان إلى الحدّ الذي يعجزان معه عن الحركة في المساء؛ يُغطسّان أقدامهما في النوافير، ويصنعان منها سدوداً تعيق تدفّق المياه، ويختبئان في أكوام الخضروات، ويظلّان هناك، في الجوّ اللطيف، يثرثران، كما يفعلان في فراشهما مساءً. كانت تُسمع أحياناً من بين جبال الخسّ والخسّ الرومانيّ أصوات ثرثرة مكتومة. وإذ تُرفع الخضروات يراهما المرء ممدّدين جنباً إلى جنب على طبقة من الأوراق الخضر، عيونهما منتبهة متوجّسة كطيرين دُوهِما في خميلة. أصبحت كادين لا تستطيع مفارقة مارجولان، ومارجولان يبكي إذا افتقدها. وإن افترقا لسبب ما فإنّهما يفتّشان أحدهما عن الآخر خلف كلّ تنانير ليهال، وفي الصناديق، وتحت الكرنب. تحت أكوام الكرنب بالذات ترعرعا ونما حبّهما.

كان مارجولان يقترب من الثامنة وكادين في السادسة عندما وبخّتهما مَدام شانتميس على كسلهما. وقالت لهما إنّها ستشركهما في تجارتها للكمّيات الصغيرة، ووعدتهما بملّيم في اليوم، إذا ما رغبا في مساعدتها في تقشير الخضار. في الأيّام الأولى أبلى الصغيران بلاءً حسناً. كانا يجلسان على طرفي البسطة، كلّ منهما يحمل سكّيناً رفيعة، وينهمكان في العمل. كانت مَدام شانتميس متخصّصة في بيع الخضروات المقشّرة. وكانت تضع على طاولتها المفروشة بنسيج مبلّل أكواماً من البطاطا واللّفت والجزر والبصل الأبيض مصفوفةً أربعاً أربعاً على هيئة أهرام، ثلاث حبّات في القاعدة، وواحدة في القمّة،

وكلّها جاهزة لأن توضع في قدور الطاهِيات المتعجّلات. كان لديها أيضاً ربطات معدّة لحساء اللّحم والخضار، وأربع باقات كُرّاث، وثلاث جزرات، وجزرة بيضاء كبيرة، وحبّتان من اللّفت، وعودان من الكرفس؛ هذا عدا الخضروات الطازجة المعدّة لصنع الحساء والمقطّعة إلى قطع صغيرة على شريحة من ورق: كرنبات مقسّمة إلى أربع، وأكوام من الطماطم وشرائح من القرْع تصنع نجوماً حمراء وأهلّة وردية في قلب بياض الخضروات الأخرى المغسولة بالماء الغزير.

كانت كادين أمهر من مارجولان، على الرغم من إنّها هي الصغرى. تنتزع من البطاطا قشرةً رقيقةً للغاية، يمكن أن نرى من خلالها الضوء. وكانت تحزم الربطات المعدّة لحساء اللحم والخضار بطريقة جميلة حتّى أنّها لتبدو كباقات زهور. وفي النهاية كانت تستطيع صُنع أكوام صغيرة بحيث تبدو أكبر حجماً، فقط من ثلاث جزرات أو ثلاث حبّات من اللّفت. وكان المارّة يتوقّفون ضاحكين عندما تهتف بصوتها الطفوليّ الحادّ:

- يا سيّدتي، يا سيّدتي، تعالي عندي، الكومة بمليمين!

وأضحت ماهرةً، فأكوامها الصغيرة صارت مشهورةً جدّاً. كانت مَدام شانتميس تطلق ضحكة مكتومة يهتزّ لها صدرها وهي جالسة بين الطفلين من رؤيتهما شديدَي الجدّ في العمل. وتنقدهما ملّيمهما كلّ يوم بكامل الالتزام. ولكنّ الأكوام الصغيرة صارت تُضجرهما. فقد كبرا قليلاً، وصارا يحلمان بتجارة أكثر ربحاً. وقد ظلّ مارجولان طفلاً لفترة طويلة، وهو ما كان يجعل صبر كادين ينفد. كانت تقول عنه إنّ له عقلاً كالكرنب. وفي الحقيقة كانت قد اخترعت له العديد من الوسائل لكسب النقود، لكنّه لم يربح شيئاً، لم يكن قادراً حتّى على كسب عمولة. أمّا هي فكانت شديدة الدهاء. في سنّ الثامنة، تمّ استخدامها من قبل إحدى البائعات الجالسات على الأرائك حول

ليهال بسلال الليمون، واللائي يشغّلن لمصلحتهنّ عصابات من الأطفال. كانت تعرض الليمونات في يدها، اثنتين بثلاثة مليهات، راكضة خلف النساء المارّات، وتدفع بضاعتها في أوجههنّ، ثمّ تعود وتحضّر بضاعة جديدة عندما تبيع ما في يدها. كانت تأخذ ملّيمين مقابل كلّ دزينة ليمونات، فكانت تتحصلّ في اليوم الواحد على خمسة مليهات أو ستّة في الأوقات المؤاتية. وفي العالم التالي، كانت تبيع القلانس بتسعة مليهات؛ وكان الربح أكبر؛ فقط كان يتوجّب عليها اليقظة التامّة، لأنّ البيع في الهواء الطلق هكذا كان محظوراً. كانت تشمّ رائحة رجال الشرطة على بُعد مائة خطوة، فتخفي القلانس تحت تنّورتها، وتنهمك في قضم تفاحة في هيئة بريئة. ثمّ جرّبت بيع الكعك والفطائر وقوالب الحلوى بالكرز والقضامات ومخبوزات الذرة، السميكة والصفراء، على فرش من قشّ السوحر؛ ولكنّ مارجولان كان يأكل بضاعتها. وفي النهاية، في سنّ الحادية عشرة حقّقت فكرةً كبيرةً كانت تؤرّقها منذ فترة. فقد ادّخرت أربعة مليهات في شهرين، واصطنعت بسطة للبيع من سلّة قديمة وبدأت تتاجر باللُّبين.

وكان ذلك كلّه عملاً كبيراً. تستيقظ مبكّراً جدّاً، وتشتري من تجّار الجملة تموينها من اللّبين، والذرة البيضاء، والمُغلّاة؛ ثمّ تنطلق، تعبر النهر، وتقطع الحيّ اللاتينيّ من شارع سان جاك حتّى شارع دوفين، وصولاً إلى حديقة اللوكسمبورغ. وكان مارجولان يصاحبها، وترفض هي حتّى أن يحمل السلّة وتقول إنّه غير صالح إلّا للهتاف، فكان ينادي على البضاعة بنبرة غليظة ومتباطئة:

- لبّين للأطيار الصغيرة!

فتردّد هي بنبرة رفيعة وبلحن غريب ينتهي بصوت مفتول مرتفع جدّاً:

- اللّبين للأطيار الصغيرة!

كان كلّ منهما يسير على رصيف ناظراً في الفراغ. في ذلك الوقت كان لمارجولان كنزة حمراء طويلة تتدلّى حتّى ركبتيه، هي في الأصل من مخلّفات الأبّ شانتميس الراحل، حوذيّ عربات الأجرة السابق، فيما ترتدي كادين ثوباً منقوشاً بمربّعات بيضاء وزرقاء، خِيطَ من قطعة قماش بالية عائدة إلى مَدام شانتميس. كانت طيور الكناري في كلّ غرف الحيّ اللاتيني تعرفهما، فعندما يمرّان، مردّدين نداءهما، ومطلقين أصداء هتافهما، كانت الأقفاص تغرّد.

كانت كادين تبيع أيضاً الجرجير. «بملّيمين الحزمة! بملّيمين الحزمة!» فكان مارجولان هو من يدخل إلى الحوانيت ليعرض البضاعة، «جرجير الماء الطيّب، لصحّة الجسم!». ولكنّ سوق ليهال المركزيّة كان قد انتهى إنشاؤها، وظلّت الصغيرة واقفةً منتشيةً أمام ممرّ الزهور الذي يخترق رواق الفاكهة. هناك، وعلى طول الممرّ، كانت منصّات البيع تبدو كمشاتل زهور على جانبَي الممشى، إزهار وإيناع لباقات كبيرة في حصاد عَطِر، وشائج سميكة من الورود، تحبّ فتيات الحيّ المرور من بينها، مبتسمات ومتشبّعات إلى حدّ الاختناق قليلاً بالأريج النفّاذ؛ وفي أعلى المعروضات، توجد الأزهار الاصطناعية، ببتلاتها الورقية وعليها قطرات من الصمغ تُحاكي قطرات الندى. أكاليل للمقابر بلآلئ سوداء أو بيضاء تُنوّع ألوانها بانعكاسات زرقاء. تفتح كادين منخرَي أنفها الورديّ بحسّية قطّة؛ وتتوقّف في هذا الجوّ اللطيف المنعش لتحصل على ما تستطيعه من العطر. عندما كانت تضع جديلة شعرها تحت أنف مارجولان، كان يقول لها إنّ لها رائحة القرنفل، فتقسم أنّها لم تعد تستخدم الدهان، وأنّها تكتفي بعبور ذلك الممرّ. ثمّ خُلِبَ لبّها تماماً لدرجة أنّها انخرطت في خدمة إحدى التاجرات. وقد وجد مارجولان أنّ لها

رائحةً طيّبةً من أعلى شعرها حتّى أخمص قدميها. كانت تعيش بين الورود، بين الليلك، وزهور المنثور والزنابق. فيتشمّم هو التنّورة طويلاً كمن يلهو أو يبحث ويقول: «هذه البقعة لها رائحة الزنبق»، ويرتقي جسدها حتّى المشدّ، مستنشقاً بقوّة أكبر: «وهذه لها رائحة المنثور»، وفي الأكمام وأساور القميص: «هذه لها رائحة الليلك»، وعلى قفا العنق وحوله وعلى وجنتيها وشفتيها: «هذه لها رائحة الورد الجوريّ»، وتضحك كادين، وتقول له: «يا أبله!» وتصرخ فيه أن يتوقّف إذ إنّه يدغدغها بطرف أنفه. كان لنَفَسها رائحة الياسمين، كانت كباقة دافئة وحيّة.

أصبحت الصغيرة تستيقظ في الرابعة فجراً لتساعد صاحبة العمل في مشترياتها. في كلّ صباح، تشتريان باقات من الزهور من مزارعي بساتين الضواحي، وربطات من الحزاز وأخرى من أوراق السرخس والقضاب لتطويق باقات الزهور. وتقف كادين ذاهلةً أمام الفصوص اللامعة والمخرّمات الدقيقة التي ترتديها بنات البساتنة في مونتروي وسط أزهارهنّ. في أيّام أعياد القدّيسة مريم، والقدّيس بطرس، والقدّيس يوسف، وأعياد القدّيسين المحتفى بهم عائلياً، يبدأ البيع في الثانية، ويباع على الرصيف ما يفوق المائة ألف زهرة مقطوفة، وكانت بعض البائعات الصغار يربحن مائتي فرنك في بضع ساعات. في تلك الأيّام لا تبدي كادين سوى خصلات شعرها المدولة فوق حزَم بنفسج الثالوث، والخُزام، واللؤلؤية، منهمكة طوال النهار في تهيئة باقات على قشّات من الأسل. وفي غضون أسابيع استطاعت أن تحقّق مهارة عالية وأناقة فريدة. لم تكن باقاتها تعجب كلّ الناس، بل كانت تثير لدى بعضهم الابتسام والقلق بما فيها من سذاجة قاسية. وكان يغلب عليها اللون الأحمر، تقطعه درجات صارخة من الأزرق والأصفر والبنفسجيّ لها سحر برّيّ. وفي الصباحات التي كانت تقرص فيها مازجولان أو تغيظه إلى

حدّ البكاء، كانت تصنع باقات مرعبة، باقات فتاةٍ غاضبة، بروائح قاسية وألوان خانقة. وفي صباحات أخرى، حين يكون مزاجها أرقّ بسبب ألم ما أو فرح ما، كانت تعدّ باقات بلون الفضة، رقيقة جدّاً، تغلّفها رائحة سرّية. ثمّ تأتي ورود الجوري النازفة كقلوب مفتوحة في بحيرات من القرنفل الأبيض والدلبوث البريّ، تصعد كتنويعة من الشُّعَل وسطَ خضرة فزِعة؛ ومنقوشات من إزمير برسوم معقّدة، مصفوفة زهرة زهرة كما لو كانت على نسيج لوحة؛ مراوح متموّجة الألوان تتمدّد برقّة التخاريم؛ تدرّجات فاتنة من النقاء، أحجام سميكة، أحلام لتوضع في يد بائعة سمك أو مركيزة، كلّ رعونة العذراء والنزق الحسّيّ للفتاة، كلّ الخيالات الرائعة لطفلة في الثانية عشرة تتفتّح فيها المرأة.

لم تكن كادين تحترم سوى شيئين: الليلك الأبيض الذي تُباع حزمته التي تحتوي على ما يقرب من عشرة أغصان بخمسة عشر فرنكاً أو عشرين في الشتاء، والكاميليا الأغلى سعراً، التي تصل في دزينات داخل علب على فراش من الحزاز ومغطّاة بحشية من القطن. كانت تُمسك بها كأنّها تُمسك بجواهر، بدقّة شديدة ودون أن تتنفّس خشية أن تتلفها بزفيرها؛ ثمّ، بحذر لا نهائيّ، تربط ذيولها القصيرة بأعواد من الأسل. وتتكلّم عنها بكلّ جديّة. كانت تقول لمارجولان إنّ زهرة كاميليا بيضاء جيّدة، من دون نقرات صدأ النبات، لهي شيء نادر وشديد الجمال. ولمّا كانت تُطلعه على واحدة لتثير إعجابه، هتف بها ذات يوم:

- نعم، إنّها جميلة، لكنّي أفضّل طرف ذقنك، هنا في هذا المكان، إنّه أنعم وأجمل وأكثر شفافية من زهرة الكاميليا هذه.. هناك عروق دقيقة زرقاء ووردية تشبه عروق الزهور.

ويمسّدها بأطراف أصابعه، ثمّ يقترب منها بأنفه هامساً:

- إنّ لك اليوم رائحة زهر البرتقال.

كان لكادين طبع شديد الصعوبة، فلم تعد ترضى بدور الخادمة. فانتهى بها المطاف إلى أن استقلّت بعملها. ولمّا كانت حينها في الثالثة عشرة، ولم تكن تأمل في تجارة كبيرة، أي منصّة للبيع على ممرّ الزهور، فقد أخذت تبيع باقات من البنفسج الواحدة بمليم، مصفوفة على فرْش من الحزاز وعلى حامل من السوحر معلّق إلى عنقها. وكانت تجول طوال اليوم في ليهال وحول الأروقة بحصّتها من الحشيش. كانت بهجتها في ذلك التسكّع المتواصل الذي كان ينعش ساقيها، والذي انتشلها من الجلوس لساعات على مقعد منخفض بركبتين متصلّبتين تنظّم الباقات. وهي الآن تلّف بنفسجاتها وهي تسير، تلّفها كمغازل بأصابعها الرقيقة. تحصي من ستّ زهراتٍ إلى ثمانٍ، حسب الموسم، وتطوي عوداً من الأسل، تضيف ورقةً، وتلفّ خيطاً مبتلّاً، وبأسنانها الحادّة التي هي كأسنان ذئبٍ فتيّ تقطع الخيط. كانت الباقات الصغيرة تبدو وكأنّها نمت من تلقاء نفسها على حزاز الحامل، لمّا كانت تغرزها بسرعة. وعلى طول الرصيف، وسط تدافعات الشارع، كانت أصابعها السريعة تُزهر دون أن تنظر إليها، هيئتها الوقحة مشغولة بالحوانيت والمارّة. ثمّ تجلس لتستريح لبرهة في ظلّ أحد الأبواب، فتضع بجوار المجارير الدبقة من غسيل المواعين، ركناً من الربيع، طرفاً من غابة بأعشاب مزرّقة. كانت باقاتها تعكس تناوبات مزاجها الشرّير وحنانها؛ كان منها ما هو شائك ورهيب وكمثْل الغاضب تيجانه المتغضّنة؛ وكان منها ما هو وديع ومحبّ ومبتسم في قلب أطواقه النظيفة. وكانت إذ تمرّ تخلّف وراءها رائحة حلوةً، ويتبعها مارجولان مغتبطاً. من رأسها حتّى أخمص قدميها لم تعد لها سوى رائحة عطر. وكان عندما يداهمها، يصعد من تنّورتها حتّى مشدّها، ومن يديها حتّى وجهها، فيقول إنّها ليست سوى زهرة بنفسج، زهرة بنفسج كبيرة. يغوص برأسه، ويكرّر:

- هل تذكرين يوم ذهبنا إلى رومانفيل؟ هو بالضبط هكذا، لا سيّما في أكمام ثيابك، لا تغيّري مهنتك. رائحتك طيّبة جدّاً.

ولم تغيّر بعدها عملها، كانت تلك هي مهنتها الأخيرة. ولكنّ الطفلين كبرا. أحياناً كانت تهمل بضاعتها لتتسكّع معه في الحيّ. كانت ورشات البناء في سوق ليهال المركزيّة هدفاً دائماً لطيشهما. يمرقان داخل مواقع البناء، عبر إحدى الفتحات في سياج الألواح، ويهبطان في الأسس، ويتسلّقان أوائل الأعمدة الحديدية، وهكذا فقد تركا جزءاً منهما، ومن ألعابهما، وعتادهما في كلّ فجوة، وفي كلّ الهياكل. لقد نمت الأروقة على أيديهما الصغيرة. ومن هناء جاءت العاطفة الذي يكنّانها لليهال، والعاطفة التي يردّ بها سوق ليهال عليهما. كانا يألفان هذه الشرايين العملاقة كصديقين قديمين شاهدا وضع أصغر برغيّ فيها. لم يكونا متهيّبين من الوحش وكانا يدقّان بأكفّهما الصغيرة على هيكله الضخم، ويعاملانه كطفل طيّب، زميل لا يُمَلّ منه. وكانت أروقة ليهال تبدو وكأنّها تبتسم لهذين الطفلين اللذين كانا هما الأغنية الحرّة والغزلية الصريحة لداخلها العملاق.

لم يعد كادين ومارجولان ينامان معاً في عربة البائع المتجوّل في بيت مَدام شانتميس. فالعجوز التي ظلّت تسمع ثرثراتهما في الليل، أعدّت فراشاً منفصلاً للصغير على الأرض بجوار الخزانة. لكنّها في الصباح التالي وجدته ملاصقاً الفتاة وتحت نفس الغطاء. فجعلته ينام في منزل إحدى الجارات. وقد أحزن ذلك الطفلين كثيراً. وفي النهار، عندما تكون مَدام شانتميس غائبةً، كانا يضطجعان معاً مُتحاضنَين في كامل ملابسهما، يرقدان على الأرضيّة كما لو كانت فراشاً؛ وكان ذلك يمتّعهما كثيراً. ولاحقاً انخرطا في الخلاعة، فكانا يبحثان عن الأركان المظلمة في الغرفة، ويختبئان غالباً في أعماق مخازن شارع لار خلف أكوام التفّاح وأقفاص البرتقال. كانا متحرّرين وبلا شعور

بالخجل، كطيور الدوريّ التي تتزاوج أعلى الأسقف.

وفي أقبية رواق الدواجن، وجدا وسيلة أخرى ليرقدا معاً. كانت تلك عادة رقيقة وإحساساً مُلتهباً، وطريقة ليضطجع أحدهما بجوار الآخر لم يستطيعا التخلّي عنها. كان هناك، بالقرب من موائد الذبح، سلال كبيرة للريش وجَدا راحتهما فيها. ما إن يهبط الليل حتّى ينزلان ويظلّان طوال الأمسية يستدفئان سعيدَين بنعومة تلك الطبقة، حيث يُعشي زغب الريش أعينهما. كانا يلجآن عادةً إلى السلال البعيدة عن المصابيح؛ وحدهما وسط رائحة الدواجن القويّة. ويظلّان متيقّظين بفعل صيحات الديكة المباغتة التي تصدر عن الظلام. ويضحكان، ويقبّل أحدهما الآخر بصداقة لاهبة لا يعرفان كيف يبرهنان عليها. كان مارجولان أحمق للغاية. تضربه كادين مدفوعةً بغضبها تجاهه، دون أن تعرف لماذا. كانت تروّضه بجسارة بنات الشوارع. وبطيئاً، في سلال الريش، تعلّما الكثير. كان ذلك لهواً. لم تكن الدجاجات والديكة التي تنام بجوارهما أكثر براءة منهما.

ولاحقاً ملأ جنبات الأروقة الكبيرة بغرامهما، غرام عصفورين غافلين. كانا يعيشان كحيوانين سعيدين على غريزتيهما ويشبعان رغباتهما وسط تلال الأغذية تلك، التي ترعرعا وسطَها كنبتتين من لحم ودم. في السادسة عشرة، كانت كادين قد صارت فتاةً مُنفلتة في الطرقات، غجريةً سمراء شديدة النهم والشبق. ومارجولان كان في الثامنة عشرة مراهقاً مُكرشاً مثل رجل سمين، وكان خالياً من الذكاء، يعيش بحواسّه. كانت تقوم من مضجعها في بعض الليالي لتمضي الليلة معه في قبو الدواجن. وكانت في الصباح التالي تضحك بوقاحة في وجه مَدام شانتيمس، تهرب من ضربات مكنستها التي تُخطئها عبر الغرفة دون أن تطال أبداً تلك التافهة التي تسخر بوقاحة وتقول إنّها قد قامت في اللّيل لترى «إن كان ينبت للقمر قرون». أمّا هو، فكان يتسكّع، وفي

الليالي التي كانت تتركه كادين فيها وحيداً، يظلّ في بنطال رجال الأمن في الأروقة، ينام على الجواليق أو الصناديق عند أول ركن. وأصبحا كلاهما لا يغادران سوق ليهال، صار قفصَهما وحظيرتَهما، والمزودَ الهائل الذي ينامان ويتحابّان ويعيشان فيه على فراشٍ هائل من اللحم والزبدة والخضروات.

لكنّهما ظلّا يحتفظان بصداقة استثنائية مع سلال الريش الكبيرة. كانا يعودان إليها في ليالي الحنان. لم يكن الريش مفروزاً. كان هناك ريش أسود طويل للديَكة الرومية، وريش للإوّز أبيض وناعم يدغدغ آذانهما إذ يتقلّبان؛ ثمّ كان هناك زغب البطّ الذي يغوصان فيه كما في القطن المندوف، وريش خفيف للدجاج، ذهبيّ، ومتنوّع الألوان يتطاير مع زفرات أنفاسهما كتطاير الذباب الكسول في الشمس. وفي الشتاء، كانا ينامان أيضاً في الريش الأرجوانيّ لطيور التدرج، وفي الريش الرماديّ للقبّرات، والحرير المبرقش لريش الحجل والسماني. كان الريش لا يزال حيّاً دافئاً برائحته. يثير بين شفاههما قشعريرة الأجنحة ودفء الأوكار. ويبدو لهما كمثْلِ ظهر عريض لطائر يتمدّدان عليه فيحملهما منتشيَين في عناقهما. وفي الصباح، كان مارجولان يعثر على كادين في قاع السلّة، كما لو كانت السماء قد أثلجت فوقها. فتنهض منفوشة الشعر، تنفض نفسها خارجةً من غيمة، بعقصة شعرها التي لا تزال عالقة بها قنزعة أحد الديكة.

ووجدا مكاناً جديداً لملذّاتهما، في رواق تجارة الجملة للزبدة والبيض والأجبان. كانت تتكوّم هناك، في كلّ صباح، جدران هائلة من السلال الفارغة. فكانا ينزلقان، وينقبان ثغرة في تلك الحوائط ويحفران لهما مخبأً. ثمّ، بعد أن يهيّئا حجرة داخل الكومة، يُحضران سلّةً ويغلقان فيها على نفسيهما. فيكونان في بيتهما. يتبادلان القبلات بلا رادع. وما يجعلهما هازئين من العالم بأكمله، هو أنّ حاجزاً رقيقاً من قش السوحر فقط كان يفصلهما عن زحام

سوق ليهال التي يسمعان ضجيجها حولهما. أحياناً، كانا يفلتان الضحكات، عندما يتوقّف الناس، على مبعدة خطوتين منهما، دون أن يفطنوا لوجودهما. وكانا يفتحان ثغرةً صغيرة، يتلصّصان منها؛ وفي موسم الكرز، كانت كادين تقذف وجوه النساء العجائز المارّات بالنوى، وهو ما كان يمتّعها إذ إنّ النساء المرتعبات لم يكنّ يخمّن أبداً من أين تنطلق هذه القذائف الصغيرة. كانا يجولان أيضاً في أعماق الأقبية، عارفَين بالمواضع المعتمة، مجتازَين الأسيجة الأكثر إحكاماً. إحدى غزواتهما الكبيرة كانت تتمثّل في المروق عبر خطّ السكة الحديدية الموجودة في الطوابق التحتيّة، والتي تلتقي خطوطها في محطّات مختلفة؛ بعض أجزاء هذه الخطوط كان يمرّ تحت الشوارع المسقوفة واصلاً بين أقبية كلّ رواق؛ وفي كلّ التقاطعات، كان هناك ألواح دوّارة جاهزة للتشغيل. كان مارجولان وكادين قد اكتشفا في الحاجز الخشبيّ الذي يحمي السكّة الحديدية قطعة من الخشب مقلقلةً فجعلاها تُفتح، وهو ما سمح لهما بالدخول بكلّ يسر. كانا هناك معزولين عن العالم، بوقع كلّ خطى الباريسيّين فوقهما على الرصيف. كانت السكة الحديدية تمتدّ في طرُقها وأنفاقها المقفرة المبرقشة بضوء النهار المتسرّب عبر عيون الفتحات المسيّجة بالحديد، وفي المناطق المظلمة تشتعل مصابيح غاز. كانا يتجوّلان كأنّهما في قلب قلعتهما الخاصّة، واثقَين أنْ لا أحد سيزعجهما، سعيدَين بهذا الصمت المشحون، وتلك الأضواء الخافتة المريبة، بتلك السرّية المختبئة تحت الأرض، حيث كان لغرامهما الطفوليّ الفرح ارتعاشات ميلودرامية. ومن الأقبية المجاورة، كانت تصلهما كلّ أنواع الروائح، مساخة الخضروات، وفظاظة الأسماك، والخشونة النتنة للأجبان، والحرارة الحيّة للدواجن. كانت تلك زفرات متواصلة من الأطعمة تتنفّس بين قبلاتهما، في مخدع الظلام حيث يرقدان جنباً إلى جنب على القضبان. وفي أوقات أخرى، في الليالي التي

يصفو فيها الجوّ أو في الفجر الساطع، كانا يتسلّقان إلى الأسقف، يصعدان السلالم الصلبة الحلزونية الموجودة في أركان الأروقة. وفي الأعلى تتمدّد حقول من الزنك، ومتنزهات، ريف حافل بالتضاريس يتسيّدان هما عليه. يدوران حول الأسقف المربّعة للأروقة، ويقطعان الأسقف الطوليّة للشوارع المغطّاة. يتسلّقان وينزلان المنحدرات، ويتوهان في رحلات لا نهائية. وعندما يملّان من الارتفاع المنخفض، يصعدان إلى مستوى أعلى، ويخاطران على السلالم الحديدية حيث ترفرف تنّورة كادين مثل راية. آنئذ ينهبان الطابق الأعلى من السقف ركضاً، تحت السماء المفتوحة. ولا شيء أعلاهما سوى النجوم. ويتصاعد لهما لغط من أعماق الأروقة ذات الأصداء، ضجيج يتقدّم، صوت عاصفة تدوّي من بعيد في الليل. على هذا الارتفاع كانت الريح الصباحية تجرف الروائح الفاسدة، والأبخرة الرديئة لاستيقاظ السوق. وفي ضوء الفجر، بجوار الميازيب يتبادلان القبلات كما تفعل الطيور بمناقيرها، يتشيطنان تحت البلاط. كانا مصطبغين باللّون الورديّ مع الاحمرار الأوّل للشمس. كانت كادين تضحك لكونها في الفضاء، وألوان صدرها تتماوج كصدور الحمام؛ ومارجولان ينحني ليشاهد الشوارع التي لا تزال غارقةً في الغسق، ويداه متشبّثتان بعوارض الزنك كمخالب طائر ورشان. وعندما ينزلان ثانيةً، منتعشَين من الهواء ومبتسمَين كعاشقين خرجا بملابسهما المدعوكة من أحد حقول القمح، يقولان إنّهما عائدان من الريف.

كانا قد تعرّفا على كلود لانتييه في سوق الأمعاء والكروش والكراعين حيث يذهبان كلّ يوم، تحدوهما شهوة رؤية الدماء وقسوة طفلين وقحين يستمتعان بمشاهدة رؤوس الحيوانات المذبوحة. كانت المجاري تسيل بلون أحمر حول الرواق، يغمران فيها أطراف أقدامهما، ويزيحان أكوام الأوراق التي تعيق المجرى مجمّعةً بِركاً دموية. كانت شحنات الذبائح ذات الروائح

الكريهة على العربات والتي يغسلونها بالماء الغزير تثير انتباههما. وكانا يشاهدان تفريغ أعداد من أكارع الخراف تتكدّس على الأرض كبلاطات قذرة، والألسن الطويلة المتصلّبة تُظهر نياطاً ممزقّة دامية، وقلوب البقر الصلبة والمنزوعة كأجراس خرساء. ولكنّ ما كان يصيبهما بالرعدة والقشعريرة هو السلال الكبيرة التي تنزّ بالدم والمليئة برؤوس الخراف والقرون الغليظة والخطوم السوداء التي لا تزال عالقة بلحمها الحيّ نسائر من الجلد الموبّر؛ يتخيّلان مفاصل تقذف داخل السلال رؤوس هذه القطعان اللانهائية. كانا يتابعانها حتّى نهاية القبو، وعلى طول القضبان المثبّتة في درجات السلّم، ويسمعان صرخات العجلات الصغيرة لتلك العربات المصنوعة من السوحر التي تئزّ كالمناشير. وفي الأسفل، كان هناك رعب رائع. يدخلان في رائحة مقبرة، ويسيران وسط البرك المعتمة، التي تلتمع فيها في لحظاتٍ عيونٌ أرجوانية. وتتعثّر خطواتهما في الدبق. يهدران متوجّسين ومسحورين بهذا الطين الرهيب. كان لمصابيح الغاز شُعَل قصيرة، أجفان مدمّاة تنبض. وحول النوافير، وتحت الضوء الضعيف المتسرّب من الشرّاعات، كانا يقتربان من قُرمات التقطيع. هنا، كانا يستلّذان مشاهدة عمّال جزارة الكروش والكراعين، بصدريّاتهم المتصلّبة بفعل رشقات اللّحم، يحطّمون رؤوس الخراف الواحد تلو الآخر بضربات مطارقهم. وينتظران ساعات حتّى تفرغ السلال، يحبس أنفاسهم وقع تكسّر العظام، راغبَين في متابعة النظر حتّى النهاية لرؤية انتزاع الألسن والأمخاخ من شظايا الجماجم. أحياناً، كان أحد عمّال التنظيف يمرق من خلفهما، غاسلاً القبو برشّاش الماء، فإذا بسيول من الماء تتدفّق بضجيج انفتاحِ سدٍّ، ودفقات قويّة لرشّاش الماء تسلخ البلاطات، لكنّها لا تفلح في إزالة بقع الدم ولا رائحته النتنة.

ومع اقتراب المساء، في نحو الرابعة أو الخامسة، يكون مارجولان وكادين

واثقين من أنّهما سيقابلان كلود في سوق بيع رئات ذبائح البقر بالجملة. كان هناك وسط عربات الكروش والأمعاء المركونة إلى الرصيف، وسط زحام الرجال من ذوي السترات الزرقاء والصدريّات البيض، متدافعاً، أذناه محطّمتان من نداءات البيع العالية لكنه لم يكن يشعر بالتدافع بالمناكب، يقف مُتسمّراً أمام الرئات الكبيرة المدلّاة من كلّابات المزاد. كان يشرح لكادين ومارجولان أحياناً أنْ لا شيء أجمل من هذا. كان لرئات الذبائح لون ورديّ رقيق، يزداد قوّةً بالتدريج حتّى يكون للحوافّ السفلى لون قرمزيّ صارخ؛ ويقول لهما إنّها من الحرير المتموّج، ولا يجد كلمة يصوّر بها هذه الرقة الناعمة، هذه الممرّات الطويلة الطازجة، هذا اللحم الخفيف الذي يتهدّل في طيّات عريضة، كتنانير مشمّرة لراقصات. كان يتكلّم عن الشاش، وعن الأنسجة المخرّمة التي تشفّ عن أوراك نسائيّة جميلة. وعندما يسقط شعاع قويّ من الشمس على تلك الرئات الكبيرة محزّماً إيّاها بزنّار من ذهب، كانت عين كلود تنتشي أكثر ممّا لو رأى تتابعاً لربّات إغريقيات عاريات وأثواباً من الديباج لنبيلات من الحقبة الرومانطيقيّة.

أضحى الرسّام صديقاً عزيزاً للطفلين. كان شغوفاً بالجمال البريّ. وقد حلم طويلاً بلوحة ضخمة تصوّر كادين ومارجولان يتطارحان الغرام في قلب سوق ليهال المركزيّة، بين الخضروات، وسط الأسماك واللّحوم. كان سيصوّرهما جالسين على فراش الأطعمة متحاضنين يتبادلان قبلةً عذرية. كان يرى في ذلك بياناً فنّياً، وإيجابية الفنّ، الفنّ الحديث التجريبيّ والشديد المادّيّة؛ وكان يرى فيها أيضاً سخرية من التصوير ذي الأفكار، وصفعةً للمدرسة القديمة. وخلال عامين شرع في الرسوم التخطيطية دون أن يستطيع العثور على اللمسة المضبوطة. وقد أتلف في محاولاته نحو خمس عشرة قماشة رسم. وهو ما أورثه حنقاً كبيراً. واستمرّ في معايشة أنموذَجيه

عن حبّ لا أمل فيه للوحته التي لم يفلح في إنجازها. وكان يقابلهما أحياناً وهما يجولان، بينما هو يقطع حيّ ليهال متسكّعاً، يداه في جيوبه في انشغال عميق بحياة الشوارع.

ويمضي ثلاثتهم، يذرعون الرصيف، محتلّين عرضه، ويجبرون المارّة على التنحّي عنه. كانوا يتشمّمون روائح باريس، مشرعين أنوفهم في الهواء، وقد يعرفون كلّ ركن وعيونهم مغمضة مهتدين فقط بالرائحة الخمرية الخارجة من حوانيت النبيذ، والزفرات الحارّة للمخابز وحوانيت الحلوى، وبسطات العرض الباهتة لتجّار الفواكه. كانت تلك جولات كبيرة. كانوا يستمتعون بعبور المبنى الدائريّ لرواق القمح، ذلك القفص الحجريّ الضخم، وسط تكدّس جواليق الطحين البيضاء، يسمعون وقع خطواتهم تحت السقف المعقود ذي الأصداء. كانوا يحبّون أطراف الشوارع المجاورة، التي أصبحت مقفرة ومعتمة وحزينة كأركان مدينة مهجورة، كشارع بابي، وشارع سوفال، وشارع ليه دوز إيكو، وشارع فيارم، الشاحب من مجاورة المطاحن، وحيث تجتمع في الرابعة بورصة الحبوب. عادةً ما ينطلقون من هناك. وببطءٍ يتابعون شارع فوفيلفييه ويتوقّفون أمام المطاعم الرخيصة المريبة، يرقبون، بأطراف أعينهم، وبضحكات، رقماً أصفر كبيراً لأحد البيوت المغلقة النوافذ. وعند المنطقة التي يضيق فيها شارع بروفير، يطرف كلود بعينيه وينظر قبالته، في طرف الشارع المسقوف المؤطّر تحت هذا البنيان العملاق لمحطّة حديثة، إلى أحد البوّابات الجانبية لكنيسة سانت أوستاش بنجميّاتها وطابقَي النوافذ ذات العقود الكاملة، ويقول بطريقة تميل إلى التحدّي إنّ كلّ العصور الوسطى وعصر النهضة يمكن أن تجتمع تحت أسقف سوق ليهال المركزيّة. ثمّ، على طول الشوارع الجديدة، يشرح للصغيرين الحياة الحديثة، الأرصفة الرائعة والمنازل العالية والمتاجر الفاخرة، معلناً عن فنّ فريد يشعر به قادماً،

كان يقول، وهو يستشيط غيظاً لأنّه لا يستطيع الكشف عنه. ولكنّ كادين ومارجولان كانا يفضّلان الوداعة الريفية لشارع بوردونيه، حيث يستطيعان اللّعب بالكريات الزجاجية دون أن يخشيا من الدهس، وتلعب الصغيرة دور الحسناء إذ يمرّون أمام متاجر الملابس الداخلية والقفّازات؛ فيما كان موظّفون برؤوس عارية، وأقلامهم خلف آذانهم، يتابعونها بأعينهم بهيئةٍ مَلول. كانوا يفضّلون المناطق التي لا تزال صامدةً من باريس القديمة، شارعَي لابوتري ولالانجري ببيوتها المحدودبة، وحوانيت الزبدة والبيض والجبن؛ وشارعَي لا فيرونري ولاغويري، شوارع الزمن الماضي الجميلة، بحوانيتها الضيّقة المعتمة؛ وبالذات شارع كورتالون، وهو زقاق معتم قذر، يقود من ساحة سانت أوبورتون إلى شارع سان دوني، تخترقه ممرّات كريهة الرائحة، كانا يتشيطنان فيها عندما كانا أصغر عمراً. في شارع سان دوني تنتابهم الشراهة، فيبتسمون للتفّاح المجفّف، لعرق السوس، ولحلوى السكاكر لدى البقّالين وتجّار العقاقير. وتنتهي تسكّعاتهم كلّ مرّة بأفكار عن الأشياء الطيّبة، برغبة في التهام المعروضات بأعينهم. الحيّ كان بالنسبة لهم مأدبة عامرة على الدوام، تحلية أبديّة، يرغبون لو غمسوا أصابعهم فيها. كانوا لا يكادون يزورون، ولو لوهلة، الصفّ الآخر من البيوت المتداعية، شوارع بيرويت ومونديتور ولا بتيت تروواندري ولاغراند تروواندري، لقلّة اهتمامهم بمخازن الحلزون، وباعة الأعشاب المطهوّة، وأكواخ باعة الكروش والكراعين والخمور. لكن كان هناك، في شارع لا غراند تروواندري مصنع للصابون، أنيق بين هذه الروائح النتنة في الجوار، وهو ما كان يستوقف مارجولان، فينتظر أمام الباب أن يدخل أو يخرج أحدهم، ليتلقّى نفحة الرائحة. وسريعاً ما يصلون إلى شارع بيير ليسكو وشارع رامبوتو. كانت كادين تعشق المملّحات، فتقف بإعجابٍ أمام ربطات الرنكة المدخّنة، وبراميل الأنشوفة والكبر، والأوعية

الكبيرة للمخلّلات والزيتون، التي تغطس فيها ملاعق خشبية كبيرة. كانت رائحة الخلّ تداعب حلقها، أمّا رائحة سمك القدّ الملتفّ، والسلمون المدخّن، ودهن الخنزير والأفخاذ المملّحة، والمذاق اللاذع للزيتون المعبّأ في سلال، هذا كلّه كان يجعلها تلعق شفتيها بطرف لسانها الرطب من الاشتهاء. كانت تحبّ أيضاً أن ترى علب السردين، التي تشكّل وسط الأكياس والصناديق عواميد من العلب المعدنية مرتّبة بعناية. وفي شارع مونتورغي وشارع مونمارتر هناك أيضاً عدد من حوانيت البقالة الجميلة، ومطاعم تخرج من شرّاعاتها روائح طيّبة، ومعروضات من دواجن ولحوم مشهّية، وباعة أغذية معلّبة بجوار أبوابهم براميل مفتوحة مترعة بالكرنب المملّح الأصفر، المنفوش كالتخاريم البالية. ولكن في شارع كوكيير، كانوا يضيعون في رائحة الكمأ. هناك، يوجد حانوت كبير للأطعمة يطلق روائحه حتّى الرصيف، فيغمض مارجولان وكادين أعينهما ويتخيّلان أنّهما يلتهمان أشياء رائعة. كان كلود مُضطرباً، ويقول إنّ ذلك يفتح شهيّته للطعام؛ ويذهب ليشاهد رواق القمح مرّةً ثانية عبر شارع أوبلان، متفحّصاً باعة الخضروات تحت البوّابات والقطع الخزفية المعروضة على الرصيف، وقد ترك صديقَيه «البدائيَّين» يكملان تسكّعهما وسط بخار الكمأ، وهي الرائحة الأكثر نفاذاً في الحيّ.

تلك كانت هي الجولات الكبيرة. وعندما تتجوّل كادين بمفردها باقات بنفسجها، كانت تزور خصوصاً بعض المتاجر التي تحبّها، وكان لها عشق خاصّ لمخبز تابورو، حيث أُفرِدَت نافذة زجاجية كاملة لعرض الحلويّات. تمضي في شارع توربيغو، وتعود عشر مرّات لتمرّ أمام كعكات اللوز، وكعكات سانت أونوريه، وكعكات السافارن، والفالوذج وكعكات الفواكه، وكعكات القشدة. كانت نفسها تهفو أكثر للأوان المليئة بالكعكات الجافّة وكعكات المادلين. كان المخبز يسطع بمراياه العريضة، ورخامه،

وتذهيباته، وحاويات الخبز من الحديد المشغول، وبمعرضه الزجاجيّ الآخر الذي يريك خبزاً طويلاً برّاقاً في وضعٍ مائلٍ، إذ يتّكئ طرفاه على لوح من البلّور فيما يمسك به من الأعلى قضيبٌ منَ النحاس الأصفر، وتفوح من المكان رائحة للعجين الدافئ الناضج تُثير كادين، وإذ تستسلم هذه للغواية تدخل لتشتري قطعةً من الخبز المحلّى بالسكّر بمليمين. وثمّة حانوت آخر في مواجهة ساحة لينوسان كان يثير فيها فضولاً للشهية، بقرصاتِ رغبةٍ غير مشبعة. كان حانوتاً متخصّصاً في صنع الملفوفات باللّحم. كانت تتوقّف لتأمّل الملفوفة الاعتيادية والملفوفة في الأسياخ، وملفوفة أكباد الإوزّ، وتتوقّف حالمةً وتقول لنفسها إنّها لا بدّ أن تأكل منها ذات يوم.

كان لكادين أيضاً ساعاتٌ تغنّجها، وحينئذٍ كانت تشتري موادّ للتزيين من معارض فابريك دو فرانس التي تزيّن ناصية شارع سانت أوستاش بقطع كبيرة من القماش تتدلّى متطايرة من الطابق الأعلى حتّى الرصيف. تقف مستاءةً من بضاعتها وسط نساء ليهال ذوات الصدريّات المتّسخة أمام ملابس الآحاد المقبلة تلك، تتحسّس المنسوجات الصوفية وقماش الفلانيلة والمنسوجات القطنية لتتأكّد من الملمس ونعومة النسيج، وتعِد نفسها بثوب برّاق من الفلانيلة، أو القطن المنقوش أو البوبلين القرمزيّ. وأحياناً كانت تختار في واجهات العرض، بين الأزياء التي أحسن ترتيبها وطيّها موظّفو المتجر، ثوباً حريرياً له زرقة السماء أو خضرة التفاح، تحلم بأن ترتديه مع شرائط ورديّة. وفي المساء تتلقّى في وجهها وهج متاجر المجوهرات الكبيرة في شارع مونمارتر. كان ذلك الشارع الرهيب يقرع أذنيها بصفوف عرباته اللانهائية، وتدافُع موجات الزحام المتتابعة، ودون أن تترك مكانها تملأ عينيها بتلك الروعة المشتعلة تحت خطّ المصابيح المعلّقة خارج واجهة الحانوت. كان هناك، أوّلاً، البياض المُطفأ والبريق الحادّ للفضّة، والساعات المصفوفة

والسلاسل المعلّقة، وأدوات المائدة ذات الصلبان والكُشتبانات وعلب السعوط وحلقات المناشف، والأمشاط الموضوعة على الأرفف؛ ولكن كان عندها ولع بالمكعّبات الفضية التي تزيّن صفائح الخزف والتي تغطّيها كرات. ثمّ من الناحية الأخرى كان هناك البريق العاري للذهب الذي يعكس صفرته على الزجاج. وكانت رقعة من سلاسل طويلة تتدلّى من أعلى، تتموّج ألوانها ببريق أحمر؛ وساعات النساء الصغيرة، مقلوبة على جوانبها ولها استدارات متلألئة كالنجوم. خواتم الزواج تصطفّ حول قضبان رفيعة، والأساور والدبابيس والمجوهرات الثمينة تبرق على القطيفة السوداء للعلب؛ الخواتم تلتمع بلهيب أزرق قصير، وأخضر، وأصفر وبنفسجيّ داخل علبها المربّعة الصغيرة؛ بينما وُضع على كلٍّ من الأرفف صفّان أو ثلاثة من أقراط الأذن، وصلبان، وقلائد تُضفي على بلّور الألواح أهداباً ثريّة كما في بيت القربان. كانت انعكاسات كلّ هذا الذهب تضيء الشارع بوهج كالشمس، وحتّى قارعة الطريق. فتتخيّل كادين أنّها دخلت في محلّ مقدّس، أو في كنوز الإمبراطور. كانت تتفحّص طويلاً حوانيت المجوهرات الشعبية تلك، وتقرأ بعنايةٍ البطاقات ذات الأرقام الكبيرة المصاحبة لكلّ قطعة. وتقرّر أن تشتري قرطين لأذنيها بحلية من المرجان الصناعيّ مركّبة على وردات ذهبية.

وذات صباح وجدها كلود مستثارةً أمام حانوت حلّاق في شارع سانت أونوريه. كانت تتملّى تصفيفات شعور النسوة برغبة عميقة. وفي الأعلى، كان هناك دفق من اللبدات والذيول المنسابة والضفائر المحلولة، خصلات جعداء منهمرة، تصفيفات من ثلاثة مستويات، شعر خيل وحرائر بخصلات حمراء بلون اللهب، وأخرى فاحمة السواد، أو ذات شحوب أشقر، وحتّى الخصل البيضاء لعاشقات ستّينيّات. وفي الأسفل، التصفيفات المستطيلة كالأبراج، والتصفيفات الإنكليزية المجمّدة، والعقائص الملتفّة والممشّطة ترقد في علب

من الورق المقوّى. وفي وسط هذا الإطار، وفي عمق ما يشبه الكنيسة، وتحت الأطراف المنسّلة للشعور المعلقة ثمّة تمثال نصفيّ لامرأة يدور. كانت المرأة قد وضعت على رأسها منديلاً من الساتان بلون الكرز يثبّته دبّوس عند فتحة الصدر، وكان لها تصفيفة شعر عروس في يوم زفافها، عالية جدّاً، تقيمها أعواد من زهر البرتقال، وفمها فم الدمية يبتسم، عيناها فاتحتان وأهدابها المثبّتة صلبة وطويلة جدّاً، وجنتاها من الشمع وكذا كتفاها تبدوان وكأنّهما نضجتا وتدخّنتا في ضوء مصابيح الغاز. كانت كادين تنتظر أن تعود ناحيتها بابتسامتها؛ وكانت سعادتها تزداد بقدر ما يتأكّد جانب الوجه وتستدير المرأة ببطء من اليسار إلى اليمين. انتابت كلود موجة من السخط، وهو يهزّ كادين ويسألها عمّا تفعل هناك أمام هذه القذارة، «تلك الفتاة الهالكة التي جلبوها من المشرحة». وحمل على هذا العري الذي لجثّة، وهذا القبح المجمّل، وهو يقول إنّهم لم يعودوا يصفّفون سوى شعور نساء كهؤلاء. ولكنّ الصغيرة لم تكن مقتنعة؛ كانت تلفي المرأة جميلةً بالفعل. ثمّ قاومت جذب الرسّام لها من ذراعها، وحكّت أجمة شعرها الأسود بملل، وأرته ذيلاً أصهب منتزعاً من جسد فرس ما، وهي تعترف له بأنّها ترغب في شعر كهذا.

وفي الجولات الكبيرة، حين يدورون ثلاثتهم، كادين ومارجولان وكلود، حول ليهال، كانوا يلمحون من كلّ أطراف الشوارع ركناً مختلفاً من العملاق الحديديّ ذاك. كانت تلك ممرّات مفاجئة، أشكالاً غير متوقّعة من العمارة، الأفق نفسه يظهر دون توقّف في أشكال متنوّعة. كان كلود يعود، بالذات في شارع مونمارتر، بعد أن يبلغ الكنيسة. وفي البعيد، تتراءى سوق ليهال، باعثةً فيهم الحماس: قوس عملاقة، وبوّابة عالية فاغرة تنفتح؛ ثمّ تتراكم الأروقة بأسقفها ذات الطابقين، ونوافذها العلويّة المتواصلة، ومظلّاتها الضخمة؛ كأنّها صور جانبية متطابقة لبيوت وقصور بابل من معدن بخفّة هندوسية،

تتخلّلها شرفات معلّقة، وممرّات مفتوحة، وجسور طائرة تنفتح على الفراغ. إنّهم يعودون دائماً إلى هناك، إلى تلك المدينة التي يتسكّعون حولها، دون أن يقدروا على الابتعاد عنها أكثر من مائة خطوة. يدخلون ليهال في دفء ما بعد الظهر. النوافذ مغلقة في الأعلى، والمظلّات مفرودة. والهواء ينعس في الشوارع المسقوفة في لون كالرماد تتخلّله أعمدة مصفرّة بفعل انعكاسات الشمس الساقطة من الشرّاعات الطويلة. تصدر عن الأسواق همسات خافتة؛ وقع خطوات المارّة القليلين المشغولين يتردّد على الأرصفة؛ بينما الحمّالون بشاراتهم المعدنية جالسون في صفٍّ على الحوافّ الحجرية في زوايا الأروقة، وقد خلعوا أحذيتهم الضخمة ليريحوا أقدامهم المتعبة. إنّه هدوء كائنٍ عملاق يستريح، يقطعه أحياناً صياح ديك قادم من أعماق قبو رواق الدواجن. أحياناً، كانوا يذهبون لمشاهدة شحن السلال الفارغة في عربات النقل، التي تأتي في مثل ذلك الموعد لتُعيدها إلى المورّدين. السلال التي تحمل بطاقات بأحرف وأرقام سوداء تتكوّم جبالاً أمام مخازن الوسطاء في شارع بيرجيه. يصفّها الرجال، كومة كومة، بطريقة متناسقة. وعندما تبلغ الكومة على العربة ارتفاع الطابق الأوّل، يتوجّب أن يبقى الرجل في الأسفل، يؤرجح كومة السلال، ويقفز كي يلقي بها لزميله، المعلّق في الأعلى بذراعين ممدوتين إلى الأمام. كان كلود، الذي يعشق المهارة والقوّة، يظلّ لساعات يراقب تطاير كتَل السوحر، ويضحك إذ تضلّ إحدى السلال طريقها بفعلِ رمْية عنيفة فتجتاز الأكوام لتسقط في منتصف الطريق. كان يعشق أيضاً رصيف شارع رامبوتو ورصيف شارع بون نوف، على زاوية رواق الفواكه، في المكان الذي تقف عنده بائعات الكميات الصغيرة. كانت يثيره منظر الخضروات في الهواء الطلق على الطاولات المغطّاة بنسيج أسود مبلّل. في الساعة الرابعة كانت الشمس تسقط على ذلك الركن من الخضار. كان يسير في الممرّات،

تثير فضوله رؤوس البائعات الملوّنة؛ الشابّات، بشعورهنّ المغطّاة بالشِّباك، ذاويات سلفاً بباعث من حياتهن الخشنة؛ والعجائز مكسورات، منكمشات، بوجوههنّ الحمر تحت مناديل رؤوسهنّ الصفر. يرفض مارجولان وكادين أن يتبعاه، إذ يلمحان مَدام شانتميس من بعيد تلوّح لهما بقبضتها غاضبة لرؤيتهما يتشيطنان معاً. يلتحق بهما على الرصيف الآخر. هناك، عبر الشارع، يجد موضوعاً رائعاً لإحدى لوحاته: بائعات الكمّيات الصغيرة، تحت مظلّاتهنّ الحائلة الألوان، الحمراء والزرقاء والبنفسجية، والمربوطة إلى عصيّ، تضفي على السوق احدوداباً باستداراتها القويّة في حريق الشفق الذي يحتضر على حبّات الجزر واللّفت. وبينهنّ عجوز شمطاء عمرها مائة عام تؤوي ثلاثة رؤوس من الخسّ ذابلة تحت شمسية من الحرير الورديّ بالية ومثيرة للشفقة.

في تلك الأثناء، تعرّف مارجولان وكادين ذات يوم على ليون، صبيّ حانوت كونو غراديل لجزارة الخنزير، فيما كان يحمل فطيرة لحم في الجوار. وشاهَداه يرفع غطاء الوعاء، في بقعة مظلمة من شارع مونديتور، ويتناول بخفّة ملفوفة باللحّم بأصابعه. ابتسما، وقد أعطاهما ذلك فكرةً عن الصبيّ. وتخيّلت كادين مشروعاً لإرضاء بعض رغباتها اللّاهبة؛ وعندما قابلت الصبيّ من جديد بوعائه تلطّفت معه للغاية فأهداها ملفوفة، وضحكت وهي تلعق أصابعها. ولكنّها منيت ببعض خيبة الأمل، إذ كانت تظّن الملفوفات باللّحم أفضل من ذلك. بدا لها الصبيّ طريفاً، بملابسه الكاملة البياض كأنّه فتاة تتأهّل لتناولها الأوّل في الكنيسة، وخطمه النّهم الماكر. ودعته إلى غداء كبير أعدّته خلف سلال مزادات رواق الزبدة. وتوارى ثلاثتهم، هي ومارجولان وليون خلف أربعة جدران من السوحر، بعيداً عن الناس. ومُدّ السماط على سلّة واسعة مسطّحة. كان هناك حبّات من الكمثرى، والجوز والجبن

الأبيض وبعض الأربيان وبطاطا مقليّة وبعض الفجل. الجبنة البيضاء كانوا تلقّوها من بائعة فواكه في شارع لا كوسونري على سبيل الهديّة. أحد أصحاب المقالي في شارع غراند تروانديري باعهم البطاطا المقليّة بمليمين بالدَّين. أمّا الباقي، الكمثرى والجوز والأربيان والفجل، فقد سرقوه من أنحاء ليهال. لقد كانت مأدبةً رائعة. ولم يرغب ليون في التقصير في كرمه، فردّ على الغداء بعشاء في الواحدة صباحاً في غرفته. قدّم لهما بعض المسوَّد البارد، ودوائر من سجق السلامي، وقطعة من اللحم المملّح وبعض المخلّلات مع دهن الإوزّ. وقد تكفّل حانوت كونو غراديل بتجهيز كلّ شيء. ولم يعد لذلك من انتهاء، بل أصبحت العشاءات الباذخة تتلو الغداءات الفاخرة، وتتوالى الدعوات الواحدة تلو الأخرى. ثلاث مرّات في الأسبوع يقيمون ولائمهم الحميمة خلف سلال السوحر أو في تلك الغُرَيفة حيث كان فلورون، في ليالي أرقه، يسمع تلمّظ الصغار وضحكاتهم المكتومة حتّى مطلع الفجر.

هكذا راح غرام مارجولان وكادين يفصح عنه نفسه أكثر فـأكثر. كانا في غاية السعادة. كان الصبيّ يقوم بدور العاشق الشّهم، ويصطحبها ليَلتَهِما التفّاح الفجّ أو قلوب الكرفس في زاوية خاصّة في أحد أركان الأقبية المظلمة. وذات يوم سرق سمكة رنكة أكلاها سويّة على سقف رواق الأسماك على حافّة قناة الميزاب. لم يبق في ليهال ركن مظلم لم يشهد ولائمهما الغرامية الرقيقة. ولم يعد الحيّ، بصفوف حوانيته المفتوحة الغاصّة بالفواكه والفطائر والمحفوظات، فردوساً مغلقاً يجول أمامه جوعهما النّهم برغبات مكتومة. كانا يمدّان أيديهما عند مرورهما أمام المعروضات، يخطفان ثمرة خوخ مجفّف، أو حفنة من الكرز أو قطعة من سمك الغادس. وكانا يستمدّان المؤن أيضاً من الأروقة، يراقبان طرقات الأسواق، ويجمعان كلّ ما هو ساقط على الأرض، ويساعدان أحياناً على سقوط البضائع، بضربة منكب موجّهة لسلال الباعة.

وعلى الرغم من هذه السرقات، كانت حساباتها ترتفع لدى صاحب المقلى في شارع غراند تروانديري. كانت حانوته عبارة عن طاولة مستندة إلى بيت متداعٍ تقيمها دعامات خشبية خضراء بلون الطحالب، وكان عامراً بمحار مسلوق عائم في ماء نظيف في قاع وعاء كبير من الخزف. ولديه أيضاً أطباق من أسماك الليمندة الصغيرة الصفراء المتصلّبة تحت طبقة شديدة السماكة من العجين، ومربّعات من الكرشة تنضج على نار هادئة في قعر المقلاة، وأسماك رنكة مقليّة، سوداء متفحّمة تبدو في صلابة الخشب. كانت كادين تدين له في بعض الأسابيع بما قد يبلغ عشرين مليماً؛ وكانت تلك الديون ترهقها، إذ يتوجّب عليها بيع عدد لا نهائيّ من باقات البنفسج، فهي لن تعتمد أبداً على مارجولان. فوق ذلك هي مجبرة على أن تردّ لليون مجاملاته؛ لا بل كانت تشعر بالخجل من أنّها لا تقدّم أبداً وجبةً من اللحم، أمّا هو فصار يسرق أفخاذ خنزير مملّحة كاملة.

في العادة، كان يخبّئ كلّ شيء تحت قميصه. وعندما يصعد من الحانوت، في المساء، يُخرج منه قطعاً من النقانق، وشرائح من معجون الأكباد، وربطات من جلد الخنزير المقدّد. لم يكن ينقص سوى الخبز والشراب. وذات ليلة رأى مارجولان ليون يقبّل كادين بين لقمتين. وقد أضحكه ذلك. كان على أهبة أن يصرع الصبيّ بقبضته؛ لكنّه لم يكن يشعر بالغيرة على كادين، ويعاملها كصديقة حميمة وقديمة.

لم يكن كلود يحضر هذه الولائم. وكان قد ضبط بائعة الزهور وهي تسرق حبّة شمندر من سلّة مبطّنة بالقشّ، فشدّ إذنها، وهو ينعتها بالخسيسة. هذا ما كان ينقصها، قال، ولم يُخفِ، رغماً عنه، إعجابه بهذه الحيوانات الشيِقة، النهّابة والنهِمة، المندفعة للالتذاذ بكلّ ما تصادف، والتي تجمع الفتات المتساقطة من مائدة عملاق.

كان مارجولان قد التحق بالعمل في خدمة غافار، سعيداً بأنّه لا يفعل شيئاً سوى الاستماع لحكايات رئيسه في العمل التي لا تنتهي. وكادين تبيع باقاتها وقد اعتادت على نهرات مَدام شانتميس. وواصلا طفولتهما دون خجل، متماديَين في شهواتهما برذائل في غاية البراءة. كانا بمثابة النبات في ذلك المكان الدبق من حيّ ليهال، حيث في أوقات الصحو يظلّ طينه أسود وخصباً. كانا، والفتاة في السادسة عشرة والفتى في الثامنة عشرة، لا يزالان يحتفظان بالوقاحة المحبّبة لطفلين يلعبان في الأركان. وفي ذلك الوقت، كانت تنمو في كادين أحلام يقظة قلقة إذ هي تذرع الأرصفة وتلفّ في يديها أغصان البنفسج كالمغزل. ومارجولان أيضاً كان يعاني ألماً لا تفسير له. أحياناً كان يترك الصغيرة ويتهرّب من جولة تسكّع، أو يهمل إحدى الولائم، لكي يذهب ويرى السيّدة كونو عبر زجاج حانوت الجزارة. كانت جميلة جدّاً، وسمينة جدّاً وشديدة الاستدارات، وذلك ما كان يروقه. كان يشعر أمامها بالشبع وكأنّه أكل أو شرب شيئاً طيّباً. وعندما يغادر ينتابه جوع وعطش لرؤيتها ثانيةً. وقد استمرّ ذلك شهوراً. في البداية كان يخصّها بنظرات الاحترام التي ينظر بها لمعروضات محالّ البقالة وحوانيت المملّحات. ثمّ عندما جاءت أيّام السلب والنهب، صار يحلم عند رؤيتها بأن يمدّ يده على جسدها القويّ، على ذراعيها السمينتين كما كان يمدّها في براميل الزيتون أو في صناديق التفّاح المجفّف.

منذ فترة، ومارجولان يرى ليزا الجميلة كلّ يوم في الصباح. كانت تمرّ أمام حانوت غافار، وتتوقّف لتثرثر برهة مع تاجر الدواجن. كانت تتسوّق بنفسها كي لا يسرقوها، كما تقول. والحقيقة أنّها كانت تحاول حثّ غافار على البوح بما لديه؛ فهو لا يكون مطمئناً في حانوت جزارة الخنزير؛ في حانوته هو يهذر ويقول ما شاء. فقالت لنفسها إنّها ستعرف منه ما يدور حقّاً في حانة

السيّد لوبيغر؛ لأنّ ثقتها في الآنسة ساجيه، مخبرتها السرّية، كانت محدودة. هكذا عرفت أقاويل رهيبة عن أشياء مختلطة أثارت فزعها. وبعد يومين من التفسيرات التي تداولتها مع كونو عادت من السوق ممتقعة الوجه. وأومأت لزوجها أن يتبعها إلى قاعة الطعام. وهناك، وبعد أن أغلقت الباب:

- أخوك يريد إذن أن يرسلنا إلى المقصلة!... لماذا لم أخفيت عنّي ما تعرفه؟

أقسم كونو أنّه لا يعرف شيئاً، مغلظاً الأيمان ومؤكّداً أنّه لم يعد يذهب إلى السيّد لوبيغر، وأنّه لن يعود إلى هناك ثانيةً. فهزّت كتفيها وواصلت:

- يجدر بك ذلك، فعلى الأقلّ أنت لا تريد أن تهلك هناك... إنّ فلورون لشخص شرّير، أنا أشعر بذلك، وقد عرفت ما يكفي كي أخمّن إلى أين هو ذاهب... سيعود إلى السجن، أتسمعني؟

ثمّ، بعد برهة صمت، واصلت بصوت أهدأ:

- يا للبائس، إنّه مدلّل هنا، وبإمكانه أن يعود شخصاً أميناً. وليس أمامه هنا سوى قدوات حسنة. ولكنّه شيء في دمائه؛ سيلقى حتفه بسبب السياسة... أريد أن ينتهي هذا الأمر، هل تسمعني يا كونو؟ لقد سبق أن حذّرتك.

وضغطت على تلك الكلمات الأخيرة بالذات، فيما خفض كونو رأسه منتظراً أن تنتهي من كلامها.

- بدايةً لن يأكل هنا ثانيةً، يكفيه أن ينام فقط. إنّه يربح النقود، فليطعم نفسه.

واتّخذ كونو هيئة من سيعترض، لكنّها أسكتته، قائلةً بحزم:

- إذن، فلتختر بينه وبيننا. أقسم لك أنّني سأغادر مع ابنتي لو بقي هو.

هل تريد أن تفهم؟ إنّه رجل قادر على كلّ شيء، وقد جاء ليربك حياتنا. لكنني سأعيد إليها النظام، أُطمئنك... هل تسمع جيّداً؟ إمّا هو أو أنا.

وتركت زوجها صامتاً، وعادت إلى الحانوت، حيث باعت نصف رطل من معجون الأكباد بالابتسامة الدمثة لجزّارة حسناء. كان غافار قد تحمّس في إحدى النقاشات السياسية التي أدارتها هي ببراعة، لدرجة أنّه قال لها إنّها سوف ترى، وإنّهم سيهدمون كلّ شيء، وإنّه يكفي وجود رجلين من ذوي العزم مثله ومثل أخي زوجها لإشعال الشرارة الأولى. كانت تتكلّم عن الأفعال الخبيثة، بعض المؤامرات التي كان يلمّح لها تاجر الدواجن بشكل مستمرّ محيطاً إيّاها بالأسرار، وباستهزاء يريد أن يثير به خيالها. فتراءت لها فرقة من حرس المدينة تقتحم عليهم الحانوت، وتكمّمهم هي وكونو وبولين، وتلقي بهم في زنزانة.

وفي المساء على طاولة العشاء كانت شديدة البرود، ولم تكن تقدّم الطعام لفلورون، وقالت أكثر من مرّة:

– من الغريب كم صرنا نأكل من الخبز منذ فترة.

وفهم فلورون أخيراً. شعر أنّه يلقى معاملة قريب يُطرَد. كانت ليزا خلال الشهرين الأخيرين تُلبسه سراويل كونو وحلله القديمة؛ ولمّا كان نحيفاً مقارنةً بأخيه السمين، فقد كانت تلك الملابس المتلبّدة تبدو عليه كأغرب ما يكون. كانت تعطيه أيضاً ملابس أخيه الداخلية القديمة، ومناديل مهلهلة، ومناشف بالية، ومفارش تصلح للاستخدام خرَقاً، وقمصاناً مهترئة وسّعها بطن أخيه الممتلئ، وقصيرة للغاية حتّى أنّها تصلح مجرّد صديريّات له. ثمّ إنّه لم يعد يجد حوله المشاعر الودّية السابقة، كلّ البيت صار يستهين به على

طريقة ليزا الجميلة؛ أخذ أوغست وأوغستين يديران له ظهريهما، بينما كانت الصغيرة بولين توجّه له كلمات قاسية مثل طفلة رهيبة بخصوص اللّطخ في ملابسه والترقيعات في ثيابه. في الأيّام الأخيرة كانت معاناته تجد ذروتها على طاولة الطعام. لم يعد يجرؤ على تناول طعامه وهو يرى الطفلة وأمّها تراقبانه إذ هو يقطع الخبز. وكان كونو يظلّ محدّقاً في صحنه مُتحاشياً أن يرفع عينيه كي لا يتورّط في ما كان يدور. وما كان يُعذّب فلورون هو أنّه لم يكن يعرف كيف يغادر المكان. كانت تدور في رأسه منذ أسبوع عبارة يعلن بها أنّه منذ ذلك اليوم فصاعداً سيتناول وجباته في الخارج، لكنّه لم يكن يقوى على التفوّه بها.

كان ذلك الشابّ الرقيق الحاشية يعيش مغموراً بالأوهام، حتّى أنّه كان يخشى أن يجرح أخاه وزوجته إذا لم يعد يتناول الطعام في بيتهما. لقد استغرق شهرين قبل أن يلاحظ العدائيّة الصامتة من قبل ليزا. أحياناً كان يخشى أن يكون مخطئاً، فهي في رأيه طيّبة جدّاً. وكانت النزاهة لديه ترتفع إلى حدّ نسيانه لاحتياجاته. ولم يكن ذلك صادراً عن فضيلة، بل عن لا مبالاة قصوى، وغياب تامّ للشخصية. فهو لم يفكّر أبداً، حتّى وهو يُطرَد بالتدريج، في ميراثه من الخال غراديل، ولا في الحسابات التي كانت زوجة أخيه تريد إرجاعها له. كان، علاوة على ذلك، قد أعدّ مشروعاً للميزانية كاملاً: فبالنقود التي تتركها له السيّدة فيرلاك من راتبه، وثلاثين فرنكاً أخرى يكسبها من درس وفرّته له ليزا الجميلة، حسبَ أنّ عليه أن ينفق ثمانية عشر مليماً على غدائه وستّة وعشرين مليماً على العشاء. كان ذلك كافياً جدّاً. وفي النهاية، جازفَ ذاتَ صباح بانتهاز فرصة الدرس الجديد الذي يعطيه ليدّعي أنه لن يكون بمقدوره الحضور في أوقات الطعام. هذه الكذبة المتعلّقة بالعمل جعلته يحمّر خجلاً. فقال معتذراً:

- لا تؤاخذاني، فالطفل ليس متاحاً له الدرس إلّا في هذه الأوقات... ولكن لا يهمّ، سأتناول لقمةً في الخارج، وسآتي لألقي عليكما تحيّة المساء في الليل.

ظلّت ليزا الجميلة باردةً جدّاً، ممّا ضاعف من اضطرابه. لم تكن ترغب في المبادرة بطرده حتّى لا يلحقها الخطأ، وفضّلت أن تنتظر أن تعييه معاملتها له. لقد انصرف، وتمّ التخلّص منه بلياقة، وتحاشت هي كلّ بادرة للتودّد حتّى لا تثنيه عن قراره. ولكنّ كونو هتف متأثّراً قليلاً:

- لا تضايق نفسك، تناول طعامك في الخارج إن كان ذلك مناسباً لك... أنت تعرف أنّك دائماً مرحّب بك! تعالَ لتناول الحساء معنا في بعض الآحاد.

تعجّل فلورون في المغادرة، كان مغتمّاً جدّاً. وعندما انصرف، لم تجرؤ ليزا الجميلة على تقريع زوجها على دعوة يوم الأحد. وظلّت مزهوّة بانتصارها، تلتقط أنفاسها بارتياح في قاعة الطعام ذات خشب السنديان الفاتح، راغبةً في أن تحرق بعض السكّر لتطرد الرائحة الشاذّة للنحافة التي كانت تشمّها في المكان. إلى ذلك، احتفظت بموقفها الدفاعيّ. وخلال أسبوع كانت تلازمها هواجس عنيفة. لم تكن ترى فلورون إلّا فيما ندر مساءً، فتتخيّل أشياء رهيبة، آلة جهنّمية منصوبة في الأعلى في غرفة أوغستين ترسل إشارات من الشرفة فيمتلئ الحيّ بالمتاريس. وكان غافار يتّخذ هيئات غامضة، ولا يجيب إلّا بهزّات من رأسه، تاركاً حانوته لأيّام بأكملها في رعاية مارجولان. قرّرت ليزا أن تعرف ما يجري. ونُمي لعلمها أنّ فلورون في عطلة وأنّه سيقضيها مع كلود لانتييه في ضيافة السيّدة فرانسوا في نانتير. ولمّا كان سينطلق في الصباح، ولا يعود إلّا في المساء، فكّرت في دعوة غافار إلى العشاء؛ فهو سيتكلّم حتماً ويفرغ ما في جعبته. لكنّها لم تستطع ملاقاة تاجر الدواجن طوال اليوم. وعادت إلى سوق ليهال بعد الظهر.

كان مارجولان وحده في الحانوت، يغفو هناك منذ ساعات ليرتاح من جولات تسكّعه الطويلة. عادةً كان يجلس مُريحاً ساقيه على كرسيّ آخر متّكئاً برأسه على الخزانة الصغيرة خلفه. في الشتاء، كانت تُدهشه الطرائد المعروضة، من ظباء معلّقة، رؤوسها إلى الأسفل وأرجلها الأمامية مكسورة ومعقودة على رقابها، وعقود من القُبّرات مبثوثة كالأكاليل حول الحانوت مثل حليّ وحشية، وأرانب بريّة صهباء كبيرة، وطيور الحجل المبرقشة، وحيوانات الماء ذات سمرة البرونز، ودجاج الأحراج الروسيّ الذي يصل في مزيج من قشّ الشوفان والفحم، وطيور التدرج الرائعة بقلنسواتها القرمزية ورقابها من الحرير الأخضر ومعاطفها بلون الذهب المرصّع، وأذيالها بلون اللهب تتجرجر كأردية حاشية بلاط ملكيّ. كلّ هذا الريش كان يذكّره بكادين، وبالليالي التي قضّياها في الأسفل في نعومة السلال.

في ذلك اليوم، وجدت ليزا الجميلة مارجولان في وسط الدواجن. كانت الظهيرة دافئة، وثمّة أنسام تعبر الشوارع الضيقة في الرواق. كان عليها أن تنحني لتراه متمدّداً في عمق الحانوت تحت اللحوم النيئة المعروضة. أعلاه كانت تتدلّى إوزّات سمان معلّقة في العارضة ذات الكلاليب التي تغوص في جروح رقابها الدامية، الرقاب الطويلة المتصلّبة، مع هيكل البطن الكبير المحمرّ تحت الزغب الدقيق مترجرجاً كعريٍ في وسط بياض الجناحين والذيل. ومن العارضة كانت تتدلّى أيضاً الأرجل المتباعدة كما في قفزة رائعة والآذان المتدلّية للأرانب ذات الظهور الغبراء الموسومة بوبر الذيول البيضاء الملتفّة، والتي تضحك رؤوسها ذات الأسنان الحادّة والأعين الزائغة ضحكة حيوان نافق. وعلى طاولة العرض دجاجات منزوعة الريش تُبدي صدورها اللحيمة المشدودة عند نهاية الترقوة؛ وحمامات ممدّدة على صَوانٍ من قشّ السوحر بجلدها العاري والرقيق كالبراءة؛ وبطّات بجلدٍ أكثر خشونة

تعرض أطراف أرجلها؛ وثلاثة ديكة رومية رائعة مبقّعة بلون أزرق كذقن حليق لتوّه، راقدة على ظهورها، برقابها المشبوكة بمراوح ذيولها السوداء العريضة. وعلى جانب، في أطباق، وضعت الأمعاء والأكباد والحواصل والرقاب والأرجل والأجنحة؛ وفي صحن بيضاويّ كان يرقد أرنب مسلوخ ومنظَّف، وأطرافه الأربع متباعدة، ورأسه دامٍ، ولحم بطنه المشقوق يظهر كليتيه؛ وخيط من الدماء كان قد سال على امتداد صُلبه وحتّى الذيل، وقد بقّعت قطراته شحوب الخزف. لم يكن مارجولان قد نظّف ولا حتّى لوح التقطيع الذي كانت أرجل الأرنب لا تزال مهملة بجواره. كان قد أغمض عينيه إلى النّصف، وحوله على الأرفف الثلاثة التي تزيّن داخل الحانوت أكوام أخرى من الطيور المذبوحة، داخل قموع من الورق مثل باقات، وفي شريط متواصل من الأفخاذ المنثنية والصدور المنتفخة تلوح متداخلةً. وهو في وسط كلّ هذه الأطعمة بجسده الكبير الأشقر، ووجنتيه، ويديه، وعنقه القويّ بزغبه الأصهب يبدو لحمه كلحم ديك روميّ رائع واستداراته كبطون الإوزّات السّمان.

عندما لمح ليزا الجميلة انتفض ناهضاً خجلاً من مداهمتها له مضطجعاً في هذا الوضع. كان دائماً ما يكون في خجل وضيق شديدين أمامها. وعندما سألته إن كان السيّد غافار موجوداً غمغم:

- لا، لا أعرف، لقد كان هنا منذ قليل لكنّه غادر ثانيةً.

وابتسمت وهي تنظر له، كانت تكنّ له مودّة كبيرة. وإذ أعطته يدها شعرت باحتكاك دافئ، فأطلقت صرخة صغيرة. كان ثمّة أرانب حيّة في قفص أسفل طاولة العرض، مدّت أعناقها تتشمّم طرف تنّورتها.

- آه، قالت ضاحكة؛ إنها أرانبك التي تدغدغني.

وانحنت، راغبةً في مداعبة أرنب بيضاء اختبأت في ركن القفص. ثمّ عاودت:

- هل سيعود قريباً السيّد غافار؟

وردّ مارجولان مجدّداً بأنّه لا يعرف. كانت يداه ترتعشان قليلاً. وقال بصوت متردّد:

- ربّما يكون في المستودع... أعتقد أنّه قال لي إنّه سينزل إلى هناك.

- لديّ رغبة في انتظاره، قالت ليزا، إذن يمكن إعلامه أنّني هنا. ما لم أنزل له. هي فكرة! لقد وعدتُني منذ أكثر من خمس سنوات بزيارة المستودعات... ستقودني إلى هناك، أليس كذلك؟ وستشرح لي.

احمرّ الفتى شديداً من الخجل، وخرج متسرّعاً من الحانوت، سائراً أمامها تاركاً بضائعه، مردّداً:

- بالطبع... لك كلّ ما تريدين يا سيّدة ليزا.

ولكن في الأسفل أصاب ظلام القبو الجزّارة الحسناء بالاختناق. وبقت على الدرجة الأخيرة تنظر إلى سقفه المعقود المشكّل من كتل حجرية بيضاء وحمراء تصنع أقواساً مؤطّرة بعروق من الحديد ومستندة على أعمدة صغيرة. ما أوقفها كذلك، أكثر من الظلام، كان هو الرائحة الساخنة النفّاذة، كبخر حيوانات حيّة يفوح بالنشادر الذي غزا منخريها وحلقها.

- الرائحة لا تطاق، همست؛ البقاء هنا ليس صحيّاً.

- أنا أحتملها، ردّ مارجولان مندهشاً؛ الرائحة تصبح مقبولةً عندما يعتاد المرء عليها. وأيضاً، فإنّ المكان دافئ في الشتاء ويكون المرء فيه على راحته.

وتبعته قائلةً إنّ نتن الدواجن يثير اشمئزازها، ما سيجعلها تمتنع عن أكل الدجاج لمدّة شهرين بالتأكيد. في تلك الأثناء، كانت المستودعات، تلك الغُرَيفات الضّيقة التي يحفظ فيها التجّار طيورهم الحيّة تتمدّد دهاليزها الضيّقة التي تتقاطع في زوايا حادّة. كانت مصابيح الغاز قليلة جدّاً، فبدت تلك الطرقات ناعسة في سلام كما في الريف إذ تهجع قرية في النوم. جعل مارجولان ليزا تمس شبك الزرد المنشور وسط أطر من الحديد. وبينما هما يتابعان سيرهما في أحد الممرّات، كانت تقرأ أسماء المستأجرين المكتوبة على لوحات زرقاء.

- السيّد غافار في نهاية الممرّ، قال الشابّ وهو يواصل السير.

وانحرفا يساراً، حتّى بلغا ممرّاً مسدوداً في زاوية مظلمة لا يتسرّب إليها أيّ بصيص من الضوء. ولم يكن غافار موجوداً.

- لا يهمّ، قال مارجولان؛ سأريك مع ذلك طيورنا. إنّ معي مفتاحاً للمستودع.

دلفت ليزا خلفه في ذلك الظلام الدامس. وهنا، وجدته فجأة ملتصقاً بتنّورتها؛ فظنّت أنّها اقتربت منه أكثر من اللزوم، فتراجعت إلى الوراء وضحكت وقالت:

- هل تتخيّل أنّني سأراها داخل هذا الفرن، يا لك من أحمق!

لم يردّ مباشرةً، ثمّ غمغم بعد قليل قائلاً إنّه توجد دائماً شمعة في المستودع. لكنّه استمرّ في المحاولة طويلاً، إذ لم يكن يستطيع العثور على ثقب المفتاح. وإذ كانت تساعده أحسّت بنفَس حارّ على عنقها. وعندما فتح الباب أخيراً وأشعل الشمعة رأته يرتجف، فصرخت:

- يا لك من أحمق! هل تصيبك مثل هذه الحالة لأنّ الباب يستعصي عليك! أنت مثل فتاة رغم قبضتيك الكبيرتين هاتين.

ودخلا إلى المستودع. كان غافار قد استأجر مساحتين، أقام فيهما مستودعاً واحداً لطيوره، بعد أن أزال الحاجز بينهما. وعلى الأرض، كانت الطيور الكبيرة، الديكة الرومية والإوزّ والبطّ تخوض في الزبل؛ وفي الأعلى، وعلى ثلاثة صفوف من الأرفف، كان هناك علب مسطّحة ذات فتحات تؤوي الدجاجات والأرانب. كانت المشابك المعدنية للأقفاص متربة جدّاً ويملؤها نسيج العنكبوت حتّى بدت وكأنّها مزيّنة بستائر رمادية؛ وكان بول الأرانب يقرض الألواح السفلى؛ وذرَق الدواجن يبرقشها ببقَع بيضاء. لكنّها لم تكن راغبة في إحباط مارجولان بالإفصاح له عن اشمئزازها. مدّت أصابعها بين قضبان الأقفاص، متباكيةً على هذه الدجاجات البائسة المحشورة التي لا تستطيع حتّى الوقوف. وداعبت بطّة متكوّمة في أحد الأركان برجل مكسورة، وقال لها الشابّ إنّها ستُذبح في المساء نفسه قبل أن تموت أثناء الليل.

- ولكن، سألت؛ ماذا تفعل الطيور لتأكل؟

فأفهمَها أنّ الدواجن لا ترغب في الطعام إلّا عندما يكون هناك ضوء. والتجّار مجبرون على إضاءة شمعة والانتظار حتّى تنتهي الطيور من الأكل.

- ذلك يمتّعني، واصل القول؛ أنا أضيء لها لساعات. يجدر بك رؤية ضربات تلك المناقير، ثمّ إذ أُخفي ضوء الشمعة بيدي تظلّ أعناقها معلّقة في الهواء كما لو كانت الشمس قد غابت. ومن المحظور الانصراف وترك الشمعة مشتعلة. فقد أوشكت إحدى البائعات، مَدام باليت التي تعرفينها، على إحراق كلّ شيء ذات يوم، فقد أسقطت إحدى الدجاجات الشمعة في القشّ.

- حسناً، قالت ليزا؛ لا تكون الدواجن في حال سيئة إذا توجّب إشعال الثريّات لها في كلّ وجبة!

وقد أضحكه ذلك، وخرجت من المستودع وهي تنظّف حذاءها، رافعةً طرف ثوبها قليلاً لتحميه من القاذورات. أمّا هو فقد نفخ في الشمعة، وأغلق الباب. كانت تخشى من السير في الظلام بجوار هذا الصبيّ الكبير؛ فتقدّمت أمامه، كي لا تشعر به مجدّداً ملتصقاً بها. وعندما صار معها:

- إنّني مسرورة مع ذلك لرؤيتي كلّ هذا. فهناك تحت هذه الأروقة أشياء لا نتخيّل وجودها. أشكرك ثانيةً... سأصعد سريعاً. يجب ألّا يعرفوا في الحانوت أين كنت. إذا عاد السيّد غافار فقل له إنّني يجب أن أتكلّم معه في أقرب فرصة.

- لكنّه، قال مارجولان، عند منصّات الذبح على الأرجح... بإمكاننا أن نرى إذا أردت.

لم تردّ، وقد اختنقت من ذلك الهواء الساخن الذي يلفح وجهها. كان وجهها متضرّجاً، ومشدّها الثابت عادةً كان يرتعش. كان ذلك يثير هواجسها، أن تسمع خلفها الخطوات المتعجّلة لمارجولان الذي كان يبدو لها لاهثاً. توقّفت، وتركته يتقدّمها. كانت الممرّات المظلمة كقرية نائمة لا يزال يلفّها النعاس. لاحظت ليزا أنّ مُرافقها يتلكّأ. وعندما خرجا أمام السكة الحديدية، قال لها إنّه يريد أن يريها إيّاها؛ وتوقّفا هناك لبرهة يتطلّعان عبر العوارض الخشبية الكبيرة للحاجز. وعرض عليها أن يأخذها لزيارة السكّة، لكنّها رفضت، قائلةً إنّ الأمر لا يستحقّ العناء، وإنّها تعرف ما تكون. وعندما عادا، وجدا مَدام باليت أمام مستودعها، تنزع الأربطة عن سلّة كبيرة مربّعة تصدر عنها ضجّة مريعة لأجنحة وأرجل، وعندما حلّت العقدة الأخيرة

ظهرت بارزةً بغتةً الرقاب الطويلة لإوزّات تدفع الغطاء. وهربت الإوزّات فزعةً برؤوسها مدفوعة إلى الأمام تطلق صياحها، مع صخب ضربات مناقيرها التي ملأت ظلام القبو بموسيقى مخيفة. لم تستطع ليزا أن تمنع نفسها من الضحك، بالرغم من نحيب بائعة الدواجن، التي كانت من سخطها تسبّ مثل حوذيّ، وقد أفلحت في الإمساك بإوزّتين من عنقيهما. واندفع مارجولان في مطاردة إوزّة ثالثة. وكان يُسمع صوته وهو يجري عبر الشارع مقتفياً أثرها مستمتعاً بذلك الطراد؛ ثمّ سُمع ضجيج عراك، وعاد في النهاية حاملاً الطائر. فأخذته مَدام باليت بين ذراعيها، وهي سيّدة عجوز شاحبة، وأبقته للحظة على بطنها كما في ذلك الوضع الذي تُرى فيه ليدا في الأساطير العتيقة.

- آه لو لم تكن أنت هنا! قالت له. قبل أيّام ضربتني إحدى الإوزّات، وكانت معي سكّيني فذبحتها.

كان مارجولان يلهث بقوّة. عندما وصلا إلى مكان الذبح، حيث كانت إضاءة مصابيح الغاز أقوى، رأته ليزا متعرّقاً، تلتمع عياه بلهيب لم تعرفه من قبل. هو في العادة يغضّ طرفه أمامها كفتاة خجول، وهي تجده رجلاً شديد الجمال هكذا بمنكبيه العريضين، ووجهه الكبير المتورّد، وخصلات شعره الأشقر المجدول. كانت تنظر إليه بتلك الوداعة والإعجاب المنزّه عن الخطَر الذي نشعر به حيال صبيّ صغير، وكان خجله يزيد من شعورها ذاك.

- أرأيت، إنّ السيّد غافار ليس هنا، قالت له. أنت تضيع لي وقتي.

فشرح لها بصوت متعجّل عملية الذبح، والمنصّات الحجرية الخمس التي تمتدّ ناحية شارع رامبوتو تحت الإضاءة الصفراء للشرّاعات ومصابيح الغاز. كان هناك امرأة تذبح دجاجات في أحد الأطراف، وهو ما جعله يقول لها

إنّ المرأة تنزع ريش الطيور وهي لا تزال حيّة تقريباً، لأنّه أيسر كذلك. ثمّ رغب في أن تأخذ حفنة من الريش من المنصّة الحجرية بين الأكوام الهائلة المهملة هناك، وقال لها إنّهم يأخذونها ويبيعونها بما يصل إلى تسعة مليمات للرطل، حسب نعومتها. وكان عليه أيضاً أن يغمر يده في السلال الضخمة الملأى بالريش الناعم. ثمّ أدار بعد ذلك صنابير النوافير المثبّتة على كلّ عمود. ولم يكن يتوقّف عن سرد التفاصيل: كان الدمّ الذي يسيل من المنصّات يتجمّع في برك على البلاط؛ فيقوم عمّال النظافة بغسله كلّ ساعتين بالماء الغزير، ويزيلون البقَع الحمراء بفرَش خشنة. وعندما انحنت ليزا على فوهة المجرور الذي يساعد على التصريف، كانت تلك قصّة كاملة. حكى أنّه، في أيّام العواصف، يغمر الماء الأقبية متسرّباً إليها عبر هذه الفوهة؛ وفي إحدى المرّات ارتفع منسوبه حتّى بلغ ثلاثين سنتيمتراً، وتوجّب إجلاء الدواجن إلى الطرف الآخر من القبو المنحدر الأرضية، وهو كان يضحك من الجلبة التي أحدثتها الطيور الفزِعة. ثمّ انتهى من الحكي، ولم يعد يجد شيئاً حتّى تذكّرَ فتحات التهوية. فأخذها إلى العمق، وجعلها ترفع عينيها إلى أعلى، فرأت في الزوايا أبراجاً، نوعاً من الأنابيب العريضة لصرف الهواء الفاسد من المخازن.

وسكت مارجولان، في ذلك الركن الذي يفوح بالروائح المنتنة، في الخشونة القلويّة لذرق الطيور. لكنّه كان يبدو متيقظاً ومشتعلاً. كان منخراه ينبضان وهو يتنفّس بقوّة كأنّه يستردّ وقاحة الاشتهاء. منذ ربع ساعة وهو تحت الأرض مع ليزا الجميلة، وقد أسكرته تلك الروائح، وحرارة الحيوانات الحيّة، ففقد خجله، كان ممتلئاً بشبق يلتهب له زبل الدواجن تحت سقف القبو المظلم.

- هيا بنا، قالت ليزا الجميلة، إنّك ولد طيّب لأنّك أريتني كلّ هذا... عندما تأتي لي في الحانوت سأعطيك شيئاً طيّباً.

وأمسكت به من ذقنه، كما كانت تفعل أحياناً، دون أن تلاحظ أنّه قد كبر. كانت مستثارة قليلاً، من هذه الجولة تحت الأرض، بمشاعر لطيفة تحبّ أن تشعر بها في حدود المسموح به وما لا يجرّ عواقب. وقد نسيت يدها على ذقنه الفتيّ ذي الملمس المحبّب ربّما فترةً أطول من المعتاد. آنئذ، وعلى أثر هذه المداعبة، وبعد أن تأكّد بنظرة جانبيّة من خلوّ المكان، انداح مع غريزته وبقوّة ثورٍ قذف بنفسه على ليزا الجميلة. أمسك بها من كتفيها، وأطاح بها داخل إحدى سلال الريش الكبيرة، حيث سقطت ككتلة، وقد ارتفعت تنّورتها حتّى ركبتيها. همّ بها كما اعتاد أن يأفعل مع كادين، محاولاً الإمساك بها من ذراعيها بوحشية حيوان يسرق ليأكل، ولكنّها خرجت، دون أن تصرخ، بوثبة واحدة من السلّة، ورفعت ذراعها كما رأتهم يفعلون في المذبح، وأطبقت قبضتها قبضة الحسناء وصرعت مارجولان بضربة وحيدة بين عينيه، فتهاوى وارتطم رأسه بزاوية إحدى قرمات الذبح الحجرية. وفي تلك اللحظة انطلقت صيحة خشنة وممتدّة لأحد الديكة تشقّ الظلمات.

ظلّت ليزا الجميلة باردة للغاية. جعلت تعضّ على شفتيها، واستعاد صدرها هيئته المستديرة المصمتة والتي تجعله أشبه ببطن. وفوق رأسها، كانت تسمع هدير ليهال. وعبر فتحات التهوية التي تطلّ على شارع رامبوتو كان يهبط ضجيج الرصيف إلى الصمت المكتوم للقبو. وكانت تفكّر أنّ ما نجّاها هما ذراعاها السمينتان فقط. نفضت بعض الريشات التي كانت عالقة بملابسها ثمّ، خشية أن يداهمها أحدهم، غادرت دون أن تنظر إلى مارجولان. وعلى الدرج، وبعد أن تجاوزت الحاجز، جعلها ضوء النهار تشعر بارتياح كبير.

وعادت إلى حانوت الجزارة هادئة جدّاً وممتقعة قليلاً.

- لقد غبتِ طويلاً، قال لها كونو.

- لم أعثر على غافار، لقد بحثت عنه في كلّ مكان؛ أجابت ليزا بهدوء، سنأكل الفخذ المشويّ من دونه.

ثمّ ملأت وعاء دسم الخنزير الذي وجدته فارغاً، وقطّعت بعض الأضلع لصديقتها السيّدة تابورو، التي أرسلت لها خادمتها الصغيرة. ذكّرتها ضرباتها بالساطور على القرمة بهارجولان في القبو. لكنّها لم تشتكِ من شيء. لقد تصرّفت كامرأة نزيهة. لن تعرّض سلامها للخطر من أجل ذلك الطفل؛ فهي في قمّة راحتها بين زوجها وابنتها. ونظرت إلى كونوَ؛ كان لديه في قفا رقبته جلد خشن، وحمة حمراء؛ وذقنه الحليق له خشونة الخشب ذي العُقَد؛ فيما لرقبة الآخر وذقنه ملمس المخمل الورديّ. يجب ألّا تعاود التفكير فيه، لن تلمسه ثانيةً هناك، بما إنّ ذلك يدفعه للتفكير في أشياء مستحيلة. كانت تلك بعض المتع الحلال التي ستندم عليها، وهي تقول لنفسها إنّ الأطفال سرعان ما يكبرون.

وإذ كان وجهها قد تضرّج قليلاً، ألفاها كونو معتلّة بشدّة. فجلس لبرهة بالقرب منها خلف منضدة البيع وقال:

- يجب أن تخرجي أكثر. سيجعلك ذلك في حال أفضل... نذهب إلى المسرح لو ترغبين في إحدى تلك الأماسي في لاغيتيه، حيث شاهدت السيّدة تابورو تلك المسرحية الجيّدة.

وخرجت ليزا بعد أن قالت: «سنرى!» ثمّ اختفت من جديد. وفكّر كونو أنّها طيّبة للغاية إذ تواصل البحث عن ذلك الحيوان غافار. فهو لم يرَها تصعد الدرج. كانت بصدد الصعود إلى غرفة فلورون التي كان مفتاحها لا يزال معلّقاً على مسمار في المطبخ. كانت تتوقّع أن تعرف شيئاً من هذه الغرفة، بما أنّها لم تعد تعوّل كثيراً على تاجر الدواجن. جالت فيها ببطء، وفتّشت السرير

والمدفأة وفي الأركان الأربعة. كانت نافذة الشرفة الصغيرة مفتوحة. وكانت شجيرة الرمّان ذات البراعم تسبح في الغبار الذهبيّ للشمس الغاربة. فبدا لها أنّ فتاة حانوتها لم تغادر هذه الغرفة، كما لو أنّها نامت فيها الليلة الماضية؛ لم تشمّ فيها رائحة رَجل. كان ذلك من دواعي اندهاشها إذ توقّعت أن تعثر على صناديق مشبوهة، أو قطَع أثاث بأقفال غليظة. ذهبت وتحسّست ثوب أوغستين الصيفيّ، الذي لا يزال معلّقاً على الحائط. ثمّ جلست في النهاية أمام الطاولة، لتقرأ صفحة مكتوبة في بدايتها، حيث تتردّد كلمة «الثورة» مرّتين. انتابها الذعر، وفتحت الدرج لتجده مليئاً بالأوراق. ولكنّ نزاهتها استيقظت في مواجهة هذا السرّ الذي لم تكن تصونه جيّداً تلك الطاولة الرديئة من الخشب الأبيض. وظلّت عاكفة على الأوراق، تحاول أن تفهم، دون أن تلمسها، وهي في غاية الاستثارة، حتّى أجفلت إثر تغريدة حادّة لطائر الشرشور الذي ضرب قفصَه شعاعٌ شمسيّ مائل. فأغلقت الدرج، كان ما تفعله هناك شرّيراً جدّاً.

وإذ سهت عن نفسها بجوار النافذة وهي تفكّر في أنّها لا بدّ أن تستشير الراهب روستان، وهو رجلٌ حكيم، لمحت في الأسفل على رصيف ليهال تجمّعاً للنّاس حول محفّة. كان الليل قد هبط، لكنّها عرفت كادين التي كانت تبكي وسط الجمع؛ بينما فلورون وكلود وقد ابيضّت أحذيتهما من الغبار واقفان يتحدّثان بحماس بجوار الرصيف. فتعجّلت في النزول وقد فاجأها رجوعه. وما إن وصلت خلف منضدة البيع حتّى دخلت الآنسة ساجيه وقالت:

- ذلك الشقيّ مارجولان عثروا عليه للتوّ في القبو مشجوج الرأس... ألن تأتي لمشاهدة ذلك يا سيّدة كونو؟

فعبرت الرصيف لترى مارجولان. كان الشابّ ممدّداً ممتقع الوجه بعينين

مغمضتين، وخصلة نافرة من شعره الأشقر متصلّبة وقد لطّخها الدم. داخلَ الجمع كانوا يقولون إنّ الأمر بسيط، وإنّ الخطأ كان خطأه، ذلك الصبيّ الذي يتقافز داخل القبو؛ وافترضوا أنه أراد الوثب من إحدى منصّات الذبح الحجرية، وهي واحدة من ألعابه المفضّلة، فسقط وارتطم رأسه بالحجر. همست الآنسة ساجيه وهي تومئ ناحية كادين الباكية:

- لا بدّ أن تلك الدّاعرة هي من دفعه. هما دائماً معاً في الأركان المظلمة.

انتعش مارجولان بفضل برودة الشارع وفتح عينيه على اتّساعهما مندهشاً. وتفحّص كلّ الموجودين، وإذ وجد وجه ليزا وهي منحنية تتطلّع إليه، ابتسم لها ابتسامة خفيفة متواضعة مع مسحة من امتثال. كان يبدو عليه أنّه لا يتذكّر. قالت ليزا، مطمئنةً، إنّه يجب نقله فوراً إلى المستشفى، وإنّها ستذهب لعيادته وتأخذ له البرتقال والكعك. سقط رأس مارجولان ثانيةً على كتفه. وعندما أخذوا النقّالة، تبعتها كادين، بباقاتها المعلّقة في عنقها، وبأزهار البنفسج المغروزة في خلفية من العشب الأخضر، وقد اغرورقت عيناها بدموعها السخينة، دون أن تفكّر أدنى تفكير في الزهور التي يحرقها هكذا حزنها الكبير.

وإذ عادت ليزا إلى حانوت الجزارة، سمعت كلود الذي كان يصافح فلورون منصرفاً يهمس:

- يا للفتى الملعون، لقد أتلفَ يومي... لقد كنّا مستمتعين جدّاً، مع ذلك!

كان فلورون وكلود قد عادا منهكين وسعيدين. وقد اصطحبا معهما الأريج الطيّب للهواء الطلق. ذلك الصباح، قبل انبثاق النهار، كانت السيّدة فرانسوا كانت قد باعت خضارها. فذهبوا ثلاثتهم ليُحضروا العربة من أمام نُزل كومبادور في شارع مونتورغي. كان ذلك بمثابة استشراف للريف في

قلب باريس. خلف مطعم فيليب، حيث الأشغال الخشبية المذهّبة للواجهة تصعد حتّى الطابق الأول، يوجد فناء مزرعة، مظلم وينبض بالحياة، عَبِقٌ برائحة القشّ الطازج والروث الساخن، وأسراب من الدجاج تنْقب التربة الرطبة بمناقيرها؛ وثمّة بعض الأبنية من الخشب المخضرّ، وسلالم، وأروقة، وسقائف مفرّغة تستند على البيوت القديمة المجاورة؛ وفي العمق، وتحت عريشة ذات هيكل كبير، كان بلتازار ينتظر، مربوطاً إلى العربة، يأكل شعيره من كيس مربوط بالرسن. هبط شارع مونتورغي، يخبّ قليلاً، ويبدو راضياً بعودته السريعة إلى نانتير، لكنّه لن يعود خالياً، فلتاجرة الخضار عقْد مع الشركة المسؤولة عن تنظيف السوق؛ فهي تأخذ مرّتين في الأسبوع حمولة عربة من الأوراق تمّ التقاطها بالشوكة من تلال القمامة المتراكمة على الأرصفة. كان ذلك سماداً جيّداً. في دقائق امتلأت العربة، وتمدّد كلود وفلورون على ذلك الفراش السميك من الخضرة، وتولّت السيّدة فرانسوا القياد، وانطلق بلتازار في سيره البطيء، مدلّياً رأسه من فرط الحمولة الثقيلة التي كان يقْطرها.

كان الحفل متّفَقاً عليه منذ وقت طويل. وكانت تاجرة الخضار تضحك باستفاضة. فهي تحبّ الرجلين، ووعدتهما بصحن عجّة بشحم الخنزير لم يعتادا عليه في «باريس اللئيمة» تلك. وهما كانا يتذوقّان ملذّات ذلك النهار من الكسل والتسكّع الذي لم تكد شمسه تشرق بعد. وفي البعد، كانت نانتير فرحة خالصة يلجان فيها بعد قليل.

- هل أنتما مرتاحان، على الأقلّ؟ سألتهما السيّدة فرانسوا وهي تسلك شارع بون نوف.

فأقسم كلود أنّ مرقدهما في العربة ناعم «كحشية فراش عروسين». كانا كلّ منهما مضطجعاً على ظهره متوسّداً إحدى ذراعيه، ينظر إلى السماء

الشاحبة، التي تنطفئ فيها النجوم. وعلى امتداد شارع ريفولي ظلّا صامتين في انتظار أن تبدأ البيوت بالاختفاء، يستمعان إلى السيّدة فرانسوا وهي تكلّم بلتازار بصوت خفيض قائلة له:

- سِرْ على مهلك يا عزيزي، لسنا متعجّلين، سنصل في كلّ الأحوال...

وفي الشانزيليزيه، وإذ صار الرسّام لا يرى سوى قمم الأشجار على الجانبين، وكتلة الخَضَار الكثيفة لحدائق تويليري، وفي العمق، راح في غفوة، وطفق يكلّم نفسه. وعند المرور أمام شارع رول، نظر إلى البوابة الجانبية لكنيسة سانت أوستاش التي نراها من بعيد، تعلوها المظلة العملاقة لأحد شوارع ليهال المسقوفة. كان يعود إليها بلا توقف، راغباً في أن يجد فيها رمزاً ما.

- إنّه لقاء مثير، قال؛ تلك القطعة من الكنيسة المؤطرة داخل ذلك الطريق من الحديد المصبوب... سيقتل هذا ذاك، الحديد سيقتل الحجر، وفي وقت قريب... هل تؤمن بالصدفة يا فلورون؟ أتخيلّ أنّ متطلّبات البناء ليست وحدها هي ما وضع زخارف سانت أوستاش في قلب سوق ليهال المركزيّة بهذه الطريقة. ألا ترى؟ إنّ في ذلك لَبياناً واضحاً: إنّه الفنّ الحديث، أو الواقعية، أو النزعة الطبيعية، سمّه ما شئت، وهو يتعاظم في مواجهة الفنّ القديم، ألا توافقني الرأي؟

وإذ ظلّ فلورون على صمته، واصل كلود كلامه:

- إنّ لهذه الكنيسة معماراً هجيناً؛ فمن ناحية يحتضر فيها طراز العصور الوسطى ومن ناحية أخرى يحبو فيها طراز عصر النهضة... هل لاحظت أيّ نمط من الكنائس يبنون لنا الآن؟ إنّها تشبه كلّ ما نريده، المكتبات، والمراصد، وأبراج الحمام، والثكنات العسكرية؛

ولكن بالتأكيد لا أحد هنا مقتنع بأنّها بيوت للربّ. إن بنّائي هياكل الربّ قد ماتوا. سيكون من الحكمة التوّقف عن بناء هياكل الحجر القبيحة هذه، التي لن يسكنها أحد... منذ بداية القرن، لم يُبنَ سوى صرح متفرّد وحيد. صرح لن يُقَلد في أيّ مكان، وقد نما بنفسه في أرض العصر، إنّه سوق ليهال المركزية، هل تفهمني يا فلورون، إنّه عمل جريء يتنبّأ بخفرٍ بالقرن العشرين... لذا تنهزم كنيسة سانت أوستاش! تقبع كنيسة سانت أوستاش بزخارفها خاويةً من شعب المؤمنين، بينما سوق ليهال تتّسع بجانبها وتضجّ بالحياة... هذا ما أراه يا عزيزي!

- أتعْلم، قالت السيّدة فرانسوا ضاحكةً، إنّ القابلة التي قطعت حبل سرّتك قد استحقّت أجرها حقّاً؟ إنّ بلتازار يمدّ أذنيه ليتنصّت عليك... هيّا، إلى الأمام يا بلتازار!

كانت العربة تصعد ببطء. والجادّة مقفرة في تلك الساعة الصباحية، بمقاعدها الحديدية المصفوفة على الرصيفين، والمساحات المعشوشبة، التي تتخلّلها هنا وهناك بعض النباتات، والتي تغور تحت دكنة الأشجار. عند المستديرة، مرّ فارس وفارسة يخبّان على فرسيهما. كان فلورون، الذي توسّد كيساً من أوراق الكرنب يواصل النظر إلى السماء التي تلتمع ببريق ورديّ. وللحظة، أغلق عينيه كي يستشعر طراوة الصباح على وجهه، سعيداً لابتعاده عن ليهال، وبرحلته في الهواء النقيّ، وقد ظلّ صامتاً لا يسمع حتّى ما يقال حوله.

- إنّهم لَطيّبون أولئك الذين يحشرون الفنّ داخل علب ألعاب الأطفال! عاود كلود الكلام بعد فترة صمت. إنّها كلمتهم الأثيرة: «نحن لا نصنع فنّاً بالعلوم، والصناعة تقتل الشعر»، وينهمك الحمقى في

البكاء على الأزهار، كما لو كان ثمّة من يفكّر في الإساءة للأزهار. إنّني منزعج، في النهاية، ببساطة. لديّ رغبة في الردّ على هذا النحيب بأعمال تتحدّاه. إنّه لَمن الممتع أن نغضب هؤلاء الناس الطيّبين قليلاً... هل ترغب في أن أقول لك ما الذي كان أجمل أعمالي، منذ بدأت أرسم، ذلك الذي ترضيني ذكراه أكثر. إنّها لقصّة... في العام الماضي، وعشيّة عيد الميلاد، وإذ كنت في زيارة خالتي ليزا، كان صبيّ الحانوت أوغست، ذلك الغبيّ، أنت تعرفه، منهمكاً في ترتيب لحوم واجهة العرض. يا للبائس! لقد أثار حفيظتي بالطريقة الرخوة التي كان ينظّمها بها. قلت له أن ينزاح من هناك، وإنّي سأرسم له ذلك بشكل أنظف. هل تفهم، كان أمامي كلّ أطياف الألوان القويّة، حمرة الألسنة المحشوّة، وصفرة أفخاذ الخنازير المملّحة، وزرقة قصاصات الورق، وورديّ الشرائح المقطّعة، وخضرة أوراق الخلنج، خصوصاً سواد المسوَّد؛ إنّه أسود رائع لم أستطع أن أكوّنه على ملْواني يوماً. وطبعاً كان هناك الثرب، والنقانق، والسجق، وأكارع الخنزير المتبّلة بفتات الخبز تعطيني لوناً رمادياً شديد النقاء. فصنعت عملاً فنّياً حقيقيّاً. وضعت الأطباق والصحون والبرنيات والمرطبانات؛ وضبطت درجات الألوان، وصنعت طبيعة صامتة مدهشة، تنفجر فيها مفرقعات من الألوان، مدعومة بأطياف لونيّة حاذقة. كانت الألسنة الحمراء تتمدّد بشراهة نارية، والمسوَّد يضفي في قلب الأغنية الناصعة للنقانق ظلامَ شبع رائع. هكذا رسمتُ، أليس كذلك، نهم وليمة سهرة عيد الميلاد، وساعة انتصاف الليل المخصّصة للمآكل، وشراهة البطون التي أنهكتها التراتيل. وفي الأعلى، كان ديك روميّ يعرض صدره الأبيض المبرقش تحت جلده ببقَع سوداء من الكمأ. كان ذلك وحشيّاً ورائعاً،

كبطن تراها في قلب سطوعها، ولكن مع لمسة من القسوة، وحدّة في السخرية، بحيث تدفّقت الجموع أمام نوافذ الحوانيت، متوجّسة من تلك المعروضات التي تبرق بقوّة... وعندما عادت خالتي ليزا من المطبخ، انتابها الخوف، لقد تخيّلت أنّني أشعلت النار في زيوت الحانوت. الديك الروميّ بالذات بدا لها غير لائق، حتّى أنّها طردتني، بينما بدأ أوغست يعاود تنظيم واجهة العرض بطريقته السخيفة. هؤلاء البدائيّون لن يفهموا أبداً كيف تضع بقعة حمراء بجوار بقعة رمادية... لا يهمّ، فقد كان ذلك أهمّ أعمالي. لم أصنع قطّ شيئاً بهذه الجودة.

ثمّ صمت مبتسماً ومستغرقاً في ذكرياته. كانت العربة قد بلغت قوس النصر، وثمّة نسائم قوية تهبّ على هذه القمّة من الطرق المفتوحة حول الميدان الواسع. اعتدل فلورون في جلسته، واستنشق بقوّة تلك الروائح الأولى للعشب التي تتصاعد من التحصينات. واستدار راغباً عن النظر إلى باريس، متطلّعاً إلى الريف في البعيد. عند مستوى شارع لونشان، أرته السيّدة فرانسوا المكان الذي التقطته فيه طفلاً. وقد جعله هذا يسرح بخياله. وأخذ يتأمّلها، كانت أمامه موفورة الصحّة وهادئة ويداها أنيقتان في مسكتهما للرسن. كانت تفوق ليزا جمالاً، بفكّها الممتدّ إلى الأمام، وبلون بشرتها الخشن وهيئتها اللطيفة المفاجئة. وكانت إذ تفرقع بلسانها، يمدّ بلتازار أذنيه ويحثّ سيره على الطريق.

لدى وصولهم إلى نانتير، انحرفت العربة يساراً وسلكت طريقاً ضيّقاً تحفّه الأسوار، ثمّ توقّفت في نهاية ممرّ مسدود. كان ذلك في طرف العالم، كما قالت تاجرة الخضار. وتوجّب إنزال شحنة أوراق الكرنب. لم يرغب فلورون وكلود في إلهاء صبيّ البستانيّ المنهمك في أعمال زراعة الخضار،

فتسلّحا بمذراتين كبيرتين وأخذا في إهالة الكومة داخل حفرة السماد. وقد استمتعا بذلك كثيراً. كان لكلود ولع بالزبل، ببقايا الخضار، وبوسخ ليهال، بتلك المخلّفات الساقطة من تلك المائدة العملاقة، والتي تظلّ حيّة وتعود إلى حيث تنبت الخُضار، لتعطي الحياة لأجيال جديدة من الكرنب واللّفت والجزر، وتعاود النموّ في شكل فاكهة رائعة، لتعود فتُعَرض في ليهال. إنّ باريس تجعل كلّ شيء يتعفّن، ثمّ تعيده إلى الأرض التي تنفخ الروح في ما هو ميت دون كلل.

- انظر، قال كلود وهو يفرغ من آخر ضربة بالمذراة، نبتة الكرنب هذه أعرفها. إنّها تنمو للمرة الثانية على الأقلّ في هذ الركن بجوار شجرة المشمش.

ذلك الكلام أضحك فلورون، لكنه أضحى مهموماً وأخذ يتمشّى ببطء في بستان الخضروات، فيما كان كلود يرسم تخطيطاً للحظيرة، والسيّدة فرانسوا تعدّ الغداء. يتكوّن بستان الخضار من شريط طويل من الأرض يشقّه ممشى ضيق. فصعد قليلاً، في الأعلى، وإذا يرفع المرء رأسه، بإمكانه أن يلمح ثكنات جبل الفاليريان المنخفضة. يفصلها عن قطع أخرى من الأراضي سياج من الشجيرات. تلك الحوائط من نبات الزعرور البريّ، المرتفعة جدّاً كانت تحدّ الأفق بستارة خضراء. وهكذا فبإمكان المرء أن يقول إنّه، من كلّ البلد المحيط، كان جبل الفاليريان وحده ينتصب هنا بفضول ليتطلّع إلى داخل مزرعة السيّدة فرنسوا. كان سلام عظيم يطلّ من هذا الريف الذي لا يُرى. بين أسيجة الشجيرات الأربع، على امتداد بستان الخضار، كان لشمس مايو نشوة الدفء، وصمت مشحون بأزيز الحشرات، ونعاس لطفولة سعيدة. وعند سماع بعض القرقعات أو الهمسات الخفيضة كان يبدو أنّ المرء ينصت لصوت الخضروات وهي تولد وتنمو. كانت مشاتل السبانخ والحميض،

ومساحات الفجل واللّفت والجزر، والنبتات الكبيرة للبطاطا والكرنب تعرض مساحاتها المنتظمة وتربتها السوداء المبرقشة بخضرة الأوراق؛ وأبعد هناك صفوف الخسّ، والبصل، والكُرّاث، والكرفس، مصطفّة وقد زرعت بمحاذاة دقيقة، وكأنّها جنود من رصاص في موكب؛ فيما كانت البازلّاء والفاصوليا آخذة في الالتفاف بسيقانها الرفيعة على غابات من المساميك، وهي ستتحوّل مع قدوم شهر يونيو إلى أخشاب سميكة. ما من عشب ضارّ يتلكّأ هنا. بإمكاننا أن نعتبر بستان الخضار بساطين متوازيين برسم منتظم، أخضر على خلفية حمراء، يتمّ تلوينها بعناية كلّ صباح. وحاشية من الزعتر تضع ذؤابات رمادية تحفّ جانبَي الممشى.

كان فلورون يروح ويجيء في عبير الزعتر الذي تدفئه الشمس. كان سعيداً بعمق بسكون الأرض ونظافتها. منذ ما يقرب من سنة وهو لم يرَ الخضروات إلّا مكدومة من ارتجاجات العربات، مقطوفة منذ العشيّة، ولا تزال دامية المرأى. كان مستمتعاً بوجوده في حضرتها وهي ساكنة في الطين موفورة الصحّة. كان للكرنب حظّ كبير من الازدهار، وكان الجزر فرحاً، والخسّ يصطف في دعة وكسل. فيما بدت له سوق ليهال التي تركها في الصباح وكأنّها كفن كبير لعظام الموتى، مكان للردى لا توجد فيه إلّا جثث الكائنات، مقبرة للتعفّن والتحلّل. وأبطأ من خطواته ليستريح في بستان خضار السيّدة فرانسوا من مسيرة طويلة وسط الضجيج الذي يصمّ الآذان والروائح الكريهة. ذهب عنه ضجيج الرطوبة الضارّة لرواق الأسماك؛ لقد ولد من جديد في الهواء النقيّ. كان كلود محقّاً، فكلّ شيء يحتضر في ليهال. الأرض هي الحياة، المهد الأبديّ، وعافية العالم.

- العجّة جاهزة، هتفت تاجرة الخضار.

وإذ جلس ثلاثتهم إلى المائدة في المطبخ، والباب مفتوح على الشمس،

تناولوا الطعام بفرح، حتّى أنّ السيّدة فرانسوا كانت تنظر إلى فلورون بإعجاب وهي تردّد مع كلّ لقمة:

- أنت لم تعد كما كنت، لقد صغرت عشر سنين، إنّها باريس الملعونة التي تجعلك مكفهرّاً هكذا. يبدو بريق الشمس في عينيك الآن... ألا ترى، إنّ المدن الكبيرة لا تساوي شيئاً، يجب أن تأتي لتعيش هنا.

وطفق كلود يضحك، وقال إنّ باريس لرائعة، وإنّه سيدافع عنها حتّى النهاية، بالرغم من عظْم محبّته للريف. وفي ساعات العصر، كان فلورون والسيّدة فرانسوا وحدهما على أطراف بستان الخضار في ركن من الأرض مزروع ببعض أشجار الفواكه. كانا جالسين على الأرض، يتكلّمان في هدوء. كانت تنصحه بودّ كبير، أموميّ وحنون. سألته ألف سؤال عن حياته، وعمّا سيؤول إليه مصيره لاحقاً، عارضةً عليه نفسها ببساطة، إذا كان بحاجة إليها لإتمام سعادته. أمّا هو فقد شعر بتأثّر شديد. لم تكلّمه أيّة امرأة بهذه الطريقة يوماً، ولقد بدت له مثل نبتة نضرة وقويّة، نمت كالخُضار في تربة هذا البستان؛ بينما هو يتذكّر ليزا، والنورمانديات، وفتيات ليهال الجميلات اللائي بَدون له مثل لحوم مشبوهة متبّلة للعرض. لقد قضّى هنا ساعات يتنفّس الرفاه المطلق، الذي تحمله روائح الطعام التي هو في وسطها يتدلّه مولوداً من جديد، تماماً كنبتة الكرنب تلك، التي زعم كلود أنّه رآها تنبت أكثر من عشر مرّات.

في نحو الخامسة عصراً تركا السيّدة فرانسوا. كانا يرغبان في العودة سيراً على الأقدام، ورافقتهما تاجرة الخضار حتّى نهاية الممشى، محتفظة لوهلة بيد فلورون في يدها:

- تعال، إذا شعرت بأيّ حزن، قالت له همساً.

ولمدّة ربع ساعة كان فلورون يمشي دون أن ينبس ببنت شفة، مكفهرّاً مرّةً أخرى، قائلاً لنفسه إنّه إنّما يترك عافيته وراءه. كان طريق كوربفوا أبيض من الغبار. وكانا مستمتعين بالمسيرة الطويلة، بأحذيتهما الكبيرة وهي تدقّ على الأرض الصلبة، وسحب صغيرة من الغبار تتصاعد خلف كلّ خطوة من خطواتهما. كان شعاع الشمس المائل يلفّ الجادة، فيتمدّد خيالاهما على الطريق وقد انحرفت مقاييسهما حتّى أنّ رأسيهما كانا ينعكسان على الرصيف المقابل.

كان كلود بذراعيه المتأرجحتين يتقافز في وثبات منتظمة وهو ينظر إلى الخيالَين بوداعة، سعيداً وتاركاً نفسه لإيقاع المسيرة، مغالياً فيه وهو ينغّمه بكتفيه. ثمّ قال وكأنّه يخرج من حلم:

- هل تعرف معركة السّمان والنّحاف؟

فأجاب فلورون، وقد فوجئ، بأنّه لا يعرفها. فشرع كلود متحمّساً في مدح تلك السلسلة من المحفورات. وأخذ يذكر بعض مَشاهِدها: السّمان في غاية الضخامة يتضوّرون جوعاً ويعدّون مائدة المساء، بينما النّحاف، وقد طواهم الجوع، ينظرون من الشارع كأشباح حاقدة؛ وأيضاً السّمان على المائدة، بأوداجهم المنتفخة، يطردون أحد النّحاف وقد واتته الجرأة ليدخل عليهم، وكان يبدو كمثْلِ كُرَيّة وسط جمهرة من الكُرات. كان يرى في هذا كلّ الملهاة الإنسانية، وانتهى إلى تصنيف البشر إلى سمان ونِحاف، مجموعتين متحاربتين تلتهم إحداهما الأخرى، تملأ بطنها وتلتذّ.

- بالتأكيد، قال، كان قابيل من السّمان وهابيل من النِّحاف. منذ جريمة القتل الأولى والسّمان الجياع يمصّون دماء النَّحاف، في مأدبة متواصلة تجمع الأضعف إلى الأقوى، كلّ واحد يلتهم جاره، ويتمّ التهامه هو

أيضاً بدوره... هل ترى يا صديقي، حذارِ من السّمان.

ثمّ سكت قليلاً، مواصلاً متابعة الخيالَين وقد استطالا أكثر بفعل الشمس الغاربة، ثمّ همس:

- نحن من النّحاف، نحن أيضاً، هل تفهمني... قل لي، هل ببطون مسطحة كبطوننا سنشغل مكاناً معتبراً تحت الشمس؟

كان فلورون ينظر للخيالَين مبتسماً، فأثار ذلك حفيظة كلود، وهتف:

- أنت مخطئ إذ تجد ذلك طريفاً. أمّا أنا فإنّي أتألّم من كوني نحيفاً. لو كنت سميناً، لكنت سأرسم في سلام، ولكانَ لديّ محترف أنيق، وكنت سأبيع لوحاتي بوزنها ذهباً. عوضاً عن ذلك، أنا من النّحاف، أريد أن أقول إنّني أشحذ قريحتي لإيجاد آلات يستهزئ بها السّمان. سوف أموت، بالتأكيد، وجلدي ملتصق بعظامي، نحيلاً لدرجة أنّهم قد يضعونني بين صفحتي كتاب ليدفنوني... أمّا أنت! فأنت نحيف بشكل مذهل، أنت مِلك النّحاف بشرفي. هل تذكر شجارك مع السمّاكات؛ كان ذلك رائعاً، تلك الأثداء العملاقة في مواجهة صدرك النحيل؛ كنّ يتعاملن وفقاً لغريزتهنّ، يطاردن رجلاً من النّحاف كما تطارد القطط فأراً... من حيث المبدأ، لو تسمعني، إنّ السمين يرتعب من النحيف، ولذا فهو يسعى لإزاحته من أمام ناظريه، بضربة من أسنانه أو من قدميه. ولذا فلو كنت في مكانك لأخذت حذري. فإنّ آل كونو من السمان، وكذلك آل ميهودان، أنت محاط بالسّمان. كان ذلك سيثير قلقي.

- وماذا عن غافار، والآنسة ساجيه، وصديقك مارجولان؟ سأل فلورون الذي ظلّ على ابتسامه.

- آه، لو أردت لصنّفت لك كلّ معارفنا، أجاب كلود. منذ فترة طويلة وأنا أحتفظ بوجوههم على لوحة من الورق المقوّى في غرفتي مع إشارة لأيّ فئة ينتمي كلّ منهم. إنّه فصل كامل من التاريخ الطبيعيّ... غافار هو من السّمان لكنّه يقف في صفّ النّحاف، وهذه الفئة شائعة إلى حدّ كبير... أمّا الآنسة ساجيه والسيّدة لوكور فهما من النّحاف، وتلك فئة مخيفة، نِحاف يائسون، لا يتورّعون عن فعل أيّ شيء ليسمنوا... أمّا صديقي مارجولان والصغيرة كادين ولاسارييت فثلاثتهم من السمان، ما زالوا أبرياء، ليس لديهم سوى جوع الشباب اللطيف. يجب أن تلاحظ أنّ السّمين، طالما لم يتقدّم في السنّ بعد هو كائن محبّب... السيّد لوبيغر من السّمان، أليس كذلك؟ أمّا أصدقاؤك السياسيّون فمعظمهم من النّحاف، شارفيه، وكليمنص، ولوغر، ولاكاي. أنا لا أستثني سوى ذلك الحيوان السمين والشخص العجيب روبين، فهو يصعب عليّ تصنيفه.

وواصل الرسّام الكلام بهذه الوتيرة من جسر نويي حتّى قوس النصر. وعاد لإكمال رسم بعض الملامح بإضافة بعض العلامات الفارقة: فلوغر كان نحيفاً ولديه بطنه بين كتفيه؛ ليزا الجميلة كلّها بطن، والنورماندية الجميلة كلّها صدر؛ والآنسة ساجيه فقدت في حياتها الفرصة لتكون سمينة، ولذا تكره السّمان مع احتفاظها بازدراء للنّحاف؛ غافار يتنازل عن سمنته، وسينتهي به الحال مسطّحاً مثل بعوضة.

- والسيّدة فرانسوا؟ سأل فلورون

انتابت كلود الحيرة لدى سماعه هذا السؤال، وأخذ يبحث، ثمّ غمغم:

- السيّدة فرانسوا، السيّدة فرانسوا... لا، لا أعرف، لم أفكّر يوماً في

تصنيفها... إنّها امرأة طيّبة، السيّدة فرانسوا، وهذا كلّ شيء. إنها ليست بين السمان ولا بين النِّحاف!

وضحك الاثنان، وكانا قد صارا أمام قوس النصر. والشمس، عند مُنحدرات تلال سورين، منخفضة جدّاً في الأفق، حتّى أنّ خيالَيهما الفارعين كانا ينطبعان على بياض الصرح، عالياً جدّاً، أعلى من التماثيل الضخمة للجموع، ومن القضيبين الأسودين اللذين يشبهان خطّين رُسِما بالفحم. ازداد كلود فرحاً ولوّح بذراعيه، ثمّ قال مواصلاً السير:

- هل رأيت؟ عندما غربت الشمس صار رأسانا يلامسان السماء.

لكنّ فلورون لم يعد يضحك. لقد استعادته باريس، باريس التي تخيفه الآن، بعد أن ذرف دموعه من أجلها في كايين. وحينما وصل إلى ليهال، كان الظلام قد أرخى سدوله، والروائح خانقة، فأخفض رأسه وهو يعاود الدخول في كابوس الأطعمة الضخمة، مع الذكرى الحلوة والحزينة لذلك النهار من الصحّة والنضارة المفعمة بروائح الزعتر.

الفصل الخامس

في اليوم التالي، نحو الرابعة عصراً، توجّهت ليزا صوب كنيسة سانت أوستاش. كانت في كامل زينتها وهي تعبر الساحة، في ثياب من الحرير الأسود يعلوها شال من الصوف المنقوش. تابعتها النورماندية الحسناء بعينيها حانقةً، من مسْمَكتها حتّى باب الكنيسة.

- حسناً، قالت بضغينة، السمينة أصبحت تؤمن بالكهنة الآن... سيهدّئ هذه المرأة أن تغطّس مؤخّرتها في جرن الماء المقدّس.

لكنّها كانت مخطئة، فليزا لم تكن قطّ متديّنة. هي لا تمارس الشعائر، وتقول عادةً إنّها تكتفي بأن تكون مخلصةً في كلّ شيء. لكنّها لم تكن تحبّ أن يجدّف أحدهم أمامها؛ كانت أحياناً تُسكت غافار المولع بحكايات الكهنة والراهبات، والدعابات المتعلّقة بالموهف[1]، فذلك كان يبدو لها غير لائق أبداً. يجب أن يُترك لكلّ شخص معتقده، وأن نحترم وَرَعَ كلّ الناس. ثمّ إنّ الكهنة هم في الأغلب أناس طيّبون. هي تعرف الأب روستان، في كنيسة

(1) المَوهِف: حجرة مجاورة لهيكل الكنيسة تُحفَظ فيها أواني الكنيسة وزخارفها وثياب الكهنة ولوازمهم للخدمة الكنسيّة.

سانت أوستاش، وهو رجل مرموق ذو رأي سديد، تجمعها به صداقة وثيقة على ما يبدو لها. وعادةً ما تختتم حديثها بالتأكيد على ضرورة الدين القصوى للغالبية العظمى من الناس؛ فهي تعتبره بمثابة الشُرطة التي تحافظ على النظام، ومن دونها لن يستقيم الحُكم. وعندما يُغالي غافار في هذا الموضوع، ويقول إنّه يجب طرد الكهنة وإغلاق «حوانيتهم»، كانت تقول هازئةً من كلامه:

- سنكون متقدّمين جدّاً!... فخلال شهر واحد سنُبيد بعضنا بعضاً في الشوارع، ونلفي أنفسنا مُضطرّين لاختراع ربّ جديد. في عام ثلاثة وتسعين[1] كان الأمر كذلك... ألا تعرف؟ أنا لا أقضي وقتي كلّه مع الكهنة، لكنّني أرى أنّ وجودهم ضروريّ.

كانت ليزا تبدي خشوعها عندما تذهب إلى الكنيسة. لقد اشترت كتاباً أنيقاً للصلوات، لا تفتحه أبداً، تحمله معها في الجنائز والأعراس. كانت تقف وتركع في مواقع ظاهرة، حريصةً على أن تبدو بالمظهر الذي يليق بها. كان ذلك بالنسبة لها نوعاً من السلوك الرسميّ يجب على الناس الشرفاء، التجّار أو أصحاب الأملاك، أن يلتزموا به حيال الدين.

في ذلك اليوم وبينما تدلف الجزّارة الحسناء إلى كنيسة سانت أوستاش، تركت الباب المزدوج ذا الستارة الخضراء الحائل لونها، والذي استهلكته أيادي المؤمنين، يرتدّ ببطء. غطّست إصبعها في جرن الماء المقدس، ورسمت علامة الصليب بشكل مضبوط. ثمّ تقدّمت على أطراف أصابعها حتّى مصلّى القديسة آنييس، حيث كانت هناك امرأتان راكعتان وقد دفنتا وجهيهما في أكفّهما، فيما يبرز من كرسيّ الاعتراف الثوب الأزرق لامرأة ثالثة. بدت

(1) يقصد 1793، وهي فترة حكومة المؤتمر الوطنيّ إبّان الثورة الفرنسية الأولى التي بدأت أحداثها في 1789.

مضطربةً، وتوجّهت بالسؤال لشمّاس عابر يجرجر قدميه في قلنسوته السوداء:

- هل يتلقّى الأب روستان الاعترافات اليوم؟

فأجاب بأنّ السيّد الأب لم يتبقّ له سوى اثنتين من التائبات، وأنّ ذلك لن يستمرّ طويلاً، وأنّها إن أرادت فلتجلس على أحد المقاعد وسيجيء دورها سريعاً. فشكرته دون أن تقول إنّها لم تأتِ لتعترف. وقرّرت الانتظار، وأخذت تتمشّى على البلاط بخطوات صغيرة، ذاهبةً حتّى البوابة الكبيرة، التي من خلالها كانت ترى صحن الكنيسة العاري، عالياً وصارماً، بين الصحنين المنخفضين المزخرفين بألوان زاهية. رفعت رأسها قليلاً لترى المذبح الرئيس بسيطاً للغاية، ولم ترُقْها الضخامة الباردة للحجر، مفضّلةً عليها التذهيبات والألوان الصاخبة في المذابح الجانبية. من ناحية شارع لوجور كانت تلك المذابح تقبع في العتمة، إذ يسقط الضوء عليها من نوافذ متربة، بينما من ناحية ليهال، كانت الشمس الغاربة تضيء زجاج النوافذ الملوّنة بألوان رقيقة، بالأخضر والأصفر غالباً، في شفافية تذكّرها بقناني الخمور أمام مرآة السيّد لوبيغر. سارت من تلك الناحية التي كانت تبدو وكأنّها تدفّأت بذلك الضوء المتّقد، ولوهلة لفتت انتباهها مذاخر القدّيسين وزخارف المذابح، والتصاوير البادية في انعكاساتِ مخروط. كانت الكنيسة خاويةً، تختلج بسكون قبابها. وكانت تنانير بعض النساء تضفي بألوانها بقعاً داكنة على بياض المقاعد المصفرّ؛ ومن مقصورات الاعتراف المغلقة، كانت تخرج أصوات هامسة، ولدى مرورها مرّةً أخرى أمام مصلّى القدّيسة آنييس وجدت ذات التنّورة الزرقاء لا تزال جاثيةً أمام الأب روستان.

- لو كنتُ في مكانها، لانتهيت في عشر ثوانٍ إذا أردت، عقّبتْ ليزا في ضرب من الاعتزاز بنزاهتها.

وذهبت إلى عمق الكنيسة. خلف المذبح الرئيس، في ظلال صفّي الأعمدة، كان مصلّى العذراء تشيع فيه الرطوبة والصمت والعتمة. النوافذ الملوّنة الداكنة لا تسمح سوى بظهور أردية القدّيسين، بأقسام عريضة بالأحمر والبنفسجيّ، تشتعل كنار العشق الصوفيّ في الخشوع والعبادة الصامتة في الظلمة. إنّه ركن غامض، غور شفقيّ من الفردوس، حيث يلمع ألق الشمعتين الكبيرتين، وحيث تُلمَح أربع ثريّات بمصابيح معدنيّة تتدلّى من السقف المعقود، وهي تُذكّر بالمباخر الذهبية الكبيرة التي تؤرجحها الملائكة في مرقد مريم. وبين الأعمدة كان لا يزال ثمّة نساء، غافيات على المقاعد، غارقات في تلك النشوة المظلمة.

كانت ليزا واقفةً تنظر بهدوء. بأعصاب باردة. فكّرت أنّ من الأجدى بهم إضاءة تلك الثريات المُطفأة، إذ سيكون المشهد أكثر إبهاجاً بمزيد من الضوء. لا بل فكّرت أنّ في تلك العتمة شيئاً من عدم اللياقة، مثل نهار ومخدع لا يتوافقان تماماً في نظرها. بجوارها كانت تحترق شموع على شمعدان فتدفئ وجهها، بينما عجوز تكشط بسكّين كبيرة الشمعَ السائل المتساقط والذي يتجمّد في قطرات شاحبة تُشبه الدموع. وفي الارتعاش الدينيّ للمصلّى، في تلك النشوة الصامتة للعشق، كانت تسمع بوضوحٍ سير العربات الآتية من شارع مونمارتر، خلف القدّيسين بألوانهم الحمراءِ والبنفسجية على زجاج النوافذ. وفي البعيد، كانت سوق ليهال تطلق هديرها المتواصل.

وإذ همّت بمغادرة المصلّى، رأت الابنة الصغرى لآل ميهودان، كلير، بائعة أسماك المياه العذبة. كانت تُشعل شمعةً في الشمعدان. ثمّ جثت على ركبتيها خلف أحد الأعمدة، متّكئةً بهما على الأرضية الحجرية، تبدو كميّتة لشحوبها الشديد وافتقار شعرها الأشقر إلى النظام. هناك، ولأنّها تظنّ أنْ لا أحد يراها، طفقت تعبّر عن آلامها، وتبكي بحرقة في حميّة صلوات

تثني جسدها ثنياً، كما لو كانت في خضمّ ريح عظيمة، وبشغف امرأةٍ تهب نفسها. اندهشت الجزّارة الحسناء بشدّة، إذ أنّ نساء آل ميهودان لم يكنّ يوماً من المتديّنات؛ وبالأخصّ كلير التي تتكلّم عادةً عن الدين ورجاله بطريقة يشيب لها الوِلدان.

- تُرى ماذا بها؟ تساءلت وهي تعود إلى مصلّى القديسة آنييس، يبدو أنّ هذه العاهرة قد سمّمت أحد الرجال.

خرج الأب روستان أخيراً من مقصورة الاعتراف. كان رجلاً وسيماً في نحو الأربعين من عمره، بوجه طيّب باسم. وعندما شاهد السيّدة كونو، صافحها مخاطباً إيّاها بـ «سيّدتي العزيزة»، واصطحبها إلى الموهف، حيث خلع عباءة الكهنوت، وقال إنّه سيتفرّغ لها. وعادا، هو في غفّارته عاري الرأس، وهي متلفّعةً بشالها المزخرف، سائرين بمحاذاة المذابح الجانبية من جهة شارع لوجور، يتكلّمان بصوتٍ خفيض، فيما تحتضر الشمس على ألواح الزجاج الملوّن، وتغرق الكنيسة في الظلام. كان لوقع خطوات آخر المؤمنين حفيف على البلاط إذ يغادرون.

طفقت ليزا تقصّ مخاوفها على الأب روستان. لم يكن الكلام بينهما حول الدين قطّ. فهي لا تذهب للاعتراف، بل تستشيره ببساطة في الحالات الحرجة فحسب، باعتباره رجلاً كتوماً وحكيماً. هي تفضّله، كما تقول، على رجال الأعمال المشبوهين من مرتادي السجون. وهو كان يُعرب لها عن تعاطف جمّ، يراجع لها كلّ القواعد، ويشير عليها بمواضع جيّدة لتوظيف نقودها، ويحلّ لها المعضلات الأخلاقيّة بكلّ كياسة، ويوصيها ببعض المورِّدين الجيّدين. كان لديه إجابات جاهزة لكلّ أسئلتها، مهما يكن من تعقيدها وتنوّعها، دون أن يقحم الربَّ في الموضوع، ودون أن يسعى لجني أيّ ربح لمصلحته أو لمصلحة الدين. كانت تكفيه كلمة شكر وابتسامة، وكان

يبدو سعيداً لقدرته على التأثير على السيّدة كونو الجميلة، التي تتكلّم عنها خادمته باحترام، بصفتها إحدى السيّدات المرموقات في الحيّ. في ذلك اليوم كانت الاستشارة على درجة من الحساسية. إذ كانت تتعلّق بمعرفة أيّ سلوك تُمليه الأمانة عليها حيال أخي زوجها، هل لها الحقّ في أن تراقبه، وأن تمنعه من توريطها هي وزوجها وابنتها؛ وأيضاً ما مدى الخطر الذي يمكن أن تتعرّض له. لم تسأل عن هذه الأشياء بإلحاح، بل طرحت أسئلتها بمراعاة للحذر حتّى يستطيع الكاهن أن يعالج القضية دون أن تتطرّق إلى الأمور الشخصية. وقد قدّم عدداً من الحجج المتناقضة. وفي المجمل خلص إلى أنّ الروح السليمة لها الحقّ، لا بل من واجبها أن تمنع الشرّ وينبغي أن تستعمل في ذلك الوسائل الضروريّة لنُصرة الخير.

- هذا هو رأيي يا سيّدتي العزيزة، قال مُنهياً الحديث. إنّ مناقشة الوسائل لأمر صعب، فالوسائل هي الشرَك الذي تتعثّر فيه الفضائل العاديّة... لكنّني أعرف ضميرك السليم... زِني كلّ فعل من أفعالك، وإذا لم يقمْ في طويّتكِ أيّ اعتراض، فأقدِمي بجرأة... أصحاب الطبيعة المخلصة لديهم تلك النعمة الرائعة في وضع نزاهتهم في كلّ ما يفعلون.

وقال مواصلاً بعد أن غيّر من نبرة كلامه:

- أخبري السيّد كونو أنّني أتمنّى له نهاراً طيّباً. ولدى مروري أمام حانوتكم، سأدخل لأقبّل عزيزتي الصغيرة بولين... إلى اللقاء سيّدتي العزيزة، وفي خدمتك دائماً.

وعاد إلى الموهف. ولدى انصرافها، انتاب ليزا الفضول لأن ترى إن كانت كلير لا تزال تصلّي؛ لكنّ كلير كانت قد عادت إلى أسماك الشبوط والأنقليس، ولم يكن هناك أمام مذبح العذراء، حيث حلّ الظلام، سوى

أشتات من المقاعد المقلوبة تحت حرارة المُصليّات اللواتي كنّ راكعات هناك.

وعندما عبرت الجزّارة الحسناء الساحة مرّة أخرى، كانت النورماندية التي ترتقب خروجها قد عرفتها في العتمة من استدارة تنّورتها.

- ها قد مكثت أكثر من ساعة، قالت معلّقةً، وعندما يُفرغها الكهنة من ذنوبها فإنّ أطفال الجوقة الكنسية سيصطفّون في طوابير ليرموا دلاء وسخها في الشارع.

في الصباح التالي، صعدت ليزا مباشرة إلى غرفة فلورون. وجلست هناك بكلّ هدوء، واثقةً من أنّه ما من شيء سيزعجها، وقد قرّرت مسبقاً أن تدّعي أنّها جاءت لتتأكّد من نظافة الفراش إذا ما داهمها فلورون عائداً. كانت قد رأته في الأسفل منهمكاً في عمله في قلب سوق السمك. جلست أمام الطاولة الصغيرة، وسحبت الدُرج ووضعته على ركبتيها، وأفرغته بحذر شديد، موليةً عنايتها لأن تضع حِزَم الورق في نفس الترتيب. وجدت في البداية الفصول الأولى من عمله حول معتقل كايين، ثمّ مشاريع وخططاً من كلّ نوع، تحويل الجمارك إلى ضرائب على المعاملات، وإصلاح النظام الإداريّ لليهال، وباقي المشاريع. وقد أضجرتها بشدّة هذه الصفحات ذات الكتابات الدقيقة عندما انخرطت في قراءتها؛ وكانت بصدد إرجاع الدُرج إلى مكانه مقتنعةً بأنّ فلورون يُخفي الأدلّة على أغراضه الدنيئة في مكان آخر، وكانت تفكّر في تفتيش حشية الفراش عندما اكتشفت صورةً شخصيةً للحسناء النورمانديّة داخل مغلّف. كانت الصورة مُعتمةً قليلاً. تظهر فيها النورماندية واقفةً تستند بذراعها الممدودة على عمود مثلوم، وهي بكامل حُليّها، وبثوب منتفخ من الحرير الجديد، وبضحكة وقحة. فنسيت ليزا أخا زوجها، ومخاوفها، وما كانت قد جاءت لتفعله، وغرقت في واحدة من تلك الـتأمّلات التي تتفحّص فيها امرأةٌ بلا شعورٍ منها امرأةً أخرى. لم تُتَح

لها يوماً فرصة دراسة غريمتها من هذا القرب. تفحَّصت شعرها، وأنفها، وفمها، وأبعدت الصورة، وقرّبتها. ثمّ قرأت على ظهرها وهي تعضّ على شفتيها عبارةً كتبت بخطّ رديء وغليظ: «من لويز إلى صديقها فلورون». أشعرها ذلك بالفضيحة، إنّه اعتراف. واستبدّت بها الرغبة في أن تأخذ تلك الصورة سلاحاً ضدّ عدوّتها. لكنّها وضعتها برفق مرّة أخرى في المغلّف، وفكّرت أنّ ذلك لا يجوز، وأنّها ستجدها إن هي احتاجت إليها على أيّ حال.

ثمّ تصفّحت من جديدٍ الأوراق المتناثرة، ونظّمتها واحدة واحدة. وجاءتها فكرة أن تبحث في عمق الدُّرج، حيث كان فلورون قد حشرَ خيوط أوغستين وإبرَها. هنا، بين كتاب الصلوات و«مفتاح الأحلام»، عثرت على ضالّتها: مذكّرات تُدين صاحبها، غير محميّة إلّا بغلاف من الورق الرماديّ، تحتوي على فكرة تمرّد وانقلاب على الإمبراطورية، بالاستعانة بالقوّة، وقد اقترحها لوغر ذات ليلة في حانة السيّد لوبيغر، فاختمرت ببطء في ذهن فلورون المتّقد. لقد وجد فيها واجباً ومهمّة. وصارت في النهاية هي هدف مغادرته كايين وعودته إلى باريس. كان يعتقد أنّه ينتقم لنحافته من هذه المدينة المترهّلة بالسمنة، بينما المدافعون عن الحقّ يتضوّرون جوعاً في المنافي. رأى في نفسه قاضياً، وبدأ يحلم بأن يقف في سوق ليهال نفسها ليسحق مملكة الطعام والعربدة تلك. في ذلك المزاج الرقيق، دقّت الفكرة الثابتة وتدها بسهولة. واتّخذ كلّ شيء سمتاً مُتعاظماً، وحيكت أغرب القصص. كان يتخيّل أنّ سوق ليهال قد استولت عليه بمجرّد وصوله، لتوهنه وتسمّمه بروائحها. ثمّ إنّ هناك ليزا التي تريد أن تُفقده صوابه؛ كان يحرص على تجنّبها ليومين أو ثلاثة، وكأنّها عامل مذيب قد يصهر إرادته إنْ هو اقترب منها. تلك النوبات من الرُعب الصبيانيّ، وتلك الاندفاعات لرجل متمرّد كانت تفضي دائماً إلى مشاعر رقيقة، واحتياج إلى الحبّ، كان يُخفيه بخجل طفل. وفي المساء بالذات

كان ذهن فلورون يضطرب من الأبخرة السيّئة. كان يعود في الليل، تعيساً من نهاره، بأعصاب متوتّرة، يرفض النّوم خوفاً من ذلك العدم فيُطيل مكوثه في حانة السيّد لوبيغر أو منزل آل ميهوددان. وعندما يرجع إلى غرفته لا ينام، بل يكتب، يُحضّر للتمرّد المزعوم. وببطءٍ وجد خطّة كاملةً للتنظيم، فقد قسّم باريس إلى عشرين وحدة، واحدة لكلّ دائرة[1]، ولكلّ وحدة قائد هو بمثابة جنرال ينضوي تحت لوائه عشرون ملازماً يقودون عشرين فرقةً من الأنصار. وفي كلّ أسبوع يُعقد المجلس في مكان مختلف في كلّ مرّة، ولضمان مزيد من السريّة، فإنّ الأنصار لا يعرفون إلّا الملازم، الذي يكون بدوره على اتّصال بقائد وحدته فقط. قد يكون مفيداً أيضاً أن تعتقد هذه الفرق أنّها مكلّفة بمهمّات خياليّة، فذلك يساعد في تضليل الشرطة. أمّا في ما يخصّ تفعيل هذه القوى فإنّ الأمر أكثر بساطة. سننتظر التكوين الكامل للكوادر؛ ثمّ نستغلّ أوّل احتجاج سياسيّ. ولمّا لم يكن لدينا سوى بعض بنادق الصيد، فسوف نستولي على مخافر الشرطة، وننتزع أسلحة رجال الإطفاء، وحرس العاصمة، وجنود الحدود، متجنّبين المعارك قدر الإمكان، داعين إيّاهم للانخراط مع الشعب في معركته. بعد ذلك نتقدّم مباشرة نحو الهيئة التشريعية، ومن هناك إلى مبنى بلدية باريس. تلك الخطّة التي كان فلورون يعود إليها كلّ مساء وكأنّها نصّ مسرحيّ يخفّف من استثارته العصبية الفائقة، لم تكن مكتوبة بعدُ إلّا على قصاصات ورق، في هيئة مسوّدات ملأى بالشطوب، تعكس تخبّط كاتبها، وتسمح بتتبّع جُمَل هذا الخطاب الطفوليّ والعلميّ في آنٍ معاً. وعندما تصفّحت ليزا هذه الأوراق سريعاً، دون أن تفهمها في مجملها، اضطربت وأصبحت لا تقوى على لمس تلك الأوراق خشية أن تنفجر في وجهها كأسلحة ناريّة جاهزة للإطلاق.

(1) باريس مقسّمة إدارياً إلى عشرين قطاعاً سكنياً يُدعى كلّ منها «دائرة» arrondissement.

ثمّة مذكّرة أخيرة أرعبتها أكثر من غيرها. كانت وريقة صغيرة رسم عليها فلورون أشكال العلامات التي تميّز القادة والملازمين؛ وإلى جوارها رايات الفرَق. وأيضاً إرشادات بالقلم الرصاص توضّح ألوان رايات الوحدات العشرين. كانت شارات القادة عبارة عن أوشحة حمراء، وتلك التي للملازمين كانت أشرطة تُلفّ على السواعد، حمراء أيضاً. كان ذلك بالنسبة لليزا بمثابة انطلاقة فوريّة لعصيان. فتراءى لها هؤلاء الرجال بكلّ أنسجتهم الحمر يمرقون أمام حانوتها، ويطلقون الرصاص على زجاجه ورخامه، ويسرقون النقانق وقضبان السجق المعروضة. كانت خطط أخي زوجها الدنيئة بمثابة اعتداء عليها شخصيّاً، وعلى سعادتها. أغلقت الدُّرج، وتطلّعت إلى الغرفة قائلةً لنفسها إنّما هي فوق ذلك من يؤوي هذا الرجل، الذي ينام على فرش بيتها ويستعمل أثاثها. وكانت حانقةً بشكل خاصّ للتفكير في أنّه يخفي الآلة الجهنمية البغيضة في تلك الطاولة الصغيرة من الخشب الأبيض، التي كانت تستخدمها في السابق في حانوت الخال غراديل قبل أن تتزوّج، طاولة بريئة تخلّعت مساميرها.

ظلّت واقفةً، تفكّر في ما ستفعل. بدايةً كان من غير المجدي إعلام كونو بالأمر. وجاءتها فكرة أنْ تناقش فلورون في الموضوع، لكنّها خشيت أن يرتكب جريمته في محلّ آخر، مورّطاً إيّاهم بكلّ خسة. كانت قد هدأت قليلاً، وفضّلت أن تراقبه. وعند أوّل خطر، سترى، وفي المجمل فهي لديها حاليّاً ما قد يعيده إلى السجن.

وإذ عادت إلى الحانوت، وجدت أوغستين متهيّجةً، فقد اختفت الصغيرة بولين منذ نحو نصف ساعة، ولم تستطع الإجابة عن أسئلة ليزا القلقة سوى بقولها:

- لا أعرف يا سيّدتي... لقد كانت هنا للتوّ، على الرصيف مع أحد

الصبية الصغار... كنت أراهما؛ ثمّ شرعت في تقطيع فخذ خنزير مملّح لأحد السادة، فاختفيا.

- أُراهن أنّه موش، صرخت الجزّارة، يا للصبيّ النذل!

وقد كان ذلك موش بالفعل. وكانت بولين ارتدت ذلك اليوم ثوباً جديداً ذا خطوط زرقاء، وقد أرادت أن تريه إيّاه. كانت تقف منتصبةً أمام الحانوت، متعقّلة، تعضّ شفتيها بعبوس امرأة صغيرة في سنّ السادسة تخشى الاتّساخ. كانت تنّورتها القصيرة جدّاً منتفخةً كتنانير الراقصات، فتبدي ملابسها الداخليّة البيضاء المشدودة جيّداً، وجزمتيها اللامعتين بلونهما الأزرق اللازورديّ، فيما كان لصدريّتها التي تكشف عن عنقها شريط ضيّق مزخرف، تخرج منه ذراعاها الطفوليّتان الرائعتان بلونهما الورديّ. وكانت تضع قرطين على شكل زرّ لازورديّ في أذنيها، وصليباً صغيراً في عنقها، وشريطاً من المخمل الأزرق في شعرها الممشّط جيّداً بالهيئة الممتلئة والرقيقة لأمّها، والفتنة الباريسية لدمية جديدة. كان موش قد لمحها من ليهال، إذ كان يضع في المجرى بعض السمكات الميتة ويتابعها وهي تنجرف مع الماء على امتداد الرصيف، ويقول إنّها تسبح. ولكنّ رؤيته لبولين على هذه الحال من الجمال والنظافة جعلته يعبر الطريق دون قلنسوته، وبقميص ممزّق وبنطال متهدّل، برثاثة صعلوك في السابعة من عمره. كانت أمّه قد منعته من اللهو مع «تلك الطفلة السمينة الحمقاء التي يحشوها أبواها بالطعام حتّى تكاد تنفجر». جال برهة، ثمّ اقترب يريد أن يلمس الثوب الجميل ذا الخطوط الزرقاء. شعرت بولين بالإطراء أوّلاً، ثمّ عبست بتحفّظ وتراجعت وهي تهمس بنبرة غاضبة:

- دعني وشأني... أمّي لا ترغب في ذلك.

وقد جعل ذلك الصغيرَ موش يضحك، وكان شديد الحذق والإقدام.

- حسناً، قال، إنّك حمقاء للغاية... لا يهمّ إن كانت أمّك لا تريد ذلك... سنلعب لعبة التدافع، ألا ترغبين؟

لا بدّ أنّه قد استولت عليه الفكرة الشرّيرة في أن يجعل بولين تتّسخ. وقد رأته يتهيّأ لدفعها من ظهرها، فتراجعت مسبقاً واتّخذت اتّجاه العودة. فصار رقيقاً للغاية، وعدّل ملابسه كرجل من علية القوم.

- أنتِ حمقاء فعلاً! هذا فقط من أجل الضحك... أنت جميلة هكذا. هل هذا الصليب الصغير لأمّك؟

فأبدت اختيالاً، وقالت إنّه لها. أمّا هو فقد جذبها بهدوء حتّى زاوية شارع بيرويت؛ ولمس تنّورتها، واندهش لأنّه شعر بها متصلّبة على نحو عجيب؛ وهو ما سبّب للصغيرة بهجة لا متناهية. فمنذ اتّخذت وضع الاستعراض على الرصيف، أحبطها أنّ أحداً لم ينظر إليها. ولكن، بالرغم من إطراءات موش، لم ترغب في النزول عن الرصيف.

يا لك من داعرة، هتف مستعيداً بذاءته، سأُجلك على سلّتك الملطّخة بالروث، أيّتها السيّدة ذات الردفين السمينَين!

ارتعدت خوفاً. فأمسك بيدها، متداركاً خطأه وأبدى حنوّه من جديد، وبحث في جيوبه.

معي مليم، قال.

هدأت بولين عند رؤيتها للمليم. كان يرفعه بأطراف أصابعه أمام عينيها، حتّى أنّها هبطت إلى قارعة الطريق، دون أن تنتبه، متتبّعةً المليم. كان الصغير موش على قدر من الثروة، وبدا له مغرياً.

ماذا تحبّين؟ سألها.

لم تجب مباشرةً؛ لم تكن تعرف؛ فهي تحبّ أشياء كثيرة. فأخذ يعدّد لها أسماء الحلويات الشهية: حلوى عرق السوس، ودبس السكّر، وكُريّات العلكة، والسكّر المطحون. السكّر المطحون جعل الصغيرة تتردّد كثيراً، نغمس فيه إصبعاً ثمّ نلعقها؛ إنّه طيّب جدّاً. ظلت متّخذةً سمتها الجادّ. ثمّ قرّرت:

لا، أنا أفضل القُموع.

فجذبها من ذراعها وسحبها، دون مقاومة منها. وعبرا شارع رامبوتو وسارا على رصيف ليهال العريض حتّى بلغا بقّالاً في شارع لاكوسونري كان مشهوراً بحلوى القموع. هي قموع رقيقة من الورق يضع فيها البقّالون بقايا السكاكر والكستناء المحلّاة وما يتبقّى في قعور مرطبانات الحلوى. كان موش مقداماً في تصرّفاته؛ ترك لبولين اختيار القمع، قمعاً من الورق الأزرق جعلها تأخذه، ودفع مليمه. وعلى الرصيف، قامت هي بإفراغ القمع من محتوياته المتنوّعة في جيبَي صدريّتها، وقد كانا ضيّقين حتّى أنّهما امتلآ عن آخرهما. وأخذت تعلكها كسرةً فكسرة، منتشيةً، تلعق أصابعها لتأتي على الذرّات الرفيعة جدّاً، وبالطبع ذابت السكاكر وتبقّع جيبا صدريّتها ببقعتين بنيّتين. كان موش يضحك ضحكاً خبيثاً. كان يتأبّطها، ويلهو بها كيفما شاء، جعلها تنعطف من زاوية شارع بيير لاسكو، ناحية ساحة لينوسان، وهو يقول لها:

– ها، هل ترغبين في اللّعب الآن؟... أليس ما تملئين به جيوبك لذيذاً. أما رأيت أنّني لا أريد بكِ شرّاً أيّتها الحمقاء الكبيرة؟

وكان هو نفسه يحشر أصابعه في جيوبها. ثمّ دخلا إلى الحديقة الصغيرة،

إلى حيث كان الصغير موش يحلم بالتأكيد بأن يقود فريسته. وأخذ يُطري على الحديقة باعتبارها ملعباً رائعاً خاصّاً به يقضي فيه ظهائر كاملة من اللهو. لم تكن بولين قد ابتعدت يوماً إلى هذا الحدّ. كانت بالتأكيد ستنتحب كفتاة مخطوفة لو لم تكن في جيوبها تلك السكاكر. كانت النافورة في وسط الحديقة المعشوشبة التي تتخلّلها أحواض الزهور ينساب ماؤها كالدموع المنهمرة. وكانت تماثيل الحوريّات للنحّات جان غوجون تُميل جرارها الشديدة البياض وسط الأحجار الرمادية تُسبغ بهاء عُريها الناصع على عتمة حيّ سان دوني. دار الطفلان حولها، وهما يرقبان الماء الساقط من الأحواض الستّة، وقد أثار العشب اهتمامهما، يحلمان بالتأكيد بتجاوز رقعة الحشيش الوسطى، أو بالانزلاق تحت أجمات شجيرات البهشية والغار الورديّ، أو في أحواض الزهور المحاذية لسياج الحديقة. وقال لها الصغير موش، وهو يُخفي ضحكته بعد أن توصّل إلى تجعيد ثوبها من الخلف:

- سنلهو بالتقاذف بالرمال، ألا ترغبين في ذلك؟

تمّ له إغواء بولين. فأخذا يتقاذفان بالرمل مغلقين أعينهما. كان الرمل يمرق عبر فتحة الثوب المقوّرة للصغيرة، وينهمر في ملابسها الداخلية وجزمتيها. كان موش مستمتعاً للغاية لرؤيته الصدريّة البيضاء وقد اصطبغت بصفرة الرمل، لكنّه كان يعتقد أنّها لا تزال نظيفة بعد.

هه، ماذا لو غرسنا أشجاراً؟ سأل بغتةً. أنا أستطيع أن أصنع حدائق جميلة!

- حقّاً؟ حدائق! همست بولين بإعجاب.

ولّما كان حارس الحديقة غائباً، فقد جعلها موش تحفر حفرةً في أحد أحواض الزهور. فجثت على ركبتيها وسط الأرض المبتلّة، وتمدّدت على

بطنها، وغاصت بذراعيها الجميلتين العاريتين حتّى كوعيها، فيما كان هو يبحث عن قطع خشب ويكسر أغصاناً تكون بمثابة الأشجار التي يزرعها في حُفَر بولين. سوى أنّه لم يكن يجد الحُفَر عميقةً بما يكفي، فأخذ يعاملها كبستانيٍّ فاشل، بخشونة رئيس عمل. وعندما نهضت، كانت سوداء من رأسها حتّى أخمص قدميها؛ كان الطمي عالقاً بشعرها، وهي ملطّخة بالكامل، ومثيرة للضحك بذراعيها بلون الفحم. حتّى صفّق موش بكفيه وهو يصيح:

- الآن سنسقيها... هل تفهمين، إنّها لا تنمو هكذا من تلقاء نفسها.

وهنا كانت الذروة. فقد خرجا من الحديقة ليجلبا من مياه المجارير بأكفّهما، ثمّ عادا ركضاً ليسقيا قطع الحطب. وفي الطريق، ولمّا كانت بولين سمينة جدّاً لا تُحسن الركض، فقد كان الماء كلّه ينسرب من بين أصابعها على امتداد تنّورتها، حتّى أنّها بدت في الرحلة السادسة وكأنّها قد تقلّبت في ماء المجارير. ولقد هدأ بال موش إذ وجدها قد أضحت شديدة الاتّساخ. أجلسها تحت شجيرة غار ورديّ بجوار البستان الذي زرعاه. وأخبرها أنّه قد نمى بالفعل. وأخذ يدها وهو يدعوها زوجته الصغيرة.

- لستِ نادمةً على المجيء، أليس كذلك؟ بدلاً من وقوفك على الرصيف حيث كان يبدو عليك الضجر العظيم... سترين، أعرف الكثير من الألعاب في الشارع. يجب أن تأتي ثانيةً، هل تسمعين؟ فقط لا نُخبر أُمّينا بذلك. لا نرتكب هذه الحماقة... لو بحتِ بشيء فسوف أشدّ شعرك عندما أمرّ أمام منزلكم.

كانت بولين تجيب دائماً بنعم. أمّا هو ففي حركة تودّد أخيرة قام بملء جيبَي صدريّتها بالطين. كان يلتصق بها عن قرب، وبقسوة الصغار يبحث عن طريقة يصيبها بها بالأذى. لكنّ السكاكر كانت قد نفدت، فتوقّفت عن

اللعب، وبدأت تتوجّس. ولمّا كان قد أخذ في قرصها، فقد أخذت تقول باكيةً إنّها ترغب في الرجوع. وجعل ذلك موش يبتهج، وشعر بالزهو كفارس؛ وهدّدها بأنّه قد لا يُرجعها قرب والديها. ارتعبت الصغيرة وأخذت تطلق نحيباً مكتوماً، كحسناء تحت رحمة غاوٍ في أعماق نزلٍ مجهول. وإذ همّ بضربها لإسكاتها داهمه صوت حادّ، كان صوت الآنسة ساجيه تصرخ بجواره:

- ليرحمنا الربّ، إنّها بولين. هلّا تركتَها وشأنَها أيّها الشقيّ الصغير.

أمسكت العانس ببولين من يدها، وهي تتعجّب من الحالة المزرية لثيابها. ظلّ موش محتفظاً بجرأته، وتابعها وهو يضحك بمكر من فِعلته، مردّداً أنّها هي من رغبت في المجيء، وأنّها تركت نفسها تسقط على الأرض. كانت الآنسة ساجيه من الروّاد الدائمين لحديقة ساحة لينوسان. فيما بعد كلّ ظهيرة، كانت تمضي هناك وقتاً لا بأس به لتطّلع على نمائم الناس البسطاء. هناك، في الناحيتين، صفّان طويلان من الأرائك الموضوعة جنباً إلى جنب. يتكوّم عليها الفقراء الذين يختنقون في البيوت الفقيرة في الأزقّة الضيّقة المجاورة؛ العجائز اليابسات المتهيّبات البردَ يعتمرن قلنسوات متلبّدة؛ والشابّات في قمصان قصيرة وتنانير محلولة، منهكات وذابلات من البؤس؛ وهناك بعض الرجال أيضاً، شيوخ متأنّقون، أو حمّالون بسترات تراكَم عليها الشحم، ورجال مريبون بقبّعات سوداء؛ وفي الممرّ تنطلق جموع الأطفال، يجرّون عربات بلا عجلات، ويملؤون بالرمل دلاءً، ويبكون ويتعاضّون، جمع رهيب، رثّ، المخاط عالق في أنوفهم، يتكاثرون في الشمس كالقمل. كانت الآنسة ساجيه من النحافة بحيث تستطيع دائماً أن تنحشر على إحدى تلك الأرائك. تُنصت وتفتح الحوار مع إحدى الجارات، زوجة عامل شديدة الشحوب، تُصلح قطعة ملابس، وتسحب من سلّة صغيرة مناديل لترفوها بخيوطها الرفيعة، وقطع ملابس داخلية مليئة بالثقوب كالغربال. كانت

تعرف بعضاً منهنّ مسبقاً، ووسط تصايحات عصابة الأطفال التي لا تُحتمل، وضجيج العربات السائرة في الخلف، في شارع سان دوني، كان هناك نمائم لا تنقطع، قصص عن المورّدين، والبقّالين، والخبّازين، والجزّارين، نشرة دورية بأخبار الحيّ يكتبها العوز وحسد الفقراء الصامت. كانت تعرف من أولئك البائسات الأخبار الشائنة الصادرة عن البيوت المشبوهة، ومن المساكن المظلمة للبوّابات، قذارات الاغتياب التي يشحذن بها شهيّتهنّ للفضول كما لو كانت قرناً من الفلفل الحرّيف. أمامها، إذ تدير ظهرها لليهال، تمتدّ الساحة بصفوف بيوتها الثلاثة، المرصّعة بالنوافذ التي راحت هي تحاول اختراقها بنظرتها؛ وتأخذ في الارتقاء، على امتداد الطوابق، وعبر الفتحات الزجاجية، وحتّى ثقوب أبواب العلّيّات. كانت تهتك حجب الستائر، وتنسج قصّة كاملة لمجرّد ظهور رأس بين ستارتين، وقد توصّلت إلى معرفة قصص كلّ مستأجري هذه المنازل، فقط عن طريق التطلّع إلى الواجهات. كان مطعم السيّد بارات يثير انتباهها بشكل خاصّ، بحانوته للخمور، وطنْفه ذي التصميم المذهّب الذي يحاكي شرفةً ويتيح بروزَ خضرةٍ تنبثق من بعض آنية الزهور، وطوابقه الأربعة، الضيّقة المزخرفة والمكتظّة بالألوان. كانت تعجبها الخلفية الزرقاء الرقيقة، والأعمدة الصفراء كمسلّات تبزغ من قوقعة، والواجهة التي تشكّل معبداً من الورق، والملصقة على واجهة بيتٍ متداعٍ ينتهي في الأعلى، عند حدود السقف، برواق من الزنك باهت اللون. وخلفَ الستائر المرنة ذات الشرائط الحمراء، كانت تقرأ قوائم الإفطارات الشهيّة، والعشاءات الفاخرة، والولائم الكبيرة. وكانت تذهب إلى حدّ الادّعاء كذباً أنّه هناك يقيم فلورون وغافار المآدب لعاهرتَي آل ميهودان. وفي وقت التحلية كانت على حدّ زعمها، تحدث أمور فاحشة.

في تلك الأثناء ازداد بكاء بولين، منذ أمسكت العانس بيدها، وكانت

هذه تتوجّه بها نحو بوّابة الحديقة، عندما غيرَّت رأيها. جلست على طرف إحدى الأرائك لتحاول أن تُسكت الطفلة.

- كفّي عن البكاء، وإلّا لَقبض عليك رجال الشرطة... سوف آخذك إلى أهلك. أنت تعرفينني جيّداً، أليس كذلك؟ أنا «صديقة طيّبة». هيّا أريني ابتسامتك.

ولكن خنقتها العبرات، كانت تريد أن تذهب. فتركتها الآنسة ساجيه تنتحب في هدوء، منتظرةً أن تكفّ. كانت الطفلة المسكينة ترتعد، بتنّورتها وجوربيها المبتلة كلّها. وكانت الدموع تسيل فتمسحهما بيديها القذرتين، حاملةً آثار الطين حتّى أذنيها. وعندما هدأت قليلاً، عاودت العجوز الكلامَ بنبرة عذبة.

- أمّك طيّبة القلب، هي تحبّك كثيراً.

- نعم، نعم، ردّت بولين وهي لا تزال غارقةً في حزنها.

- وأبوك ليس شرّيراً هو أيضاً، فهو لا يضربك... ولا يتشاجر مع أمّك... ماذا يقولان في الليل، عندما يتأهّبان للنوم؟

- آه، لا أعرف، أكون حينها في حرارة فراشي.

- ألا يتكلّمان عن ابن العمّ فلورون؟

- لا أعرف.

اتّخذت الآنسة ساجيه ملمحاً قاسياً، متظاهرة بأنّها تتأهّب للنهوض والانصراف.

- لست سوى كاذبة... تعرفين أنّه لا يصحّ أن نكذب... سأتركك هنا ما دمت تكذبين، وسيأتي موش ليقرصك.

وتدخّل موش، الذي كان يحوم حول الأريكة قائلاً بنبرته الواثقة التي لرجل صغير:

- إنّها أغبى من أن تعرف مثل هذه الأشياء... أنا أعرف أنّ صديقي الطيّب فلورون قد بدا أبله للغاية، بالأمس، عندما قالت له أمّي وهي تضحك إنّ بإمكانه أن يُقبّلها إذا كان ذلك سيسعده.

ولكنّ بولين، وقد هُدّدت بأن تُترَك وحدها، انخرطت مرّةً أخرى في البكاء.

- اصمتي، اصمتي أيّتها الشرّيرة! همست العجوز موبّخةً إيّاها. لن أذهب، سأشتري لك حلوى سكّر النبات! ها، حلوى سكّر النبات! إذن فأنت لا تحبّين ابن العمّ فلورون؟

لا، أمّي تقول إنّه غير نزيه.

- هل ترين، ها أنّ أمّك تقول بعض الأشياء.

- ذات ليلة كنت نائمة في سريري مع قطّي موتون... كانت تقول لأبي: «أخوك لم يهرب من السجن إلّا ليأخذنا إليه جميعاً معه».

أطلقت الآنسة ساجيه صرخةً قصيرةً، ونهضت واقفةً وهي ترتعد. كان للتوّ قد لطمها شعاع من الضوء في وجهها. ثمّ أخذت يد بولين، واصطحبتها خبباً حتّى حانوت الجزارة، دون أن تتكلّم، بشفتيها مزمومتين على ابتسامة داخلية، ونظرتها تتّقد من الفرح. وفي ركن شارع بيرويت، عند اللحظة المناسبة، اختفى موش الذي كان يلحقهما متقافزاً، مستمتعاً لرؤية الفتاة تخبّ في ملابسها الموحلة. كانت ليزا تكاد تموت من القلق. وعندما رأت ابنتها متّسخةً كخرقة، صُدمت بشدّة، حتّى أنّها أخذت تُطالعها من كلّ الجوانب،

دون أن تفكّر حتّى في ضربها. قالت العجوز بصوتها القبيح:

- إنّه الصغير موش... أنا أُحضرها إليكم فقط، هل تفهمين... لقد وجدتها معاً تحت إحدى الأشجار في الحديقة العامّة. ولا أعرف ماذا كانا يفعلان. لو كنت في مكانك لراقبتها. فهو لا يتورّع عن فعل أيّ شيء، ابن المشرّدة ذاك.

لم تحرْ ليزا جواباً. لم تعرف من أين تمسك بابنتها، وقد كانت جزمتاها الموحلتان، وجورباها المبقّعان، وتنّورتها الممزّقة، ووجهها المعفّر ويداها المسودّة، هذا كلّه كان يصيبها بالاشمئزاز. المخمل الأزرق، وقرطاها، والقلادة ذات الصليب الصغير، هذا كلّه كان قد احتجب تحت طبقة من الوسخ. ولكنّ ما جعل غضبها يبلغ منتهاه كان جيباها المليئان بالطين. فمالت عليها، تُفرغهما دون اعتبار لبلاط الحانوت الأبيض والورديّ. ثمّ لم تستطع أن تتفوّه سوى بكلمة واحدة، فسحبت بولين وهي تقول لها:

- تعالي يا قذرة.

ابتهجت الآنسة ساجيه تحت قبّعتها السوداء لهذا المشهد، وعبرت شارع رامبوتو بكلّ حيوية. كانت قدماها الدقيقتان لا تكادان تلمسان الطريق؛ يلفّها الانتشاء، كنسمة محمّلة باللمسات المدغدِغة. لقد عرفت أخيراً! هي تتحرّق منذ عام تقريباً، وها هي تمسك بفلورون كاملاً، ودفعة واحدة. كان ذلك نوعاً من الرضى غير المتوقّع، وقد شفاها من علّة ما، لأنّها كانت تشعر أنّ ذلك الرجل كان يقتلها على مهل، بامتناعه لفترة طويلة على شبق فضولها. الآن صار حيّ ليهال ملْكها؛ لم يعد هناك من فجوات في رأسها. بإمكانها أن تقصّ أخبار كلّ الشوارع، حانوتاً حانوتاً. وكانت تطلق تنهّدات الارتياح إذ هي تدخل رواق الفواكه.

- ماذا يا آنسة ساجيه؟ هتفت بها لاساريت من خلف منصّتها، ما الذي يُضحكك وأنتِ وحدك؟ هل ربحتِ الرقم الكبير في اليناصيب؟

- لا، لا يا صغيرتي، آه لو تعرفين!...

كانت لاساريت تبدو فاتنةً وسط فواكهها، وبهيئتها المشعّثة، هيئة حسناء، وبشعرها المجعّد قليلاً والساقط على جبهتها كفروع الكرم. كان لذراعيها العاريتين، وجيدها العاري، وكلّ جزءٍ عارٍ تعرضه من جسدها نضارة الدرّاق والكرز. وبصبيانية تتدلّى من أذنيها خرزتان سوداوان تتقافزان على وجنتيها إذ تميل مقهقهةً. ما كان يمتّعها بهذه القوّة هو أنّها كانت تأكل بعض حبّات الكشمش، تلتهمها إلى حدّ تلطيخ فمها وذقنها وأنفها بالعصير؛ كان فوها مُصطبغاً بالأحمر، نضراً ومزيّناً بعصير الكشمش، كما لو كان مخضّباً ومعطرّاً بحنّاء الحريم. وتتصاعد من تنّورتها رائحة البرقوق، ومن شالها المحلول أريج الفراولة.

وفي الحانوت الضيّق، كانت تتكوّم حولها الفواكه. في الخلف، وعلى امتداد الأرفف هناك صفوف من الشمّام، مُبرقشة بالثآليل والعقد الدائرية بتحديباتها العارية. وفي مكان العرض، كانت الفواكه الطيّبة تزدهي في سلالها باستدارات وجنات خَفِرة، ووجوه أطفال جميلين يحتجب نصفها خلف ستار من الأوراق؛ الدرّاق بخاصّة، وخوخ مونترَوي الأصهب، بقشرته الرقيقة الفاتحة كفتيات الشمال، ودرّاق الجنوب، الأصفر والمحروق بسُمرة فتيات إقليم بروفنس. ويتّخذ المشمش على القشّ درجات من لون العنبر، بحرارة الشمس الغاربة التي تدفئ رقاب السمراوات في مواضع بزوغ الزغب. حبّات الكرز المصفوفة واحدةً واحدةً أشبه بشفاه صغيرة لفتيات صينيات يبتسمن: كرز مونتمورنسي مثل شفاه مكتنزة لنساء سمان؛ والكرز الإنكليزي أكثر استطالة ورصانة، والكرز السكّريّ الصغير كمثل أجساد

مبتذلة أدمتها القُبل؛ والقراصيّة المُبرقشة بالأبيض والورديّ، وضحكها الفرح والغاضب في آنٍ معاً. التفّاحات والكمّثرى تتكدّس بانتظام معماريّ لتصنع أهراماً وتبدي حمرة نهود لكواعب وأكتاف ومؤخّرات ذهبية، عُري محتشم وسط أعواد السرخس، بقشور متباينة، وتفّاح آبّي الصغير في مهاده، وتفّاح رامبورغ المترهّل، وتفّاح كلفيل في ثيابه البيض، وتفاح كندا الدمويّ، وتفاح الكستناء المبرقش، والتفاح الكندي الأشقر المبقّع بالحمرة؛ ثمّ تنويعة الكمثرى، كمثرى لا بلانكيت، وكمثرى إنكلترا، والكمثرى المزبّدة، وكمثرى ميسير جان، وكمثرى الدوقة، ممتلئة ومستطيلة ولها أعناق بجع أو أكتاف مصاب بسكتة دماغيّة، وبطون خضراء أو صفراء مع مسحة من القرمزيّ. وإلى جانبها البرقوق الشفّاف يبدي اللطف اليخضوريّ للعذارى، برقوق رين كلود، وبرقوق ميسيو، الشاحب كزهور البراءة؛ والبرقوق المفرّط كحبّات مسبحة ذهبية، منسيّ في علبة مع أعواد الونيليّة، والفراولة، هي أيضاً، تُطلق عطراً منعشاً، عطراً فتيّاً، والصغيرة منها بالذات، تلك التي تُجنى من الغابة، أكثر من تلك الكبيرة التي تُجنى من البساتين، بالروائح الباهتة لمرشّات السقي. ويضيف توت العلّيق هو الآخر أريجه لتلك الرائحة النقيّة. الكشمش، والكشمشة السوداء، والبندقات الضاحكة بهيئتها الوقحة؛ فيما تقبع سلال من العنب، عناقيد ثقيلة مفعمة بالنشوة السكرى مغشيّاً عليها على طرف قشّ السوحر، تاركة بذورها الحمراء تتساقط من شهوة الشمس الحارّة.

كانت لاساربيت تعيش هناك، كما لو كانت في بستان، مع نشوة من الروائح. أمامها الفواكه بأسعارها الزهيدة، الكرز والبرقوق والفراولة، مكوّمة على سلال مسطّحة مزيّنة بالورق، حيث تنكدم وتلطّخ بسْطتها بالعصير، عصير قويّ يتبخّر في الحرّ. كانت تشعر أيضاً بالدوار في ظهائر

يوليو القائظة إذ يلفّها الشمّام بعبق المسك القويّ. آنئذٍ، دائخةً، تُبدي المزيد من جسدها تحت شالها، ناضجاً لتوّه وبنضارة الربيع، حتّى ليُسيل اللعاب في الفم، ويثير الرغبة في القطاف. كانت هي، بذراعيها وجيدها، من يعطي لهذه الثمار تلك الحياة العاشقة، وذلك الدفء الأنثويّ الحريريّ. وإلى منصّة البيع المجاورة، تقف بائعة عجوز، سكّيرة ومخيفة، لم يكن لديها سوى تفّاحات متغضّنة وكمّثرات تتدلّى كأثداء مترهّلة، وحبّات مشمش أشبه بالجثث في لون أصفر مريب كبشرة إحدى الساحرات. أمّا هي فكانت تصنع من بسطتها استعراضاً للذّة عارمة عارية. كانت الكرزات تصطفّ، واحدة جنب الأخرى كقُبل من شفاه حُمر؛ تاركةً حبّات الدرّاق المخملية تسقط من صدارها؛ وتقرض بشرتها الرقيقة للبرقوق، بشرة صدغها، وذقنها، وزوايا فمها؛ وتترك بعضاً من دمها الأحمر يسيل في عروق الكشمش. مشاعرها المتّقدة التي لفتاة حسناء كانت تسبغ الشبق على فاكهة الأرض، وكلّ تلك البذور التي يزهر حبّها على سرير من الأوراق، في عمق مخادع السلال المفروشة بالسرخس. خلف حانوتها، كان ممرّ الزهور يبدو باهتاً بروائحه، بالقرب من عبير الحياة الذي يضوع من سلالها المثلّمة وملابسها المحلولة.

كانت لاساربيت يومها ثملةً من شحنة برقوق أصفر أغرقت السوق. وقد رأت بوضوح أنّ الآنسة ساجيه تحمل خبراً مهمّاً، وأرادت أن تجعلها تتكلّم؛ ولكنّ العجوز قالت لها وهي تخطو متعجّلة:

- لا، لا ليس لدي وقتّ... سأركض لأرى السيّدة لوكور. لديّ أخبار طازجة! تعالي إذا أردتِ.

وفي الحقيقة، هي لم تعبر من رواق الفواكه إلّا لكي تجنّد لاساربيت، التي لم تستطع مقاومة الإغراء. وكان السيّد جول هناك، جالساً بالمقلوب يتأرجح على كرسيّ، حليقاً ونضراً كطفل ملائكيّ.

- هل تحرس لي الحانوت لبعض الوقت؟ سألتْه. سوف أعود بعد قليل.

لكنّه نهض، وصاح فيها بصوته الجهوريّ، فيما هي تنعطف في نهاية الممشى:

- لا، لن أفعل يا ليزيت، تعرفين، أنا ذاهب... لا أريد أن أنتظر ساعةً كتلك المرّة الماضية... ثمّ إنّ برقوقك يصيبني بالغثيان.

ومضى هادئاً بيديه في جيوبه. وبقي الحانوت خالياً. وأخذت الآنسة ساجيه تستحثّ لاسارييت في الركض. وفي رواق الزبدة، أخبرتهم إحدى جارات السيّدة لوكور بأنّها في القبو. فذهبت لاسارييت لإحضارها بينما بقيت العجوز وسط أكوام الجبنة.

وفي الأسفل، كان القبو شديد الظلام. وكانت غرف التخزين مدعّمة بمشابك معدنية ذات فتحات دقيقة للوقاية من الحريق، ومصابيح الغاز الشحيحة تصنع بقعاً صفراء بلا إشعاع في قلب الغبش المدوّخ الذي يتكاثف تحت وطأة السقف المعقود. كانت السيّدة لوكور تُعد الزبدة على إحدى الطاولات المرصوصة على امتداد شارع بيرجيه. كانت الشُراعات تسقط ضوءً شاحباً. وكان للطاولات المغسولة دوماً بالماء الغزير من الصنابير نظافة طاولات جديدة. كانت البائعة، مديرة ظهرها للمضخة التي في العمق، تعجن الزبدة المخفوقة في علبة من خشب السنديان. كانت تأخذ من جانبها عيّنات مختلفة من الزبدة، تمزجها وتطعّم إحداها بالأخرى كما يصنعون مع النبيذ. حانيةً قامتها، بكتفيها النائتين، وذراعيها الناحلتين المتغضّنتين كذراعَي رجل نحيف والعاريتين حتّى الكتف، كانت تغمر يدها بغضب في تلك العجينة الدسمة ببياضها الطباشيريّ. وكانت تتعرّق وتتنهّد مع كلّ حركة تبذلها.

- إنّ الآنسة ساجيه تريد أن تحدّثك يا خالتي. قالت لاسارييت.

توقّفت السيّدة لوكور عن العمل ووضعت قلنسوتها على رأسها بأصابعها الملطّخة بالزبدة دون أن تخشى من تلويثها.

- لقد انتهيت، فلتنتظرني برهةً، أجابت.

- لديها شيء مثير جدّاً لتحكيه لك.

- ليس أكثر من دقيقة يا صغيرتي.

كانت قد غمرت ذراعيها مرّةً أخرى، والزبدة تصل حتّى كوعيها. كانت الزبدة، المرقّقة سلفاً بالماء الدافئ، تزيّت بشرتها الأشبه بالرقّ فتظهر عروقها البنفسجية الكبيرة التي تجتاز جسدها كمثْل سلسلة من الدوالي المتفجّرة. وكانت لاسارييت تشمئز تماماً من هذين الساعدين القبيحين المنهالين على هذه الكتلة الذائبة. ولكنها تذكّرت تلك المهنة؛ فيما مضى كانت هي أيضاً تغمر يديها الصغيرتين اللطيفتين في الزبدة لظهائر بأكملها؛ على الرغم من وجود عجين اللوز كدهان يحمي لها بشرتها البيضاء، وأظافرها الوردية، ويحافظ على نعومة أناملها. وبعد برهة صمت عاودت:

- لن تكون عظيمةً زبدتك المخفوقة يا خالتي... فهناك بعض الزبدة لا يزال صلباً.

- أعرف ذلك جيّداً، قالت السيّدة لوكور بين تنهيدتين، ولكن ماذا نفعل؟ لا بدّ من تصريف كلّ شيء... هناك بعض الناس يريدون شراء بضاعة رخيصة؛ فنصنع لهم بضاعةً رخيصة... ومع ذلك تظلّ دائماً رائعة في نظر الزبائن.

فكّرت لاسارييت أنّها لن تبادر لتناول زبدة من صنع يد خالتها أبداً.

ونظرت إلى وعاء صغير يحتوي على نوع من الصبغة الحمراء.

- إنّ صبغة الأناتو لونها فاتح جدّاً يا خالتي، همستْ.

تضفي صبغة الأناتو على الزبدة المخفوقة لوناً أصفر محبّباً. والتاجرات يعتقدن أنّهن يحفظن ببالغ التكتّم سرّ تلك الصبغة التي تُستخلَص ببساطة من بذور شجرة البِكسة. لكن صحيح أنّهنّ يحضّرنها مع خليط من الجزر وزهرة الآذريون.

- هل ستأتين أخيراً! قالت المرأة الشابّة وقد عيل صبرها، فهي لم تعد تطيق روائح القبو النفّاذة. ربّما كانت الآنسة ساجيه قد غادرت... لا بدّ أنّها تعرف أشياء خطيرة عن خالي غافار.

وفجأة توقّفت السيّدة لوكور، وتركت الزبدة المخفوقة وصبغة الأناتو، ولم تفكّر حتّى بمسح ذراعيها. وجذبت قلنسوتها على عجالة وسارت خلف ابنة أختها، وصعدتا الدرج، فيما هي تردّد:

- هل تعتقدين أنّها لم تنتظرنا؟

وهدأ بالها إذ وجدت الآنسة ساجيه قابعةً وسط الجبن. كانت قد حرصت على ألّا تذهب. وجلست النسوة الثلاث في نهاية الحانوت الضيّق. كنّ متكأكئات بعضهن على بعض، يتكلّمن وقد تقاربت وجوههنّ. وقد لزمت الآنسة ساجيه الصمت لمدّة تزيد على دقيقتين حتّى رأت الفضول يحرق الأخريين، فقالت بصوتها الحادّ:

- هل تعرفان فلورون ذلك؟ أستطيع الآن أن أقول لكما من أين أتى.

وتركتهما لبرهة أخرى وأنظارهما معلّقة إلى شفتيها.

- لقد جاء من السجن، قالت أخيراً وهي تكتم صوتها بشكل رهيب.

كان الجبن يطلق روائحه القويّة حولهنّ. وعلى رفّي الحانوت في العمق، كانت تصطفّ كتل ضخمة من الزبدة؛ زبدة مقاطعة بروتاني، تفيض من داخل سلالها؛ وزبدة النورماندي، المغلّفة بنسيج، تشبه بطوناً منحوتة ترك عليها النحّات أقمشة مبلّلة؛ وكتل أخرى، مثلّمة، مقطوع منها بالسكاكين الكبيرة، كمثْلِ صخور ناتئة، مليئة بالوديان، أشبه بقمم جبال منهارة، يذهّبها شفقٌ خريفيّ. وهناك، تحت طاولة العرض برخامها الأبلق بالأحمر والرماديّ، كانت سلال البيض تُضفي بياضاً طباشيريّاً؛ وثمّة أسطوانات من جبن منطقة بندون مرصوصة داخل صناديق صغيرة، ودوائر من جبن غورناي مسطّحة كالقلائد تصنع مساحات قاتمة تتخلّلها بقَع مخضرّة. ولكن كان الجبن مصفوفاً على الطاولة بخاصّة. هناك، بجوار قطع من الزبدة من زنة رطل كامل، تقعي في أوراق السلق قطعة عملاقة من جبن الكانتال وكأنّها قُدّت ببلطة؛ ثمّ كتلة من جبن شستر بلون الذهب؛ ثمّ كتلة من جبن غروير كدولاب ساقط من مركبة همجية؛ فكتل مستديرة من الجبن الهولندي كرؤوس مقطوعة، ملطّخة بالدماء المتجلّطة، ولها صلابة الجماجم المفرغة، ما جعلها تسمّى «رؤوس الموتى»؛ وكتلة من جبن البارميزان وسط ثقل تلك العجائن المطبوخة تفوح بحدّة رائحتها العطرية؛ وثلاث دوائر من جبن بريْ على ألواح دائرية لها أسى أقمار خامدة؛ اثنتان منها شديدتا الجفاف، في اكتمالها، والثالثة في ربعها الثاني، تسيل، وتفرغ من قشدتها البيضاء، معروضة وسط بحيرة، مدمّرةً الألواح الرفيعة التي عبثاً حاولوا احتواءها فيها. ثمّ تأتي كتَل من جبن بور سالو، أشبه بأقراص عتيقة، نُقِشت عليها أسماء صانعيها. وجبن رامونتور في حلّة من الورق الفضّي، تذكّرك بلوح من حلوى النوغة، بجبن مسكّر، تائهة في تخمّرها اللاذع؛ وجبن الروكفور، هو أيضاً تحت أغطية زجاجية يتّخذ السمت الملكيّ، بوجوه رخامية دسمة، معرّقة بالأزرق

والأصفر، وكأنّها أصابها داء عضال لبشر أغنياء أفرطوا في أكل الكمأة؛ وفي صحن مجاور ثمّة جبن الماعز، سمين ككفّ طفل، صلب وأغبر، يذكّر بالحصى الذي تدحرجه الجداء وهي تقود قطعانها في الدروب الحجرية. ثمّ تبدأ الأجبان القويّة الرائحة: جبن مون دور الأصفر الفاتح، يفوح برائحة حلوة؛ وجبن ترْوا السميك جدّاً، بكدمات في جوانبه وبلذاعة أشدّ، وله نتانة الأقبية الرطبة؛ وجبن كامومبير برائحة الطرائد الآخذة في التحلّل؛ وجبن نوفشاتيل، وجبن لامبورغ، وجبن مارول، وجبن بون ليفيك، هذه كلّها، بشرائحها المربّعة، تضع نغماً حادّاً ومتميّزاً في قلب هذه المعزوفة الخشنة إلى حدّ الغثيان؛ وجبن ليفارو، بحمرته، ورائحته الرهيبة في الحلق كبخار الكبريت؛ ثمّ، وفي النهاية، وفوقها كلّها، جبن الأوليفيه، المغلّف بأوراق شجر الجوز، كجثث الحيوانات النافقة إذ يغطّيها الفلاحون بالأغصان على حافّة أحد الحقول حيث تطلق بخرها في الشمس. كانت الظهيرة الحارّة قد جعلت الجبن طريّاً، وأذابت عفن قشرته، وأخذ يبرق بلمعة من طيف الأحمر النحاسيّ والرماديّ المخضرّ، وكأنّها جروح لم تندمل؛ وتحت أوراق السنديان طيّرت نسمة قشرة جبن الأوليفيه، الذي ينبض كصدر بتنفّس بطيء وغليظ لرجل نائم. كما أنّ موجة من الحياة ثقبت قطعة من جبن ليفارو، لتتولّد من هذا الشقّ جمهرة من الديدان. وخلف الموازين، وفي علبة رفيعة، ثمّة قطعة من جبن جيروميه بنكهة الأنيسون، تطلق نتنها حتّى يتساقط الذباب حول العلبة على الرخام الأحمر المعرّق بالرماديّ.

كانت قطعة جبن الجيروميه تحت أنف الآنسة ساجيه تقريباً. تراجعت للخلف مسندةً رأسها على مزق الورق الكبيرة الصفراء والبيضاء المعلّقة من إحدى زواياها في أقصى الحانوت.

- نعم، كرّرتْ بتعبير من الاشمئزاز على وجهها، لقد جاء من السجن...

لا يحقّ لهم أن يتفاخروا، آل كونو غراديل!

أطلقت السيّدة لو كور ولاساريبت صيحات تعجّب. ذلك ليس معقولاً، ترى ما الذي اقترفه كي يدخل السجن؟ وهل كنّا نتخيّل أنّ السيّدة كونو الفاضلة، مفخرة الحيّ، تتّخذ عشيقاً من أحد خرّيجي السجون؟

- أنتما لا تفهمان، صاحت العجوز بنفاد صبر. اسمعاني إذن... كنت أعرف جيّداً أنّني سبق أن رأيت ذلك الشبح الرثّ في مكان ما.

وقصّت عليهما قصّة فلورون. كانت تتذكّر أقاويل غير واضحة تردّدت قديماً عن ابن شقيقةٍ لغراديل الكبير نُفيَ إلى كايين لأنّه قتل ستّة دركيّين على أحد المتاريس. لا بل رأته ذات مرّة في شارع بيرويت، لقد كان ذلك هو، ابن العمّ المزيّف. وأخذت ترثي لحالها مضيفة أنّها فقدت الذاكرة، وأنّها انتهت، وأنّها عمّا قريب ستفقد وعيها بكلّ شيء. وأخذت تنوح على فقدانها للذاكرة مثل علّامة يشاهد أوراق أبحاثه التي جمّعها طوال عمره تذهب أدراج الرياح. همست لاساريبت بإعجاب:

- ستّة دركيّين! لا بدّ أن له قبضة شديدة القوّة ذلك الرجل.

- نعم، لقد فعل أشياء أخرى أيضاً، أضافت الآنسة ساجيه، لا أنصحك بمقابلته ليلاً.

- يا له من وغد! غمغمت السيّدة لوكور وهي في شدّة الهلع.

كان شعاع الشمس المائل قد اخترق الرواق، وأخذت الأجبان تطلق روائحها بقوّة أكبر، وكان جبن المارول بالذات هو ما يسيطر برائحته، مُطلِقاً وسط مساخة كتل الزبدة زفرات قويّة لها رائحة فرش قديم للدوابّ. ثمّ عكست الريح اتّجاهها؛ فجاءت زفرات من جبن لامبورغ بين النسوة

الثلاث، لاذعة ومُرّة وكأنّها أنفاس أناس يحتضرون.

- لكن، قالت السيّدة لوكور، هو صهر ليزا السمينة، فهو إذَن لم يضاجعها!

ونظرت كلّ منهن إلى الأخرى وقد فوجئن بالوضع الجديد لفلورون. وقد أزعجهنّ اضطرارهنّ للتخلّي عن الرواية القديمة للقصّة. فجازفت العانس العجوز وقالت وهي تهزّ كتفيها:

- هذا لا يمنع... على أيّة حال، يبدو لي الأمر فظيعاً، وإن كنت لا أجزم بشيء.

- قد يكون ذلك أمراً قديماً، قالت لاسارييت معلّقةً، هما ربّما لم يعودا يتطارحان الغرام، بما أنّك قد رأيتِه مع ابنتَي ميهودان.

- بالتأكيد، كما أراكما الآن، صاحت الآنسة ساجيه، وقد جرحها التشكّك في ما حكته. هو هناك كلّ ليلة، تحت تنانير نساء آل ميهودان... ثمّ ماذا يهمّنا من الأمر، فليضاجع من يضاجع، أليس كذلك؟ نحن نساء شريفات... أمّا هو فماجن ومعتدّ بنفسه!

- بالطبع، أكّدت المرأتان، إنّه عتيد في الإجرام.

وفي المجمل، تحوّلت القصّة إلى مأساة؛ وقد أخذن يتعزّين بمحاولة إنقاذ ليزا الجميلة، فلا بدّ أنّها تواجه كارثة مخيفة بسبب فلورون. بالطبع، فهو عنده نيّة شرّيرة؛ فهؤلاء الناس لا يهربون إلّا ليشعلوا النار في كلّ شيء. ثمّ إنّ رجلاً كهذا ما كان ليستطيع دخول ليهال دون «أن يخطّط لمؤامرة ما». ثمّ طرحن افتراضات خارقة. أعلنت التاجرتان أنّهما ستضيفان أقفالاً لتدعيم بوابات متجريهما؛ وحتّى لاسارييت تذكّرت أنّه قد سُرِقت منها سلّة درّاق

منذ أسابيع. ولكنّ الآنسة ساجيه أرعبتهما إذ أخبرتهما أنّ «الحمر» لا يتصرّفون هكذا، فهم لا يبالون بسلّة درّاق، وهم يتجمّعون، نحو مائة أو مائتي رجل، ليقتلوا كلّ الناس، فيمارسون النهب على هواهم. هذه هي السياسة، قالت بتعالي امرأة متعلّمة. تخيّلت السيّدة لوكور، وقد أسقمها هذا الكلام، سوق ليهال تحترق ذات ليلة فيما فلورون والمتواطئون معه يختبئون في عمق الأقبية ليهجموا من هناك على باريس بأكملها.

– أه، لقد تذكّرت شيئاً، قالت العجوز فجأةً، هناك ميراث الخال غراديل الكبير... لا بدّ أنّ ذلك يزعج آل كونو.

كانت في ذروة الاستمتاع، فقد غيّرت النميمة اتّجاهها، وحان دور آل كونو، فسَردت قصّة الثروة التي عُثر عليها في وعاء التمليح، والتي كانت تعرف أدقّ تفاصيلها، حتّى أنّها ذكرت رقم خمسة وثمانين ألف فرنك دون أن تكون ليزا أو زوجها قد صرّحا به لأيّ مخلوق حيّ. أيّاً يكن الأمر، إنّ آل كونو لم يعطوا «الطويل الناحل» حصّته. كان هندامه أسخف من أن يستحقّ ذلك. ربّما هو الوحيد الذي لم يعرف قصّة وعاء التمليح. يا لهم من لصوص هؤلاء القوم! ثمّ تقاربت رؤوسهنّ، وانخفضت أصواتهنّ، إذ قرّرن أنّه قد يكون من الخطر مهاجمة ليزا الجميلة، لكن ينبغي « محاسبة الأحمر ذاك» كي لا يستمرّ في التهام أموال السيّد غافار المسكين.

وبذكر اسم غافار ساد صمت. وتبادلن نظراتٍ وعلى وجوههنّ سمت الحذر. وإذ تنهّدن، كانت رائحة جبن الكومومبير هي السائدة. جبن الكومومبير برائحة الجيفة تغلّبت على روائح جبن المارول والليمبورغ الخافتة، وصعَّدت من بخرها، وخنقت الروائح الأخرى بوفرة مباغتة من أريجها الفاسد. وفي وسط هذه الجملة الموسيقية العنيفة، أطلق جبن البارميزان ذات لحظة نغماً ريفيّاً لناي رفيع؛ فيما أضفى جبن بْري إيقاعاً

خافتاً لدفوف رطبة. وكان هناك متتالية خانقة لجبنة ليفارو. وتوقّفت تلك السيمفونية للحظة تحت نغمة نفّاذة من جبن جيروميه برائحة الأنيسون بلغت أقصى مداها.

- لقد رأيت السيّدة ليونص، قالت الآنسة ساجيه، مصوّبةً نظرة ذات مغزى.

تنبّهت المرأتان الأخريان، كانت السيّدة ليونص هي بوّابة المنزل الذي يقيم فيه السيّد غافار والواقع في شارع لاكوسونري. كان بيتاً قديماً، مُتهالكاً بعض الشيء، يحتلّ الطابق الأرضيّ فيه مستودع للّيمون والبرتقال، وقد صبغَ الواجهة بالطلاء الأزرق حتّى الطابق الثاني. وكانت السيّدة ليونص تؤدّي له الأعمال المنزلية، وتحتفظ بمفاتيح الخزائن، وتصعد له بالمشروبات الدافئة حين يكون مُصاباً بالزكام. كانت امرأة قاسية في الخمسينيّات من عمرها، تتكلّم كثيراً وببطء. كانت قد غضبت ذات يوم عندما قرصها السيّد غافار في خاصرتها، لكنّ ذلك لم يمنعها من معالجة موضع حسّاس من جسده بأن وضعت عليه علَقات ماصّة[1] إثر سقوطه ذات مرّة. كانت الآنسة ساجيه، التي اعتادت على تناول القهوة معها في مسكنها كلّ أربعاء، قد وثّقت علاقتها بها أكثر بعد أن اتّخذ تاجر الدواجن من ذلك البيت مسكناً له. تتحدّثان عن الرجل لساعات كاملة؛ كانتا تحبّانه كثيراً، وترجوان له السعادة.

نعم، لقد رأيت السيّدة ليونص، أكّدت العجوز؛ تناولنا القهوة معاً بالأمس... كانت مستاءةً جدّاً. يبدو أنّ السيّد غافار لم يعد يأوي إلى المنزل قبل الواحدة صباحاً. ويوم الأحد صعدتْ له بمشروب دافئ لأنّ وجهه كان ممتقعاً جدّاً.

(1) العلَق الماصّ ديدان تُستخدَم أحياناً في الطبّ إذ تساعد في التخلّص من الدمِ الزائد على أثر احتقان في أعقاب عملية جراحيّة.

- هي تعرف جيّداً ما تفعل، قالت السيّدة لوكور التي يقلقها اهتمام البوّابة بالرجل.

وانبرت الآنسة ساجيه للدفاع عن صديقتها:

- لا، أبداً، إنّك مخطئة، فالسيّدة ليونص فوق مستوى الشبهات... إنّها امرأة بكلّ معنى الكلمة... حسناً، لو كانت أرادت أن تسرق من غرفة السيّد غافار شيئاً، فما كان عليها سوى أن تمدّ يدها. يبدو أنّه يترك كلّ شيء مكشوفاً... وعن هذا تحديداً كنت سأكلّمكما. ولكن أرجو ألا تفوه إحداكما بكلمة، سيظلّ هذا الأمر سرّاً بيننا.

أقسمت الأخريان بأغلظ الأيمان أنّهما لن تتفوّها بكلمة من هذا. قرّبتا رأسيهما، فقالت الأخرى بتكلّف:

- تعرفان أنّ السيّد غافار قد صار ذا شأن منذ فترة... لقد اشترى سلاحاً، مسدّساً كبيراً ذا ساقية دوّارة، قالت السيّدة ليونص إنّه مرعب، فهو موضوع دائماً على المدفأة أو على الطاولة وهي لم تعد تجرؤ على مسح الأثاث...

وهذا ليس كلّ شيء، فنقوده...

- نقوده، ردّدت السيّدة لوكور وقد التهبت وجنتاها.

- لم تعد لديه أسهم، فقد باعها كلّها، ولديه الآن كومة من الذهب داخل إحدى الخزائن...

- كومة من الذهب! قالت لاساربيت مذهولةً.

- نعم، كومة كبيرة من الذهب. الكثير منه على أحد الأرفف، لدرجة أنّه يبهر العين.

لقد حكت لي السيّدة ليونص أنّه فتح الخزانة ذات مرّة أمامها، وأنّ عينيها قد تأذّتا من شدّة بريقه.

وساد صمت جديد. وارتجفت جفون النسوة الثلاث كما لو كنّ قد رأين كومة الذهب بالفعل. بدأت لاسارييت بالضحك، وهمست:

- لو أعطاني خالي هذا الذهب، فسنستمتع كثيراً أنا وجول، لن نقوم من السرير أبداً، وسنطلب الأطايب من المطعم.

وظلّت السيّدة لوكور كالمصعوقة من هذا الاكتشاف، من ذلك الذهب الذي لن تستطيع بعد الآن أن تطرده من خيالها. كان الحسد يعتصرها. وفي النهاية رفعت ذراعيها النحيلتين، وكفّيها الجافّتين اللتين تغطت أظافرهما بالزبدة المتيبّسة، فلم تستطع سوى التمتمة بصوت ملؤه التوجّس:

- يجب عدم التفكير في ذلك، فهو مؤلم جدّاً.

- آه، سيكون في مصلحتك، لو أنّ حادثاً قد وقع، قالت الآنسة ساجيه. أنا، لو كنت مكانك، لانتبهت لمصالحي... هل تفهمين، ذلك المسدّس لا يشي بأيّ خير. إنّ السيّد غافار مغرَّر به. وسينتهي الأمر بما لا تحمد عقباه.

ثمّ عدنَ إلى سيرة فلورون، وقد مزّقنه بضراوة بالغة. ثمّ أخذن برصانة يتكهّنّ إلى أين ستقود تلك القصّة السيئة كلّاً من فلورون وغافار. سيكون مآلها خطيراً جدّاً، على وجه التأكيد، إن هنّ ثرثرن بذلك وانتشرت أقوالهنّ. وعليه، فقد تعاهدن على ألّا يتفوّهن بكلمة عن الموضوع، لا لأنّ ذلك الأفّاق فلورون يستحقّ أيّ عناية منهنّ، ولكن لتجنّب توريط السيّد غافار المحترم بأيّ ثمن. كنّ قد نهضن، وإذ كانت الآنسة ساجيه تهمّ بالانصراف:

- مع ذلك، في حالة حدوث أيّ شيء، سألت بائعة الزبدة، هل تعتقدين أنّه يمكن الثقة في السيّدة ليونص؟... ربّما لديها مفتاح الخزانة؟

- تطلبين الكثير من المعلومات، أجابت العجوز. أعتقد أنّها امرأة أمينة جدّاً، ولكن في النهاية لا أعرف؛ هناك ظروف... وها قد نبّهتكما أنتما الاثنتين، وهو شأنكما.

وظللن واقفات، يتوادعن في خضمّ النفحة الأخيرة للأجبان. كانت كلّها تطلق روائحها في تلك اللحظة، في نشاز من الأبخرة الكريهة، من الثقل الرخو للعجائن المطهوّة، لجبن غروبير والجبن الهولندي، حتّى الذروة اللاذعة لجبن الأوليفيه. وكان هناك غطيط مكتوم لجبن كانتال وشستر، ولجبن الماعز أشبه ما يكون بلحن عميق القرار تنفصل عليه نغمات حادّة من نفحات مفاجئة من بخر جبن نوفشاتيل وترْوا ومون دور. ثمّ يستشيط جنون الروائح، وتدور بعضها حول بعض وتتكثّف نفحات من جبن بور سالو ولامبورغ وجيروميه والمارول وليفارو وبون ليفيك، وتختلط شيئاً فشيئاً لتزهر في انفجار واحد للنتانة كان ينتشر ويتماسك وسط الارتجاج العامّ الذي لم تعد له رائحة معيّنة، في دوار مستمرّ للغثيان وقوّة اختناق رهيبة. وكان يبدو أنّ الكلمات الرديئة للسيّدة لوكور والآنسة ساجيه هي التي تطلق هذه الروائح الكريهة.

- أشكرك كثيراً، قالت بائعة الزبدة. وإذا صرت غنيّة في يوم من الأيّام فسأكافئك حتماً.

لكنّ العجوز لم تغادر. أخذت قطعة من جبن بوندون، وأعادتها، ثمّ وضعتها على الطاولة الرخامية وسألت عن ثمنها.

- من أجلي أنا، أضافت بابتسامة.

- من أجلك أنت مجّاناً، أجابتها السيّدة لوكور. إنّي أعطيها لك.

وكرّرت:

- آه لو كنت غنيّة!

فقالت لها الآنسة ساجيه إنّ ذلك سيحدث يوماً ما. كانت قطعة جبن بوندون قد اختفت بالفعل داخل سلّتها. عادت بائعة الزبدة إلى القبو، فيما قادت العانس العجوز لاساريت نحو متجرها. وهناك، تحدّثتا لبعض الوقت عن السيّد جول. كان للفواكه من حولهما رائحة نضرة كالربيع.

الرائحة أفضل هنا ممّا في حانوت خالتك، قالت العجوز. لقد اعتلّ قلبي للتوّ. كيف تستطيع هي البقاء هناك؟... على الأقلّ هنا الرائحة طيّبة، وحلوة، وتجعلك تتوردّين يا حسنائي.

أخذت لاساريت تضحك، فقد كانت تحبّ الاطراءات. ثمّ باعت إحدى السيّدات أوقية من البرقوق الصغير، قائلة إنّه مثل السكّر.

- سوف أشتري أيضاً بعض البرقوق الصغير، همست الآنسة ساجيه عندما انصرفت السيّدة، فقط يلزمني القليل جدّاً منه... أنا امرأة وحيدة، كما تعرفين.

- خذي حفنة منه إذن، صاحت السمراء الجميلة. إنّ ذلك لن يجعلني أفلس... وأرسلي لي جول إذا رأيتِه، لا بدّ أنّه يدخّن سيكاره عند منصّة البيع الأولى عندما تخرجين من الشارع الكبير على اليمين.

مدّت الآنسة ساجيه كفّها على اتّساعها لتأخذ حفنة البرقوق التي ستلحق بجبن بوندون في سلّة تسوُّقها. تظاهرت بأنّها ستخرج من ليهال؛ لكنها اختصرت الطريق من أحد الشوارع المسقوفة، سائرةً ببطء وهي تفكّر أنّ

البرقوق مع جبن البوندون يشكّل عشاءً لا بأس به. في العادة، وبعد جولة ما بعد الظهيرة، إذا لم تفلح في ملء سلّتها بالبضائع التي تغنمها بالمداهنة والحكي، فهي تكتفي بالبقايا. عادت بمكرٍ إلى رواق الزبدة. هناك، من ناحية شارع بيرجيه، وخلف مكاتب وكلاء المحار، توجد منصّات اللحم المطهوّ. كلّ صباح، تتوقّف عربات على هيئة صناديق مدعّمة بالزنك ومزيّنة بفتحات أمام أبواب مطابخ مطاعم السفراء والوزراء، لتأخذ خليطاً من بقاياها. ويتمّ الفرز في القبو. منذ التاسعة صباحاً تُعرض الصحون، مجهّزة، بثلاثة مليمات أو خمسة، قطع من اللحم، وشرائح من لحم الطرائد، رؤوس وذيول لأسماك، خضروات، وقطع من لحم الخنزير المقدّد، وحتّى التحليات، قطع كعك مقضومة قليلاً، وسكاكر تكاد تكون كاملةً، وهذا كلّه يصطف لشرائه المتضوّرون جوعاً، وصغار الموظّفين، والنساء المرتعدات من الحمّى. وأحياناً، كان الأطفال يصيحون ساهرين من البخلاء المكفهرّي الأوجه، الذين يقفون للشّراء بنظرة ملؤها الحذر ليتأكّدون من أنّ أحداً لم يرَهم. وانزلقت الآنسة ساجيه أمام حانوت يعلن بائعه ادّعاءه أنّه لا يبيع سوى مخلّفات مطابخ قصر التويليري. وذات يوم أخذت منه شريحة من فخذ خنزير، بعد أن أكّد لها أنّها من طبق الإمبراطور شخصيّاً. وقد تناولت العانس العجوز تلك الشريحة بقدر من الفخر استطاع أن يعزّي كبرياءها. إذا كانت تتخفّى، فذلك لتحاشي أبواب متاجر السوق التي تطوف عليها دون أن تشتري أيّ شيء. كانت طريقتها هي أن تقاطع المورِّدين ما إن تعرف قصصهم، وتذهب إلى آخرين، ثمّ تتركهم، ثمّ تتصالح معهم، وتدور حول سوق ليهال بأكملها؛ هكذا بحيث تزور كلّ الحوانيت. يعتقد المرء أنّها تقوم بصفقات هائلة، فيما هي في الواقع تتعيّش من العطايا ومن البقايا التي تشتريها من مالها عندما تيأس من الأمر.

ذلك المساء لم يكن هناك سوى رجل مسنّ طويل القامة أمام الحانوت. كان يتشمّم طبقاً فيه خليط من السمك واللحوم. وتشمّمت الآنسة ساجيه بدورها عدداً من المقليّات الباردة. كانت بثلاثة مليمات، فساومت وأخذتها بمليمين، واختفت المقليات الباردة في سلّتها. لكنّ مشترياً آخر قد وصل واقترب بأنفه من الصحون بحركة منتظمة. كانت رائحة البسطة مثيرة للغثيان، رائحة صحون علقَ بها الدهن ومجلىً لم ينظَّف جيّداً.

- تعالي عندي غداً، قال البائع للعجوز. سأترك لك جانباً أشياء طيّبة... هناك عشاء ضخم في قصر التويليري الليلة.

وعدته الآنسة ساجيه بأن تأتي، وإذ التفتت لمحت غافار الذي كان قد سمع ورأى. احمرّت خجلاً، وضيّقت كتفيها الناحلتين، وانصرفت متظاهرةً بأنّها لم تعرفه. لكنّه تبعها لوهلة، هازّاً كتفيه استهانةً، متمتماً أنّ السلوك الشرّير لهذه المرأة السليطة اللسان لم يعد يثير اندهاشه «منذ أخذت بالتسمّم بتلك القاذورات التي يتقيّأها قصر تويلري».

ومنذ اليوم التالي سرت في ليهال شائعة قويّة. فقد حافظت السيّدة لوكور ولاسارييت على تعهدّهما بالسريّة. وفي هذه الظروف تبدي الآنسة ساجيه حذقاً كبيراً، فهي تلزم الصمت، تاركة للمرأتين الأخريين مهمّة إذاعة قصّة فلورون. كانت في البداية حكاية مختصرة تتردّد همساً؛ ثمّ ظهرت لها روايات أخرى، تمدّدت حلقاتها، فنشأت أسطورة يلعب فيها فلورون دور الشرّير. لقد قتل عشرة دركيّين عند متراس شارع غرينيتا؛ لقد عاد على سفينة قراصنة يقتلون كلّ من في البحر؛ ومنذ عودته وهو يُشاهَد يطوف ليلاً مع رجال مشبوهين، لا بدّ أنّه زعيمهم. كان خيال البائعات يفعل ما يحلو له، ويختلق الأشياء الأكثر مأسويّة، عصابة من المهرّبين في قلب باريس، أو جمعية كبيرة تتمحور حولها كلّ السرقات التي تُرتكَب في ليهال. وقد صببن لومهنّ الكبير

على آل كونو غراديل متكلّماتٍ بشرّ عن مسألة الميراث. ذلك الميراث خلبهنّ. كان الرأي السائد هو أنّ فلورون قد عاد ليأخذ حصّته من الثروة. ولأنّه لم يكن من تفسير لفكرة أنّ التقسيم لم يتمّ بعد، اختُرِعَ أنّه يتحيّن الفرصة ليستولي على كلّ شيء. وذات يوم سيعثرون بالتأكيد آل كونو غراديل مقتولين. ويحكى أنّه كلّ ليلة كانت تدور مشاجرات مروّعة بين الأخوين وليزا الجميلة.

وعندما وصلت تلك القصص إلى أسماع النورماندية الجميلة، هزّت كتفيها ضاحكةً وقالت:

- أنتنّ لا تعرفنه... إنّه وديع كحمل، الرجل العزيز.

كانت قد رفضت بوضوح طلب السيّد لوبيغر ليدها بعد أن تقدّم لها رسميّاً. طيلة شهرين، ظلّ يرسل كلّ يومِ أحد قنّينة خمر قويّة لنساء آل ميهودان. وكانت روز هي من تذهب بالقنِينة إليهنّ بهيئتها الخاضعة، ودائماً كانت تحمل المجاملات للنورماندية، بجملة لطيفة تردّدها بأمانة دون أن يبدو عليها أيّ ملل من تلك المهمّة. وعندما رُفض طلب السيّد لوبيغر، أرسل إلى روز في الأحد التالي بزجاجتين من الشمبانيا وباقة من الزهور كي يبرهن على أنّه لم يغضب وعلى أنّه لا يزال يحتفظ بالأمل. وقد ناولت كلّ شيء للسماكة الجميلة وهي تتلو متنهّدةً أنشودة بائع النبيذ الغزلية:

- إنّ السيّد لوبيغر يناشدك أن تشربي هذا في صحّته التي تضرّرت كثيراً ممّا تعرفين. وهو يتمنّى أن تستطيعي إشفاءه في يوم من الأيّام بطيبتك وجمالك اللذين يماثلان طيبة هذه الزهور وجمالها.

كانت النورماندية تستمتع لمرأى الخادمة بمظهرها السعيد. وأحرجتها إذ قالت لها إنّ سيّدها لحوح جدّاً. وسألتها هل تحبّه كثيراً، وإذا كان يرتدي

حمّالتَي بنطلون، ويشخر في نومه، ثمّ أعادت لها الشمبانيا والزهور.

- قولي للسيّد لوبيغر ألّا يرسلك ثانيةً... إنّك طيّبة للغاية يا صغيرتي، ويحزّ في نفسي أن أراك هكذا برقّتك والقناني تحت إبطيك. ألا تستطيعين مخالفة أوامر سيّدك؟

- سيّدتي! هو يريدني أن أجيء، أجابت روز وهي تهمّ بالانصراف. إنّك مخطئة إذ تسبّبين له ألماً، فهو رجل طيّب حقاً.

كانت شخصية فلورون الرقيقة قد استحوذت على النورماندية. فاستمرّت في تشجيع الدروس التي يعطيها لموش تحت المصباح، حالمةً بأن تتزوّج ذلك الفتى المحبّ للأطفال. كان لديها مشمكتها، وهو يشغل منصباً سامياً في إدارة ليهال. لكنّ ذلك الحلم كان يصطدم بالاحترام الذي يبديه المعلّم لها. كان يحيّيها من مسافة، في حين ترغب هي في الضحك معه والاستسلام لمداعباته، وفي أن يحبّها كما تفهم هي الحبّ. تلك المقاومة الصلبة هي ما كان يداعب فكرة الزواج لديها في كلّ ساعة. كانت تتخيّل ملذّات كبرى ترضي كبرياءها. وكان فلورون يعيش في مكان آخر، أعلى وأبعد. كان من الممكن أن يستسلم، لو لم يكن مرتبطاً بموش الصغير؛ ثمّ فكرة أن تكون له عشيقة، في هذا البيت، وإلى جوار الأمّ والأخت كانت تثير امتعاضه.

تلقّت النورماندية حكاية معشوقها بدهشة كبيرة. فهو لم يأتِ قطّ على ذكر مثل هذا الكلام. وأنّبته على ذلك. مغامراته المثيرة أضافت لغرامها لوعة جديدة. وخلال ليالٍ، توجّب عليه أن يحكي لها كلّ ما كان قد مرّ به. وارتاعت من احتمال اكتشاف الشرطة له؛ لكنّه طمأنها، قائلاً إنّ الموضوع قديم جدّاً، والشرطة لم تعد تهتمّ به. وفي ليلة كلّمها عن امرأة شارع مونمارتر، تلك المرأة ذات القلنسوة الوردية التي نزف على يديه صدرها المخترق بالرصاص.

كان لا يزال يفكّر بها أحياناً؛ كان يطوف بذكراها الحزينة في ليالي غويانا الصافية؛ ولقد عاد إلى فرنسا بالفكرة المخبولة، فكرة أنّه قد يجدها على أحد الأرصفة، تحت شمس دافئة، وإنْ يكن شعرَ بثقل جثّتها على رجليه. لكن ربّما تكون مع ذلك قد نهضتْ. أحياناً في الشوارع يشعر بضربة في صدره إذ يتخيّل أنّه يراها. كان يتابع القلنسوات الوردية، والأوشحة المسدلة على الأكتاف برعدةٍ في قلبه. وعندما يغلق عينيه، كان يراها تسير، قادمةً نحوه؛ لكنّها تترك وشاحها ينزلق، وتُظهر البقعتين الحمراوين على قميصها، وتبدو له شاحبةً ببياض الشمع بعينيها الذاهلتين وشفتيها المتألّمتين. ولفترة طويلة كان يعذّبه أنّه لم يعرف اسمها، وأنّه لا يحتفظ منها سوى بخيال يذكره بندم. وعندما بزغت في داخله فكرة المرأة، كانت هي من جسّدها، ومن تقدّمت نحوه بوصفها الطيّبة الوحيدة والنقيّة الوحيدة. أحياناً كان يراوده الحلم بأنّها تبحث عنه في ذلك الشارع الذي مكثت فيه، وأنّها كانت ستعطيه حياةً كاملة من الفرح لو كان قابلها قبلذاك بثوانٍ. ولم يعد يرغب في امرأة أخرى، لم يعد للنساء وجود بالنسبة له. كان صوته يرتعش بشدّة وهو يتكلّم عنها، حتّى أنّ النورماندية قد حدست الأمر بغريزة المرأة العاشقة، وانتابتها الغيرة منها.

- سحقاً، همست بغلّ، من الأفضل ألّا تراها. هي بالتأكيد ليست جميلة الآن.

أصاب فلورون الوجوم من الصورة المرعبة التي أثارتها السمّاكة. لقد سقطت ذكرى غرامه في مقبرة. لم يغفر لها تلك الخشونة الفظيعة التي أحلّت منذ ذلك الحين، تحت قلنسوة الحرير، فكّاً ناتئاً ومحجرين فاغرين لهيكل عظميّ. وعندما شرعت النورماندية في معابثته حول تلك المرأة «التي ضاجعته على ناصية شارع فيفيان» صار عنيفاً، وأسكتها بكلمة تكاد تكون نابية.

ولكنّ ما صدم النورماندية الجميلة في كلّ هذا الاكتشاف هو كونها أخطأت بظنّها أنّها استحوذت على عشيق لليزا الجميلة. لقد قلّل ذلك من انتصارها، حتّى أنّها صارت تحبّ فلورون بقدر أقلّ منذ أسبوع. وقد تعزّت بقصّة الميراث. لم تعد ليزا الجميلة تلك المتعفّفة، وإنّما سارقة تستحوذ على ثروة أخي زوجها، وتخدع العالم بهيئتها المنافقة. ومنذ ذلك الحين، في كلّ ليلة، وفيما ينسخ موش نماذج الكتابة، بات الحوار يدور حول ثروة غراديل الخال.

- هل أدرك أحد يوماً فكرة الخال الهرم! تتساءل السمّاكة ضاحكة. كان يريد أن يملّح ثروته، فوضعها في وعاء التمليح! خمسة وثمانون ألفاً، يا له من مبلغ محترم، لا سيّما وأنّ آل كونو ربّما كذبوا، ربّما كان هناك ضِعف ذلك، أو ثلاثة أضعافه... لو كنت في مكانك لطالبتُ بحصّتي، وعلى الفور!

- لست بحاجة إلى أيّ شيء، كان فلورون يردّد دائماً. لن أعرف أين يمكنني أن أضع ذلك المال.

فتستشيط هي غضباً.

- اسمع، إنّك لست رجلاً. إنّه لأمر مخزٍ... ألا تفهم أنّ أخاك وزوجته يهزآن منك. تتفضّل عليك تلك السمينة بملابس زوجها القديمة. لا أقول هذا لكي أجرحك، ولكنّ الجميع يلاحظون ذلك... ها أنت ترتدي بنطالاً قد تهرّأ من الشحوم، وقد رآه أهلّ الحيّ على مؤخّرة أخيك طوال ثلاث سنوات... لو كنتُ في مكانك لألقيت بتلك الأسمال البالية في وجوههم، ولسوّيت معهم حساباتي. إنّها اثنان وأربعون ألفاً وخمسمائة، أليس كذلك؟ ما كنت لأخرج دون نقودي.

عبثاً أفهمها فلورون أنّ زوجة أخيه عرضت عليه نصيبه، وأنّها تحتفظ

به تحت تصرّفه، وأنّه هو من رفض. وقد تطرّق إلى أدقّ التفاصيل، ليقنعها بأمانة عائلة أخيه.

- الماء يكذّب الغطّاس، قالت له منشدةً بتهكّم. أنا أعرف أمانتهم. السمينة تطوي تلك الأمانة كلّ صباح وتحفظها في خزانتها حتّى لا تتّسخ... الحقيقة يا صديقي المسكين، أنا أتألّم من أجلك. إنّها تستمتع بخداعك على الأقلّ. أنت لا ترى أبعد من طفل في عمر الخامسة... ستضع لك نقودك ذات يوم في جيبك، ثمّ تسحبها مرّةً أخرى. لن تصعب عليها الخدعة. هل ترغب في أن أذهب وأطالبها بحقوقك كي نرى؟ سيكون ذلك طريفاً، دعني أقول لك. سأحصل على النقود أو أحطّم كلّ شيء لديهم، أقسم بشرفي.

- لا، لا، لن يكون ذلك موقفاً سليماً منك، عاجلها فلورون بالقول مرتعباً. سوف أرى، قد أكون بحاجة إلى النقود عمّا قريب.

كانت تتشكّك وتهزّ كتفيها، وهي تهمس أنّه رخو للغاية. كان همّها المتواصل هو أن تجعله ينقلب على آل كونو غراديل، مستخدمةً في ذلك كلّ أسلحتها: الغضب، والسخرية، والحنان. ثمّ فكّرت في مشروع آخر، فإنْ هيَ تزوّجت فلورون فستكون هي من سيذهب ليصفع ليزا الجميلة إن لم تردّ له ميراثه. في المساء في سريرها، كانت تظلّ تحلم بذلك وهي مستيقظة: تدخل حانوت لحم الخنزير، وتجلس في قلب الحانوت في ساعة البيع وتصنع مشهدا رهيباً. وقد راقها ذلك المشروع كثيراً، وانتهى بإغوائها لأن تتزوّجه فقط لتذهب وتطالب بالاثنين وأربعين ألفاً وخمسمائة فرنك التي هي من تركة الخال الراحل.

بعد غضب مَدام ميهودان لرفض ابنتها عرض السيّد لوبيغر، صارت

تتصايح في كلّ مكان أنّ ابنتها قد جُنّت، وأنّ «الطويل الناحل» لا بدّ أن يكون قد أعطاها مُخدّراً رذيلاً ليخلب لبّها. وعندما عرفت قصّة نفيه واعتقاله في كايين، صار سلوكه بخصوصه رهيباً، ونعتته بالمجرم، وبالسفّاح، قائلةً إنّه ليس من المستغرب أن يظلّ نحيلاً هكذا من خساسته. وفي الحيّ، كانت هي من يروّج الروايات المروّعة من حكايته. ولكن في المنزل، كانت تكتفي بالزعيق، والتظاهر بإغلاق درج الفضيّات ما إن يصل فلورون. وفي يوم، وبعد مشاجرة مع ابنتها البكر، صاحت بها:

- لا يمكن أن يستمرّ هذا، أذلك الأفّاق هو من يخطفك منّي؟ لا تدفعيني إلى الحدّ الأقصى وإلّا لشكوته إلى إدارة البلديّة.

- هل ستشكينه؟ أخذت النورماندية تردّد وهي ترتعد وقد ضمّت قبضتيها. لا تفعلي هذا الأمر المحزن... آه لو لم تكوني أمّي...

فانخرطت كلير، التي شهدت المشاجرة، في قهقهة عصبية انشرخت بسببها حنجرتها. منذ فترة وهي تبدو أكثر اكفهراراً وغرابة أطوار من ذي قبل، بوجه شديد الشحوب وعينين محتقنتين.

- حسناً، ثمّ ماذا؟ سألت. هل ستضربينها... وهل ستضربينني أنا أيضاً، شقيقتك؟ أتعرفين، سيفضي الأمر إلى هذا. سأذهب أنا إلى إدارة البلديّة لأجنّب أمّي مشقّة الطريق.

ولّما كانت النورماندية تبدو مختنقة ولا تصدر عنها سوى تهديدات تنطق بها متلعثمة، أضافت كلير:

- لن يكون عليك ضربي، أنا... سألقي بنفسي في الماء من أعلى الجسر.

فسالت دموعٌ غزيرة من عينيها. وجرت إلى غرفتها، مغلقةً الباب بعنف.

ولم تعد مَدام ميهودان للكلام عن الاشتكاء من فلورون. لكنّ موش أطلع أمّه على أنّه يرى السيّدة تتحدّث مع السيّد لوبيغر في كلّ أركان الحيّ.

آنئذٍ اتّخذ التنافس بين النورماندية الجميلة وليزا طابعاً أكثر صمتاً وإثارة للقلق. وفي الظهيرة، عندما تكون مظلّة الحانوت ذات النسيج الرماديّ والخطوط الحمراء هابطة كانت السمّاكة تهتف أنّ السمينة تختبئ خلفها خائفةً. وهناك أيضاً الستارة التي تغطّي نافذة العرض والتي كانت تغضب لرؤيتها مسدلةً. وهي تحمل رسماً يصوّر في رحلة صيد يجمع رجالاً مرتدين السواد ونساء بأذرع عارية يأكلون في قلب فرجة غابيّة مضيئة كتلةً من اللحم حمراء أكبر منهم على عشب أصفر. بالتأكيد، لم تكن ليزا الجميلة خائفة. فما إن تغرب الشمس حتّى ترفع الستارة؛ وفيما هي تتسلّى بالحياكة، ترقب بهدوءٍ، من وراء منضدتها، طرقات ليهال المزروعة بأشجار الدّلب والتي تعجّ بلغط المتبطّلين الذين يذرعون الطرقات تحت أسيجة الأشجار. وعلى المصطبات حمّالون يدخّنون غلايينهم؛ وعلى طرفَي الرصيف عمودان للإعلانات يبدوان وكأنّهما قد تسربلا بأزياء المهرّجين ذات المربّعات الخضراء والحمراء والصفراء المرسومة في دعايات المسارح. كانت تراقب النورماندية الجميلة بدقّة، متظاهرة بأنّها تتابع العربات السائرة في الشارع. في بعض الأحيان، كانت تتظاهر بالانحناء أو بأنّها تتابع حتّى محطّة سانت أوستاش الحافلة الذاهبة من الباستيل إلى ساحة فاغرام، وفي الحقيقة كان ذلك لكي تتمكّن من رؤية السمّاكة التي كانت تنتقم من الستارة باختفائها بدورها خلف أوراق رمادية كبيرة تضعها على وجهها وبضاعتها بحجّة حمايتها من الشمس الغاربة. لكن تظلّ الغلبة لليزا الجميلة. فهي تحافظ على هدوئها وكأنّها هي من يحسم الصراع، بينما الأخرى، وعلى الرغم من جهودها لتحافظ على مظهرها الشديد التميّز، كانت لا تتورّع عن ارتكاب حماقات بذيئة تندم عليها بعد

ذلك. كان طموح النورماندية هو «أن تظهر كما ينبغي أن يكون عليه المظهر». لم يكن يهزّها شيء كما يهزّها سماعها لمديح خصال غريمتها. وقد تنبّهت مَدام ميهودان لنقطة ضعفها تلك. وهكذا لم تعد تكيد ابنتها سوى من هذه النقطة.

- لقد رأيت السيّدة كونو أمام بابها، تقول لها أحياناً في المساء. من المدهش كيف تحافظ هذه السيّدة على نفسها. وهي نظيفة فوق ذلك، ولها مرأى سيّدة حقيقية! إنّه تأثير منضدة البيع، هل ترين! فهي تصون المرأة، وتجعلها مميّزة.

وهي تُلمّح هنا بإشارة خفيّة إلى عرض السيّد لوبيغر. ولكنّ النورماندية الجميلة لا تردّ وتظلّ متوجّسةً لوهلة. وترى نفسها في زاوية شارع بيرويت الأخرى خلف منضدة تاجر الخمور في موقع مناظر لليزا الجميلة. وكان ذلك أوّل اهتزاز لعاطفتها نحو فلورون.

والحقّ، صار من الصعب بمكانٍ الدفاع عن فلورون. فالحيّ بأكمله بات يندّد به. وبدا كما لو كان لكلّ شخص منفعة مباشرة في تصفيته. في ليهال، صار البعض يقسمون أنّه قد باع نفسه للشرطة، والآخرون يؤكّدون أنّهم رأوه في قبو الزبدة يحاول نقب ثغرة في المشابك المعدنية للمستودعات كي يلقي بأعواد الثقاب المشتعلة. كانت تلك افتراءات متعاظمة، وسيلاً من التخرّصات تعدّدت مصادرها دون أن يُعرَف من أين تخرج على وجه التحديد. وكان رواق الأسماك آخر مكان يصل إليه الاضطراب. فالسمّاكات يحببن فلورون لرقّة طباعه، وقد دافعن عنه لبعض الوقت، ثمّ استسلمن تحت تأثير البائعات القادمات من رواقَي الزبدة والفواكه. وها قد بدأ صراع البطون السمينة والأثداء الضخمة ضدّ ذلك النحيف. وضاع مرّةً أخرى بين التنانير والمشدّات المنتفخة إلى حدّ الانفجار، التي تتزاحم حول كتفيه الضامرتين. أمّا هو فقد كان غافلاً عن كلّ هذا، ويمضي قُدماً نحو فكرته المحدّدة.

في كلّ وقت، وفي كلّ ركن أصبحت تظهر القبّعة السوداء للآنسة ساجيه وسط هذا الهيجان. كان يبدو أنّ وجهها الصغير الشاحب يتعدّد. لقد تصاعدت داخلها ضغينة رهيبة نحو العصبة التي تجتمع في مقصورة السيّد لوبيغر الزجاجية. كانت تتّهم هؤلاء السادة بإشاعة قصّة فضلات المطاعم. وكانت الحقيقة أنّ غافار قد قال في إحدى الأماسي إنّ تلك العجوز الشمطاء التي تأتي لتتلصّص عليهم تتغذّى على القاذورات التي تستغني عنها الطغمة البونابرتية[1]. أصاب الغثيان كليمنص. وابتلع روبين جرعة سريعة من الجعة كأنّه يغسل حلقه. فيما كان تاجر الدواجن يردّد كلمته:

- ما يتقيّأه قصر تويلري.

كان يقول ذلك بتعبير من الامتعاض الفظيع على وجهه. تلك الشرائح من اللحم المتبقّية من أطباق الإمبراطور كانت تبدو له كمثْل قمامة شنيعة، مخلّفات سياسية، فضلات متعفّنة لكلّ قذارات الملك. فأصبح حضور الآنسة ساجيه في حانة السيّد لوبيغر مثيراً للاشمئزاز. أصبحت مثل جيفة حيّة، حيوان نجس يتعيّش على النتانات التي تترفّع عنها حتّى الكلاب. قام غافار وكليمنص بترويج القصّة في ليهال، حتّى أنّ العانس العجوز أصبحت تعاني كثيراً من جرّاء ذلك في علاقاتها الطيّبة مع البائعات. وكانت إذ تساومهنّ دون أن تشتري شيئاً يُرسلنها إلى تجّار الفضلات. وقد قطع ذلك مصادرها للأخبار. وفي بعض الأيّام، لم تكن حتّى تعرف ما يدور. وكانت تبكي غضباً من ذلك. وفي ذلك الوقت، قالت بفجاجة للاساربيت والسيّدة لوكور:

- لم تعودا بحاجة إلى تحريضي... سأريه شرّ أعماله، غافاركم العزيز ذلك يا صغيرتيّ.

(1) المقصود هو طبعاً نابليون الثالث، سبق التعريف به.

ظلّت المرأتان مذهولتين لوهلة، لكنّهما لم تعترضا. وبالفعل، في اليوم التالي، سكبت الآنسة ساجيه تحنّنها الكاذب على السيّد غافار المسكين، المُضلَّل، والذي كان يسير قدماً نحو هلاكه.

وكان غافار في الواقع قد عرَّض نفسه كثيراً للشبهات. فمنذ نضجت المؤامرة وهو يتجوّل في كلّ مكان حاملاً في جيبه ذلك المسدّس الذي أخاف السيّدة ليونص بوّابته؛ مسدّس جحيميّ في حجمه وغموض شكله، اشتراه من أفضل تاجر أسلحة في باريس. وفي اليوم التالي أراه لكلّ بائعات رواق الدواجن، مثل تلميذ يعرض كتاباً محظوراً مخبّأ في قمطره. وكان يجعل فوهته بارزة من جيبه؛ ويعرضه بغمزة من عينه؛ ثمّ كان يلمّح بأشياء عنه، ويقوم بما يشبه البوح، أي كامل الموقف التمثيليّ الملائم لرجل يتظاهر بالخوف. وقد أعطاه هذا المسدّس أهمّية عظيمة، لقد وضعه قطعاً في مصاف الناس الخطيرين. أحياناً، وفي وسط حانوته، كان يعمد إلى إخراجه كلّيةً من جيبه ليريه لامرأتين أو ثلاث. كان يطلب منهنّ أن يقفن أمامه، كي يخفينه تحت تنانيرهنّ. وكان يعبّئه بالطلقات، ويناور به، ويعدّل من وضع إوزّة أو ديك روميّ معلّق في موضع العرض. وكان هلع النسوة يبهجه؛ ثمّ يأخذ في طمأنتهنّ، قائلاً لهنّ إنّه غير مشحون بالطلقات. لكنه كان أيضاً يحمل الطلقات في علبة يفتحها بحرص لا نهائيّ. وعندما يفحصن الطلقات، كان يقرّر أخيراً أن يعيد إخفاء ترسانته. ثمّ يجلس ليخطب لساعات مبتهجاً:

- مع شيء كهذا يكون الرجل رجلاً حقّاً، كان يقول متفاخراً... أنا لم أعد أعبأ برجال الدّرك... يوم الأحد ذهبت لأجرّبه مع صديق، في سهل سان دوني. هل تفهمن، لا يقال لكلّ الناس إنّنا لدينا مثل هذا الشيء... آه يا صغيراتي، لقد صوّبنا نحو شجرة، وفي كلّ مرّة

طاخ! كنّا نصيب الشجرة... سترَين، سترَين... خلال وقت قصير ستسمعن عن أناتول.

- كان يطلق على مسدّسه اسم أناتول. وفي غضون أسبوع كان كلّ الرواق يعرف المسدّس وطلقاته. كما كانت صحبته مع فلورون تبدو مريبة. لكنّه كان ثريّاً وسميناً بما يكفي لكي لا يجابهوه بنفس الكراهية، ومع ذلك فقدَ احترام الأشخاص الحاذقين، ونجح في إفزاع الخوّافين. ومن ساعتها أصبح كالمسحور.

- إنّ حمل السلاح هو نوعٌ من غياب الحصافة، قالت الآنسة ساجيه. ستكون عواقب ذلك وخيمة.

كان لغافار حظوة في حانة السيّد لوبيغر. وقد صار فلورون، منذ توقّف عن تناول الطعام مع آل كونو، مقيماً في المقصورة الزجاجية. يتناول فيها غداءه وعشاءه، ويجيء في كلّ ساعة ليخلو إلى نفسه هناك. لقد صنع منها ما يشبه الغرفة الخاصّة به، أو مكتباً تتناثر حلله العتيقة، وكتب وأوراق. وقد تسامح السيّد لوبيغر مع هذا الاستحواذ على المقصورة: حتّى أنّه أزال إحدى الطاولتين، لكي يؤثّث الحيّز الضيق بأريكة مبطّنة، يستطيع فلورون أن ينام عليها إذا احتاج إلى ذلك. وعندما أبدى الأخير تحرّجاً، طلب منه صاحب الحانة ألّا يحمل همّاً وأن يعتبر المكان كلّه تحت تصرّفه. كذلك لوغر أبدى تجاهه مودّة كبيرة. وقد جعل هو منه ملازماً له. في كلّ ساعة يحدّثه عن «القضيّة» ليطلعه على التطوّرات ويعطيه أسماء المنضمّين الجدد. وفي ما يخصّ العمل كان قد اتّخذ دور المنسّق؛ هو من يربط الناس بعضهم ببعض، وينظّم الوحدات، ويجهّز كلّ خليّة في الشبكة الواسعة التي ستسقط فيها باريس عند إطلاق الإشارة. وظلّ فلورون هو روح المؤامرة وزعيمها. أمّا الأحدب فقد كان يبذل كلّ جهوده دون أن يحقّق نتائج ذات قيمة. ولئن أقسم أنّه

يعرف في كلّ حيّ رجلين أو ثلاثة من أولي البأس، يشبهون رجال المجموعة التي تلتقي عند السيّد لوبيغر، فهو لم يكن حتّى ذلك الوقت قد أتى بأيّ معلومات دقيقة، فقط يُلقي بأسماء في الهواء، ويحكي عن مشاوير لا تنتهي، وسط حماس المجموعة. ما كان يجلبه على وجه التشخيص هو مجموعة من التحيّات؛ أحدهم، وقد تمّ رفع الكلفة بينهما، صافحه قائلاً له «إنّه سيكون معهم». وفي حيّ غرو كايو مدّ له رجل ضخم ذراعه، وفي شارع بوبينكور احتضنته جماعة كاملة من العمّال. وحسب مزاعمه كان يمكن جمع مائة ألف رجل بين عشيّة وضحاها. عندما يصل، بادياً عليه الإنهاك، يرتمي على أريكة المقصورة، ويأخذ في تلاوة حكاياته، فيما يسجّل فلورون ملحوظاته، معتمداً عليه في تحقيق وعوده. وفي جيب هذا الأخير، كانت المؤامرة تعيش؛ تتحوّل الملحوظات إلى وقائع ومعطيات لا تناقَش تنبني عليها الخطّة برمّتها؛ فلا يتبقّى سوى انتظار الفرصة المناسبة. وكان لوغر يقول بإيماءاته المشبوبة إنّ كلّ شيء سيتمّ بسهولة شديدة.

في تلك الفترة، كان فلورون سعيداً للغاية. لم يكن يطأ الأرض، كما لو كانت تلك الفكرة بأنّه سيناضل ضدّ الشرور التي خبر معاناتها تجعله يطير. كان في سذاجة طفل وثقة بطل. ولو قال له لوغر إنّ جنيّ نصب يوليو سيهبط ليحطّ على رؤوسهم، لما فوجئ بذلك. وفي حانة السيّد لوبيغر في المساء كان ينتشي، ويتحدّث عن المعركة القادمة كحفل يُدعى إليه كلّ الرجال الشجعان. ولكن عندما كان غافار يعبث مبتهجاً بمسدّسه، يصبح مزاج شارفيه لاذعاً، ويروح يضحك ساخراً وهو يهزّ كتفيه. كان الموقف الذي يتّخذه منافسه بصفته زعيماً للمؤامرة يخرجه عن طوره، ويصيبه بالاشمئزاز من السياسة. ذات ليلة، وإذ وصل مبكّراً، وجد نفسه وحيداً مع لوغر والسيّد لوبيغر فنفّس عن مكنوناته:

- إنّه مجرّد فتى لا يفقه في السياسة شيئاً، ومن الأجدى به أن يذهب ليعمل كمعلّم للكتابة في مدرسة للفتيات... سيكون مصدر شقاء أن ينجح، لأنّه سيورّطنا آنئذٍ بالشغيلة وبأحلامه بخصوص المجتمع، ألا تريان، ذلك هو ما يتسبّب بالخسران. كفانا من هؤلاء البكّائين والشعراء الإنسانيّين، والرجال الذين يتحاضنون لدى أدنى خدش... لكنّه لن ينجح، سيتمّ اعتقاله، وهذا كلّ شيء.

لم يعترض لوغر ولا الخمّار، وتركا شارفيه يفرغ ما في جعبته.

- منذ فترة طويلة كان سيصبح عرضة للاعتقال لو كان خطيراً كما يريد أن يوحي به. أتعرفان، إنّه مثير للشفقة بقصّة عودته من معتقل كايين... أؤكّد لكم أنّ الشرطة تعرف أنّه في باريس منذ اليوم الأوّل. ولئن تركتْه في سلام، فلأنّها لا تعبأ به.

ارتعد لوغر رعدة خفيفة.

- أمّا أنا فهم يطاردونني منذ خمسة عشر عاماً، واصل عضو حركة هربير بشيء من الاعتزاز. ومع ذلك فأنا لا أتبجّح بذلك في كلّ مكان... ولن أنخرط في معركته... لا أريد أن أتركهم يقبضون عليّ مثل أحمق... ربّما يتعقبّه نصف دزينة من الوشاة سيمسكون به من عنقه يومَ تطالب به إدارة المحافظة.

- آه، يا لها من فكرة! قال السيّد لوبيغر الذي لا يتكلّم عادةً.

كان شاحباً قليلاً، وينظر إلى لوغر الذي تحتكّ حدبته بالحاجز الزجاجيّ للمقصورة.

- هذه مجرّد افتراضات، تمتمَ الأحدب.

- افتراضات إن أحببت أن تسمّيها كذلك، أجاب المعلّم الحرّ. أعرف كيف تسير مثل هذه الأمور... بأيّة حال، لن أمنح الشرطة فرصة اعتقالي هذه المرّة. أمّا أنتما فافعلا ما تريدان؛ ولكن إن استمعتما إليّ، وأنت بالأخصّ يا سيّد لوبيغر، فستتجنّب المخاطرة بحانتك، التي قد يغلقونها.

لم يستطع لوغر كبح ابتسامته. وقد كلّمهما شارفيه أكثر من مرّة بهذا الخصوص؛ ولا بدّ أنّه كان يفكّر في إبعاد الرجلين عن فلورون بإثارة خوفهما. وكان يجدهما في كلّ مرّة هادئين وواثقين، ممّا أثار اندهاشه بشدّة. ومع ذلك كان لا يزال يواظب على المجيء في المساء مع كليمنص. كانت المرأة السمراء الطويلة قد فقدت وظيفتها في سوق السمك، بعد أن طردها السيّد مانوري من العمل.

- إنّهم أنذال هؤلاء الوسطاء، زعق لوغر غير مرّة.

كانت كليمنص ملتصقة بالحاجز، تلفّ سيجارةً بأصابعها الطويلة النحيلة، وتجيب بصوت واضح:

- هذا من أصول الحرب... فنحن لم نعد متوافقين في الآراء السياسية، أليس كذلك؟ ذلك السيّد مانوري الذي يربح نقوداً بحجم جسده الضخم، مستعدّ لأن يلعق حذاء الإمبراطور. أنا لو كان لديّ مكتب، لما احتفظت به لمدّة يوم واحد موظّفاً فيه.

والحقيقة أنّ كليمنص، بروح الدعابة الثقيلة، كانت قد قامت بمزحة في أحد الأيّام، إذ وضعت على لوحة المبيعات في مواجهة أسماك الليمندة والراي المعروضة في المزاد أسماء أشهر رجال البلاط وسيّداته. تلك المزايدة على الكونتيسات والبارونات المسعّرين بثلاثين مليماً للقطعة أرعبت السيّد

مانوري بعمق. وكان غافار لا يزال يضحك منها.

- لا يهمّ، قال وهو يربّت على ذراع كليمنص، إنّك شجاعة كرجل!

كانت كليمنص قد توصّلت إلى طريقة جديدة لإعداد الرّوم السّاخن. كانت تملأ الكأس أوّلاً بالماء الساخن؛ ثمّ، بعد أن تضيف السكّر، تصبّ على شريحة الليمون الطافية مشروب الروم قطرة قطرة، بحيث لا يختلط مع الماء؛ ثمّ تشعله، وتراقب احتراقه بكلّ جدّ، وهي تدخّن ببطء ووجهها مخضرّ من لهب الكحول العالي. لكنّ ذلك كان مشروباً غالياً لم تعد قادرة على طلبه بعد أن فقدت وظيفتها. كان شارفيه ينبّهها بابتسامة ذات مغزى إلى أنّها لم تعد ثريّة. وقد صارت تتعيّش من درس في اللغة الفرنسية تعطيه في شارع ميرومينيل، في ساعة مبكّرة، لشخص يحسّن تعليمه في الخفاء حتّى عن خادمته. فأصبحت لا تطلب في المساء أكثر من كأس جعة، تشربها على مهل.

لم تعد أمسيات الحانة الزجاجية صاخبةً كما في السابق. كان شارفيه يصمت واجماً بغضب مكتوم عندما يهملونه لينصتوا لغريمه. فكرة أنّه كان يحكم المجموعة كطاغية قبل مجيء الآخر تركت في حلقه غصّة ملك مخلوع. ولئن واصل المجيء، فلحنينه لذلك الركن الضيّق حيث كان يمارس طغيانه على غافار وروبين؛ كانت حدبة لوغر نفسها تعود إليه، شأنها شأن ذراعَي ألكساندر السمينتين ووجه لاكاي الأسمر. كان يسيطر عليهم بكلمة، ويحشر آراءه في حلوقهم حشراً. ولكن ها قد صار يعاني كثيراً، وانتهى به الأمر صامتاً لا يتكلّم، مقوّساً ظهره، يصفّر وعلى وجهه تعبير من القرف، ويأنف من مجادلة الحماقات التي تُطلَق أمامه. وما كان يحبطه بالأخصّ هو الإطاحة به التي كانت تتمّ شيئاً فشيئاً دون أن يشعر بذلك. لم يكن يستطيع تفسير تفوّق فلورون عليه. أحياناً كان يقول بعد أن يكون قد أنصت إليه يتحدّث بصوته الخفيض الحزين نوعاً ما لمدّة ساعات:

- إنّه لكاهنٌ هذا الفتى، لا ينقصه سوى قلنسوة الرهبان.

كان يبدو أنّ الآخرين يتشرّبون آراءه.

كان شارفيه الذي يتعثّر بملابس فلورون المبعثرة في الحانة يتظاهر بأنّه لا يجد مكاناً يعلّق فيه قبّعته خشية أن تتّسخ. يزيح الأوراق المتناثرة ويقول إنّ المكان لم يعد مكانه منذ أصبح ذلك «السيّد» يمارس كلّ حياته داخل المقصورة. حتّى أنّه اشتكى لصاحب الحانة وسأله إن كانت المقصورة تخصّ زبوناً وحيداً أم أنّها لعموم الجمهور. كان ذلك الغزو لدولته بمثابة ضربة الرحمة بالنسبة به. صار يعدّ البشر أفظاظاً. وبدأ يشعر باحتقار للبشرية عندما يرى لوغر والسيّد لوبيغر يلفّان فلورون بنظراتهما. وكان غافار يرهقه بمسدّسه ذاك. أمّا روبين، الذي يظلّ صامتاً خلف كوب الجعة فهو يبدو له، وبشكل حاسم، أقوى رجل في المجموعة، وهو على ما يظهر يحكم على الناس وفق قيمتهم، فهو لا ينخدع بالكلمات. أمّا لاكاي وألكساندر فيؤكّدان له فكرته عن حماقة الشعب، وأنّه بحاجة إلى ديكتاتوريّة ثوريّة تحكمه لعشر سنوات حتّى يتعلّم السلوك السليم.

كان لوغر قد أعلن أنّ وحدات الحزب ستكون منظّمة بالكامل عمّا قريب. وبدأ فلورون بتقسيم المهامّ. وقتها، وبعد أمسية أخيرة ومناقشة كان شارفيه مهزوماً فيها، نهض هذا وأخذ قبّعته وقال:

- حسناً، أمسية سعيدة، ولتصدّعوا رؤوسكم بهذا النقاش إن كان يمتعكم... أمّا أنا فلست فيه، هل تفهمون؟ لم أعمل من أجل طموح أيّ شخص يوماً.

وأضافت كليمنص وهو تُحكم شدّ منديلها:

- هذه خطّةٌ بلهاء.

ولمّا كان روبين يتابعهما وهما ينصرفان بنظرة حنون، سأله شارفيه إن كان سينصرف معهما. كان لا يزال هناك قليل من الجعة في كوب روبين فاكتفى بأن صافحهما. ولم يعد الزوجان بعدها. وقد أخبر لاكاي المجموعة ذات يوم أنّ شارفيه وكليمنص يتردّدان الآن على مشرب في شارع سيربانت؛ وقد رآهما عبر إحدى نوافذه يكثران من الإيماءات بين مجموعة من الشبّان الصغار السنّ، المنتبهين لهما.

لم يستطع فلورون أن يجنّد كلود. تخيّل لوهلة أنّه يستطيع أن يُكسبه أفكاره في السياسة، وأن يجعل منه حواريّاً يساعده في مهمّته الثورية. ولكي يبدأ بذلك، اصطحبه ذات ليلة إلى حانة لوبيغر، لكنّ كلود قضّى الأمسية في تخطيط رسم لروبين بقبّعته وسترته البنّية، ولحيته المتّكئة على مقبض عكّازه. ثمّ قال وهو يغادر مع فلورون:

- لا، لا يثيرني مطلقاً ما تقولونه هنا. ربّما كان كلاماً مهمّاً، لكنّه لا يخصّني... لكن، بالمناسبة، لديكم رجل رائع، ذلك العظيم روبين. إنّه عميق كبئر، هذا الفتى... سأرجع إلى هنا مرّةً أخرى لكن ليس من أجل السياسة. سأرسم رسماً تخطيطيّاً للوغر وغافار كي أضعهما بجوار روبين في لوحة رائعة أفكّر فيها بينما أنتم تناقشون مسألة... ماذا تسمّونها؟ مسألة المجلسَين أليس كذلك؟ هل تتخيّل غافار ولوغر وروبين يتناقشون في السياسة خلف أكواب الجعة؟ سيكون ذلك أعظم نجاح في المعرض الجماعيّ السنويّ، يا عزيزي، نجاح سيحطّم كلّ شيء، ستكون تلك لوحة حديثة حقّاً.

أصاب فلورون الأسى بسبب تشكّكه السياسيّ. وقد اصطحبه إلى غرفته في الأعلى وظلّا ساهرين حتّى الثانية صباحاً في الشرفة الضيقة أمام شبح ليهال الأزرق، وراح يعظه إذ قال له إنّه لا يكون رجلاً بمعنى الكلمة إذا كان

يبدي عدم اكتراثه بسعادة بلاده. هزّ الرسام رأسه وأجاب:

- قد تكون محقّاً. أنا شخص أنانيّ. لا أستطيع حتّى أن أقول إنّني أرسم من أجل بلادي. أوّلاً خربشاتي تروّع الجميع، وثانياً أنا عندما أرسم أفكّر فقط في متعتي الشخصية. كأنّني أدغدغ نفسي وأنا أرسم، ذلك يجعلني أضحك من كلّ كياني. ماذا نفعل، لقد جُبلت على هذا، ولا أستطيع أن أقتل نفسي بسبب ذلك... ثمّ إنّ فرنسا ليست بحاجة إليّ، كما تقول خالتي ليزا... وهل تسمح لي بأن أكون صريحاً معك؟ حسناً، إذا كنت أحبّك أنت فلأنّك تبدو لي وكأنّك تمارس السياسة كما أمارس أنا الرسم. إنّك تدغدغ ذاتك يا عزيزي.

وإذ اعترض الآخر، بادره كلود قائلاً:

- دعنا من هذا، أنت فنّان على طريقتك، أنت سياسيّ حالم. أراهن أنّك تقضي الليالي ههنا تراقب النجوم متخيّلاً أنّها تذاكر اقتراع للأبدية... وفي النهاية، أنت تدغدغ نفسك بأفكارك عن العدالة والحقّ. ولذا فمن الطبيعيّ جدّاً أنّ أفكارك ورسومي تثير هلع البرجوازية... ثمّ، والكلام بيني وبينك، هل تتخيّل أنّني كنت سأستمتع بصحبة روبين كما أستمتع بصحبتك؟... آه يا صديقي، يا لك من شاعر كبير!

وبعد ذلك، أخذ يمزح قائلاً إنّ السياسة لم تعد تضايقه، وإنّه قد اعتاد عليها في المشارب ومحترفات الفنّ التشكيليّ. تكلّم عن مقهى في شارع فوفيلييه، إنّه المقهى الكائن أسفل البيت الذي تقطنه لاساريّيت. تلك القاعة ذات الدّخان الكثيف، والأرائك ذات المخمل الرثّ، والطاولات ذات الرخام المصفرّ من بقع القهوة والكحول كانت هي المكان المعتاد للقاءات شباب ليهال. هنا، يتزّعم السيّد جول عصبةً من الحمّالين وصبيان الحوانيت

والرجال ذوي السترات البيض والقبّعات المخمليّة. وهو بفوديه المزغبين النابتين على جانبي وجهه. وفي كلّ سبت كان يحلق شعره بشكل دائريّ كي يُظهر بياض رقبته، وذلك لدى حلّاق في شارع دوز ايكو، يدفع له شهريّاً. كان يريد أن يشكّل قدوة لهؤلاء الشباب عندما يلعب البلياردو، بحركاته المدروسة، إذ يمدّد فخذيه، ويقوّس ذراعيه ورجليه، ويجثو راكعاً على البساط في وضعية محدودبة تعطي ظهره كلّ بهائه. ثمّ تنتهي المباراة، ويشرعون بالنقاش. كانت مجموعة من الرجعيّين مرتادي الصالونات البرجوازية. يقرأ السيّد جول الصحف ذات الموضوعات الشيّقة المهذّبة. كان يعرف موظّفي المسارح الصغيرة، ويخاطب مشاهيرها بأسمائهم، وهو على دراية بسقطات المسرحيات التي عُرضت في العشية ونجاحاتها. لكنّه كان يعاني من ضعف في السياسة. كان مثَله الأعلى هو مورني، كما يسمّيه بكلّ بساطة. يقرأ وقائع جلسات الهيئة التشريعية، ليضحك بشدّة من أدنى كلمة لمورني. كان مورني هو من يسخر من أولئك الجمهوريّين الأوغاد! وينطلق من هذا ليعلن أنّه وحدهم الأوغاد يكرهون الإمبراطور، لأنّ الإمبراطور يرغب في سعادة كلّ الناس الأسوياء.

لقد ذهبت بعض المرّات إلى مقهاهم، قال كلود لفلورون، إنّهم طريفون هم أيضاً، بغلايينهم وهم يثرثرون عن الحفلات الراقصة في البلاط وكأنّهم من مرتاديها... وذلك الصغير صاحب لاساريت قد سخر بقوّة من غافار في تلك الأمسية. وهو يدعوه: خالي... وعندما نزلت لاساريت لاصطحابه، توجّب عليها أن تدفع حسابه. كلّفها ذلك ستّة فرنكات لأنّه خسر في لعبة البلياردو... إنّها فتاة جميلة حقاً، لاساريت تلك.

- أنت تعيش حياةً جميلةً، همس فلورون مبتسماً. كادين ولاساريت والأخريات، أليس كذلك؟

- لا، أنت لا تُحسن فهمي، أجاب كلود هازّاً كتفيه. أنا لا تلزمني امرأة، فذلك يزعجني كثيراً. أنا لا أعرف حتّى فيم تنفع المرأة؛ دائماً ما كنت أخشى التجربة... عِمْ مساءً، نم جيّداً. إن صرتَ ذات يوم وزيراً فسأعطيك خطّةً لتجميل باريس.

وتخلّى فلورون عن فكرة تحويله إلى تلميذ مطيع. وقد أسف لذلك، فعلى الرغم من عماء المتعصّب لديه، فقد أمسى يرى العدوانية تتعاظم حوله في كلّ ساعة. حتّى في منزل آل ميهودان، صار يجد استقبالاً فاتراً؛ العجوز تضحك منه سرّاً، وموش لم يعد يطيعه، والنورماندية الجميلة تنظر له بنفاد صبر فظّ، بعد أن تقرّب مقعدها من مقعده دون أن تفلح في إخراجه من بروده. قالت له ذات مرّة إنّه يبدو عليه الاشمئزاز منها، وهو لم يردّ سوى بابتسامة خجلى فذهبت هي لتجلس على الطرف الآخر من المائدة. كان قد فقد حتّى صداقة أوغست. لم يعد صبيّ الجزّار يدخل لديه في الغرفة عندما يصعد لينام. لقد أفزعته تلك الضجّة المثارة حول الرجل الذي كان فيما سبق يجرؤ على السهر معه بغرفته حتّى منتصف الليل. وقد جعلته أوغستين يُقسم ألّا يرتكب مثل تلك الحماقة مرّةً أخرى. ونجحت ليزا في إثارة غضبه إذ طالبتهما بتأجيل زواجهما طالما أنّ ابن العم لم يترك الغرفة العلويّة. لم تكن ترغب في إعطاء مقصورة الطابق الأوّل لفتاة حانوتها الجديدة. ومن ذلك الوقت وأوغست يتمنّى أن «يعتقلوا المجرم». كان قد عثر على حانوت جزارة أحلامه، ليس في بليزانس وإنّما أبعد قليلاً في مونروج. وقد صار شحم الخنزير مربحاً من جديد، وقالت أوغستين إنّ الحانوت صار جاهزاً وهي تضحك الضحكة الصبيانية، ضحكة فتاة سمينة. وكان، كلّ ليلة، يستيقظ مع أدنى ضجة ويبتهج مخدوعاً إذ يتخيّل الشرطة تقبض على فلورون.

وفي منزل آل كونو غراديل لم يعد أحد يتكلّم عن هذه الأشياء. فَرَضَ

اتّفاق ضمنيّ بين العاملين طوقاً من الصمت حول كونو. وكان الأخير، وقد أحزنته نوعاً ما الخصومة بين أخيه وزوجته، يجد عزاءه في الانهماك في حشو السجق وتمليح شحم الخنزير. كان يخرج أحياناً على عتبة الحانوت ليعرض وجهه الحمراء التي تبتسم وسط بياض صدريّته المتمدّدة بفعل كرشه، دون أن ينتبه للأقاويل المتعارضة التي يُثيرها ظهوره بين أهل ليهال. بعضهم يشفق عليه، ويعتقد أنّه فقد الكثير من وزنه، على الرغم من ضخامة حجمه؛ وآخرون، بالعكس، يلومونه على احتفاظه بسمنته في وجود أخ له مثل ذاك. وهو، كالزوج المخدوع الذي يكون دائماً آخر من يعلم، يغطّ في سعادته غافلاً عن كلّ ذلك، عندما يوقف إحدى الجارات على الرصيف كي يسألها عن رأيها في جبنه الإيطالي أو في لحم رؤوس الخنزير التي يبيعها. كانت الجارة تتّخذ سمتاً مُشفقاً، وتبدو وكأنّها تقدم له العزاء، كما لو كانت كلّ خنازير حانوته قد أصابها داء اليرقان.

- لماذا ينظرن إليّ كلّهن وكأنّني في جنازة؟ سأل ليزا يوماً. هل ترينني شاحباً إلى هذا الحدّ؟

طمأنته قائلةً إنّه يبدو نضراً كوردة؛ ولأنّه كان يخشى الأمراض بشكل رهيب، فقد كان ينوح ويدمّر كلّ ما في بيته لدى إصابته بأدنى وعكة. ولكنّ الحقيقة كانت أنّ حانوت كونو غراديل الكبير قد صار مُعتماً: المرايا فقدت بريقها، واكتسب الرخام بياضاً جليديّاً، وصارت اللحوم المطهوّة ترقد في واجهة العرض في بحيرات من الدهن الأصفر المجمّد. حتّى أنّ كلود قد دخل ذات يوم إلى خالته ليخبرها بأنّ واجهة العرض تبدو «في حال يُرثى لها». كانت ألسنة ستراسبورغ المحشوّة تتّخذ شحوب الألسنة المريضة، وأفخاذ الخنزير بهيآتها الضامرة الصفراء تعلوها شرّابات خضراء باهتة اللون. ولم يعد الزبائن في الحانوت يطلب كلّ منهم شريحة من المسوَّد، أو شحم خنزير

بقدر عشرة مليمات، أو نصف أوقية من السمن دون أن يخفضوا أصواتهم كما لو كانوا في غرفة شخص محتضر. كان دائماً هناك امرأتان أو ثلاث من البكّاءات أمام الموقد البارد. وليزا الجميلة تنكر حالة الحداد التي تسيطر على الحانوت باعتزاز صامت. تترك صدريّتها البيضاء تنساب على ثوبها الأسود بشكل أكثر أناقة. كانت يداها النظيفتان والمشدودتان عند الرسغين بكُمّين عريضين، ووجهها الذي يضفي عليه حزنها المهذّب جمالاً إضافياً، تقول بوضوح لكلّ الحيّ ولكلّ الفضوليّين الذين يتقاطرون من الصباح للمساء إنّها وزوجها يعانيان رزءاً لا يستحقّانه، ولكنّها تعرف أسبابه وسوف تستطيع التغلّب عليه. وأحياناً كانت تنحني، لتَعِدَ السمكتين السابحتين في الحوض المثبّت في واجهة العرض بأيّام أفضل من تلك، وقد أصابهما القلق بدورهما. لا تسمح ليزا الجميلة لنفسها سوى بالمباهج الصغيرة. تربّت دون خوف على ذقن مارجولان الحريريّ. كان قد خرج من المشفى وقد رمّموا جمجمته، سميناً كما كان، ومبتهجاً أيضاً، ولكن أحمق، لا بل أشدّ حمقاً منذ ذي قبل، أبله تماماً. لا بدّ أنّ انفلاق جمجمته قد وصل حتّى مخّه. عاد مثل بهيمة، له طيش صبيّ ابن خمس سنوات في جسد عملاق. يضحك، ويتلعثم، لم يعد يحسن نطق الكلمات. يذعن بوداعة حَمَل. استولت عليه كادين بكامله، مندهشة في البداية، ثمّ سعدت كثيراً بذلك الحيوان الرائع الذي تفعل به ما يحلو لها. كانت تنيمه في سلال الريش، وتصطحبه ليتسكّعا ويلهوا معاً، وتستغلّه كما يروقها، فتعامله كمثْلِ كلب، أو دمية، أو عشيق. كان لها مثل قطعة حلوى، رقعة سمينة من ليهالَ، جسماً أشقر تستهلكه بحيل امرأة بالغة المكر. وعلى الرغم من أنّ الصغيرة تحصل منه على كلّ شيء وتجعله يتبعها مثل عملاق مدجّن، فإنّها لم تكن تستطيع منعه من العودة إلى السيّدة كونو. ضربته ذات يوم بقبضتيها مغتاظة من ذلك دون أن يبدو عليه أيّ إحساس.

ما إن تُعلّق زهورها في عنقها وتجول ببنفسجاتها في شارع بون نوف أو شارع توربيغو، حتّى يذهب ليتسكّع أمام حانوت الجزارة.

- ادخل إذن، تصيح به ليزا.

وغالباً ما تُعطيه بعض المخلّلات. فهو يعشقها، ويأكلها بضحكته البريئة أمام منضدة البيع. إنّ رؤية الجزّارة الحسناء تبهجه، تجعله يصفّق بيديه من الفرح، ثمّ يتقافز صائحاً كطفل وجد نفسه أمام شيء جميل. كانت تخشى في الأيّام الأولى أن يتذكّر.

- ألا يزال رأسك يؤلمك؟ تسأله.

فيجيب بأنْ لا باهتزاز كامل جسده، متفجّراً بمرح صاخب. فتعاود هي بهدوء:

- إذن فقد سقطتَ؟

- نعم، سقطتُ سقطتُ سقطتُ، ينشد لها بنبرة من الرضا الكامل، وهو ينقر على رأسه.

ثمّ، بجذلٍ حقيقيّ، يردّد وهو ينظر إليها كلمة «جميلة، جميلة، جميلة» بنغم أكثر تباطؤاً. وكان ذلك يمسّ مشاعر ليزا بقوّة. كانت قد طلبت من غافار الإبقاء عليه. كان ذلك عندما أنشد لها أنشودة هيامه. ربّتت على ذقنه، قائلة له إنّه طفل طيّب. وتناست كفّها هناك دافئة بفرح سرّي؛ كانت تلك اللمسات قد أصبحت متَعاً حلالاً، علامات مودّة يتقبّلها الصبيّ العملاق بكلّ طفوليّة. كان ينفخ عنقه قليلاً، ويغلق عينيه، كحيوان يداعبونه. وكانت الجزّارة الحسناء كي تبرّر لنفسها المتع الحلال التي تحصل عليها معه، تقول إنّها تعوّضه بذلك عن اللكمة التي سدّدتها له في قبو الدواجن.

وفي ذلك الوقت، ظلّ الحانوت حزيناً. وكان فلورون لا يزال يمرّ عليه في بعض الأوقات، فيصافح أخاه وسط الصمت الجليديّ لليزا. بل إنّه كان يذهب للعشاء معهم على فترات متباعدة، في أيّام الآحاد. وكان كونو وقتها يبذل مجهوداً كبيراً ليسبغ على جوّ الوجبة دفئاً ما ولكن دون فائدة. لم يكن يأكل بما يكفي، ويغضب في النهاية. في إحدى الأمسيات، بعد أحد هذه الاجتماعات العائلية الباردة، قال لزوجته وهو يكاد يبكي:

- ما الذي دهاني! ألستُ مريضاً فعلاً، ألا تجدينني في حال مختلفة؟... كما لو كنت أعاني من ثقل في مكان ما. وحزين فوق ذلك، دون أن أعرف لماذا... ألا تعرفين أنتِ؟

- لا بدّ أنّها وعكة، تجيب ليزا.

- لا، إنّ الأمر مستمرّ منذ فترة طويلة، وذلك يخنقني... ومع ذلك، فإنّ أعمالنا لا تسير على نحو سيّئ، وما من شيء محزن، وأرى إيقاع الحياة منتظماً... وأنت أيضا يا عزيزتي، لستِ على ما يرام، يبدو وكأنّ الحزن يستولي عليكِ... إن استمرّ الوضع هكذا، فسأحضر الطبيب.

نظرت له الجزّارة الحسناء بجدّ بالغ.

- لا حاجة للطبيب، قالت. كلّ ذلك سيمضي... ألا ترى، هناك ريح سيّئة تضرب الحيّ في هذا الوقت، والكلّ هنا مرضى.

ثمّ قالت مستسلمة لحزن أموميّ:

- لا تقلق يا عزيزي... لا أريد لك أن تسقط مريضاً، ذلك سيكون فوق الاحتمال.

كانت تعيده في الغالب إلى المطبخ فهي تعرف أنّ ضجيج الفرّامات

وأغاني الدسم وضوضاء القدور تعيد له بهجته. من ناحية أخرى كان قد صارت تتحاشى على هذا النحو تطفّلات الآنسة ساجيه التي باتت تقضي في حانوتها نهارات بكاملها. كانت العجوز قد أخذت على عاتقها أمر إفزاع ليزا، لدفعها لاتّخاذ قرار متطرّف. وفي البداية كانت قد حازت ثقتها.

- آه، كم هناك من الناس الأشرار! قالت لها يوماً، أوَ ليس من الأفضل لهؤلاء أن يهتمّوا بشؤونهم الخاصّة... آه لو تعرفين يا عزيزتي السيّدة كونو... لا لن أجرؤ على أن أحكي لك ذلك.

وإذ قالت لها الجزّارة إنّ ذلك لن يمسّها، فهي فوق الأقاويل، فهمست الأخرى في أذنها من فوق لحوم منضدة البيع:

- حسناً، هم يقولون إنّ السيّد فلورون ليس ابن عمّك...

وشيئاً فشيئاً أبدت لها علمها بكلّ التفاصيل. ولم تكن تلك إلّا وسيلة لتضع ليزا تحت رحمتها. وعندما صارحتها تلك بكلّ الحقيقة وفقاً لخطّة تجعل تحت يدها هذه التي سوف تُطلعها على ثرثرات أهل الحيّ عنها، أقسمت العانس العجوز أنّها لن تفتح فمها بكلمة، وأنّها ستنكر الأمر ولو وضعوا رأسها تحت المقصلة. هذا في حين باتت مستمتعة بتلك الدراما بعمق. وأخذت تضخّم الأخبار المقلقة كلّ يوم.

- لا بدّ أن تأخذي حذرك، همست لها. لقد سمعت في سوق الكروش والكراعين امرأتين تتحدّثان عمّا تعرفين. ولا أستطيع أن أقول للناس إنّهم مضلّلون. أنتِ تفهمين. سيبدو ذلك غريباً... الأمر ينتشر وينتشر، ولا شيء يوقفه. لا بدّ أن ينفجر ذات يوم.

بعدها بأيّام، شنّت أخيراً هجومها الكبير. لقد جاءت مرتعبةً، وانتظرت مبديةً علامات نفاد الصبر أن يخلو الحانوت من الناس، وقالت بصوت خفيض:

- هل تعرفين ماذا يقولون... إنّ هؤلاء الرجال الذين يجتمعون عند السيّد لوبيغر، لديهم جميعاً بنادق وهم في انتظار أن يعيدوا ما حدث في 1848. أوَ ليس من المحزن أن نرى سيّداً ثريّاً وذا مكانة كغافار يضع نفسه وسط هذه الغوغاء!... رغبت في تحذيرك بسبب أخي زوجك.

- هذه سخافات، الأمر ليس جادّاً، قالت ليزا مستفزّةً إيّاها.

- ليس جادّاً! شكراً! في المساء يكفي المرور بشارع بيرويت لسماعهم يطلقون صرخات مخيفة. هم لا يتعبون. تذكرين جيّداً أنّهم حاولوا توريط زوجك معهم... وهناك خراطيش الرصاص التي أراهم يصنعونها من نافذتي، وتقولين إنّها سخافات؟... في النهاية أنا أقول هذا لمصلحتك.

- بالطبع وأنا أشكرك على هذا، لكنّ الناس يختلقون أشياء كثيرة.

- للأسف هذه القصّة غير مختلقة، كلّ الحيّ يتكلّم عنها. يقولون إنّ الشرطة إذا اكتشفتهم فسيتورّط أشخاص كثيرون، ومن بينهم السيّد غافار.

هزّت الجزارة كتفيها استهانة كما لو كانت تقول إنّ السيّد غافار هو أخرق في الأصل، وإنّهم يحسنون صنعاً إذا اعتقلوه.

- أقصد السيّد غافار والآخرين أيضاً، صهرك مثلاً، قالت العجوز بمكر. يبدو إنّه هو الزعيم. إنّه أمر مزعج بالنسبة لكم. وأنا أشفق عليكم كثيراً، لأنّ الشرطة إذا جاءت إلى هنا فمن الجائز أن تعتقل السيّد كونو بدوره. فالأخوة متشابهون كأصابع اليد الواحدة.

غمغمت ليزا الجميلة مستنكرةً وقد امتقع وجهها. لقد مسّت الآنسة

ساجيه هواجسها في الصميم. واعتباراً من ذلك اليوم، لم تعد تحمل لها سوى قصص عن أناس أبرياء أُلقي بهم في غياهب السجون لأنّهم آووا مجرمين. في المساء عندما تذهب لتأخذ مشروبها من عند تاجر النبيذ، كانت تؤلّف ملفّاً جديداً لصباح اليوم التالي. لم تكن روز ثرثارة بأيّ حال. فكانت العجوز تعتمد على عينيها وأذنيها. وقد لاحظت جيّداً حنان السيّد لوبيغر على فلورون، وعنايته في استضافته لديه، واللطف الذي يلقاه ذلك الفتى، والذي لا تعوّضه المشروبات القليلة التي يتناولها في حانته. كان ذلك يُدهشها، لا سيّما وأنّها تعرف موقف الرجلين حيال النورماندية الحسناء.

- كأنّه يربّيه كما تُسمّن الدواجن... لمن يا ترى يريد بيعه؟

وذات ليلة، وإذ كانت في الحانة، رأت لوغر يلقي بنفسه على أريكة المقصورة، وهو يتكلّم عن رحلاته عبر الضّواحي، وعن إرهاقه الشديد من ذلك على حدّ زعمه. فنظرت مليّاً إلى قدميه. لم يكن على نعليه ذرّة من الغبار. فابتسمت في سرِّها، وحملت مشروبها وشفتاها مزمومتان.

ثمّ كانت لاحقاً وراء نافذتها تكمل تحقيقها، تلك النافذة الشديدة الارتفاع والتي تُحكم سيطرتها على البيوت المجاورة، وتزوّدها بمتع لانهائية. وهي تقبع خلفها طوال اليوم، كما لو كانت في مرصد ترقب من خلاله الحيّ بكامله. بدايةً كلّ الغرف المواجهة وعلى اليمين واليسار كانت مألوفة لديها، بأدقّ تفاصيل أثاثها، وبإمكانها أن تسرد، دون أن تفوتها فائتة، عادات المستأجرين، وهل تدبيرهم المنزليّ حسن أم سيّئ، كيف يغتسلون، وماذا يأكلون في عشائهم، بل كانت تعرف حتّى من يزورونهم. ثمّ إنّها كانت تشكّل لها منفذاً على ليهال، بحيث إنّه ما من امرأة من أهل الحيّ تستطيع عبور شارع رامبوتو دون أن تراها هي. كانت تخمّن دون أن تخطئ من أين تأتي المرأة وإلى أين هي ذاهبة، وما الذي تحمله في سلّتها، وقصّتها، وزوجها،

وزينتها، وأطفالها، ومقدار ثروتها. هذه هي السيّدة لوريه، لقد علّمت ابنها تعليماً جيداً؛ وهذه هي السيّدة أوتان امرأة فقيرة قصيرة يهملها زوجها؛ وهذه هي الآنسة سيسيل، فتاة الجزّارة، طفلة من الصعب أن تتزوّج لأنّ طباعها باردة. وقد تستمرّ لأيّام، تدبّج الجمل الفارغة، وتستمتع بشكل مذهل في ترتيب قصص صغيرة بدون أيّة فائدة. ولكن اعتباراً من الثامنة مساءً، لا ترتكز عيناها إلّا على النافذة ذات الزجاج المغبّش والتي ترتسم عليها الخيالات السّود لزبائن المقصورة. وقد لاحظت انشقاق شارفيه وكليمنص، لغياب خياليهما النحيفَين عن الشفافية المغبشة للنافذة. ما من حدث يمرّ على المكان إلّا وتخمّنه، باكتشافها للحركات المفاجئة للأذرع والرؤوس التي تظهر صامتة. أصبحت بارعةً جدّاً في تفسيرها للأنوف الممتدّة، والأصابع المتباعدة، والأفواه الفاغرة والأكتاف المزدرية، متتبّعةً بهذه الطريقة المؤامرة خطوة خطوة إلى الدرجة التي تستطيع معها أن تحكي كلّ يوم أين وصلت الأمور. وذات ليلة بدت لها الخاتمة العنيفة. فقد رأت خيال مسدّس غافار، صورة جانبية ضخمة للسلاح، شديد السواد على شحوب الزجاج، بشدقه ممدوداً إلى الأمام. كان المسدّس يروح، ويجيء ويتعدّد. كانت تلك هي الأسلحة التي أخبرت عنها السيّدة كونو. وفي ليلة تالية، لم تعد تفهم، فتخيّلت أنّهم يصنّعون طلقات، إذ كانت ترى شرائط من القماش تتمدّد إلى مالا نهاية. وفي اليوم التالي، نزلت في الحادية عشرة مساءً بحجّة استعارة شمعة من روز، وبطرف عينها لمحت على طاولة المقصورة كومة من القماش الأحمر بدت لها مخيفةً للغاية، فكان لملفّ حكاياتها في اليوم التالي خطورة حاسمة.

- لا أريد أن أفزعك يا سيّدة كونو، قالت، لكنّ الأمر أصبح رهيباً... إنّي أخاف، عِديني بألّا تردّدي ما ستسمعينه أبداً، فقد يقطعون رأسي إن عرفوا.

ولمّا أقسمت لها الجزّارة أنّها لن تفعل، حكت لها عن الأقمشة الحمراء.

- لا أعرف ماذا يمكن أن يكون ذلك. كان هناك كومة كبيرة منها. كما لو كانت أقمشة مغمورة في الدم... لوغر، الأحدب الذي تعرفين، وضع إحداها على كتفيه، فبدا في هيئة جلّاد. لا بدّ أنّها مكيدة أخرى.

لم تردّ ليزا، وبدت تفكّر، وقد خفضت عينيها تلهو بمقبض شوكة، وتنظّم قطع المملّحات الصغيرة في أطباقها. فواصلت الآنسة ساجيه بصوت منخفض:

- أنا لو كنت في مكانك لما ظللت صامتةً، كنت سأرغب في أن أعرف... لماذا لا تصعدين إلى غرفة أخي زوجك وتفتّشينها؟

انتابت ليزا رعشة خفيفة. تركت الشوكة، ورمقت العجوز بنظرة متوجّسة، معتقدةً أنّها تكشف نواياها. ولكنّ العجوز أكملت:

- ذلك من حقّك في النهاية... فأخو زوجك قد يذهب بكم بعيداً لو تركتِه يفعل... بالأمس كنّا نتحدّث عنك بصحبة السيّدة تابورو. لديك هنا صديقة مخلصة. قالت السيّدة تابورو إنّك طيّبة للغاية، وإنّها لو كانت في مكانك لوضعت حدّاً لكلّ ذلك منذ وقت طويل.

- هل قالت السيّدة تابورو ذلك؟ همست الجزّارة وهي سارحة بأفكارها.

- بالتأكيد، والسيّدة تابورو من النساء اللائي يمكن الإصغاء إليهنّ... احرصي إذن على أن تعرفي ما هي تلك الأقمشة الحمراء. ستقولين لي حينذاك، أليس كذلك؟

لكنّ ليزا كانت قد توقّفت عن الإصغاء إليها. كانت تحدّق بنظر غائم بمنتجات الألبان الصغيرة وصناديق الحلازن عبر أكاليل النقانق المعلّقة في

واجهة العرض. كانت تبدو مستغرقةً في صراع داخليّ يرسم على وجهها الصامت تغضّنات رقيقة، فيما كانت العانس العجوز تتشمّم الصحون المعروضة على طاولة البيع. همست وكأنها تكلّم نفسها:

- هناك بعض سجق السلامي المقطَّع... لا بدّ أنّه سيبيس، لا يقطَّع السجق مسبقاً... وذلك المسوَّد المثقوب، لقد اخترقته شوكة بالتأكيد، لا بدّ من إزالته، إنّه يلوّث الصحن.

أعطتها ليزا دون أن تفارق شرودها المسوَّد ودوائر السلامي، وقالت لها:

- إنّها لك، إن كان ذلك يسعدك.

واختفت كلّ تلك الأشياء في سلّتها. كانت الآنسة ساجيه معتادة على مثل تلك الهدايا التي لا تقابلها حتّى بالشكر. كلّ صباح تأخذ معها بقايا حانوت جزارة الخنزير آملةً في أن تجد تحليتها لدى لاسارييت أو السيّدة لوكور وهي تحكي لهما عن غافار.

وعندما صارت الجزّارة وحدها، جلست على الأريكة خلف منضدة البيع، حتّى ترتاح فتحسن اتّخاذ قرارها. منذ ثمانية أيّام وهي متوجّسة للغاية. ذات مساء طلب فلورون من كونو خمسمائة فرنك، بشكل طبيعيّ كرجل له حساب مفتوح. فأرسله كونو إلى زوجته. وقد ضايقه ذلك، واضطرب قليلاً وهو يتوجّه بطلبه إلى ليزا الجميلة. ولكنّها، ودون أن تنبس ببنت شفة، ودون أن تحاول أن تعرف فيمَ سيستخدم النقود، صعدت إلى غرفتها، وأعطته الخمسمائة فرنك. فقط قالت له إنّها سجّلتها في حساب الميراث. وبعدها بثلاثة أيّام أخذ ألف فرنك أخرى.

- لم يكن هناك داعٍ ليمثّل دور الزاهد، قالت ليزا لكونو، في المساء بينما يتأهّبان للنوم. هل ترى، لقد أحسنتُ صنعاً بالاحتفاظ بتلك

الحسابات... انتظر، فأنا لم أسجّل الألف فرنك التي أخذها اليوم.

وجلست أمام المكتب الصغير، وأعادت قراءة صفحة الحسابات، ثمّ أضافت:

- كان معي حقّ إذ تركت مساحة بيضاء في الصفحة. سوف أدوّن تلك الأقساط التي أخذها في الهامش... سوف يبدّد كلّ شيء على دفعات صغيرة... إنّي أنتظر هذا منذ فترة طويلة.

لم يقل كونو شيئاً، ونام وهو في مزاج عكر جدّاً. وفي كلّ مرّة تفتح زوجته فيها مكتب محاسَبتها، كانت يندّ عنها صوت أشبه بالصرخة التي تمزّق نياط قلبه. وقد قرّر أن يوجّه تحذيراً لأخيه، أن يمنعه من تدمير نفسه وماله مع آل ميهودان؛ لكنّه لم يجرؤ على ذلك. طالب فلورون بعد يومين بألف وخمسمائة فرنك أخرى. كان لوغر قد قال ذات ليلة إنّه إن توافرت النقود فإنّ الأمور ستسير بوتيرة أسرع. وفي اليوم التالي أدهشه أنّ تلك الكلمة التي ألقاها هكذا في الهواء قد وقعت بين يديه على هيئة لفافة من الذهب، وضعها في جيوبه وهو يهنف وحدبته تتقافز من الفرح. ومن وقتها صارت طلباته متواصلة: هذه الوحدة بحاجة إلى استئجار مقرّ، وتلك الوحدة بحاجة إلى دعم بعض الوطنيّين المعوزين؛ وكان هناك أيضاً مشتريات لأسلحة وذخائر، واكتراء خدمات، ومصاريف للشرطة. كان فلورون سيعطي كلّ شيء. وكان قد تذكّر ميراثه، ونصائح النورماندية. كان يغترف من مكتب محاسَبة ليزا ولا يجعله يحجم سوى خوفه الصامت من وجهها المتجهّم. كان مؤمناً أنّه لن يجد قضيّة أكثر قدسيّة من هذا لإنفاق نقوده. وكان لوغر من فرط حماسه يرتدي ربطات عنق وردية مدهشة وجزمتين برّاقتين اغتمّ لاكاي لرؤيتها.

- صار مجموع ما أخذ أخوك ثلاثة آلاف فرنك في أسبوع واحد، قالت

ليزا لكونو. ما قولك؟ ذلك أمر جميل، أليس كذلك؟... إن استمرّ بهذه الوتيرة فإنّ الخمسين ألف فرنك التي له ستنتهي في غضون أربعة شهور على الأكثر... والفقيد غراديل قضّى أربعين عاماً في جمع ثروته!

- أنت المخطئة! صرخ كونو. لم يكن هناك داعٍ لأن تخبريه بأمر الميراث أصلاً.

حدجته بنظرة قاسية وقالت له:

- إنّها من حقّه، وبإمكانه أن يأخذها كلّها... إنّ إعطاءه النقود لا يزعجني بقدر ما تزعجني معرفة الاستخدام الشرّير لها... لقد قلت لك من فترة بعيدة: لا بدّ أن ينتهي هذا.

- تصرّفي كما يحلو لك، لست أنا من يمنعك، قال كونو الذي كان يعذّبه البخل.

كان يحبّ أخاه مع ذلك، ولكنّ فكرة تبديد خمسين ألف فرنك في أربعة شهور بدت له غير محتملة. وكانت ليزا قد خمّنت في ضوء ثرثرات الآنسة ساجيه أين تذهب النقود. وكانت العجوز، بعد إشارة عابرة إلى موضوع الميراث، قد انتهزت الفرصة لتنشر في الحيّ أنّ فلورون يأخذ حصّته ويبدّدها كيفما يشاء. وفي اليوم التالي جعلتها قصّة الأقمشة الحمراء تتّخذ قرارها. ظلّت للحظات تعاني صراعها الداخليّ، وتتأمّل المظهر الحزين للحانوت؛ الخنازير المعلّقة بشكل مثير للأسى؛ القطّ موتون الجالس بقرب وعاء للدهن شعره مشعّث ونظرته مغتمّة مثل قطّ يعاني عسر الهضم. نادت آنئذ على أوغستين لتحلّ محلّها خلف منضدة البيع، وصعدت إلى غرفة فلورون.

وفي الأعلى، انتابتها رعدة لدى دخولها الغرفة. كانت الرقة الطفوليّة للسرير غارقة تحت مجموعة من الأوشحة الحمراء تتدلّى حتّى الأرض. وعلى

المدفأة، بين العلب المذهبة وآنية المراهم القديمة كان ثمّة أشرطة سواعد حمراء مبعثرة، مع شارات تبدو كمثْلِ بُقَع كبيرة من الدم. وعلى كلّ المسامير المغروسة في ورق الحائط ذي اللون الرماديّ الحائل عُلّقت أنسجة تزيّن الجدار، أعلام مربّعة، صفراء وزرقاء وخضراء وسوداء عرفت ليزا فيها رايات الفرَق العشرين. كانت طفولية الغرفة ترتعد من الخوف تحت هذا البهرج الثوريّ. الجوّ البريء الساذج الذي كانت فتاة الحانوت قد تركته هناك في بياض الستائر والأثاث بدا وكأنّ وهجاً للحريق ينعكس عليه. وبدت صورة أوغست وأوغستين الفوتوغرافية ممتقعة جدّاً من الرعب. جالت ليزا في المكان، وفحصت الشارات والأعلام والأوشحة دون أن تلمس شيئاً كما لو كانت تخشى أن تحرقها هذه الخرَق. فكّرت أنّها لم تكن مخطئة وأنّ النقود قد أُنفقت على هذه الأشياء. كان ذلك بالنسبة لها أمراً مقيتاً، لا يكاد يُفهَم ويرجّ كيانها بكامله. نقودها، تلك النقود التي ربحتها بكلّ شرف، تُستخدَم في تمويل الشغب وتنظيمه! ظلّت واقفةً ترى الزهور المتفتّحة لشجيرة الرمّان في الشرفة، كباقي الشارات النازفة، وتسمع تغريد طائر الشرشور كصدى بعيد للعلعة الرصاص. فخطر لها أنّ التمرّد لا بدّ أنّ يندلع في اليوم التالي، أو ربّما في المساء. كانت الرايات تملأ الفضاء والأوشحة تتتابع، ودقّات طبول تصمّ أذنيها. نزلت سريعاً، ودون حتّى أن تتطلّع إلى الأوراق المبسوطة على المكتب. وتوقّفت في الطابق الأوّل، وارتدت ثيابها.

في تلك الساعة الحسّاسة، صفّفت ليزا الجميلة شعرها بعناية. كانت في غاية التصميم وبلا أدنى تردّد، وبقسوة أكبر في عينيها. وبينما كانت تشبك ثوبها الحريريّ الأسود وتشدّ نسيجه على جسدها بكلّ قوّة يديها، تذكّرت كلام الأب روستان. تساءلت حول الأمر فأخبرها ضميرها بأنّها مُقدِمة على تأدية واجب. وعندما وضعت شالها المزخرف على كتفيها القويّتين شعرت

بأنّها تؤدّي عملاً على قدر كبير من النزاهة. ارتدت قفّازين بلون بنفسجيّ داكن، ووضعت في قبّعتها زهرة بنفسج كبيرة. وقبل أن تخرج أغلقت المكتب الصغير بدورتين للرتاج، وكلّها أمل، كأنّها تقول له إنّه يستطيع أخيراً النوم في سلام.

كان كونو يعرض كرشه الأبيض على عتبة الحانوت. وقد فوجئ بخروجها في كامل زينتها في العاشرة صباحاً.

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا ترى؟

واخترعت قصّة حول شأن تقضيه مع السيّدة تابورو. وأضافت أنّها ستمرّ على مسرح لاغيتيه كي تحجز أماكن هناك. وركض كونو ليذكّرها وينصحها بأن تحجز أماكن في المقدّمة من أجل مشاهدة أفضل. وعندما عاد، ذهبت إلى موقف العربات على امتداد رصيف شارع سانت أوستاش، وصعدت إلى عربة أجرة صغيرة خفضت غطاءها وطلبت من الحوذيّ أن يذهب بها إلى مسرح لاغيتيه. كانت تخشى أن يتبعها أحدهم. وعندما حصلت على تذاكر المسرح، توجّهت نحو قصر العدالة. وهناك، عند السياج، دفعت أجرة العربة وصرفتها. وبهدوء وعبر القاعات والممرّات وصلت إلى مخفر الشرطة.

وإذ تاهت وسط الهرج والمرج الصادرين عن الدركيّين ورجال في حلّات ضافية، أعطت عشرة مليمات لأحد الرجال فقادها إلى مقصورة قائد الشرطة. ولكن كان يلزمها طلب مقابلة مفصّل قبل الدخول إلى المحافظ. فأدخلوها إلى غرفة ضيّقة لها فخامة فندق مزخرف، حيث استقبلها بعبوسٍ باردٍ شخصٌ سمين وأصلع بملابس سوداء. وأخذت تتكلّم. رفعت الوشاح عن وجهها، وقالت اسمها، وحكت كلّ شيء، بصراحة ودفعة واحدة. استمع

إليها الشخص بهيئته الملول، دون أن يقاطعها. وعندما انتهت، سألها فقط:

- أنت زوجة أخي ذلك الرجل، أليس كذلك؟

- نعم، أجابت ليزا بوضوح. نحن أناس شرفاء... لا أريد لزوجي أن يكون متورّطاً في هذا الأمر.

فهزّ كتفيه وكأنّه يقول إنّ كلّ ذلك مضجر جدّاً. ثمّ قال بنفاد صبر:

- أتعرفين، إنّهم يرهقونني بهذا الشأن منذ أكثر من عام. يقدّمون لي تبليغاً تلو الآخر، ويدفعونني ويتعجّلونني. هل تفهمين، أنا لا أتصرّف لأنّني أفضّل الانتظار. لدينا أسبابنا. هاك، ها هو الملفّ. بإمكاني أن أريك إيّاه.

ووضع أمامها حزمةً ضخمةً من الأوراق داخل مغلّف أزرق. أخذت تقلّب الصفحات التي كانت بمثابة الفصول المبعثرة للقصّة التي فرغت للتوّ من روايتها. مخافر شرطة الهافر وروان وفيرنون تبلّغ عن وصول فلورون. ثمّ يأتي تقرير يتكلّم عن استقراره عند آل كونو غراديل. ثمّ التحاقه بليهال، ونمط عيشه، وسهراته في حانة لوبيغر، لم يُهمَل تفصيل واحد. وقد دهشت ليزا إذ لاحظت أنّ التقارير مزدوجة، إذ لا بدّ أنّها جاءت من مصدرين مختلفين. وفي النهاية وجدت حزمة من الخطابات، خطابات من مجهولين بكلّ الأحجام وكلّ أشكال الخطوط. وقد عرفت بينها خطّ يد الآنسة ساجيه الذي يشبه خربشات القطط، وهي تُبلغ عن مجموعة المقصورة الزجاجيّة، وعرفت ورقة كبيرة ملوّثة بالدهن عليها خطّ السيّدة لوكور الذي يشبه العصيّ الكبيرة، ثمّ صفحة باردة مزيّنة بزهرة صفراء ومحشوّة بخربشات لاساربيت والسيّد جول. والخطابان يحذّران الحكومة ويحثّانها على الانتباه للسيّد غافار. وقد عرفت أيضاً الأسلوب البذيء للأمّ ميهودان التي كرّرت على مدار أربع

صفحات بخطّ شديد الرداءة الحكايات العبثية التي يردّدونها عن فلورون في ليهال. لكنها تأثّرت أكثر لدى رؤيتها إيصال مبيعات من حانوتها يحمل في أعلاه وبالحروف الكبيرة كلمات: «جزارة خنازير كونو غراديل»، وعلى قفاه كان أوغست يبيع قد وشى بالرجل الذي كان هو يعتبره عائقاً في سبيل زواجه.

كان المسؤول قد وضع الملفّ أمام عينيها لغرض في نفسه.

- ألم تعرفي أيّاً من هذه الخطوط؟ سألها.

فغمغمت أنْ لا. ثمّ نهضت. وظلّت واجمة من تأثير كلّ ما اطّلعت عليه، وأسدلت الوشاح على وجهها مرّة أخرى تُخفي الاضطراب البادي عليها. كان ثوبها الحريريّ يصدر حفيفاً؛ وقفّازاها الداكنان يختفيان تحت شالها الكبير. ابتسم الرجل الأصلع ابتسامة خفيفة وهو يقول:

- ها أنت ترين يا سيّدتي أنّ معلوماتك قد جاءت متأخّرة قليلاً. ولكنّنا سنأخذ تبليغك بعين الاعتبار، أعدك بذلك. وفوق كلّ شيء أوصي زوجك بألّا يتحرّك... ربّما تحدث بعض الظروف...

ولم يتمّ كلامه، وحيّاها تحيّة خفيفة وهو يتظاهر بالنهوض من مقعده الكبير. فكان عليها أن تنصرف. وفي غرفة المدخل، لمحت لوغر والسيّد لوبيغر فأدارا رأسيهما بحدّة. ولكنّها كانت أكثر اضطراباً منهما. فعبرت القاعات، ومرقت في الممرّات مثل أسيرة في عالم الشرطة ذاك، وقد صارت مقتنعة أنّهم يرون ويعرفون كلّ شيء. وفي النهاية، خرجت من جهة ساحة دوفين. وعلى رصيف الأورلوج سارت ببطء وقد أنعشتها نسمات نهر السين.

ما شعرت به بوضوح هو لا جدوى الإجراء الذي اتّخذته. لم يكن زوجها يواجه أيّ خطر. وقد أراحها ذلك وإن ترك غصّة في حلقها. كانت مغتاظة

من أوغست وأولئك النسوة اللائي وضعنها في موقف سخيف. أبطأت خطواتها أكثر فأكثر وأخذت تراقب السين يجري؛ كان ثمّة مراكب شحن وقد سوّدها غبار الفحم تهبط مجرى النهر على مائه الأخضر بينما، كان الصيّادون يلقون فيه شباكهم على امتداد الشطّ. وفي المجمل لم تكن هي من وشى بفلورون. تلك الفكرة التي واتتها بغتةً أدهشتها. هل كانت سترتكب فعلاً شرّيراً لو كانت قد وشت به؟ ظلّت في حيرة، وقد فاجأها أنّ ضميرها يمكن أن يخدعها. بدت لها خطابات الوشاية المجهولة المرسِل عملاً شرّيراً على وجه التأكيد. هي، بالعكس، ذهبت صراحةً، وعرّفت بنفسها. وأنقذت الجميع. وإذ خطر على بالها فجأة ميراث الخال غراديل، تساءلت، ووجدت نفسها على أهبة الاستعداد لإلقاء هذه النقود في النهر لو توجّب ذلك لإبراء حانوتها من سقمه. لا، هي ليست جشعة، لم تكن النقود هي دافعها. وهي تعبر الجسر في شانج، هدأت تماماً واستعادت توازنها. واستحسنت استباق الآخرين لها إلى المخفر: لن تكون مضطرّةً لخداع كونو، وستنام في سلام.

- هل أخذتِ التذاكر؟ سألها كونو عندما عادت.

أراد أن يراها، وأن تشرح له في أيّ موضع من شرفة المشاهدة توجد المقاعد تحديداً. كانت ليزا تعتقد أنّ الشرطة ستتحرّك ما إن تبلّغها، ومشروعها بالذهاب إلى المسرح لم يكن سوى وسيلة حاذقة لإبعاد زوجها في لحظة اعتقال فلورون. كانت قد خطّطت لأن تدفعه إلى نزهة فيما بعد الظهيرة، في واحدة من فترات الاستراحة التي يتّخذانها أحياناً، فيذهبان إلى غابة بولونيا في عربة أجرة، أو يأكلان في أحد المطاعم، أو يزجيان بعض الوقت في أحد المقاهي التي تقدّم عروضاً موسيقيّة. لكنها قرّرت أنّ الخروج لا طائل من ورائه. وقضت اليوم كعادتها خلف منضدة البيع، متورّدة، وتبدو أكثر سعادةً ولطفاً كأنّها عائدةٌ من فترة نقاهة.

- ألم أقل لكِ إنّ الهواء سيكون مُنعشاً لك! قال لها كونو. ألا ترين، إنّ نزهتك الصباحية أعادت لك حيويّتك.

- لا، قالت وقد استعادت سمتها الجادّ. فشوارع باريس ليست مفيدة تماماً للصحّة.

وفي المساء، شاهدا في مسرح لاغيتيه مسرحية «النعمة الإلهية». لم يكن كونو، وقد جاء في حلّته وقفّازيه الرماديّين، وصفّف شعره بعناية، مشغولاً بشيء سوى بالبحث عن أسماء الممثّلين في برنامج العرض. أمّا ليزا فكانت في كامل بهائها تتّكئ مكشوفة الصدر على المخمل الأحمر الذي يبطّن حاجز الشرفة، وقد حشرت كفّيها في قفّازين أبيضين ضيّقين. وقد كان الاثنان متأثّرين لتعثّرات حظّ ماري؛ كان القائد العسكريّ رجلاً شرّيراً بالفعل، فيما كان بيبرو يضحكهما ما إن يظهر على الخشبة. وبكت الجزّارة. فمَشاهد رحيل الطفل، والصلاة في غرفة العذرية، وعودة المجنونة المسكينة قد أغرقت عينيها الجميلتين بدموع حيّية، مسحتها بضربات خفيفة من منديلها. لكنّ تلك الأمسية صارت بمثابة انتصار حقيقيّ لها، إذ أبصرت حين رفعت رأسها النورماندية وأمّها جالستين في مقاعد مقاصير الدرجة الثانية. فازدادت زهواً، وأرسلت كونو ليشتري لها علبة من حلوى الكراميل من المقصف، وأخذت تعبث بمروحتها، مروحة مذّهبة من الصدف. هُزمت السمّاكة؛ خفضت رأسها تنصت إلى حديث أمّها الهامس. وعند خروجهما التقت ليزا الجميلة والنورماندية الجميلة في البهو وبادلتها ابتسامة فاترة.

في ذلك اليوم، تناول فلورون عشاءه في ساعة مبكّرة في حانة السيّد لوبيغر، وبقي ينتظر لوغر الذي كان من المفترض أن يعرِّفه على دركيّ سابق، رجل أهل للثقة، ليتحدّثا معه بشأن خطّة للهجوم على قصر بوربون ودائرة البلدية.

كان الليل قد هبط، والمطر الخفيف الذي تساقط طوال الظهيرة يغرق أروقة ليهال بلون رماديّ. كانت السوق تلوح قاتمة في دخان السماء الأصهب، فيما تمرق مزَق من السحاب الملوّث وهي تكاد تلمس ذؤابات الأسقف، تتعلّق وتتمزّق على حوافّ مانعات الصواعق. كان فلورون مُغتمّاً من الفوضى على الرصيف، ومن جريان الماء الأصفر الذي يجرف الطين القاتم. كان ينظر إلى الناس وقد آووا إلى أرصفة الشوارع المسقوفة، وصفوف المظلّات التي تمرق تحت زخّات المطر، وعربات الأجرة التي تمرّ على الطرقات الخاوية مسرعةً وبجلبة أشدّ. ثمّ حدثت حالة صحو عابر. وتصاعد غسق الغروب الأحمر. فظهر جيش من الكنّاسين عند مدخل شارع مونمارتر، يدفعون بضربات مقشّاتهم بحيرات من الوحل السائل.

لم يأتِ لوغر بمقدّم الدرك. وكان غافار قد ذهب للعشاء عند أصدقاء له في باتينيول. واقتصرت سهرة فلورون عليه منفرداً بروبين. تكلّم طوال الوقت، حتّى صار مبتئساً؛ والآخر كان يهزّ لحيته بتؤدة، ولا يمدّ ذراعه إلّا كلّ ربع ساعة كي يبتلع جرعة من جعته. وصعد فلورون للنوم بعد أن أصابه الضجر. ولكنّ روبين لم يغادر، وبقي وحده ينظر إلى كوب الجعّة وعلى جبهته سيماء التفكير تحت قبّعته. وكان على روز والنادل الآخر، وقد ظنّا أنّهما سيغلقان الحانة مبكّراً لتغيّب جماعة المقصورة، أن ينتظرا أكثر من نصف ساعة قبل أن تؤاتي روبين الرغبة في الانصراف.

خشي فلورون في غرفته أن يستلقي على الفراش. لقد استسلم لواحدة من نوباته العصبيّة التي تقذف به أحياناً ليالي بطولها في قلب كوابيس لا تنتهي. كان في اليوم السابق قد شارك في دفن السيّد فيرلاك الذي وافته المنيّة بعد احتضار مريع. كان لا يزال يشعر بالحزن لذلك التابوت الضيّق الذي أنزلوه تحت الأرض. إلى هذا، لم يكن يستطيع أن يتخلّص من صورة السيّدة

فيرلاك، بصوتها المنتحب دون دمعة واحدة في عينيها؛ كانت قد سارت خلفه تحدّثه عن التابوت الذي لم يُدفع ثمنه بعد، وعن الجنازة التي لا تعرف كيف تُنظّمها، وقد نفد آخر مليم لديها، لأنّ الصيدليّ طالب في العشيّة بتسديد ما تدين له به عندما علم بموت المريض. وتوجّب على فلورون دفع نفقات التابوت والجنازة؛ حتّى أنّه دفع البقشيش للدفّان. وإذ همّ بالانصراف تبعته السيّدة فيرلاك بنظرة بائسة كي يترك لها عشرين فرنكاً.

في تلك الساعة، كانت تلك الوفاة تؤرّقه. فهي ستعيد إلى طاولة النقاش موقعه بصفته مفتّشاً في السوق. قد يزعجونه ويثبّتونه في المنصب. تلك التعقيدات المنغّصة قد تُنبّه الشرطة. كان يودّ لو اندلعت حركة التمرّد في الصباح التالي ليلقي بزيّه الرسميّ في الشارع. خرج إلى الشرفة ورأسه المليء بهذه الهواجس يلتهب حرارةً، يتنسّم بعض الهواء البارد في ذلك الليل الحارّ. كانت شآبيب المطر قد ذهبت بالريح. وحرارة العواصف تملأ السماء بزرقة داكنة بلا سحابة. وأروقة ليهال المغسولة تتمدّد تحتها بكتلتها العملاقة ولها نفس لون السماء، ومثلها كانت مبرقشة بنجوم صفراء من أثر مصابيح الغاز الموقدة.

متّكئاً بمرفقيه على حاجز الشرفة الحديديّ، كان فلورون يفكّر أنّه آجلاً أو عاجلاً قد يُعاقَب على قبوله بمنصب المفتّش. كان ذلك بمثابة وصمة عار في حياته. لقد صار يقبض من أموال البلديّة، ويخدم الإمبراطورية، حانثاً بالعهود التي قطعها على نفسه عدّة مرات في المنفى. إنّ رغبته في إرضاء ليزا، والاستخدام الخيريّ للرواتب التي يتقاضاها، والنزاهة التي أجبر نفسه على تأدية مهامّه بها، لم تبدُ له كلّها سوى حجج واهية يعتذر بها عن جبنه. وإن كان عانى من هذا الوسط الدسم والمتخم، فقد استحقّ هذا العناء. واسترجع في فكره العامَ السيّئ الذي قضاه باضطهاد السماكات له، وغثيان

الأيّام الرطبة، وعسر الهضم المستمرّ لمعدته، معدة رجل نحيف، والعدوانية الصامتة التي كان يشعر بها تتنامى من حوله. كلّ هذه الأشياء كان يتقبّلها كنوع من العقاب. كان ذلك الزئير المكتوم للضغينة التي يجهل أسبابها يعلن عن كارثة غير واضحة المعالم سيرزح تحت ثقلها بشعور بالعار من خطيئة ينبغي أن يكفّر عنها. ثمّ حمل على نفسه أيضاً إذ فكّر في الحركة الشعبية التي يخطّط لها، قائلاً لنفسه إنّه غير نقيّ بما يكفي لكي ينجح.

وكم من الأحلام واتته في هذا الارتفاع، وعيناه سارحتان في تأمّل الأسقف المتمدّدة لأروقة السوق! غالباً ما كان يراها كمثْلِ بحار رمادية تحكي له عن بلاد بعيدة. وفي الليالي التي يغيب فيها القمر كانت تعتم وتتحوّل إلى بحيرات سوداء راكدة آسنة، وفي ليالي الصفو تتحوّل إلى ينابيع من نور؛ فتسيل الأضواء على طبقتَي الأسقف، مبلّلة ألواح الزنك العريضة، ثمّ تفيض وتتساقط من تلك الفسقيّات المتناضدة. وكانت الأيّام الباردة تصلّبها وتجمّدها كخلجان النرويج حيث يتزلّج المتزلّجون؛ فيما تجعلها حرارة يونيو تغطّ في نوم ثقيل. وفي إحدى ليالي ديسمبر، فتح النافذة فوجدها كلّها بيضاء من الثلج، في بياض عذريّ يضيء السماء التي كان لها لون الصدأ. كانت الأسقف تتمدّد دون أثر لخطوة واحدة، مثل سهول الشمال، كمركبات الجليد في عزلتها الجليلة، ولها وداعة عملاق بريء وصمته المهيب. وكان فلورون يستسلم للأفكار الرقيقة أو القاسية حسب تبدّل مظاهر الأفق أمامه؛ كانت الثلوج تكسبه الهدوء، فتبدو المساحات البيضاء كأنّها ستار من النقاء أُلقي على قذارات ليهال؛ ومشهد ليالي الصحو وانسيال ضوء القمر يأخذه إلى بلاد جنيّات الحكايا الطيّبات. لم يكن يعاني إلّا في الليالي المظلمة، ليالي يونيو الملتهبة التي تكشف عن المستنقعات العطنة والمياه الراكدة لبحر ملعون. ودائماً يعاوده الكابوس نفسه.

كانت الأسقف دائماً هناك. لا يستطيع أن يفتح النافذة ليتّكئ بمرفقيه على حاجز الشرفة دون أن يجدها أمامه، تسدّ الأفق. كان يترك أروقة السوق ليلاً، فيجد في نومه الأسقُف تتمدّد إلى مالا نهاية، تحجب عنه باريس، فارضةً ضخامتها لتحتلّ حياته في كلّ لحظاتها. وفي تلك الليلة واصل كابوسه إرعابه متعاظماً بفضل الهواجس الصمّاء التي تؤرّقه. كانت أمطار العصر قد ملأت أروقة ليهال برطوبة خانقة. فكانت تطلق في وجهه كلّ البخر المنتن، يدور في المدينة كالثّمل تحت الطاولة يكرع قنّينته الأخيرة. بدا له أنّ بخاراً سميكاً كان ينبعث من كلّ رواق. في البعيد كانت سوق اللحوم والكروش تطلق بخارها، رائحة دماء مكتومة. ثمّ سوق الخضار والفاكهة تطلق رائحة كرنب حامض وتفّاح متعفّن وخضروات ملقاة في قمامة. والزبدة تفوح روائحها النتنة، ولسوق السمك طزاجة مبهَّرة. كان يرى تحته مباشرةً رواق الدواجن يطلق من أبراج التهوية هواءً ساخناً ذا رائحة نتنة كسخام المصانع. والسحب المتراكمة من كلّ هذه الأبخرة تتجمّع فوق الأسقف وتبلغ البيوت المجاورة وتتكاثف كغيوم ثقيلة فوق باريس بأسرها. كانت أروقة ليهال، بمساحاتها الضيقة من الفولاذ، تُدفئ بعسر هضمها المسائيّ رقاد المدينة المتخمة.

ومن الأسفل، سمع أصوات على الرصيف، ضحكات أناس سعداء. وانغلق الباب الخارجيّ بضجيجٍ عالٍ. كان كونو وليزا عائدين من المسرح. فغادر فلورون الشرفة بعد أن ثقل رأسه، فكأنّه قد ثمل من الهواء الذي استنشقه، مع كلّ تلك الهواجس العصبيّة عن العاصفة التي كان يحسّ بها فوق رأسه. كان كلّ بؤسه متجمّعاً هناك، في تلك الأروقة التي تختزن حرارة النهار. دفع النافذة بعنفٍ مغلقاً إيّاها، تاركاً الأروقة قابعة في الظلام، عاريةً، غارقةً في العرَق، تعرض كرشها المنتفخ وتتخلّص من فضلاتها تحت النجوم.

الفصل السادس

بعد أسبوع، اعتقد فلورون أنّه أخيراً سيستطيع الانتقال إلى التنفيذ. كانت قد لاحت فرصة مؤاتية من الغضب لإطلاق المجموعات المتمرّدة في باريس. كانت الهيئة التشريعية التي أحدث فيها قانون للأوقاف انقساماً، تُناقش آنئذٍ مشروعاً للضرائب استهجنه الشعب وأثار غضب أهل الضواحي. وكانت الوزارة تحارب بكلّ قوتها خوفاً من الفشل. قد تمرّ أزمنة طويلة قبل تتوافر حجّة كتلك في المستقبل.

وذات صباح، في وقت مبكّر جدّاً، ذهب فلورون ليجول حول قصر بوربون. وقد تناسى هناك مهامّه كمفتّش، وظلّ يختبر أنحاء المكان حتّى الساعة الثامنة دون أن ينتبه إلى أنّ غيابه قد يُحدث لغطاً في رواق الأسماك. زار كلّ الشوارع، شارع لِيل، وشارع لونيفيرسيتيه، وشارع بورغونيا، وشارع سان دومينيك، وبلغ ساحة الأنفاليد متوقّفاً عند بعض مفارق الطرق ليقيس المسافات بخطوات واسعة من قدميه. ثمّ، لدى عودته على رصيف أورسيه، قرّر وهو متّكئ على الحاجز أنّ الهجوم لا بدّ أن ينطلق من كلّ الجهات في

نفس الوقت: مجاميع حيّ غرو كايو ستصل من شان دو مارس، وتهبط وحدات شمال باريس عبر لامادلين، وتلك الآتية من الغرب والجنوب تتبع الرصيف، حيث ستدخل في مجموعات صغيرة شوارع ضاحية سان جيرمان. ولكن على الضفة الأخرى كانت تقلقه جادّة الشازليزيه المكشوفة. وارتأى أن يُنصب هناك مدفع يمشّط أرصفة النهر. فعدّل بعض تفاصيل الخطّة، مُحدّداً ساحة معركة الوحدات في دفتر يمسكه في يده. ولكنّ الهجوم الحقيقيّ قد يقع في شارعَي بورغونيا ولونيفيرسيتيه، فيما يقام بعمليّات تعمية وإلهاء للشرطة من ناحية السين. كانت شمس الثامنة صباحاً التي تدفئه تنشر بهجتها الشقراء على الأرصفة العريضة وتضفي لوناً ذهبياً على أعمدة الصروح المواجهة له. كان يرى المعركة، مجموعات من الرجال المشنوقين على هذه الأعمدة، والأسيجة المخترقة، والباحات الداخليّة المغزوّة، ثمّ، فجأة في الأعلى، أذرع نحيفة تثبّت علَماً.

وعاد ببطء، مطأطئاً رأسه، وانتبه لتردّد هديل جعله يرفعه. فرأى أنّه يجتاز حدائق تويلري. وعلى بقعة من الحشيش كان هناك سرب من حمام الورشان يسير متهادياً. فاستند برهة إلى شجرة برتقال يشاهد العشب وطيور الورشان المغمورة بأشعة الشمس. وفي المواجهة كانت ظلال أشجار البلّوط شديدة الإعتام. وخيّم صمت حارّ تقطعه أصوات المركبات الرائحة والغادية خلف سياج شارع ريفولي. أثارت رائحة النبات مشاعره، وذكّرته بالسيّدة فرانسوا. أفزعت فتاة صغيرة مرّت ركضاً خلف طوقها سرب الورشان، فطار وحطّ واقفاً في صفّ على الذراع الرخامية لتمثال مصارعٍ عتيق، حيث جعل يهدل بشكل أرقّ.

وإذ كان فلورون بصدد العودة إلى ليهال عبر شارع فوفيلييه، سمع صوت كلود لانتييه يناديه. كان الرسّام يهبط إلى أقبية رواق الدواجن.

- هلّا أتيت معي، إنّي أبحث عن ذلك المتوحّش مارجولان.

وتبعه فلورون ليتلكّأ قليلاً فيؤخّر عودته إلى سوق السمك بضع دقائق أخرى. كان كلود يقول إنّ صديقه مارجولان لم يعد لديه ما يرغب فيه؛ لقد صار بهيمة حقيقية. وتنامى في ذهنه مشروع رسمه جاثياً على أربع بابتسامته البريئة. وإذ كان قد أتلف تخطيط لوحة من فرط غضبه، أمضى ساعات بصحبة الأحمق، دون كلام، ليحاول استخلاص ضحكته.

- لا بد أنّه يزقّم حماماته، همسَ. لكني لا أعرف أين يقع مستودع السيّد غافار.

بحثا في القبو كلّه. وفي الوسط، في الظلال الباهتة، كان ثمّة نوافير تطلق ماءها. المستودعات محجوزة للحمائم، وعلى امتداد التعريشات تتعالى زقزقات نائحة غير متناهية، كمثْلِ نشيد خفيض للطيور على فروع الأشجار عند انتهاء النهار. أخذ كلود يضحك وهو يستمع إلى هذه الموسيقى. وقال لرفيقه:

- أكاد أجزم أنّ كلّ عشاق باريس يتبادلون القبل هنا في الداخل!

لم يكن أيّ من المستودعات مفتوحاً، فبدآ يظنّان أنّ مارجولان غير موجود في القبو، حتّى أوقفهما وقع قبلات، قبلات مصوّتة أمام أحد الأبواب المواربة. ففتحاه، ووجدا ذلك الحيوان مارجولان وقد جعلته كادين يجثو على ركبتيه أرضاً على القشّ، بحيث يبلغ وجه الفتى مستوى شفتيها. كانت منهمكة في تقبيله، في كلّ مكان من جسده، تُرجع خصلات شعره الأشقر وتقبّله على مهلٍ خلف أذنيه، وتحت ذقنه، وعلى رقبته حتّى تبلغ عينيه وشفتيه، ثمّ تلتهم وجهه بتمسيدات حانية، كما لو كان شيئاً لذيذاً تملكه طوع إرادتها. أمّا هو، فقد كان مستسلماً بوداعة للأوضاع التي تفرضها عليه. لم يعد يدري. يمدّ

بشرته دون أن يبالي حتّى بالدغدغات.

- حسناً، واصلي، قال كلود، لا تشعري بحرج. أوَ لا تخجلين أيّتها البلهاء من تعذيبه وسط هذه القاذورات؟ لقد تلوّثت ركبتاه.

- هذا لا يعذّبه، قالت كادين بوقاحة. إنّه يحبّ أن يتلقّى القبل. لأنّه يخاف الآن في المناطق غير المنيرة... أليس كذلك، ألا تخاف؟

أنهضته؛ فمرّر يده على وجهه كما لو كان يبحث عن القبل التي طبعتها عليه الصغيرة. فغمغم أنّه يخاف، فيما واصلت هي:

- ثمّ إنّي قد جئت لأساعده، كنت أزقّم حماماته.

كان فلورون ينظر إلى الطيور البائسة. على أرفف تحيط بجدران المستودع كان هناك صناديق بلا أغطية تقبع داخلها الحمامات متكأكئةً الواحدة لصق الأخرى بأطرافلها المتصلّبة وريشها المبرقش بالأبيض والأسود. وللحظةٍ تسري رعدة في هذا السطح المتحرّك، ثمّ تتكوّم الأجساد، ولا يُسمع سوى صخب قوقأة مختلطة. كان هناك بالقرب من كادين وعاء مليء بالماء والحبوب، كانت تملأ منه فاها ثمّ تأخذ الحمامات واحدة فواحدة وتلقمها جرعة في مناقيرها. والطيور تتصارع وتسقط مختنقة في قاع الصندوق بعيون زائغة ثملةً من الطعام الذي ابتلعته قسراً.

- يا للبراءة! همس كلود.

- سحقاً لها! قالت كادين بعد أن انتهت. تكون الحمامات أفضل عندما يُحسَن تزقيمها... ألا تريان؟ بعد ساعتين يجعلونها تشرب الماء بالملح، ذلك يكسب لحمها بياضاً وطراوة. وبعدها بساعتين يذبحونها... إذا أردتما مشاهدة الذبح فهناك بعضها جاهز له، سيتولّى مارجولان أمرها.

وتناول مارجولان صندوقاً فيه نحو خمسين حمامة. وتبعه كلود وفلورون، حتّى جثا على الأرض قرب نافورة، واضعاً الصندوق إلى جواره، ثمّ وضع على صندوق من الصفيح ما يشبه الإطار الخشبيّ في وسطه شبكة من عوارض رقيقة. ثمّ أخذ يذبح. بسرعة، والسكّين تلعب بين أصابعه، يمسك بالحمامات من أجنحتها، ويعطيها ضربة مدوّخة على رؤوسها بمقبض السكّين ثمّ يجزّ عنقها بالنصل. ترتعد الحمامات، ويندعك ريشها، فيما هو يصفّها داخل الإطار الخشبيّ بحيث تكون رؤوسها في فتحات الشبكة فيتساقط الدم قطرةً قطرةً داخل صندوق الصفيح. وكان يفعل ذلك بحركة منتظمة بين ضربة المقبض على الرؤوس التي تتحطّم وحركة اليد المتأرجحة التي تأخذ من جهة الطيور الحيّة وفي الجهة الأخرى تلك المذبوحة. وشيئاً فشيئاً تصبح حركة مارجولان أسرع وتبرق عيناه منتشياً بهذه المذبحة وقابعاً كدرواس ضخم في قمّة متعته. وانتهى بأن شرع يضحك ويغنّي «تيك تاك تيك تاك»، مصاحباً إيقاع السكّين بفرقعة من لسانه، في مثلِ صخب طاحونة تسحق رؤوساً صغيرة. وكانت الحمامات تتدلّى مثل ملابس من حرير.

- ماذا؟ إنّ هذا يمتّعك، أيّها الحيوان، قالت له كادين وهي تضحك أيضاً. إنّها طريفة تلك الحمامات إذ تخبّئ رؤوسها هكذا بين أكتافها لتخفي أعناقها... إنّها شريرة هذه الحمامات، ستعضّك إن هي استطاعت.

وازداد ضحكها مع تسارع حركة مارجولان المحمومة، فأضافت:

- لقد جرّبت أن أقوم بذلك، لكنّي لا أفعله بالسرعة نفسها مثله. ذات يوم ذبح مائة منها في عشر دقائق فقط.

كان الإطار الخشبيّ قد امتلأ؛ وكان المرء يسمع وقع قطرات الدم وهي تسيل في صندوق الصفيح. وعندها التفت كلود، فلمح فلورون ممتقع الوجه.

ممّا حدا به للاستعجال في إخراجه. وفي الأعلى أجلسه على درجة من السلّم.

- حسناً ماذا بك! قال له وهو يصفق بيديه، أرى أنّك سيغشى عليك مثل امرأة.

- إنّها رائحة القبو، همسَ فلورون بشيء من الخجل.

كانت تلك الحمامات، التي يجعلونها تبتلع الحبوب والماء المملّح، ثمّ يجمعونها ويذبحونها، قد ذكّرته بطيور الورشان في حدائق تويلري برياشها الحريريّة المتموّجة على العشب المصفرّ بفعل الشمس، ورآها تهدل على الذراع الرخامية لتمثال المصارع العتيق وسط صمت الحدائق العظيم، بينما، تحت ظلال أشجار البندق المعتمة، تلهو الفتيات الصغيرات بالأطواق. ثمّ كان ذلك الحيوان الأشقر العملاق يقوم بمذبحته، يضرب بالمقبض ويجزّ بالنصل في أعماق ذلك القبو المثير للغثيان، وقد جعله ذلك يرتعد؛ شعر بنفسه يتهاوى، ساقاه لا تقويان على حمله، وجفناه يختلجان.

- يا للشيطان! قال كلود بعد أن ارتاح في جلسته، أنت لن تكون محارباً جيّداً... إنّهم لَطيّبون أولئك الذين نفوك إلى كايين خوفاً منك. ولكن يا صديقي الطيّب، لو أنّك اشتركتَ في انتفاضة ذات يوم فلن تجرؤ على إطلاق رصاصة واحدة؛ ستخاف أن تقتل أحداً.

نهض فلورون، دون أن يجيب. كان قد صار مُغتمّاً للغاية وتغضّنات اليأس تتقاطع في وجهه. وذهب، تاركاً كلود يعاود الهبوط إلى القبو؛ وعاد إلى سوق السمك، يفكّر من جديد في خطط الهجوم، والجماعات المسلّحة التي ستحتلّ قصر بوربون. سوف تزأر المدافع في الشانزليزيه، وتتحطّم البوابات، وسيكون هناك دم على الطرقات ومزق من الأدمغة بين الأعمدة. كانت تلك

رؤيا سريعة للمعركة. وهو، في وسط الطريق، لا يقوى على المشاهدة ويخبّئ وجهه بكفّيه.

وإذ كان يعبر شارع بون نوف، ظنّ أنّه رأى أوغست يتلع بوجهه الشاحب عند رواق الفواكه. لا بدّ أنّه كان يراقب أحدهم بعينيه مفتوحتين على اتّساعهما، وبتعبير من الغباء الغريب مرتسم على وجهه. ثمّ اختفى فجأة عائداً ركضاً إلى حانوت الجزارة.

- ماذا به؟ فكّر فلورون، هل أخفتُه؟

في ذلك الصباح، كانت قد حدثت أشياء رهيبة في منزل آل كونو غراديل. في أوّل النهار جاء أوغست راكضاً ومرتعباً ليوقظ رئيسة عمله، ويخبرها بأنّ الشرطة قد جاءت لتقبض على السيّد فلورون. ثمّ ازداد تلعثماً وهو يخبرها أنّ المطلوب للعدالة قد خرج وأنّه لا بدّ أن يكون قد هرب. فصعدت ليزا بسرعة، في قميصها ودون مشدّ، مستهينةً بكلّ شيء إلى غرفة أخي زوجها، وأخذت صورة النورماندية بعد أن تأكّدت من أنّه لم يكن ثمّة ما يورّطهم. وعند نزولها قابلت رجال الشرطة في الطابق الثاني. وطلب منها المفوّض أن تتبعه. وتحادث معها لوهلة بصوت خفيض، وهي معهم في الغرفة، وطلب منها أن تفتح الحانوت كالعادة، بحيث لا ينتبه أحدٌ لما يدور. لقد تمّ نصب كمين.

ما كان يقلق خاطر ليزا في هذه المغامرة هو الضربة التي سيتلقّاها المسكين كونو، وعلاوة على ذلك كانت تخشى أن يُفسد كلّ شيء بدموعه إذا عرف أنّ الشرطة كانت هناك. وطلبت من أوغست أيضاً أن يقسم أغلظ الأيمان بأن يكتم الأمر. وعادت وارتدت مشدّها، واخترعت لكونو النائم قصّة. وبعدها بنصف ساعة كانت على عتبة الحانوت، في كامل هيئتها، مؤتلقة

بشعرها الممشّط ووجهها المتورّد. كان أوغست ينسّق المعروضات في هدوء. وظهر كونو برهة على الرصيف، يتثاءب وهو يستيقظ تدريجيّاً في هواء الصباح المنعش. ولم يكن هناك شيء يدلّ على الدراما التي تدور في الأعلى.

ولكنّ المفوّض كان قد نبّه الحيّ كلّه بنفسه، إذ قام بزيارة لمنزل آل ميهودان في شارع بيرويت. كان لديه معلومات دقيقة. ففي الرسائل المجهولة المصدر التي وصلت إلى المخفر كانوا يؤكّدون أنّ فلورون يضاجع الحسناء النورماندية أغلب الوقت. ربّما كان مختبئاً هناك. وذهب المفوّض مصحوباً باثنين من رجاله وطرق عليهنّ الباب بكلّ عنف باسم القانون. استيقظت نساء آل ميهودان بصعوبة. وفتحت العجوز الباب، خائفة في البداية ثمّ سرعان ما هدأت مستهينةً بالأمر عندما أدركت مقصدهم. كانت جالسةً تعقد ثيابها وتقول لهؤلاء السادة:

- نحن أناس شرفاء، وليس لدينا ما نخشى منه، باستطاعتكم أن تفتّشوا البيت.

وعندما تأخّرت النورماندية قليلاً في فتح باب غرفتها، اقتحمها المفوّض. كانت بصدد ارتداء ملابسها، صدرها نافر تحت قميصها الداخليّ وكتفاها الرائعتان عاريتان، وتمسك بتنّورتها الداخلية بين أسنانها. ذلك الاقتحام العنيف وغير المفسّر أثار حنقها؛ فتركت التنّورة وهمّت بأن تقذف بنفسها على الرجال، وقد تضرّج وجهها غضباً لا خجلاً. فتقدّم المفوّض في مواجهة هذه المرأة الضخمة العارية ليحمي رجاله مردّداً بصوته البارد:

- باسم القانون! باسم القانون!

فتهاوت على مقعد كبير، تنتحب وقد انتابتها نوبة، لشعورها المفرط بالضعف، ولعدم تمكّنها من استيعاب ماذا يريدون منها. كان شعرها محلولاً،

وقميص نومها لا يكاد يبلغ ركبتيها. ألقى لها المفوّض بشال وجده معلّقاً على الحائط. لكنّها لم تفكّر حتّى في إحكامِ سترِ عريها به؛ وانخرطت في بكاء حارق، وهي تشاهد الرجال يفتّشون فراشَها بشكل عنيف متلمّسين بأيديهم الوسائد والملاءة.

- ولكن ما الذي فعلته أنا؟ تمتمت أخيراً. وما الذي تبحثون عنه في سريري؟

نطق المفوّض باسم فلورون، وإذ كانت مَدام ميهودان واقفة على عتبة الغرفة:

- آه، إنّها تلك البغيّ! صاحت المرأة الشابّة وهي تهمّ بالاندفاع نحو أمّها.

كادت تضربها، لكنّهم أمسكوا بها، ولفّوها بالشال بالقوّة. كانت تتشاجر، وتقول بصوت يخنقه البكاء:

- ماذا تحسبونني!... فلورون ذاك لم يدخل هنا قطّ، هل تسمعون. لم يحدث أيّ شيء بيننا. إنّهم يريدون تلطيخ سمعتي في الحيّ، ولكن ليواجهني أحدهم وسوف ترون. ولتودعوني السجن بعدها، فذلك لا يهمّني... حسناً! فلورون، لديّ من هو أفضل منه! وأستطيع الزواج بمن أرغب فيه وأُميت من الغيظ من يكتبن لكم.

هدأت قليلاً بعد شحنة الكلام تلك. وتحوّل حنقها نحو فلورون، الذي كان سبباً في كلّ ذلك. وتوجّهت بالكلام إلى المفوّض مبرّرةً:

- لم أكن أعرف يا سيّدي، هو يبدو طيّباً جدّاً، وقد خدعنا. ولم أكن أرغب في تصديق الأقاويل لأنّ من يردّدونها أشرار للغاية... كان يأتي ليعطي دروساً للصغير، ثمّ يذهب. وكنت أُطعمه، وأقدّم له أحياناً

بعض الهدايا من السمك الطازج. وهذا كلّ شيء... أتؤاخذونني على كوني طيّبة هكذا؟

- لكن، سأل المفوّض، هل أعطاك أوراقاً لتحتفظي بها لديك؟

- لا، أقسم لك، لم يحدث هذا... كان الأمر سيكون سواء بالنسبة لي، وكنت سأعطيكم هذه الأوراق إن وجدتْ. يكفيني كلّ هذا. أنا لست سعيدة لرؤيتكم تنقّبون في كلّ أشيائي... إنّ ذلك أمر غير مجدٍ.

كان رجال الشرطة بعدما فتّشوا كلّ قطع الأثاث بصدد الولوج إلى المقصورة التي ينام فيها موش. ومنذ برهة كان يُسمع صوت بكاء الطفل الذي استيقظ مذعوراً من الجلبة، وهو يظنّ أنّهم قد جاءوا ليذبحوه.

- إنّها غرفة الطفل، قالت النورماندية وهي تفتح الباب.

وجاء موش ركضاً وهو عارٍ تماماً، وارتمى في حضنها. فطمأنته وأرقدته في سريرها. كان الرجال يهمّون بالخروج من المقصورة والمفوّض قد قرّر الانسحاب، عندما همس الصغير في أذن أمّه وهو لا يزال ينتحب:

- سيأخذون دفاتري... لا تعطيهم دفاتري.

- آه، حقّاً، هتفت النورماندية، هناك الدفاتر... انتظروا أيّها السادة سأعطيكم إيّاها... سأريكم ما كنت أسخر منه... ها كم، ستجدون خطّ يده فيها. فلتعتقلوه ولن أكون أنا من سيحميه.

وأعطتهم دفاتر موش ونماذج الكتابة. ولكنّ الصغير المرتعب نهض ثانيةً وأخذ يعضّ أمّه ويخمشها فأرقدته ثانيةً بلطمة خفيفة على رأسه. فأخذ يصرخ. كانت الآنسة ساجيه تمدّ عنقها من فتحة الباب؛ دخلت إلى بيتهنّ بعد أن وجدت كلّ الأبواب مشرعةً لتقدّم خدماتها للأمّ ميهودان. كانت

تشاهد، وتنصت وترثي لحال أولئك النسوة البائسات اللائي لا يجدن من يحميهنّ. وكان المفوّض في تلك الأثناء يقرأ نماذج الكتابة مُتجهّماً. كلمات من قبيل «باستبداد» و«خائن الحريّة» و«غير دستوريّ» و«ثوريّ» جعلت عينيه تنفتحان على اتّساعهما. وعندما قرأ عبارة «عندما تحين الساعة سيسقط الظالم»، خبط على الورقة وقال:

- هذا خطير جدّاً، خطير جدّاً.

وأعطى حزمة الدفاتر لأحد معاونيه، وانصرف. فتحت كلير باب غرفتها ولم تكن ظهرت حتّى تلك اللحظة وأخذت تنظر إلى أولئك الرجال وهم يغادرون. ثمّ ذهبت إلى غرفة شقيقتها التي لم تكن قد دخلتها منذ عام. وكانت الآنسة ساجيه تبدو في أحسن حالاتها مع النورماندية، في لمسات حنان منها، تلمّ أطراف الشال لتحسن تغطيتها، وتتلقّى بهيئة مشفقة مظاهر غضبها الأولى.

- إنّك حقّاً جبانة، قالت كلير وهي تقف في مواجهة شقيقتها.

قامت النورماندية بعنف فانزلق الشال من كتفيها، وصرخت بها:

- تتلصّصين إذن، أعيدي عليّ ما قلتِه.

- أنتِ جبانة حقّاً، كرّرت الفتاة الشابّة بصوت أكثر تهجّماً.

فقامت النورماندية، ودون تفكير صفعت كلير، التي امتقع وجهها بشدّة فوثبت نحوها ناشبةً أظافرها في رقبة أختها. وتصارعتا للحظة، وشدت كلّ واحدة شعر الأخرى في محاولة للإيقاع بها. كانت الصغرى بالرغم من رقّتها تدفع الكبرى بعنف وبقوّة رهيبة حتّى كادتا تسقطان على الخزانة التي انكسرت مرآتها. وكان موش يجهش في البكاء بينما الأمّ تستغيث بالآنسة

ساجيه أن تساعدها في التفريق بينهما. ولكنّ كلير انصرفت وهي تقول:

- جبانة، جبانة، سوف أذهب لأحذّره، ذلك المسكين الذي بعتِه للشرطة.

ووقفت أمّها حائلاً بينها وبين الباب، فيما كانت النورماندية تواصل هجومها من الخلف. وكانت الآنسة ساجيه تساعدهما، فدفعنها ثلاثتهنّ إلى داخل غرفتها، وأغلقن عليها الباب بدورتين للرتاج على الرغم من مقاومتها المحمومة. كانت تركل الباب بقدمها، وتحطّم كلّ شيء في الغرفة. ثمّ لم يعد يُسمع سوى صوت احتكاك مخيف، خشخشة لمعدن يكحت الجصّ. كانت تحاول فكّ مصراعَي الباب بسنّ المقصّ.

- كانت ستقتلني لو كان معها سكّين، قالت النورماندية، وهي تبحث عن ملابسها لترتديها. سترين كيف ستسيء التصرّف بغيرتها تلك... لا سيّما وأنّنا لا نفتح لها الباب. قد تقلب الحيّ كلّه ضدّنا.

وكانت الآنسة ساجيه قد سارعت إلى الانصراف. وقد بلغت زاوية شارع بيرويت في اللحظة التي كان المفوّض يدخل فيها الممرّ المؤدّي إلى حانوت كونو غراديل. فهمت الأمر، فدخلت إلى حانوت الجزارة وعيناها تلمعان، فطلبت منها ليزا الصمت بإشارة، منبّهة إيّاها إلى وجود كونو الذي كان منهمكاً في تعليق شرائط من اللحم المملّح. وعندما انقلب عائداً إلى المطبخ سردت العجوز بصوت منخفض الدراما التي دارت في بيت نساء آل ميهودان. كانت الجزّارة منحنية على منضدة البيع، ويدها على برنيّة لحم العجل المتبّل، تستمع للقصّة بالهيئة السعيدة لامرأة منتصرة. ثمّ طلبت زبونة اثنين من أكارع الخنزير، فغلّفتهما لها وعلى وجهها سمت التفكّر.

- أنا لا أريد شرّاً بالنورماندية، قالت في النهاية للآنسة ساجيه عندما صارتا وحيدتين مرّة أخرى. كنت أحبّها كثيراً، ولشدّ ما ندمت على

غضبنا المتبادل... وهاك دليلاً على أنّي لست شريرةً، ما أنقذتُه من يد الشرطة، وأنا على أتمّ استعداد لأن أعيده لها إن جاءت تطلبها هي بنفسها.

وأخرجت من جيبها الصورة الفوتوغرافية للنورماندية. فدسّت الآنسة ساجيه أنفها فيها وقرأت بنبرة سخرية: «من لويز إلى صديقها العزيز فلورون». ثمّ قالت بصوتها الحادّ:

- لعلّك مخطئة. يجب أن تحتفظي بها.

- لا، لا، قاطعتها ليزا، أريد أن نضع حدّاً لكلّ الأقاويل. اليوم هو يوم المصالحة. يكفي كلّ هذا، لا بدّ أن يعود للحيّ سلامه.

- حسناً، هل ترغبين في أن أذهب فأقول للنورماندية إنّك تنتظرينها؟ سألت العجوز.

- نعم، سأكون ممتنّةً لك.

عادت الآنسة ساجيه إلى شارع بيرويت، وأفزعت السمّاكة إذ أخبرتها أنّها رأت صورتها للتوّ في جيب ليزا. لكنّها لم تستطع إقناعها مباشرةً بالمسار الذي اقترحته غريمتها. كان للنورماندية شروطها: ستذهب فقط إذا خرجت الجزّارة لاستقبالها على عتبة الحانوت. وتوجّب على العجوز أن تقوم برحلتين إضافيّتين بين المرأتين حتّى تنسّق شروط المقابلة. وكانت في النهاية فرحة لأنّها شهدت مفاوضات ذلك الصلح الذي سيُحدث ضجّة كبيرة. وعند مرورها للمرّة الأخيرة أمام باب ليزا سمعت صوت المقصّ لا يزال يكحت الجصّ.

ثمّ، بعد أن ذهبت بالردّ النهائيّ للجزّارة، هرعت للبحث عن السيّدة

لوكور ولاساربيت. ووقفن ثلاثتهنّ عند زاوية رواق الأسماك على الرصيف، في مواجهة حانوت الجزّارة. من هناك لن يفوتهنّ شيء من اللقاء المرتقب. كنّ نافدات الصبر، يتظاهرن بالثرثرة فيما بينهنّ، ويرقبن شارع بيرويت الذي يُنتظَر أن تخرج منه النورماندية. وفي السوق، كانت أخبار المصالحة قد انتشرت بالفعل؛ البائعات ينهضن على منصّات بيعهنّ ليتمكّنّ من المشاهدة، وأخريات ممّن هنّ أكثر فضولاً تركن أماكنهنّ وذهبن ليقفن في الشارع المسقوف. كلّ عيون ليهال كانت قد التفتت نحو حانوت جزارة الخنزير. كان كلّ الحيّ ينتظر.

كان ذلك مشهداً احتفاليّاً. وعندما مرقت النورماندية من شارع بيرويت احتبست أنفاس الجميع ترقّباً.

- إنّها في قمّة التألّق، همست لاساربيت.

- انظرن كيف تسير، أضافت السيّدة لوكور؛ يا لوقاحتها!

كانت النورماندية الجميلة، في الحقيقة، تسير كملكة تكرّمت بقبول السلام. كانت في كامل زينتها، وقد صفّفت شعرها المجدول، ورفعت طرف صدريّتها لتُظهر تنّورتها الكشمير. كما دشّنت للمرّة الأولى عقدة من التخاريم شديدة الفخامة. ولمّا كانت تشعر أنّ سوق ليهال بأكملها تتفحّصها، زادت من تخايلها وهي تقترب من حانوت الجزارة. حتّى توقّفت أمام الباب.

- إنّه دور ليزا الجميلة الآن، قالت الآنسة ساجيه. انظروا جيّداً.

غادرت ليزا الجميلة منضدتها مبتسمةً. واجتازت الحانوت على مهل، وذهبت مادّةً يدها للنورماندية. كانت بدورها في قمّة بهائها بملابسها الناصعة، ومظهرها الشديد النظافة. وسرت ثرثرة في سوق السمك؛ وتقاربت الرؤوس على الرصيف، تتحادث بلا توقف. كانت المرأتان داخل

الحانوت، والأثرُب المعلّقة في واجهة العرض تعيق رؤيتهما. كانتا تبدوان منخرطتين في حوار ودّي، تتبادلان التحايا والمجاملات.

- انظروا! عاودت الآنسة ساجيه. النورماندية الجميلة تشتري شيئاً... ترى ماذا تشتري؟ أعتقد أنّها قطعة من السجق... نعم، ها هو، ألا تريان، لقد أعطتها ليزا الصورة بينما هي تناولها السجق في يدها.

ثمّ كانت التحيّات مرّةً أخرى. لا بل إنّ ليزا الجميلة تجاوزت حدود المودّة المقرّرة سلفاً، فصاحبت النورماندية الجميلة خارجةً حتّى الرصيف. وهناك ضحكتا معاً، وبدتا لأهل الحيّ مثل صديقتين حميمتين. وكان ذلك فرحاً حقيقياً في ليهال؛ وعادت البائعات إلى منصّاتهنّ، معلنات أنّ كلّ شيء قد تمّ على أكمل وجه.

لكنّ الآنسة ساجيه استبْقت السيّدة لوكور ولاساربيت. فالمسرحيّة لم تكد تبدأ بعد. كنّ ثلاثتهنّ يطوّقن بأعينهنّ البيت المواجه بوخز الفضول الذي يريد أن يرى عبر الجدران. وأخذن يثرثرن ثانيةً حول النورماندية لتزجية وقت الترقّب.

- ها هي بدون رجل، قالت السيّدة لوكور.

- لديها السيّد لوبيغر، أشارت لاساربيت وهي تضحك.

- آه، السيّد لوبيغر لم يعد يرغب فيها.

هزّت الآنسة ساجيه كتفيها وهي تهمس:

- أنتما لا تعرفانه. هو لا يهتمّ بكلّ ذلك. إنّه رجل يعرف كيف يدير أموره، والنورماندية امرأةٌ ثريّة. خلال شهرين، سيكونان معاً، وتريان. منذ فترة طويلة ومَدام ميهودان ترتب لهذه الزيجة.

- لا يهمّ! قالت بائعة الزبدة، هذا لا ينفي أنّ المفوّض قد ضبطها في السرير مع فلورون.

- ألم أقل لكما... كان النحيل الطويل قد غادر لتوّه. كنت هناك عندما فحصوا السرير. وقد تلمّسه المفوّض بيده وكان عليه موضعان دافئان.

التقطت العجوز أنفاسها ثمّ واصلت بصوت ناقم:

- آه، أتعرفان، كان أكثر ما آلمني هو سماعي الأشياء المرعبة التي كان يلقّنها ذلك النذل للصغير موش. لا، لن تصدّقا... كان هناك حزمة كبيرة من الدفاتر.

- ما هي تلك الأشياء المرعبة؟ سألت لاساربيت بفضول.

- وهل نعرف؟ قاذورات، وحقارات. لقد قال المفوّض إنّ ذلك كافٍ للقبض عليه. إنّ ذلك الرجل لَوحش. سيفتك بطفل لو استطاع! ليس الصغير موش شخصية معتبرة ولكنّ ذلك ليس مبرّراً بما فيه الكفاية ليحشو رأسه بأفكار الحمر. أليس كذلك؟

بالطبع، ردّت المرأتان الأخريان.

وفي النهاية، ها نحن بصدد وضع حدّ لهذه المكيدة. لقد قلتها لكما، ألا تذكران: «ثمّة في منزل آل كونو غراديل مكيدة تفوح برائحة نتنة»؟ إنّ حاسة الشمّ عندي قويّة... والآن، حمداً للربّ، سيستطيع الحيّ أخيراً أن يلتقط أنفاسه. كان الأمر بحاجة إلى اجتياح مماثل؛ لأنّه، أقسم لكما، كنّا سننتهي إلى الخوف من أن نُقتل في وضح النهار. ما كنّا سنستطيع العيش هكذا، وسط المكائد، والنزاعات والمَقاتل. وكلّ هذا بسبب رجل واحد، هو فلورون ذاك... وها هما ليزا الجميلة والنورماندية قد تصالحتا؛ وهذا صنيع طيّب،

وكان لا بدّ من أن تفعلاه لمصلحة سلام الجميع. ومن الآن سيسير كلّ شيء على ما يرام، ستريان... وها هو السيّد كونو المسكين يضحك هناك.

كان كونو قد خرج إلى الرصيف مرّةً أخرى، منتفخاً في صدريّته البيضاء، يمزح مع خادمة السيّدة تابورو الصغيرة، ممتلئاً بالجسارة، يضغط على كفيّ الخادمة الصغيرة بمزاج الجزّارين المنشرح حتّى يجعلها تصرخ. وكانت ليزا تجد صعوبة شديدة في محاولة إرجاعه إلى المطبخ. كانت تذرع الحانوت سيراً بنفاد صبر متخوّفةً من أن يصل فلورون، وتنادي على زوجها لتتلافى لقائه بأخيه.

- إنّها قلقة جدّاً، قالت الآنسة ساجيه. فالسيّد كونو المسكين لا علم له بما يجري. وها هو يضحك كطفل بريء! هل تعرفان أنّ السيّدة تابورو قالت إنّها قد تقاطع الزوجين آل كونو لو استمرّا في الاستهانة بالقيم وواصلا إيواء فلورون لديهما.

- وبانتظار أن يُحسم الأمر، هما يحتفظان بالميراث، أشارت السيّدة لوكور.

- لا يا عزيزتي، فقد حصل الآخر على حصّته.

- حقّاً، كيف عرفتِ؟

- عجباً! ذلك واضح، قالت العجوز بعد صمت متردّد، ودون أن تبرهن على كلامها. لا بل أخذ ما هو أكثر من حصّته، فقد زادها آل كونو عدّة ألاف من الفرنكات... ولكن مع الفواحش تطير النقود سريعاً... آه، ربّما لا تعرفان أنّ له امرأة أخرى...

- هذا لا يدهشني، قطعت لاساربيت كلام العجوز، فهؤلاء النّحاف هم عادة رجال مزهوّون.

- نعم، وهي فوق هذا ليست شابّة، تلك المرأة. عندما تستبدّ الرغبة برجل فإنّه يلتقط حتّى النساء المتهالكات... إنّها السيّدة فيرلاك، زوجة المفتّش القديم، تعرفانها جيّداً تلك المرأة الصفراء السحنة.

صرخت المرأتان الأخريان محتجّتين: هذا غير ممكن. فالسيّدة فيرلاك بشعة. فاندفعت الآنسة ساجيه:

- أما زلتما تتّهماني بالكذب؟ لديّ براهين، فقد وُجدت رسائل من هذه المرأة، حزمة كاملة من الرسائل، تطلب منه فيها النقود، عشرة فرنكات وعشرين فرنكاً دفعة واحدة. الأمر واضح... هما الاثنان قد قتلا الزوج.

اقتنعت لاساريبت والسيّدة لوكور بكلامها، ولكن عيل صبرهما. فهما تنتظران على الرصيف منذ أكثر من ساعة. وتخوّفتا من أن تُسرق بضاعتهما في السوق. واستبقتْهما الآنسة ساجيه بأن طرقت حكاية جديدة. «فلورون لن يستطيع الهرب؛ سوف يعود؛ سيكون من المثير رؤيته وهو يُقبض عليه». ثمّ وصفت الكمين وصفاً دقيقاً، بينما واصلت بائعة الزبدة وبائعة الفواكه فحص البيت من أعلاه إلى أسفله، مخترقتين كلّ فتحاته، متوقّعتين بزوغ قبّعات رجال الدرك منها. وكان البيت الصامت والغافي يسبح وادعاً في ضوء الشمس الصباحيّ.

- لا أحد يستطيع تخمين أنّه غاصّ برجال الشرطة! همست السيّدة لوكور.

- إنّهم في الغرفة العلوية، قالت العجوز. هل تريان؟ لقد تركوا النافذة كما وجدوها... آه، هناك أحدهم، يختبئ خلف شجيرة الرمّان على الشرفة.

فمدّتا عنقيهما ولم تريا شيئاً.

- إنّها فقط الظلال، قالت لاساريت. حتّى الستائر لا تتحرّك، لا بدّ أنّهم قابعون جميعاً بلا حراك داخل الغرفة.

وفي تلك اللحظة رأين غافار يخرج من رواق الأسماك، بادياً عليه الهمّ. تبادلن نظرات ذات مغزى دون أن يتكلّمن. كنّ متلاصقات منتصبات داخل تنانيرهنّ الطّوال. وجاء تاجر الدواجن إليهنّ وسألهنّ:

- هل رأيتنّ فلورون يمرّ من هنا؟

لم يُجِبْن.

- إنّي بحاجة إلى أن أكلّمه حالاً، واصل غافار. هو غير موجود في سوق السمك. لا بدّ أنّه صعد إلى غرفته... هل رأيتنّه؟

امتقعت السيّدات الثلاث، وأخذن ينظرن بعضهن إلى بعض عميقاً بارتعاشات خفيفة في زوايا أفواههنّ. ثمّ قالت السيّدة لوكور، إذ أخذ زوج أختها يتشكّك:

- نحن هنا منذ خمس دقائق فقط، قد يكون مرّ قبل وصولنا.

- إذن سأصعد، على الرغم من الطوابق الخمسة، قال غافار ضاحكاً.

وهمّت لاساريت بإيقافه، فأمسكتها خالتها من ذراعها، مرجعةً إيّاها، وهمست في أذنها:

- اتركيه يذهب أيّتها الحمقاء! إنّه يستحقّ ما سيحدث له، حتّى لا يتعالى علينا مرّةً أخرى.

- لن يقول بعد ذلك إنّي آكل اللحم الفاسد، همست الآنسة ساجيه بصوت أكثر انخفاضاً.

ثمّ صمتنَ ثلاثتهنّ. كان وجه لاساربيت مضرّجاً بالحمرة فيما ظلّت الأخريان شاحبتين تماماً. كنّ يتلفّتن حائرات، لا يعرفن ماذا يفعلن بأيديهنّ التي خبّأنها تحت الصدريّات. ثمّ رفعن أعينهنّ صوب المنزل بتلقائية، متتبّعاتٍ غافار، وهو يصعد الدرجات نحو الطابق الخامس. وعندما اعتقدن أنّه قد صار في الغرفة أخذن يرمقنها من جديد بنظرات جانبية. ضحكت لاساربيت ضحكة عصبية.

وبدا لهنّ لوهلة أنّ ستائر النافذة قد اهتزّت، فاعتقدن أنّ ثمّة صراعاً يدور هناك. ولكنّ واجهة المنزل ظلّت محتفظة بهدوئها الدافئ؛ ومرّ ربع ساعة في سلام مطلق وقد اختنقن فيها من الإثارة، حتّى كاد يغشى عليهنّ، عندما خرج رجل من الممرّ، وركض ليحضر عربة. وبعد خمس دقائق، هبط غافار متبوعاً برجلَي شرطة. ودخلت ليزا عائدةً إلى الحانوت بعدما خرجت إلى الرصيف عندما لمحت العربة.

كان غافار ممتقع الوجه. في الأعلى كانوا قد فتّشوه، ووجدوا معه المسدّس وعلبة الطلقات. وبسبب فظاظة المفوّض والحركة التي قام بها عندما سمع اسم غافار ظنّ هذا أنّه هالك لا محالة. كانت نهاية رهيبة لم يتخيّلها يوماً. لن يصفح عنه قصر تويلري نهائياً. كانت ساقاه لا تقويان على حمله كما لو كانت فصيلة الإعدام في انتظاره. ولم يكد يرى الشارع حتّى وجد في كبريائه ما يكفي من القوّة ليسير منتصباً. حتّى أنّه ابتسم ابتسامة أخيرة، وهو يفكّر أنّ سوق ليهال كلّها ستراه يمضي إلى الموت بكلّ شجاعة.

حينها، هرعت إليه لاساربيت والسيّدة لوكور. وعندما طلبتا تفسيراً، شرعت بائعة الزبدة بالنحيب، بينما احتضنت ابنة شقيقتها المنفعلة خالها. أبقى عليها بين ذراعيه فيما هو يعطيها خلسة مفتاحاً، ويهمس في أذنها:

- خذي كلّ شيء واحرقي الأوراق.

وصعد إلى العربة بهيئة من يصعد إلى منصّة المقصلة. وعندما اختفت العربة عند زاوية شارع بيير ليسكو، رأت السيّدة لوكور لاسارييت وهي تحاول أن تخفي المفتاح في جيبها.

- هذا غير مجدٍ يا صغيرتي، قالت لها وهي تصرّ على أسنانها، لقد رأيته وهو يضعه في يدك... وحقّ الربّ، سأقول له كلّ شيء في السجن ما لم تتلطّفي معي.

- ولكن يا خالتي، أنا لطيفة فعلاً، أجابت لاسارييت بابتسامة محرَجة.

- هيّا بنا فوراً إلى بيته إذن، قبل أن يصل مخبرو الشرطة إلى هناك ويعبثوا بخزاناته.

كانت الآنسة ساجيه قد انصتت إلى حوارهما ونظراتها تقدح شرراً، فتبعتهما، راكضةً خلفهما بقدر ما تستطيع ساقاها القصيرتان. لم تعد تعبأ بانتظار قدوم فلورون. وطوال المسافة من شارع رامبوتو إلى شارع كوسونري راحت تتظاهر بالتواضع، وتتودّد، وعرضت أن تتكلّم هي أوّلاً مع السيّدة ليونص البوّابة.

- سنرى، سنرى. ردّدت بائعة الزبدة بسرعة.

وكان لا بدّ لهنّ من التفاوض مطوّلاً. فالسيّدة ليونص لم تكن تريد أن تسمح لأولئك النسوة بالصعود إلى شقّة المستأجر. كانت شديدة العبوس، وقد صدمها منديل لاسارييت المحلول. ولكن بعد أن همست العانس في أذنها ببعض الكلمات، وبعد أن أرينها المفتاح، سمحت لهنّ. وفي الأعلى، لم تسلّمهنّ قطع النقود إلّا واحدة واحدة، مغتمّة، وقلبها يدمى، وكأنّها تُرشد

بنفسها لصوصاً إلى المكان الذي خبّأت فيه نقودها.

- هيّا، خذن كلّ شيء، صاحت وهي ترتمي على مقعد كبير.

جرّبت لاسارييت المفتاح في كلّ الخزانات. وكانت السيّدة لوكور تراقبها عن كثب بهيئة متشكّكة، كانت ملتصقة بها، حتّى إنّها قالت لها:

- يا خالتي، إنّك تضايقينني، اتركي لذراعي حريّة الحركة على الأقلّ.

وفي النهاية، انفتحت إحدى الخزانات في مواجهة النافذة وبين المدفأة والسرير. أطلقت النسوة الثلاث تنهيداتهنّ. على الرفّ الأوسط، كان هناك عشرات الآلاف من الفرنكات في شكل قطع ذهبية، مرصوصة بشكل منتظم في أكوام صغيرة. كان غافار الذي يحفظ ثروته لدى كاتب عدل توخّياً للحذر قد احتفظ بهذه الكمّية منها في غرفته احتياطاً لـ«الانقلاب». وكما كان يقول بلهجة رسمية، فإنّه يُبقي مساهمته في الثورة جاهزةً. كان قد باع بعض السندات، ويستشعر لذةً استثنائية في مراقبة العشرة آلاف فرنك كلّ ليلة، فتبدو له متوهّجة بالحياة والثورة. وفي الليل كان يحلم بمعارك في خزانته؛ ويسمع فيها صوت طلقات رصاص، وأحجار بلاط تُنتزع وتُقذَف، وضجيج حشود وانتصار: كانت نقوده هي التي تقوم بدور المعارضة.

مدّت لاسارييت يدها بصرخة فرح.

- ارفعي يدك عنها يا صغيرتي! قالت السيّدة لوكور بنبرةٍ خشنة.

كانت تبدو أكثر شحوباً في انعكاس بريق الذهب، وجهها أصفر من داء اليرقان، وعيناها ملتهبتان من مرض الكبد الذي يفتك بها في صمت. ومن خلفها، كانت الآنسة ساجيه تهتزّ على أطراف أصابع قدميها، في قمة الاستثارة وهي تنظر حتّى عمق الخزانة. وحتى السيّدة ليونص نهضت وأخذت تُغمغم بالكلام.

- أمرني خالي بأن آخذ كلّ شيء، قالت لاسارييت بوضوح.

- وأنا، أنا التي كنت أعتني بذلك الرجل، أما من شيء لي؟ صرخت البوّابة.

دفعتها السيّدة لوكور وهي تختنق، وتشبّثت بالخزانة، وقال متلعثمة:

- هي من حقّي أنا، أنا أقرب أقربائه إليه، أنتنّ من اللصوص، أتسمعن... قد أرغب في قذف كلّ شيء من النافذة.

وعمّ صمت تبادلن خلاله النظرات المستريبة. كان منديل لاسارييت محلولاً بالكامل، فيكشف صدرها المُفعم بالحياة، وكان فمها رطباً، ومنخراها متورّدين. واغتمّت السيّدة لوكور بشكل إضافيّ إذ رأتها على هذا الجمال والحيويّة.

- اسمعي، قالت لها بصوت مكتوم، لن نتضارب...

- أنت ابنة شقيقته، وسوف أتقاسمها معك، ستأخذ كلّ منّا كومة، كلّ بدورها.

فأبعدتا المرأتين الأخريين. وكانت بائعة الزبدة هي من بدأت، فأخفت كومة من الذهب داخل تنّورتها. ثمّ أخذت لاسارييت كومة بدورها. كانت كلّ منهما تراقب الأخرى وهي على أهبة الاستعداد لضربها على يدها. كانت أصابعهما تمتدّ بانتظام، أصابع بشعة وذات عُقد، وأصابع بيضاء في نعومة الحرير. ملأتا جيوبهما، وعندما لم تبقَ سوى كومة واحدة، لم ترغب المرأة الشابّة في أن تتركها لخالتها، بما أنّها هي التي بدأت. فقسّمتها بين الآنسة ساجيه والسيّدة ليونص التي كانت تراقبهما وهما يحشران الذهب في جيوبهما بتناوب محموم.

- أشكركما، زعقت البوّابة. خمسون فرنكاً لي أنا من كانت تدلّله بالمشروبات الساخنة والمنقوعات! كان يقول إنّه بلا أقارب ذلك الشيخ المتملّق.

وأرادت السيّدة لوكور، قبل أن تغلق الخزانة، أن تتفحّصها من أعلى لأسفل. كانت تحوي كلّ صنوف الكتب السياسية المحظور دخولها إلى البلاد، منشورات بروكسل، والقصص الفضائحية حول بونابرت، والرسوم الهزلية التي تسخر من الإمبراطور. كانت إحدى متَع غافار هي أن يدعو أحد أصدقائه إلى غرفته ويريه هذه الأشياء المشبوهة.

- لقد شدّد على أن أقوم بحرق كلّ الأوراق، علّقت لاساربيت.

- لا نار لدينا، ولا يوجد مُتّسع من الوقت، سيستغرق ذلك زمناً طويلاً... وأنا أشمّ رائحة الشرطة قادمةً. علينا بالفرار.

وغادرن أربعتهنّ. وما كدن يبلغن أسفل الدرج حتّى ظهرت الشرطة. وتوجّب على السيّدة ليونص الصعود مرّة أخرى ومصاحبة هؤلاء الرجال. وهرعت الأخريات شبه راكضات لبلوغ الشارع. كنّ يسرن بسرعة في ما يشبه الطابور. وكانت الخالة وابنة أختها تضايقهما حمولة جيوبهما الممتلئة. ولقد قالت لاساربيت التي كانت تتقدّم الصفّ بضحكتها الرقيقة وهي تصعد رصيف شارع رامبوتو:

- إنّها ترتطم بفخذيّ.

وأطلقت السيّدة لوكور دعابة فاحشة أضحكتهما. كانتا تجدان لذّة في ذلك الحمل الذي يثقل تنانيرهنّ والعالق بها كأيدٍ دافئة تمسّدها. كانت الآنسة ساجيه تحتفظ بالخمسين فرنكاً في قبضتها المضمومة. وظلّت على تجهّمها، تحاول أن تدبّر خطّةً لتسحب شيئاً إضافياً من تلك الجيوب المنتفخة

التي تتبعها. وعندما بلغن زاوية رواق الأسماك:

- انظرا، قالت العجوز، لقد وصلنا في اللحظة المناسبة، فها هو فلورون الذي ستتمّ مداهمته.

كان فلورون عائداً من رحلته الطويلة. وقد ذهب ليبدل معطفه في المكتب، ليستأنف مهامّ عمله اليومية، فيشرف على غسل المنصّات، في جولات متمهّلة في الممرّات. كان يستشعر النظرات تتابعه بشكل خاصّ؛ والسمّاكات يتهامسن عند مروره، ويطرفن بعيونهنّ الماكرة. واعتقد أنّهنّ يحاولن إغاظته مجدّداً. فمنذ فترة وأولئك السمينات البشعات لا يتركنه نهاراً واحداً في سلام. وعندما مرّ أمام منصّة آل ميهودان، فوجئ بسماعه الأمّ تقول له بصوت متلطّف:

- يا سيّد فلورون، هناك شخص ما جاء في طلبك منذ برهة. إنّه رجل في منتصف العمر. ولقد صعد لينتظرك في غرفتك.

كانت السمّاكة العجوز متكوّمة على مقعد، تتذوّق وهي تقول له هذه الكلمات طعم الانتقام الصافي الذي يختلج له جسدها الضخم. نظر فلورون متشكّكاً إلى النورماندية الجميلة، التي كانت قد اصطلحت تماماً مع أمّها، فتظاهرت بأنّها لم تسمع شيئاً، وأخذت تعبث بالصنبور وبأسماكها.

- هل أنتِ متأكّدة؟ سألها.

- متأكّدة تماماً، أليس كذلك يا لويز؟ ردّت العجوز بصوت حادّ.

فكّر أنّه أمر يخصّ الشأن الكبير، وقرّر الصعود. كان بصدد الخروج من الرواق عندما لمح، وهو يلتفت بشكل آليّ، النورماندية الجميلة تتبعه بعينيها وعلى وجهها تعبير جادّ. ومرّ من جوار الثرثارات الثلاث.

- هل لاحظتما، همست الآنسة ساجيه، إنّ حانوت الجزارة خاوٍ. ليزا الجميلة امرأة لا تورّط نفسها.

وقد كان حانوت جزارة الخنزير خاوياً بالفعل. والبيت لا يزال على هيئته الوادعة، هيئة منزل محترم، يدفئ بطنه في ضوء الشمس. وفي الأعلى، كانت شجيرة الرمّان في الشرفة تفتّح كلّ زهورها. وإذ كان فلورون يعبر الطريق، حيّا لوغر والسيّد لوبيغر بإيماءة من رأسه، وقد كانا واقفين يتنسّمان الهواء على عتبة حانة الأخير. فابتسم له السيّدان. كان يهمّ بالدخول في الممرّ الضيق والمعتم، عندما لمح في أقصى ذلك الدهليز الوجه الشاحب لأوغست الذي انسحب مسرعاً. فعاد وألقى نظرة داخل حانوت الجزارة، ليتأكّد من أنّ الرجل الذي في منتصف عمره لم يتوقّف هناك. لكنّه لم يجد سوى القطّ موتون مُضطجعاً على قرمة خشب، يتأملّه بعينيه الصفراوين الواسعتين وشاربيه المنتصبين، شاربَي قطّ في حالة استنفار. وعندما همّ بدخول الممرّ، ظهر وجه ليزا في عمق الحانوت، خلف الستارة الصغيرة لباب زجاجيّ.

وساد في سوق السمك صمت مريب. حبست النسوة ذوات البطون والصدور الضخمة أنفاسهنّ، منتظرات أن يختفي. ثمّ انطلق كلّ شيء، وأُتلِعت الصدور، وانتشت البطون بشماتة شرّيرة. لقد اكتملت المهزلة بنجاح. لم يكن هناك شيء أكثر إمتاعاً. كان جسد مَدام ميهودان يرتجّ تحت تأثير ضحكاتها الصامتة كقربة ممتلئة يتمّ تفريغها. قصّتها حول الرجل الذي هو في منتصف العمر كانت قد انتشرت في السوق بأكملها، وبدت للبائعات في منتهى الطرافة. «أخيراً سيأخذون النحيف الطويل، ولن نرى هنا ثانيةً وجهه الملعون وعينيه المجرمتين». وتمنّين له رحلةً سعيدةً، آملاتٍ في مفتّش جديد وسيم. كنّ يركضن من منصّة إلى أخرى، ويتراقصن حول بسطاتهنّ كفتيات هاربات. كانت النورماندية الجميلة تراقب هذه الفرحة، متصلّبةً،

تخشى أن تتحرّك حتّى لا تجهش بالبكاء، وقد وضعت يدها على سمكة راي كبيرة كي تبرّد الحمى المستعرة داخلها.

- هل تريان نساء آل ميهودان، لقد تخلّين عنه عندما أصبح خاليَ الوفاض؟ قالت السيّدة لوكور.

- هنّ مصيبات، ردّت الآنسة ساجيه. ثمّ، يا عزيزتي، إنّها النهاية، أليس كذلك؟ ينبغي أن نكفّ عن التهام بعضنا بعضاً... أنتما نلتما نصيبكما من السعادة، فاترُكا الأخريات يدبّرن أمورهنّ.

- لا يوجد من يضحك سوى العجائز، عقّبت لاسارييت. لا تبدو النورماندية فرحةً.

وفي تلك الأثناء، في الغرفة، سقط فلورون في أيدي الشرطة كلقمة سائغة. انقضّ عليه رجال الشرطة بعنف، معتقدين أنّه سيقاوم بضراوة. طلب منهم بهدوء أن يتركوه. ثمّ جلس، بينما كانوا يحزمون الأوراق والأوشحة الحمراء والشارات والرايات. بدت تلك الخاتمة غير مفاجئة له؛ لا بل كانت له بمثابة انفراج، دون أن يعترف بوضوح في قرارة نفسه بذلك. لكنّه كان يعاني، لمجرّد التفكير في الكراهية التي قادته للتوّ إلى تلك الغرفة. ورأى وجه أوغست الشاحب من جديد، ووجوه السمّاكات المطرقة، وتذكّر كلام مَدام ميهودان، وصمت النورماندية، وحانوت الجزارة الخاوي؛ وقال لنفسه إنّ سوق ليهال بأسرها كانت متواطئة ضدّه، وإنّ الحيّ بأكمله قد تعاون في تسليمه. ومن حوله تصاعد وحل تلك الشوارع المفعمة دسماً.

وفي وسط تلك الوجوه التي مرّت كومضة في خاطره بزغت فجأةً صورة كونو، فطعنت قلبه وخزة ممضّة من القلق.

- هيّا، اهبط، قال أحد رجال الشرطة بفظاظة.

فنهض، ونزل معهم. وعند الطابق الثالث، طلب منهم أن يصعد ثانيةً، مدّعياً أنّه قد نسي شيئاً ما. فرفض الرجال، ودفعوه. فتوسّل إليهم، لا بل عرض عليهم بعض النقود التي كانت معه. ووافق اثنان على مرافقته إلى الغرفة، متوعّدين إيّاه بتحطيم رأسه إن حاول خداعهما. وأخرجا مسدّسيهما من جيبيهما. وفي الغرفة، توجّه مباشرة نحو قفص طائر الشرشور، وأخذ الطائر، وقبّله بين جناحيه، وأطلق سراحه في الهواء، وراقبه وهو يبتعد في مواجهة قرص الشمس، حتّى حطّ على سقف رواق الأسماك مثل التائه، ثمّ في انطلاقة ثانية اختفى فوق أروقة ليهال من ناحية حديقة لينوسان. بقي لوهلة في مواجهة السماء، السماء الحرّة. وتذكّر فلورون هديل الورشان في تويلري، وحمامات القبو التي ذبحها مارجولان. فتحطّم كلّ شيء في داخله، وسار خلف الشرطيّين اللذين أعادا مسدّسيهما إلى جيبيهما، متعجبّين.

في أسفل السلّم، توقّف فلورون أمام الباب المفضي إلى مطبخ الحانوت. كان المفوّض ينتظره هناك، وقد تأثّر تقريباً باستسلامه ووداعته، فسأله:

- هل تريد أن تودّع أخاك؟

فتردّد للحظة. وأخذ يتطلّع إلى الباب. كان ضجيج الفرّامات والقدور الرهيب يتسرّب من المطبخ. كانت ليزا، كي تبقي زوجها مشغولاً، قد جعلته ينهمك طيلة النهار في حشو المسوَّد الذي لا يصنعه عادةً إلّا في الليل. كان البصل يفرقع صادحاً على النار. وسمع فلورون صوت أخيه الفرح وهو يطغى على ذلك الصخب، قائلاً:

- آه، يا للّعنة! سيكون المسوَّد طيّباً... هاتِ الدهن يا أوغست.

وشكر فلورون المفوّض، متخوّفاً من الدخول إلى ذلك المطبخ الساخن العبق برائحة البصل المطهوّ. وتجاوز الباب، سعيداً لاعتقاده أنّ أخاه لا يعرف

شيئاً، متعجّل الخُطى ليتجنّب أيّ زفرة أسى في الحانوت. ولكن عندما تلقّى على وجهه شمس الشارع القويّة، شعر بالخزي، فركب العربة، محنيّ الظهر وبوجه مكفهرّ. وشعر بسوق السمك تنتصب أمامه مُنتصرةً، وبدا له أنّ كلّ أهل الحيّ قد تجمّعوا هناك ليتشفّوا منه.

- يا لوجهه الملعون! قالت الآنسة ساجيه.

- إنّه وجه مجرم عتيد قُبض عليه متلبّساً بجرمه، أضافت السيّدة لوكور.

- أمّا أنا، قالت لاساربيت وهي تظهر أسنانها البيض، فقد رأيتهم يعدمون على المقصلة رجلاً له نفس السحنة بالضبط.

كنّ قد اقتربن ومددن رؤوسهنّ ليرين ما بداخل العربة. وفي اللحظة التي تحرّكت فيها المركبة، جذبت العانس العجوز تنورتَي المرأتين الأخريين لتنبّههما إلى كلير القادمة من شارع بيرويت، مهتاجةً، محلولة الشعر، وأظافرها ينزّ منها الدم. كانت قد نجحت في خلع الباب. وعندما فطنت إلى أنّها قد وصلت متأخّرةً، وإلى أنّهم قد اقتادوا فلورون، قذفت نفسها خلف العربة، ثمّ توقّفت في التوّ، وبإيماءة من الغضب العاجز لوّحت بقبضتها لعجلات العربة المنطلقة. ثمّ أقفلت عائدةً إلى شارع بيرويت جرياً، وقد تضرّج وجهها بحمرة غاضبة تحت غبار الجصّ الناعم الذي يغطّيها.

- هل كان قد وعدها بالزواج؟ صاحت لاساربيت ضاحكةً. تبدو مجنونة، هذه البهيمة الكبيرة.

ثمّ غمر الهدوء الحيّ. ظلّت مجموعات تتحدّث عن أحداث ذلك النهار حتّى موعد إغلاق الأروقة. وكانوا يتطلّعون بفضول إلى حانوت جزارة الخنزير. وتحاشت ليزا الظهور تاركةً أوغستين خلف منضدة البيع. وبعد الظهر فكرت أنّها لا بدّ أن تحكي كلّ شيء لكونو، خشية أن يصله الكلام

بفظاظة من أيّ ثرثارة أخرى. فانتظرت أن تنفرد به في المطبخ، مدركةً أنّه كان مستمتعاً هناك، وقد يبكي أقلّ. فسبقت كلامها ببعض المداعبات الأمومية. ولكن عندما عرف الحقيقة، سقط على لوح الفرم وانهمرت دموعه بغزارة.

- يا صغيري المسكين، لا تبتئس هكذا، سوف تؤذي نفسك، قالت له ليزا وهي تحتضنه بين ذراعيها.

وسالت دموعه على صدريّتها البيضاء. كانت تجتاح كيانه الهامد دوّامات من الألم. فتهاوى متكوّماً. وعندما استطاع أخيراً الكلام:

- لا، أنتِ لا تعرفين كيف كان طيّباً معي حينما كنّا نسكن شارع روايبه كولار. كان هو من ينظّف البيت، ويصنع الطعام... كان يحبّني كابن له، يعود مغبّر الوجه منهكاً حتّى إنّه قد لا يقوى على الحراك؛ وأنا كنت آكل جيّداً، منعِماً بالدفء في المنزل، وها أنّهم سيطلقون عليه النار.

فصاحت ليزا قائلةً إنّهم لن يطلقوا عليه النار. لكنه هزّ رأسه وواصل:

- لا يهمّ، فأنا لم أحبّه بالقدر الكافي. أستطيع أن أقول ذلك الآن بصراحة. كنت متوجّساً منه، وكنت متردّداً في إعطائه نصيبه من الميراث.

- آه، لقد عرضته عليه أكثر من عشر مرّات، صاحت ليزا. لا ملام علينا.

- أنا أعرف أنّك طيّبة، وأنّك كنت ستعطينه كلّ شيء، وهو ما لم يكن يروقني! سيكون ذلك حزن حياتي. سأظلّ أعتقد أنّي لو كنت تقاسمت معه المال لما عاد إلى سلوكه الشرّير ثانيةً... إنّه خطأي، أنا من قام بتسليمه.

ترقّقت معه أكثر وقالت له ألّا يعذّب نفسه أكثر من ذلك. لا بل أمعنت

في لوم فلورون قائلةً إنّه كان مذنباً للغاية، وأنّه لو حاز نقوداً أكثر فلربّما كان ارتكب حماقات أكثر. وشيئاً فشيئاً أقنعته بأنّ الأمور ما كانت لتنتهي على نحو آخر، وأنّ الجميع سيشعرون بالارتياح لذلك. وواصل كونو بكاءه وهو يمسح دموعه بطرف صدريّته، كاتماً نحيبه ليستمع إليها، ثمّ تنفجر دموعه مرّةً أخرى بغزارة أكبر. كان قد وضع يده دون أن يشعر في كومة من اللحم المفروم للنقانق كانت موجودةً على لوح الفرم؛ كان يصنع داخلها ثقوباً، ويعجنها بعنف.

- هل تذكر، لم تكن تشعر بالاطمئنان، واصلت ليزا. لأنّ عاداتنا قد اختلّت. كنت متوجّسة للغاية، دون أن أخبرك. وكنت أرى بوضوح أنّك تتدهور.

- أليس كذلك؟ همس إذ توقّف برهة عن النحيب.

- حتّى تجارتنا لم تسر على ما يرام في هذه السنة. كان ذلك مثل قرار من القدر. هيّا، توقّف عن البكاء، سترى كيف سيعود كلّ شيء إلى وضعه. فوق ذلك يجب أن تحافظ على نفسك من أجلي ومن أجل ابنتك. لديك واجبات نحونا يجب أن تفي بها.

هدأت قليلاً حركة عجنه للحم النقانق. واجتاحت وجدانه مشاعر رقيقة حتّى أنّ ابتسامة خفيفة قد ارتسمت على وجهه المحزون. وشعرت به ليزا قد اقتنع. فنادت بسرعة على بولين التي كانت تلعب في الحانوت، وأجلستها على ركبتيها وقالت لها:

- يا بولين، يجب أن يكون أبوك حصيفاً، أليس كذلك؟ اطلبي منه بلطفٍ ألّا يتسبّب لنا بأذى.

وطلبت الطفلة من أبيها ذلك بلطف. تبادلوا جميعاً النظر وقد احتواهم

عناق واحد، هائل وفيّاض، يخامرهم الشعور بالتعافي من تلك السنة العصيبة التي لم يفارقوها بعدُ تماماً، وابتسمت وجوههم الممتلئة المستديرة فيما تردّد الجزّارة:

- في النهاية يا عزيزي، لم يبقَ سوانا نحن الثلاثة، نحن الثلاثة.

بعد ذلك بشهرين حُكِمَ على فلورون بالنفي خارج البلاد مرّةً أخرى. وقد أحدثت القضية ضجّة عارمة. ونشرت الصحف كلّ تفاصيلها مع صور المتّهمين، ورسوم للرايات والأوشحة، ومواقع الأماكن التي كانت تجتمع فيها العصابة. وخلال أسبوعين لم يكن هناك موضوع في باريس غير مؤامرة ليهال. وقد أطلقت الشرطة مذكّرات مثيرة للقلق بشكل كبير، حتّى أنّهم قالوا إنّ كلّ حيّ مونمارتر كان مُلغّماً. وفي الهيئة التشريعيّة حصل هياج كبير حتّى أنّ أعضاء الوسط واليمين نسوا قانون الأوقاف غير الملائم الذي كان قد أحدث انقساماً بينهم منذ فترة قصيرة، فتصالحوا، وصوّتوا بأغلبية ساحقة على مشروع الضرائب المجحفة، وهو ما لا يستطيع حتّى أثرياء الضواحي أن يتشكّوا منه، في خضمّ الرعب الذي يجتاح المدينة. وقد استمرّت المحاكمة أسبوعاً كاملاً. وفوجئ فلورون بعمق من عدد الأشخاص المتورّطين الذين تمّ الزجّ بهم. كان يعرف نحو ستّة أو سبعة على الأكثر من العشرين شخصاً ونيّف، الجالسين على مقاعد المتّهمين. وبعد قراءة قرار الاتّهام، اعتقد أنّه رأى قبّعة روبين البريء وظهره وهو يبتعد ببطء وسط الزحام. تمّت تبرئة لوغر، وكذلك لاكاي. وحُكِم على ألكساندر بالسجن عامين لتورّطه بصفته قاصراً في الأحداث. أمّا غافار فقد حُكم عليه مثل فلورون بالنفي خارج البلاد. كانت تلك ضربة أطاحت به وهو في ذروة استمتاعه بانتصاره في الجدالات الطويلة التي خاضها. لقد دفع ثمناً باهظاً لقريحته المناوئة لصاحب متجر باريسيّ مناوئ. وسالت دمعتان كبيرتان على وجهه المرتعب، وجه صبيّ أشيب.

وذات صباح من أغسطس، في وسط استيقاظ ليهال، كان كلود لانتييه يتسكّع أثناء وصول شحنات الخضروات بحزامه الأحمر يزنّر وسطه، وصافح السيّدة فرانسوا عند زاوية شارع سانت أوستاش. كانت هناك، بوجهها الكبير الحزين جالسةً على أكوام اللّفت والجزر التي لها. ظلّ الرسّام مغتمّاً على الرغم من الشمس المشرقة التي كانت تضفي مسحة من الرقّة على جبال الكرنب الخضراء المخمليّة.

- حسناً! هذه هي النهاية، قال. سيرسلونه إلى هناك... أعتقد أنّهم رحّلوه بالفعل إلى ميناء بريست.

كان الألم يعتصر تاجرة الخضروات. حرّكت يديها طويلاً حولها، وهمست بصوت مكتوم:

- إنّها باريس، إنّها باريس النذلة.

- لا، أنا أعرف من هم، إنّهم أولئك البؤساء، قال كلود وهو يكوّر قبضته. هل تتخيّلين يا سيّدة فرانسوا، لم يتركوا أدنى سخافة إلّا وقالوها في المحكمة... ولم يتخلّوا حتّى عن التنقيب في دفاتر الفروض الدراسية لطفل! ذلك الأحمق الكبير ممثّل الادّعاء صنع منها قصّة، احترام الطفولة تارةً، وتارة أخرى التعليم الغوغائيّ... لقد أسقمني كلّ ذلك.

وانتابته رعشة عصبيّة؛ فواصل وهو يشدّ معطفه الأخضر الحائل اللّون حول كتفيه:

- إنّه رقيق مثل فتاة، لقد رأيته يجزع لمرأى حمامات تُذبَح. إنّ مرآه محاطاً باثنين من العسكر قد جعلني أضحك من الشفقة. هيّا، لن نراه ثانيةً، سيبقى هناك هذه المرّة.

- كان عليه أن ينصت لما قلته له، قالت تاجرة الخضروات بعد برهة صمت، أن يجيء إلى نانتير ويعيش وسط دجاجاتي وأرانبي... لقد أحببته كثيراً، لأنّي كما تعلم أدركت طيبة قلبه. كنا سنسعد معاً ربّما... يا له من حزن عظيم... لنعزِّ أنفسنا يا سيّد كلود. سوف أنتظرك لنأكل معاً العجّة في أحد الصباحات.

كانت الدموع تترقرق في عينيها، ونهضت كامرأة باسلة تحتمل الألم بجَلَد.

- انظروا! قالت. ها هي مَدام شانتميس قادمة لتشتري منّي اللّفت. إنّها دائماً نشيطة، تلك السيّدة السمينة مَدام شانتميس...

وذهب كلود ليجول على الرصيف. كان النهار، في حزَم بيضاء، قد بزغ من نهاية شارع رامبوتو. والشمس تُرسل أشعّة ورديّة على قمم الأسقف، وتسقط مساحات الضوء لتطال الأرض. وشعر كلود بيقظة بهيجة تتردّد أصداؤها داخل الأروقة، وفي طول الحيّ الممتلئ بالأطعمة المتكدّسة. كان ذلك أشبه ببهجة النقاهة، ضجيج أناس تمّ شفاؤهم وتحرّرهم من حمل كان يثقل على مِعَدهم. ورأى لاساربيت ترتدي ساعةً ذهبية، تغنّي وسط برقوقها وفراولتها، وتداعب الشارب الصغير للسيّد جول الذي يرتدي حلّة مخمليّة. ولمح السيّدة لوكور والآنسة ساجيه تمرّان في أحد الشوارع المسقوفة، وقد صارتا أقلّ شحوباً، بوجناتهما وقد تورّدت تقريباً، بصفتهما صديقتين حميمتين تستمتعان بالحديث. وفي سوق السمك، كانت ميهودان الأمّ، التي استعادت منصّتها، ترصّ أسماكها، وتتشاجر مع الخلق أجمعين، وتفحم المفتّش الجديد، وهو رجل شابّ كانت قد أقسمت أن تذيقه ألوان العذاب؛ فيما أضحت كلير أكثر رخاوة وكسلاً، تجلب بيديها المزرقّتين من مياه الأحواض كومة هائلة من الحلازين يسيل منها لعابها مانحاً إيّاها ما يشبه لمعان أسلاكٍ فضّة. وفي سوق الكراعين والكروش، كان أوغست وأوغستين قد جاءا ليشتريا

أكارع الخنزير بمظهرهما اللطيف لاثنين متزوّجين حديثاً، ثمّ غادرا في عربة إلى حانوتهما الذي افتتحاه في حيّ مونروج. وإذ كان الطقس لا يزال دافئاً في الثامنة صباحاً، وجد، لدى عودته إلى شارع رامبوتو، موش وبولين يلعبان لعبة الحصان. كان موش منكفئاً يسير على أربع وبولين قد اعتلت ظهره، متشبثةً بشعره كي لا تسقط. وعلى سقف الأروقة بجوار الميازيب، مرّ خيال جعله يلتفت إلى أعلى، وقد كان هو خيال كادين ومارجولان يضحكان ويتبادلان القبل، ويحترقان في الشمس متسيّدين على الحيّ بغرامهما، غرام حيوانين سعيدين.

شهر كلود قبضته للجميع. كان حانقاً على هذا الاحتفال في الأعلى وفي الأسفل. وألقى لعناته على السِّمان. وقال إنّ السِّمان قد انتصروا. حولَه لم يعد يرى سوى أناس سِمان، كاملي الاستدارة، يتفجّرون بالصحّة، ويستقبلون يوماً جديداً من الهضم المنتظم. وإذ توقّف في مواجهة شارع بيرويت، أصابه المشهد الذي رآه على يمينه ويساره بالضربة الأخيرة.

فعلى يمينه، كانت النورماندية الجميلة، أو السيّدة لوبيغر كما صار اسمها الآن، واقفةً على عتبة حانوتها. وكان زوجها قد ألحق بحانته متجراً صغيراً لبيع التبغ، وهو حلم طالما راوده وقد نجح أخيراً في تحقيقه بفضل خدمات جليلة كان قد أسداها. وبدت له السيّدة لوبيغر الجميلة رائعةً في ثوبها الحريريّ، وشعرها المصفّف، وعلى أهبة الاستعداد للجلوس خلف منضدة البيع، حيث يأتي إليها كلّ سادة الحيّ ليشتروا علب السيكار والتبغ. كانت قد صارت امرأةً مرموقةً، سيّدة بكلّ معنى الكلمة. وخلفها صالة المشرب وقد أُعيد طلاؤها، بزخارف على هيئة كروم نضرة على خلفية فاتحة؛ وكان زنك منضدة الشرب يبرق؛ فيما تتلألأ زجاجات المشروبات الروحية في المرآة بوهج مشعّ. كانت تضحك للصباح المشرق.

وعلى يساره، ليزا الجميلة على عتبة حانوتها تحتلّ كامل مساحة الباب، في ملابس لم تكن بهذه النصاعة من قبل. لم يكن جسدها المُسترخي ووجهها المتورّد مؤطّرين يوماً بمثل هذه العصائب الملساء. كانت تُبدي شبعاً هادئاً، وسكينةً عظيمة، لا يعكّر صفوها أيّ شيء، ولا حتّى ابتسامة. كان ذلك سلاماً مطلقاً، وهناءة كاملة، بلا تنغيص، وبلا حياة، تطفو في الهواء الدافئ. صدارها الضيق لا يزال يهضم سعادة الليلة الفائتة؛ ويداها السمينتان ضائعتان في الصدريّة، لا تمتدّان حتّى لالتقاط سعادة الصباح، واثقتان من أنّها ستأتي هي إليهما. وإلى جانبها كانت المعروضات في نعيم مماثل؛ كانت قد تماثلت للشفاء، تتمدّد الألسن المحشوّة أكثر احمراراً وطزاجة، واستعاد لحم أفخاذ الخنزير شكله الأصفر الطيّب، وعناقيد النقانق لم يعد لها ذلك الطابع المُحبِط الذي كان يُحزن كونو. ومن المطبخ تتردّد ضحكة عالية مصحوبة بالصليل المبتهج للأواني. كان حانوت الجزارة ينضح مرّةً أخرى بالصحّة، صحّة سمينة. كانت شرائط الشّحم وأنصاف الخنازير المعلّقة على الرخام تضفي استدارات كاستدارات البطن، في انتصارٍ للبطن شامل، بينما ليزا الراسخة بكتفيها الواثقتين تُلقي على ليهال تحيّة الصباح بعينيها الواسعتين، عينَي امرأة أكول.

ثمّ مالت الاثنتان. السيّدة لوبيغر الجميلة، والسيّدة كونو الجميلة وتبادلتا تحيّة مودّة.

وكلود الذي بات بالتأكيد دون عشاء، استشاط غضباً لرؤيتهما في أفضل حال، ممتلئتين بالصحّة بأثدائهما الضخمة، فشدّ حزامه حول خصره، وهو يزعق بصوت غاضب:

- آه يا للشّرفاء من أنذال!

نبذة عن المؤلف

وُلد إميل زولا في إكس أون بروفنس في جنوب فرنسا عام 1840 لأب إيطاليّ وانتقل إلى باريس في سنّ العشرين، وبدأ بكتابة محاولات شعريّة ثمّ اشتغل في الصحافة والنشر. وبعد كتابات قصصية وروائية متأثّرة بالرومنطيقيّة طرح في روايته تيريز راكان (1867) أُسُس ما شكّل بعد فترةٍ التيّار الطّبيعيّ في الرّواية الفرنسيّة. ومع صدور هذه الرواية بدأت تختمر في ذهنه فكرة رسم لوحة سرديّة واسعة للمجتمع المعاصر تحت العنوان الجامع آل روغون ماكار. بدأ بكتابتها في 1870 وتقدّم في إنجازها بمعدّل رواية كلّ عام. وبانتهاء المجلّد العشرين بعد 25 سنة من العمل الدّؤوب، شكّلت السلسلة، حسب عنوانها الثّانويّ، «تاريخاً طبيعيّاً واجتماعيّاً لأسرة إبّان العهد الإمبراطوري الثّاني». وتميّزت سنيّه الأخيرة بانخراطه الشّجاع في قضيّة دريفوس الشّهيرة، فتعرّض إلى ملاحقات من القضاء واليمين الفرنسيّين وتلقّى حكماً بالسّجن اضطرّه إلى الهرب والعيش منفيّاً في لندن عاماً كاملاً حتّى أُعفيَ عنه. وبعد عودته بسنوات قليلة توفّي في ليلة 28 - 29 ديسمبر 1902 في اختناقٍ مشبوه سببه تسرّب الغاز في منزله، وهو ما يُعزى إلى قيام بعض خصومه في قضيّة دريفوس بسدّ مدخنة شقّته الصّغيرة في باريس.

نبذة عن المترجم

ياسر عبد اللطيف كاتب وشاعر ومترجم مصري، تخرّج في قسم الفلسفة في جامعة القاهرة عام 1994، وعمل في الصحافة التلفزيونية والخبرية، ويقيم منذ عام 2010 في مدينة إدمنتون في كندا. أصدر عدّة مجموعات شعرية من بينها «ناس وأحجار» وقصائد العطلة الطويلة»، ومن أعماله في السّرد رواية «قانون الوراثة» الحاصلة على جائزة ساويرس الأولى للكتّاب الشّباب عام 2005، والمجموعة القصصية «يونس فى أحشاء الحوت»، التى نالت نفس الجائزة في فرع الكتّاب الكبار فى عام 2013. وترجم ياسر عبد اللطيف عدداً من الأعمال الأدبية عن الفرنسية والإنجليزية، أحدثها «المخلص دوماً فنسنت - الجواهر من رسائل فان كوخ»، وسبق أن أصدر له مشروع «كلمة» ترجمة «حكايات أمّي الإوزّة» للفرنسيّ شارل بيرو، راجعها كاظم جهاد.

بطن باريس
روايــة

كان البلاط قد أصبح زلقاً على الرغم من جفاف الطقس؛ أكوام من سيقان الأرضيّ-الشوكيّ، وأوراق الخضار كانت تجعل الطريق محفوفاً بالمخاطر. كان يتحسّــس كلّ خطوة قبــل أن يخطوها. وضاع منه لاكاي في شــارع فوفيلييه. ومن ليهال حتّى أروقة القمح، كانت أطراف الشــارع تتمترس بحواجز جديدة من العربات. فقرّر الإحجام عن المقاومة، لقد اســتعادته ســوق ليهال، وجرفه التيّــار مرّةً أخرى. وصل ببطء، ووجد نفســه عند ناصية شارع سانت أوستاش.

ثمّ راح يستمع لصوت المسيرة الطويلة التي تنطلق من ليهال. باريس تهيّئ اللّقيمات لمليونَي نســمة هُم ســكّانها. كان ذلك كمثْــلِ قلبٍ هائلٍ ينبض بشــكل مخيف، ويضخّ دم الحياة في كلّ الشرايين. جعجعة فكّين عملاقين، ضجيج تحدثه جلبــة التزوّد بالمؤن، من ضربات ســياط البائعين بالجُملة، المنطلقين نحو الأســواق الصغيرة في الأحياء حتّى دبيب خِفاف السيّدات الفقيرات اللّائي يمررن من بابٍ إلى بابٍ يعرضن الخضروات في سلال.

السعر 140 درهماً

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA

أبوظبي
Abu Dhabi
Culture & Tourism

9 789948 371823